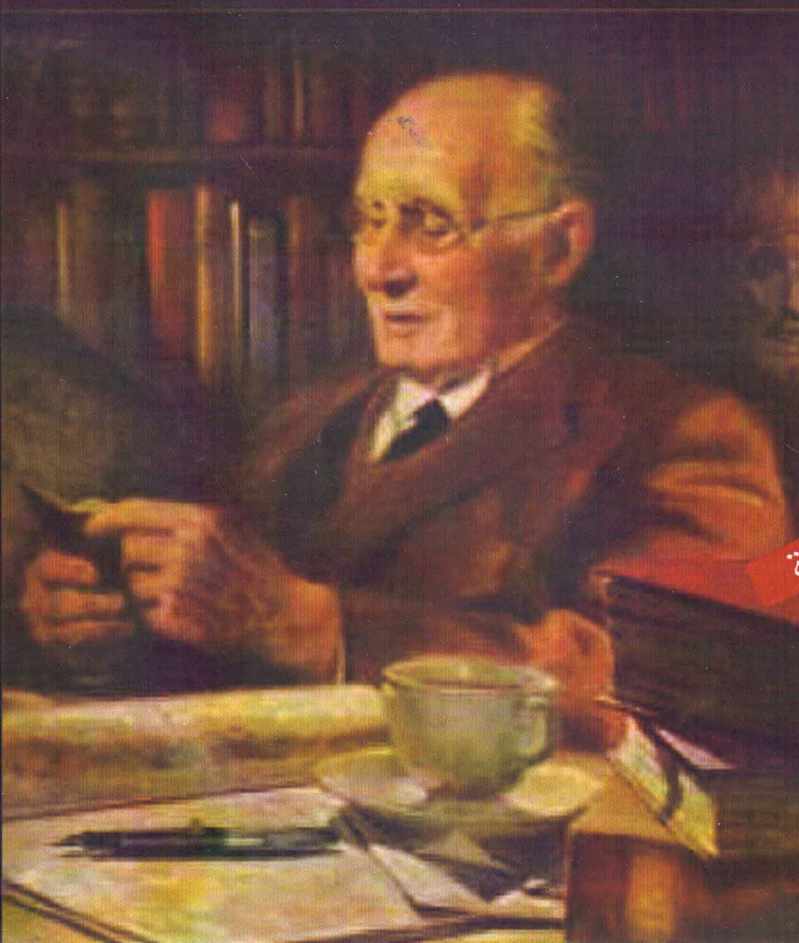


محاورات ألفرد نورث هوابتره

تأليف: لوسيان برايس
ترجمة: محمود محمود
تقديم: زكي نجيب محمود

تقديم هذه الطبعة
محمد أحمد السيد



مبشرات الترجمة

2131

تتألف محاورات هوايته من ثلاثة وأربعين حديثا دارت في بيته بينه وبين طلابه وأصدقائه في الأمسيات التي كان يخصصها لمثل تلك الاجتماعات، وهو أستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة. وكان من هؤلاء الأصدقاء صحفى أديب هو "لوسيان برايس"، فكان - بحكم حرفة الصحافة - يسجل لنفسه تلك الأحاديث كما كانت تقع، حتى اجتمعت له منها مجموعة، فاختار منها ثلاثة وأربعين حديثا، أولها حديث السادس من أبريل عام 1934، وآخرها حديث الحادى عشر من نوفمبر عام 1947.

ولقد شهد هوايته في مواضع كثيرة بما هو مدين به في حياته الفكرية لمحاوراته مع أصدقائه، فمما قاله في ذلك أن الشطر الأعظم من نموه العقلى قد جاءه من جيد الحديث، وكثيرا ما أسعفه الحظ في أن يهيئ له المحدث الممتاز، وكذلك يقول في موضع آخر إنه يؤمن إيمانا شديدا بقيمة المحاوراة والمحادثة في التثقيف، حتى ليعترف بأن ما كسبه منها لا يقل عما كسبه من الكتب، وفي هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء، صورة لهذا المحدث البارع في حديثه المنساب، في بيته وبين أصدقائه.

محاورات
ألفرد نورث هوائتهد

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2131
- محاورات ألفريد نورث هوايتهد
- لوسيان برايس
- محمود محمود
- زكى نجيب محمود
- محمد أحمد السيد
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Dialogues of Alfred North Whitehead

Recorded by: Lucien Price

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

محاورات ألفرد نورث هوايته

تأليف: لوسيان برايس

ترجمة: محمود محمود

تقديم: زكي نجيب محمود

تقديم هذه الطبعة

محمد أحمد السيد



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

برائس، لوسيان
محاورات ألفريد نورث هوبز/ تأليف: لوسيان برائس، ترجمة:
محمود محمود، تقديم: زكي نجيب محمود، مقدمة: محمد أحمد السيد
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٩٦ ص، ٢٤ سم
١ - الفلسفة اليونانية
(أ) محمود، محمود (مترجم)
(ب) محمود، زكي نجيب (مقدم)
(ج) السيد، محمد أحمد (مقدم مشارك)
(د) العنوان
١٨٢

رقم الإيداع: ٢٠٨٧٣ / ٢٠١٢
التزقيم الدولي: ١ - ١٣٤ - ٧١٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للغارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المشتركون في هذا الكتاب

مسجل المحاورات

لوسيان پرابس : ولد في مدينة كنت بولاية أوهايو وتلقى تعليمه في أكاديمية وسترن ريزيرف . تخرج بمرتبة الشرف الأولى من جامعة هارفارد سنة ١٩٠٧ ، وهو عضو في جمعية « في بيتا كابا » والتحق بهيئة تحرير مجلة « ترانسكربت » التي تصدر في بوسطن . ومنذ سنة ١٩١٤ وهو يعمل محرراً بمجلة جلوب Globe التي تصدر في بوسطن . وهو عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم . نال ثقافة واسعة في الموسيقى ، والدrama ، والفلسفة الإغريقية ، والتاريخ القديم والحديث ، والآداب ، وأهله النظام الذي يسير عليه العمل في الصحافة لكتابة هذا الكتاب .

المترجم

الأستاذ محمود محمود : مدير عام تفتيش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم . حصل على درجة اللسانس في التربية والآداب سنة ١٩٣٠ ثم على دبلوم في الأدب الإنجليزي من جامعة اكستر سنة ١٩٣٧ ، اشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية في مختلف المعاهد الثانوية والعليا والكلية الجامعية ، ثم عين وكيلا بالمدارس الثانوية ، ثم ناظراً لها ، ثم مراقباً عاما للتعليم بوزارة التربية والتعليم . ثم مستشاراً ثقافياً لوزارة الدولة لشئون السودان ، ثم مديراً للتربية والتعليم المصري بالسودان ثم مديراً للمكتب الدائم للوحدة الثقافية العربية بالقاهرة ، ثم مديراً للتربية والتعليم بمنطقة السويس ، ثم مديراً عاما لتفتيش اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم .

نشرت له عدة مقالات أدبية في مجلتي الثقافة والرسالة وغيرها من المجلات .
آلف كتباً كثيرة من بينها « تحليل النفس » و « أعلام العصر الحديث » ،
كما ترجم عدة كتب من بينها « سقراط » و « زوجة كريج » وهما من الكتب
التي نشرتها المؤسسة .

صاحب المقدمه

الدكتور زكي نجيب محمود : أستاذ المنطق ومناهج البحث بكلية الآداب
بجامعة القاهرة ، وهو حاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن .
مؤلف لعدد كبير من الكتب في الفلسفة وفي النقد الأدبي . من أهم مؤلفاته
في الفلسفة « المنطق الوضحي » و « خرافة الميتافيزيقا » و « نحو فلسفة علمية »
و « حياة الفكر في العالم الجديد » الذي أصدرته هذه المؤسسة . ومن مؤلفاته
في تاريخ الأدب ونقده « فنون الأدب » و « قصة الأدب في العالم » . وقد ترجم
كتاب « المنطق » لـ جون ديوى وهو من الكتب التي أصدرتها المؤسسة .
نال جائزة الدولة التشجيعية لسنة ١٩٦٠ .

محتويات الكتاب

صفحة

١	مقدمة بقلم الدكتور زكي نجيب محمود
٢٧	فأتحفة
٤٩	المحاورات الثلاث والأربعون
٢٨٦	خاتمة

مقدمة

بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

عملية الفكر تفحل - آخر الأمر - إلى وحدات أولية بسيطة ، قوام الوحدة الواحدة منها سؤال وجواب ، وقد يكون الشخص الواحد - إذ يفكر لنفسه - سائلا وجيبا في آن مما ، فهو الذي يلقى السؤال على نفسه ، وهو الذي يحاول الجواب ، وقد يكون السائل شخصا والجيب شخصا آخر ، فلا فرق بين هاتين الحالتين في الجوهر والأساس ، ففي كليهما « محاوراة » هي أسُّ الفكر ولبانه ، فالفكرة الواحدة بالغة ما بلغت من البساطة كان يستحيل عليها أن تنشأ في ذهن صاحبها ، ما لم يكن صاحبها هذا قد وقف من الأمر موقف التساؤل ، سواء أخرج سؤاله في صياغة لفظية صريحة ، أم لبث مستكنا يظهر في « الوقفة » وفي « النظرة » إن لم يظهر في اللفظ المسموع ، قل لنفسك « إن الشمس طالعة » أو « إن السماء غائمة » يكن هذا القول جوابا منك عن سؤال أضمرته : « كيف حالة الجو الآن ؟ » .

أساس الفكر حوار ، ولقد عبر الإنسان عن نفسه محدثا ومحاورا قبل أن يعبر عن نفسه كاتباً ، بمشرات الآلاف من السنين ، فهما بلغ تاريخ الكتابة من القدم ، فقد سبقها الكلام ، لا ، بل إنه محال على الكتابة أن تقاس إلى الكلام في التعبير عما تضطرب به النفس من مشاعر وما يدور في الرأس من خواطر ، فأنت تعرف الشخص من حديثه أكثر جدا مما تعرفه من كتابته ، ذلك بالطبع إن أرسل كلامه على سجيته ، ولا عجب أن قال سقراط إلى جليس له ذات مرة إذ رآه صامتا : كمنى لسكى أراك .

ولعل الحديث لم يبلغ أوجه إلا على لسان سقراط ، ذلك المحدث العظيم الذي كان أول من سجل تاريخ الآداب مثلاً للحديث يكون فنا ولا يكون لغواً ،

نعم فنن الحديث له علامته وشروطه كآى فن آخر ؛ فهو فن إذا خرج منه المتحدثان أخصب فكرا وأسفى نفسا وأرجب أفقا وأغزر شعورا ، إن الواحد منا ليجس أحيانا كأنما يريد أن يقول شيئا ولا يعرف كيف يقوله ، فالفكرة هتدئذ تكون كأنما هى الجنين الذى لم يكتمل خلقا ، أو كأنما هى النسمة المبعثرة تتسرى فى كيانه ولم تجتمع أطرافها بعد لتسلك سبيلها إلى اللسان والشفة فى ألفاظ مرتبة فى أنفاس معبرة ، فالحديث فن إذا ترجم لصاحبه عن شعوره ترجمة تحيل ذلك الشعور عقلا ، أعنى أنها تحيله شيئا فشيئا مفهوما لسامعه ، ترى ماذا كانت تعنى الطبيعة وكيف كانت تكون آثار الفن إذا لم تجد هذه وتلك من فى مقدوره أن يتأثر بها ثم يفصح لنا عما تأثر به فى كلام بليغ نفهمه فنفهم به الطبيعة والن جميعا ؟ ترى كيف كانت تكون حالة الموم نفسها إذا لم يكن بين العلماء أحداث ، فهذا يسأل وذلك يجيب ، وهذا يعترض وذلك يشرح ويوضح ؟ ترى هل كانت تقوم للجماعة قائمة بغير حديث يربط أفرادها كأنما هو الخيوط يشد بعضهم إلى بعض ؟ .

وأعجب العجب أن يكون للحديث الفنى هذا الخطر البالغ ، ثم لا يفسح له تاريخ الأدب مكانا ملحوظا بين سائر صوره ، فقل أن نجد فى شتى اللغات أحداث مسجلة كما وقمت . ومن الأمثلة القليلة التى ترد على الذهن مآورات أفلاطون التى تعد آية فى طلاوة فنها وغزارة فكرها ، لكنها إن بدت فى ظاهرها حديثا تلقائيا بين المتحاورين فهى فى حقيقتها مسيرة ملجمة لتبلغ كل محاورة منها هدفها المقصود ، فبرغم ما قد ورد على لسان سقراط فى إحدى المآورات وهو يخاطب محاوريه قائلا : فلتتبع الحديث إلى حيث يسوقنا ، إلا أن فيلسوفنا لم تنب عنه أهدافه أبدا ، وبهذا جاءت المآورات الأفلاطونية فى صورة الحديث ، لكنها تخلو من خصائص الحديث العابر للنساب .

ومن الأحداث المسجلة فى تاريخ الأدب كذلك ، حديث « جونسن » كما صوره مرافقه « بوزول » وكذلك حديث « جيته » كما سجله « اكرمان » ،

وعندنا في الأدب العربي أمثلة أقربها شبيها إلى المحاورات التي نحن الآن بصدد تقديمها إلى القراء . هي أحاديث أبي حيان التوحيدي التي جمعت في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، وهو من ثلاثة أجزاء . وهنا نقف وقفة قصيرة نقارن فيها بين الرجلين .

تتألف محاورات هوابتهد من ثلاثة وأربعين حديثا دارت في بيته بينه وبين طلابه وأصدقائه في الأمسيات التي كان يخصصها لمثل تلك الاجتماعات وهو أستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، وكان من هؤلاء الأصدقاء صحفى أديب هو « لوسيان برايس » فكان - بحكم حرفة الصحافة - يسجل لنفسه تلك الأحاديث كما كانت تقع حتى اجتمعت له منها مجموعة ، فاختر منها ثلاثة وأربعين حديثا ، أولها حديث السادس من إبريل عام ١٩٣٤ ، وآخرها حديث الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٤٧ (مات هوابتهد في الثلاثين من ديسمبر عام ١٩٤٧ وهو في السابعة والثمانين من عمره) .

وتتألف أحاديث أبي حيان التوحيدي الواردة في كتابه الإمتاع والمؤانسة من سبعة وثلاثين حديثا ، وقع كل منها في ليلة ساحرة من الليالي التي قضاه في حضرة الوزير أبي عبد الله العارض ، وقصة ذلك اللقاء هي أن أبا الوفاء المهندس - وهو من الأئمة المشهورين في علم الهندسة - كان صديقا لأبي حيان وصديقا للوزير أبي عبد الله العارض ، فحضر أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ، ووصله به ومدحه عنده ، حتى جعل الوزير أبا حيان من سمائه ، فسأمره سبعا وثلاثين ليلة ، كان الوزير يطرح عليه أسئلة في شتى الموضوعات فيجيب عنها أبو حيان ، ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث ، فأجابه أبو حيان إلى طلبه ، ودون كل ما دار بينه وبين الوزير في تلك الأماسى السامرة . فكان من ذلك كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

فأبو حيان في إجاباته الباهرة الرائعة عن أسئلة الوزير ، هو هوابتهد في

إجاباته الباردة الرائجة عن أسئلة طلابه وأصدقائه ، وأبو الوفاء المهندس الذى كان له فضل تسجيل تلك الأحاديث . هو لوسيان برايس الذى كان له فضل تسجيل محاورات هوبز ، والحديث فى كلتا الحالتين مكتوب من الذاكرة بعد أوان حدوثه ، والوزير فى قصة أبى حيان يقابله المجتمع المثقف فى قصة هوبز ، وقصر الوزير الذى دارت فيه تلك الأحاديث فى القرن الحادى عشر الميلادى ، يقابله مسكن متواضع من أربع حجرات لهوبز ، هو الذى جمع الأصدقاء وشهد الحوار فى القرن العشرين .

والطريقة فى الكتابين واحدة ؛ فى حالة أبى حيان كان الوزير أحيانا يمد سؤالا يلقيه ويترك أبا حيان يجيب له عنه دون أن يضيف هو من عنده شيئا أو يعترض على شيء ، لكنه أحيانا أخرى كان يعترض ويحاور ، وكذلك الحال بالنسبة إلى هوبز ، والموضوعات فى كل من الكتابين قد تنوعت تنوعا شاملا صنوفا متباينة من المسائل ، وأتاح الفرصة لصاحب الإجابة أن يعبر عن نفسه من شتى نواحيه ، فما أظن أبا حيان قد ترك جانبا من جوانبه لم يظهره فى الجواب عن هذا السؤال أو ذاك ، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى هوبز ، فلو قد ترك هوبز لمؤلفاته الفلسفية وحدها ، لا عرف عنه الناس إلا أحد جوانبه دون سائرهما .

إن اللبائى السامرة التى قضاها أبو حيان مع وزيره ، واللبائى السامرة التى قضاها هوبز مع أصدقائه وطلابه ، لتذكرنا بشهر زاد وأحاديثها فى ألف ليلة وليلة ، فحلاوة الحديث هى المحور فى هذه الأمثلة الثلاثة جميعا ، والفرق هو أن أحاديث شهر زاد قد ركبت متون الخيال ، وأما فيلسوفانا أبو حيان وهوبز فقد أعملا فيها الفكر وتعرضا لأعوص المشاكل وأعقدها ، مع خفة الحديث وانسيابه وطلاوته .

وإنه لما يجلو أمام أبصارنا مواضع الشبه ومواضع الخلاف بين هذين الحديثين

«المُظْمِينَ : التَّوْحِيدِيَّ وَهَوَايَتَهُ ، — وما الشبه والخلاف بين رجلين كهذين إلا انعكاس لأوجه الشبه والخلاف بين عصرين وثقافتين — أقول إنه لما مجلوا أمام أبصارنا مواضع المقارنة بينهما ، أن تتعقب فكرة بعينها كيف وردت في سياق الحديث عند التوحيدى من جهة ، وعند هوايتهد من جهة أخرى ، وكيف كان الرأى فيها ، فانظر — مثلاً — إلى رأيهما في الشعر خاصة ، وفي الأدب عامة .

أما هوايتهد فبعد أن بلفت النظر إلى قصور اللغة دون التعبير الكامل عن خبرة الإنسان الباطنية ، يستطرد فيقول : (الليلة الرابعة والمشرون من محاوراته) إن الإمساك بالخبرة الوجدانية قبل أن تغلت وتختفى هو من أخص خصائص الشعر الرفيع ، فهو عندئذ يكاد يوفق إلى تصيّد إحدى لحظات السعادة التشوي أو الألم الأليم ، بتصيدها في أحبولة الكلمات على نحو يقربها إلى القارىء أو السامع ، لأن اللفظ — على كل حال — هو صوت ، والعلاقة بين الصوت من جهة وبين الوجدان الذى تضطرب به النفس من جهة أخرى هى علاقة متكلفة معتسفة ، وإذا شئت فاستخرج معانى كلمات القصيدة كما وردت في المعجم ، واجمع تلك المعانى بعضها إلى بعض ، تجد البون شاسعاً بين حصيلتها وبين ما قصد إليه الشاعر ، لأن الشاعر قد أضاف إلى معانيها الممجية نعمات فاطية ، وكثيراً ما تنضاف هذه الاضافة إلى معنى الكلمة فيما بعد ، فتصبح جزءاً منه ، وبهذا يفرز معنى الكلمات بفضل الشعراء ، على أنه مهما بدت الألفاظ عن كوامن النفس ، فهى في الشعر أقرب ما تكون إليها ، ففي الشعر وحده تجعل البواطن النفسية الخوفى ، حتى لنحس ونحن نقرأ الشعر أو نسمعه أننا نجد فيه أنفسنا .

ويمود هوايتهد في محاوره أخرى (الليلة الثالثة بمد الأربعين) فيتناول موضوع اللغة وعجزها عن التعبير عما تكنه النفس ، فيقول : إنه ليدهشنى كم تقصر اللغة دون التعبير عما يدور في فكرنا الواعى ، ثم كم يقصر هذا الفكر الواعى دون التعبير عما يختلج به اللاوعى في أعماق نفوسنا ، لقد أقامت الفلسفة

بناءها على أساس افتراضها بأن اللغة وسيلة تعبيرية مضبوطة ، فترى الفلاسفة يجرّون الفكرة المميّنة في عبارة لفظية ثم يحسبونها قد استقرت في صورتها الدقيقة إلى الأبد ، مع أن هذه الفكرة — حتى على فرض الدقة التامة في العبارة التي استخدمها الفيلسوف للتعبير عنها — نعيم أبادها فتحتاج إلى إعادة التعبير عنها في كل قرن مرة ، بل في كل جيل مرة ، لأن الفكرة تنمو ، ولعل أفلاطون وحده بين الفلاسفة جيمًا هو الذي تنبه إلى ذلك ولم يقع في فخ الكلمات ، فتراد على بيئة تامة من هذا الجانب الراوغ في الأفكار ، ولذلك إن استعصت الفكرة على اللفظ استخدم للتعبير عنها الأساطير ، والأسطورة بطبيعتها لا ندعى دقة التعبير بقدر ما يراد بها إثارة التأمل .

وبعضى هوابتهد في حديثه هذا فيقول : إن الرياضة أدق من لغة الكلام ، وهي أقرب إلى الحق ، ولذلك فلا يبعد أن يجيء يوم بعيد فتصبح الرياضة هي وسيلة الناس في التفاهم بدل الكلام المألوف لنا اليوم ، والحق أن كل ما يدور به الفكر الواعي ، وما نصوغه في عبارات اللغة ، هو — بالقياس إلى الكامن الدفين في نفوسنا — سطحي ضحل تافه ، وأما الأعماق العميقة فلا تنبئ أمام الوعي أو تنطلق في عبارات اللفظ ، إلا في اللحظات النادر ، وهي هي اللحظات التي لا تنسى من حياتنا ، وفي تلك اللحظات نشعر — أو قل إننا عندئذ نعلم — أننا إنما نستخدم أدوات لقوة أعظم منا ، لنحقق لها أهدافًا أعلى من أهدافنا ، وإن أمثال هذه اللحظات لتكثر عند المباشرة ، لكن ليس منا من لم تمر بحياته لحظات كهذه ، وفي الإمساك بهذه اللحظات الإشرافية تكون عظمة الشعر والشعراء ، لأنهم هم الذين يعبرون عنها بلفظ قين أن يقرأه القارئ أو يسمعه السامع فيحس بدوره أن تلك اللانهاية في آماذ الفكر والشعور قد لحها في حياته الداخلية لها ، لكنها اندثرت لولا أن جاء هذا الشاعر فأخرجها له لفظًا .

إن هذا الشعر الذي يفصح عن اللانهاية بلفظ محدود ، لا يحتاج إلى علم واسع ،

بل إن قلة العلم كثيرا ما كانت هي علة ارتفاع الشاعر ، كما هي الحال في شيكسبير ،
الذى لو ازداد علما لقل ارتفاعا في شعره ، على عكس ملتن الذى كان شعره ليزداد
ارتفاعا لو قل علما .

وأما محدثنا العربى أبو حيان التوحيدي ، فيتناول الموضوع نفسه (فى الليلة
الخامسة والعشرين من الإمتاع والمؤانسة) فيفرق نفس التفرقة التى أشار إليها
هوايتهد ، بين الوعى واللاوعى ، فالأول يرتكن إلى عقل محدود ولنة قاصرة ،
والثانى يرتكن إلى لحات الروح فى إدراكه وفى التعبير عنه ، لكن التوحيدي
يقول هذا بلفظه فيقول : « الكلام ينبعث فى أول مبادئه إما عن عفو البديهة
وإما عن كد الروية ، وإما أن يكون مركبا منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل ،
ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشقى ، وفضيلة
المركب منهما أنه يكون أوفى ، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه
أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما
بقدر قسطه منهما ، على أنه إذا خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائب
التعسف ، كان بليغا مقبولا رائعا حلوا ، تحتضنه الصدور وتحتلسه الآذان » .

فى هذه العبارة المركزة يقدم لنا التوحيدي مقارنة بارعة بين إدراك العقل
- وإن شئت فقل إدراك العلم والفلسفة - وبين إدراك البصيرة الفطرية - وإن
شئت هنا أيضا فقل إدراك الشعر والفن ، فلهجة الشاعر والفنان ببصيرته ترى
جوهر الحق « أصفى » لأنها تزيل شوائب الجزئيات العابرة لتفوص إلى الجوهر
الدينى ، لكن نظرة العالم أو الفيلسوف « أشقى » لأنها تعنى بحياة الناس العملية
فتقدم إليهم ما ينفعهم فى مجرى السلوك اليومى ، وما أجل وأنفع أن نجتمع فى حياة
واحدة بين علم وشعر .

وإن التوحيدي ليتناول فى هذه الليلة موضوع الفن والشعر من شتى نواحيه ،

ليبين متى بفضل كل منهما الآخر ، وإنا لنحيل القارئ إلى كتاب الامتاع والمؤانسة ليقرا عرض الفكرة مفصلا .

* * *

ونضرب مثلا آخر بفكرة أخرى يتعرض لها الرجلان : فكرة الفوارق التي تميز شعبا من شعب ، والمفاضلة بين خصائص الشعوب ، فأياها يكون أرقى ، وأيها يكون أحط منزلة من الآخر .

أما هوابتهد فخلاصة الرأي عنده هي أن خير الدنيات هو ما جاء من شعب اختلطت في نسيجه خيوطه المنصرية ، وكلما صفا الجنس عنصرا ولم تدخله أخلاط من الخارج ، كان أقرب إلى الانحلال ، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة ترد هنا وهناك في عاوراته ، وأقرب الأمثلة لذلك الولايات المتحدة الأمريكية .

ففي الليلة الحادية والعشرين من هذه المحاورات ، يتعرض هوابتهد لهذه الفكرة ، ثم يعضى في حديثه ليقول إن وراء هذه الفكرة فكرة أعوص ، وهي : كيف نصون المجتمع من الركود ، فقد ترى جماعة من الناس سارت في حضارتها سيرا هينا لينا بضمة قرون ، لكنها صائرة إلى موت محقق إذا أعوزها عنصر الجدة يدخل في كيائها فيضمن لها الاستمرار في التقدم ، وأحسب أن النمل والنحل مثالان جيدان لأنظمة تسير سيرا حسنا ، لكنه لا يتغير ، ولو قدر للجماعة من الناس أن تقفل على نفسها لانتهت إلى حالة لا تتميز مرتبة من عالم النمل والنحل ، ذلك لو فرضنا أنها ستظفر من دقة النظام بأكل درجاتها .

لكن هوابتهد كثيرا ما يتعرض للموازنة بين ثقافتين : السامية من جهة ، والهلينية من جهة أخرى . - أى الشرق الأوسط والغرب - فيضع إصبعه على فوارق أساسية ، وتشم من كلامه دائما أنه بفضل الثانية على الأولى ، ومن أهم ما يهتم له في ذلك هو ما يتسم به الأولون - الساميون - من جهامة وصرامة ، وما يتسم به الآخرون - ورثة الثقافة اليونانية - من روح فكهة متبسطة حرة .

وهو يتخذ التوراة مرآة تصور الأولين ، والإلياذة مرآة تصور الآخرين ، ففي التوراة نعدم روح الفكاهة وتسود الجهمية ، وتفسير ذلك عنده هو أن اليهود الأقدمين كانوا دائماً في حالة من اليأس والمزعة والتشريد ، بمكس اليونان فانهم كانوا يشعرون شعور المرح النشوان ، فالة التوراة جاد لا يضحك ولا يهزل ، وليس من حق الأفراد أن يقرأوا التوراة لتمجيدهم فيأخذوا بتعاليمها ، أو لا تمجيدهم فيتركوها ، بل الأخطر من مثل هذه الحرية الفردية في الاختيار فهي مبادئ لا بد أن تأخذ بها كرهت أو رضيت .. وأما الإلياذة فتجمل آلهتها يضحكون ويمزحون ، وللقارىء أن يتلوها ليأخذ ما يأخذه ويرفض ما يرفضه ، فلئن كان الهدف في التوراة هو التوجيه والإرشاد والهداية والتقويم ، فالهدف في الإلياذة هو التمتع والنشوة ، فالفرق بينهما هو الفرق بين العلم والفنان .

وأما أبو حيان التوحيدى فيقف كمادته وقفة تحليلية يذكر بها جوانب الأمر كلها ، فليس لأمة واحدة فضيلة تخلو من نقص ، ولا نقص يخلو من فضيلة ، وأكاد أقول إن التوحيدى لو سئل : أى الحالات تباغ السكال ، لقال - كما قال هوايتهد - هى الحالة التى تندمج فيها الشعوب كلها لتلتقى الفضائل كلها فى شئ واحد ، يقول أبو حيان (فى الأيلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة) : « .. لكل أمة فضائل ورذائل ، ولكل قوم محاسن ومساوىء ، ولكل طائفة من الناس فى صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير ، ويقضى هذا بأن الخيرات والفضائل والشروق والنقائص مفاضة على جميع الخلق ، .. فللفرس السياسة والآداب والحدود والرسوم ، وللروم العلم والحكمة ، وللهند الفكر والروية والخلفة والسحر والأناة ، وللاترك الشجاعة والإقدام ، وللازنج الصبر والكبد والفرح ، وللمرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والتمام والخطابة والبيان .. » ويمضى التوحيدى فى حديثه مغللاً ، فيحذر من أن تهيم خاصية بالشعب على أنها شاملة لكل أفرادها ، بل هى مأخوذة على سبيل التعميم والشيوع ،

ولو شاء القارىء أن يطالع عرضه البديع ، فلا مناص من الرجوع إلى حديث تلك الليلة كما ورد في الكتاب المذكور .

ويلاحظ أن الموازنة بين الروم والعرب عند أبي حيان هي نفسها الموازنة بين الهلنيين والساميين التي جذبت اهتمام هوايتهد ، ولو أنعمت النظر إلى قول أبي حيان أن الروم يتميزون بالعلم والحكمة ، وأما العرب فيتميزون بالنجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان ، وجدت أن الفرق بينهما من وجهة نظره هو الفرق بين أهل التفكير النظرى وأهل الأخلاق العملية ، وكذلك هو الفرق بين العقل من ناحية والوجدان من ناحية أخرى ، وهو فرق لا يتعارض مع ملاحظات هوايتهد عن هاتين الجماعتين ، غير أن هوايتهد يضيف فرقا آخر ، وذلك بأن جعل الروم (اليونان) أهل مرح وتفاؤل وسماحة نفس ، على حين جعل الساميين أهل زمت وجهامة عابسة .

وكما بزى هوايتهد بهلينيته ، لا يفوت أبا حيان - بعد أن ينظر نظرة الإنصاف إلى شتى الأمم والشعوب - لا يفوته أن بزى بعرويته ، فيقول عن العرب : « إنهم مع توحشهم مستأنسون ، وفي بواديهم حاضرون ، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن المادات ، ومن أخلاق البادية أظهر الأخلاق ... ثم لما ملكوا الدور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر ، لم يتمدوا عن شأو من تقدم بألاف السنين ، ولم يمجزوا عن شئ كان لهم ، بل أبروا عليهم وزادوا ، وأغربوا وأفادوا . وهذا الحكم ظاهر معروف وحاضر مكشوف ، ليس إلى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل » .

ألا إن هذه الأحاديث القليلة التي سجلتها لنا الصحائف أحرفا مطبوعة ، لتزداد قيمتها أضماقا مضاعفة في عصرنا هذا الذى حل فيه الصمت المستقيم

عمل الحديث الحى التبادل ، أو لعلنا على كل حال فى طريقنا إلى هذه النهاية المحتومة . فالتليفزيون يتسلل إلى الدور ، وقد سبقه أخوه الراديو حيث أصبح على الأصدقاء المجتمعين أن ينصتوا لما يجرى إليهم مرتقبا أو غير مرتقب ، ففى ساعات العمل آلة تعمل ، والعامل مراقب لها فى صمت ، وفى ساعات الفراغ آلة تحدث والناس حولها يستمعون فى صمت . . . ترى أيسكون زمان الحديث الحى الطلى قد ولى ؟ إذن فقد أضاعت الإنسانية على نفسها أمتع وسائل التعبير .

لقد شهد هوايتهد فى مواضع كثيرة بما هو مدين به فى حياته الفكرية لمحاوراته مع أصدقائه ، فما قاله فى ذلك أن الشطر الأعظم من نموه العقلى قد جاءه من جيد الحديث ، وكثيرا ما أسمعنه الحظ فى أن يهيب له المحدث الممتاز ، وكذلك يقول فى موضع آخر بأنه يؤمن بإمانا شديدا بقيمة المحاوره والمحادثة فى التثقيف ، حتى ليعترف بأن ما كسبه منها لا يقل عما كسبه من الكتب ، وفى هذا الكتاب الذى تقدمه للقراء سورة لهذا المحدث البارع فى حديثه المناسب ، فى بيته وبين أصدقائه .



ولد ألفرد نورث هوايتهد فى الخامس عشر من فبراير عام ١٨٦١ ، فى مدينة رامزجيت من مقاطعة كنت فى إنجلترا ، من أسرة اشغلت معظم أفرادها بأعمال تفصل بالتربية وبالكنيسه وبالإدارة المحلية ، فكان جده ناظرا للمدرسة خاصة فى رامزجيت ، ثم جاء أبوه فخلف جده فى منصبه ذاك ، غير أن أباه قد تحول فيما بعد إلى المناصب الكنسية ، ويقول ألفرد هوايتهد عن أبيه إنه لم يكن عميق الثقافة بقدر ما كان قوى الشخصية ، فكان كبير الأساقفة فى وقته قد سادقه صداقة جعلته ينفق معه ساعات طويلة إبان أشهر الصيف التى كان يقضيها فى منطقة هوايتهد الوالد ، وكانا يتحدثان احاديث طويلة تمثل - كما يقول ألفرد

هوايتهد - القرن الثامن عشر في أنصع جوانبه ، وقد أخذت ثقافة ذلك القرن عندئذ تحتفى رويدا رويدا لتحل محلها ثقافة القرن التالي - القرن التاسع عشر - وكان الغلام يستمع إلى تلك الأحاديث ، فكان بهذا يشهد - كما يقول - تاريخ إنجلترا نابضا حيا في أشخاص جده وأبيه وأصدقائهما ، وكان يشهد تاريخ بلاده حيا في هؤلاء الرجال بوعيه الباطن لا بمقله الظاهر ، حتى لقد وجد نفسه في أيام نضجه يفهم ثقافة بلاده عن طريق ما كان قد سمعه ورآه في هؤلاء الرجال .

وكذلك شهد في صباه تاريخ بلاده قائما في آثار كثيرة تحيط بمسقط رأسه رامزجيت ، فعلى بعد ستة عشر ميلا تقع كاندراثة كانتبرى بجبالها وبما تحوى من ذكريات التاريخ ، وفي جوار بلاد تقوم قلعة رتشبره التي بناها الرومان ، وهناك ترى شاطئ البحر في نفس الموضع الذي نزل فيه السكسون ، والذي نزل فيه أوغسطين ، وعلى مسافة ميل واحد تقع كنيسة الدير محتفظة بلبسات من العمارة الرومانية ، لكن تغلب عليها العمارة النورمندية ، وها هنا ألقى القديس أوغسطين أولى مواعظه الدينية (كان البابا جريجورى الكبير قد أوفد القديس أوغسطين للتبشير بالمسيحية في بريطانيا) وهكذا كان الصبي يتنفس في بيئته الأولى أنفاسا تفوح بمطر الماضي التليد ، حتى لقد كان يضيق صدرا - لما كبر - بالألقاب « الجولف » في ذلك المكان . لأنه كان يرى تلك الملاعب نهاية رخيصة لقصة مجيدة .

وجاءت تربية هوايتهد كلاسية الطابع على غرار ما كان سائدا في القرن التاسع عشر ، فقد بدأ اللاتينية وهو في العاشرة ، وبدأ اليونانية وهو في الثانية عشرة ، فلو استثنيت أيام المظلة الدراسية ، ألفت فتانا لا يفوت يوما واحدا - حتى انتصف العام المشرون من عمره - دون أن يقرأ بضعة صفحات من تراث اللاتين واليونان ، يقرأها قراءة الدارس المتفحص نحوا وصرفا ومعنى ،

وعن طريق دراسته لتلك النصوص صاحب رجال الفكر الأقدمين مصاحبة
ترك في نفسه أثرها إلى آخر حياته الفكرية .

وتخلل دراسته الكلاسية دروس الرياضة ، حتى لقد أعفى في المدرسة من
بعض الدراسات القديمة لينفق في الرياضة وقتاً أطول ، وذلك لما أبداه من استعداد
واضح في هذا الاتجاه ، انتهى به إلى أن يجعل الرياضة موضوع تخصصه وهو في
الجامعة ، على أنه لم يكتف في دراسته الثانوية بما كانت تقتضيه الواجبات
الرسمية ، بل رأى نفسه مشغولاً بالشعر ، فراح يقرأ للشعراء في أوقات فراغه ،
لا سيما « ورد زورث » و « شلي » .

ودخل جامعة كبردج في خريف ١٨٨٠ ، وهو يعترف بما هو مدني به
لهذه الجامعة في تكوينه الثقافي اعترافاً يقول فيه إنه لا سبيل إلى الإسراف في
وصف ذلك الدين ؛ الذي لم يرجع فقط لما تلقاه في قاعات الدرس ، بل جاوز تلك
القاعات إلى ما كان هناك من تدريب اجتماعي وعقلي مما ، فأما قاعات الدرس
فكان التعليم فيها يلتزم نطاق التخصص في أضيق حدوده ، وكانت الرياضة
مادة تخصصه ، فدرسها على أساتذة أكفاء حتى ألم بمجانيها : البحت والتطبيقي ،
لكنه لم يستمع إلى درس واحد - خلال سنوات الجامعة الأربع - فيما لا يمس
الرياضة مساً مباشراً ، لكن المحاضرات لم تكن في جامعة كبردج إلا جانباً
واحداً من تربية الطالب ، فكان هناك مصدر آخر بالغ الخصوبة بعيد الأثر في
تكوين أبناء الجامعة ، ألا وهو حلقات النقاش التي لم تنقطع بين الطلاب
والأساتذة ، ففي كل مساء كان المشاء يقدم للطلاب في نحو السادسة أو السابعة ،
وبعد الفراغ منه ، يتحلق الطلاب بعضهم مع بعض ، أو مع من شاءوا من
أساتذتهم ، حلقات ، حلقات ، يناقشون فيها ما طاب لهم أن يناقشوه حتى ساعة
متأخرة من الليل .

لم تكن جماعات الأصدقاء تربطها وحدة التخصص فى الدراسة ؛ إذ كانت للموضوعات التى تناقش فى اجتماعهم الخاصة تتناول كل شىء : السياسة والدين والفلسفة والأدب ، فكان هذا التنوع حافظا على تنوع القراءة . ويسوق لنا هوابند نفسه فى ذلك مثالا ، فىقول إنه وهو المتخصص فى الرياضة كاد يحفظ أجزاء من كتاب « نقد العقل الخالص » لكانط عن ظهر قلب ، ويضيف إلى ذلك قوله : « لقد نسيتة الآن ، لأن سحر كانط قد زال عني وشيكا ، وأما هيجل فلم أستطع قط قراءته ، فقد بدأت دراسته بالنظر فى ملاحظاته التى أبداهها عن الرياضة ، فأدهشنى أن أجدها كلها هراء فى هراء . »

وبعضى هوابند وهو يروى عن قصة حياته فى إيجاز مختصر (راجع كتابه : مقالات فى العلم والفلسفة) فىقول : إننى إذ أرجع ببصرى أكثر من نصف قرن (كتب هذا سنة ١٩٤١) ، أرى تلك الأحاديث التى كانت تدور بيننا ونحن فى كبردج قريبة الشبه بالمحاورات الأفلاطونية وهكذا كانت تعلم كبردج أبناءها ، فهى تجرى على النهج الأفلاطونى إن أفلاطون لو شهدنا فى كبردج نمزج بين تخصص فى الرياضة ومناقشات حرة تدور بين الأصدقاء للأبدى رضاه . »

فرغ هوابند من دراسته الجامعية سنة ١٨٨٥ ، فعين فى نفس الجامعة مدرسا ، حتى كان عام ١٩١٠ استقال من منصبه ذاك لينتقل إلى لندن .

وفى ديسمبر من عام ١٨٩٠ تزوج فىلسوفنا من زوجته التى تراها بارزة الأثر فى المحاورات التى نقدمها إليك اليوم . وعنها يقول : « إن آر زوجتى فى تشكيل وجهة نظرى إلى العالم كان من العمق بحيث لايجوز إغفاله ؛ فهو أحد الموامل الجهورية فى إنتاجى الفلسمى . » فلقد نشأت فى محيط يختلف كل الاختلاف عن المحيط الذى نشأ فيه زوجها ، فهى من أسرة يكثر بين أفرادها

المسكربون والساسة ، وهو من أسرة يكثر بين أفرادها المعلمون والقساوسة ، يقول الزوج عن زوجته : « إن حياتها الناصعة قد علمتني أن الجمال بشرطيه : الخلقى والفنى ، هو الغاية من الوجود . وأن وسائل بلوغه هى الرحمة والحب والنشوة الفنية . وأما المنطق والعلم فيقتصران على أن يكشفنا لنا عما هو ذو صلة بالموضوع الذى نكون بصدد بحثه ، كما يعاوناننا على اجتناب ما ليس ذا صلة بذلك الموضوع . وعندى أن هذه النظرة تنقل ماقد ألفناه من اهتمام فلسفى بالماضى ، إذ توجه الثقاتنا إلى الفترات التى ازدهر فيها الفن والأدب ، باعتبارها أفضل أداة تعبر عن القيم الجوهرية فى الحياة ، إلا أن بلوغ الإنسان أعلى ذروة يستطيع الانسان بلوغها ، ليس مرهونا بنشوء مذهب عقلى متسق البناء (وهو ما يقدمه لنا العلم والمنطق مما) على الرغم من أن اتساق الفكر قد أدى واجبا خطيرا فى نشأة الحضارة » .

وأنجب ذلك الزواج ثلاثة أبناء ، اشتركوا جميعا فى الحرب العالمية الأولى : أما الابن الأكبر فقد اشترك فى الحرب من أولها إلى آخرها ، وأما الابنة وهى الوسطى فقد خدمت فى وزارة الخارجية ، وأما الابن الثالث فقد كان طياراً وأصيب طائرته فى سماء فرنسا فقتل فى مارس ١٩١٨ - وأنا أذكر هذه الحقيقة الأخيرة لأن حزن الوالد على ولده قد أدى إلى تغيير وجهة نظره الفلسفية بمض الشئ ، مما يدل على أن فلسفة الرجل وليدة ظروفه ، مهما بلغ من تدريب على التفكير الرياضى العلمى الموضوعى الذى يتجرد عن النفس ونوازعها .

وكان أول مؤلفات هوايته العلمية كتابه « رسالة فى الجبر المام » فاختر بسبب هذا الكتاب عضوا فى الجمعية الملكية سنة ١٩٠٣ ، وأما عمله الفلسفى فلم يبدأ إلا بعد ذلك بزمان طويل وعلى أساسه اختير عضوا سنة ١٩٣١ زميلا فى الأكاديمية البريطانية .

وحدث فى سنة ١٩٠٣ أيضا أن نشر برتراند رسل كتابه « أسول الرياضة »

على أن يكون الجزء الأول يتلوه جزء ثان ، كما كان كتاب هوايتهد في الجزء الأول يتلوه جزء ثان ، فاستكشف الرجلان : هوايتهد ورسل ، أن الجزء الثاني المعزوم صدوره عن كل منهما يتناول موضوعات هي هي بيمينها ، فانفقاً على أداء عمل مشترك ، وحسباً أن طاماً واحداً يكفيهما لإخراج ما تصديداً لإخراجه ، لكن أفق الموضوع أخذ يتسع أمام ناظريهما ، فاستغرقا ثمانى سنوات أو تسماً يعملان مما ، حتى أخرجا كتابهما « أسس الرياضة » (رنكيا مائمانكا) - وكان رسل قد التحق بجامعة كبرديج في المشار الأخير من القرن الماضي ، أى بعد أن دخاها هوايتهد بمشر سنوات أو نحوها ، وارتبط الرجلان بروابط الصداقة الوثيقة ، وفي هذا يقول هوايتهد : « لقد نعمنا كما نعم العالم كله بالمية رسل ، تليذا أولاً فزيملائنا ، ثم صديقاً آخر الأمر ، فكان عاملاً قويا في حياتنا إبان مقامنا في كبرديج . لكن وجهة النظر الأساسية - فلسفية واجتماعية - قد تفرقت بيننا ، فتفرقت تبما لذلك إهتامائنا ، وكان ذلك خاعة طييمية للتعاون مما على عمل واحد . »

قلنا إن هوايتهد ترك منصبه في كبرديج عام ١٩١٠ ، وانتقل إلى لندن ، وفي السنة الأولى من مقامه هناك أخرج كتابه « مدخل إلى الرياضة » ، ولبث هوايتهد في الكلية الجامعة (بجامعة لندن) حتى سنة ١٩١٤ ، وعندئذ ظفر بالاستاذية في الكلية الامبراطورية للعلوم والتكنولوجيا (بجامعة لندن أيضا) ، وفي أواخر تلك الفترة عين عميدا لكلية العلوم بالجامعة ، ورئيسا للمجلس الأكاديمي الذي كانت مهمته رسم خطة التعليم لمدينة لندن ، كما عين عضوا في مجلس الجامعة ، وغير ذلك من جميمات ولجان لا عدد لها ، ولقد كان اشتراكه في النشاط التربوي على هذا النطاق الواسع ، موجها لاهتمامه نحو مشكلة التعليم العالي في الحضارة الصناعية الحديثة ، فقد كان المبدأ المأخوذ به - ولا يزال قائما في بلاد كثيرة - هو أن مهمة الجامعات مقصورة على مجالات التخصص الأكاديمي ، وهي تؤدي مهمتها تلك على أنماط مختلفة ، فمنها النمط الذي رسمته جامعتا أكسفورد وكبرديج ، ومنها النمط

ألقى رسمته جامعات ألمانيا ، أما إذا جددت جامعات في التعليم الجامعي ، تخلقت
نمطا آخر — كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية التي وسعت من نشاط الجامعة
حتى جعلته يتناول كل صنوف الإعداد للحياة العملية — فكان ذلك ينظر إليه
بم عين الزدري ، وكان معنى هذا أن الدراسة الجامعية نصب أكثر اهتمامها على
الماضي ، ولا تدبر بصرها إلى مشكلات تربوية خلقتها الحضارة الصناعية المحيطة
بها ؛ فلم يدخل في حساب الجامعات أبدا أن هناك ملايين الصناع الذين يتوقون
إلى استنارة عقلية في رحاب الجامعات ، وملايين الشباب من كل صوب يطالبون
حظهم من المعرفة العليا .

فكان أن حاولت جامعة لندن في عهد هوايتهد مواجهة الظروف الناشئة ،
بأن ضمت في نطاقها معاهد كثيرة تتنوع أغراضها ، يؤدي كل نمط منها ما يراد له
أن يؤديه فتتحقق الأغراض جميعا .

وأما مؤلفاته التي أصدرها إبان مقامه في لندن (١٩١٠ — ١٩٢٤) فأولها هو
الذي أسلفنا ذكره ، « مدخل إلى الرياضيات » (١٩١٠) وتلاه « تنظيم الفكر »
(١٩١٦) ثم « بحث في أصول المعرفة الطبيعية » (١٩١٩) و « فكرتنا عن
الطبيعة » (١٩٢٠) و « أصول النسبية مع تطبيقات على علم الفزياء » (١٩٢٢) .
وفي ١٩٢٤ — وكان عمره ثلاثة وستين عاما — تلقى دعوة من جامعة هارفارد
بالولايات المتحدة ، ليكون أستاذا للفلسفة بها ، وهناك أخرج أهم كتبه الفلسفية
على الإطلاق ، فأخرج « العلم والعالم الحديث » (١٩٢٥) و « الدين في طور
التكوين » (١٩٢٦) و « النهج الرمزي : معناه وأثره » (١٩٢٧) و « أهداف
التربية » (١٩٢٨) — وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذان قدرى لطفى ومحمد
بدزان — و « التطور وعالم الواقع » (١٩٢٩) و « مهمة العقل » (١٩٢٩)
و « مغامرات أفكار » (١٩٣٣) — وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية :

الأستاذ أنيس زكى حسن ، و « الطبيعة ، والحياة » (١٩٣٤) و « صنوف الفكر » (١٩٣٨) و « مقالات فى العلم والفلسفة » (١٩٤٧)
ومات ألفرد نورث هوابتهء فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، بالناس من عمره سبعة وعائين عاما .

وكتب زوجته فى وصف موته تقول :

« فى يوم عيد الميلاد اجتمعت الأسرة كالأول عاءتها ، وفى اليوم التالى لم يكن « ألفرد » مكتمل العافية ، وفى ذلك اليوم نزلت به النازلة ، ورأيتها وهى تنزل به ، فقد رفع يده اليسرى وتركها لتسقط ، كى ينهشنى أنه يبرى ما حدث ، فقد سار الشلل عندئذ نصف طريقه ، وأدركت أن النهاية لم تكن بعيدة الوقوع . »
وهنا قد يطفر إلى الذهن ما قاله « فيدون » لـ « أشقراط » وهويقص عليه قصة سقراط فى سجنه ويصف له كيف ختم الأجل :

« هكذا يا أشقراط قضى صديقنا الذى أقول عنه بحق إنه أحكم من قد عرفت من الناس ، وأعدهم وأكترهم فضلا . »

* * *

بءا هوابتهء حياته العلمية رياضيا من الطراز الأول ، وعالما من علماء الطبيعة ، ولذلك جاءت أولى محاولاته الفلسفية الكبرى متأثرة بتلك الدراسة الأولى ، وذلك حين تعاون مع رسل - كما أشرنا - فى إخراج مؤلف ضخيم فى منطق الرياضة بعد بداية عهد جديد فى الدراسة المنطقية ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن لهذا المؤلف - وأعنى به « أسس الرياضة » - أبعد الأثر وأعماقه فى توجيه تيار الفكر الفلسفى كله فى هذه العشرات الخمس الأخيرة من أعوام القرن العشرين ؛ إذ وجه ذلك الفكر الفلسفى نحو التحليل على نموذج ما ورد فى « أسس الرياضة » من تحليلات ولو جملنا للفلسفة المعاصرة سفة واحدة غالبية لقلنا إنها الانتقال من « التأمل » الميتافيزيقى إلى « تحليل » القضايا العلمية ، وكان من أعمة هذا التحول فى تاريخ الفلسفة المعاصرة فيلسوفنا هوابتهء .

وأهم ما يطبع فلسفة هوايتهد هو رأيه بأن الجانب الهام من حقيقة الشيء — ومن حقيقة العالم بصفة عامة — هو بنيته ؛ أى هو شبكة العلاقات الرياضية التي تكون له بمثابة الإطار الذي يبنى عليه وفي حدوده ، وليس الجانب الهام هو المضمون الكيفي — الذي يملأ ذلك الإطار — فلو تناولت شيئا ما وفككت أجزائه وأبطلت بنيته ، ففسد الشيء ولم يعد هو هو ، برغم احتفاظ الأجزاء بالمضمونات الكيفية ، لأن قوام الشيء هو — كما قلنا — في العلاقات الرابطة بين أجزائه .

ومن هذا نفهم لماذا سميت فلسفة هوايتهد بفلسفة البناء المضوى ؛ فكل شيء ، وكل واقعة وكل موقف ، هو في الحقيقة بناء ذو هيكل معين ، ولو تغير هيكله لأصبح شيئا آخر ، فالأمر في أى شيء هو كالأمر في الكائن المضوى من أنه ليس كومة من خلايا أو مجموعة من أعضاء اجتمعت كما اتفق ، بل هو فوق ذلك « تركيبة » مميّنة أو « بنية » خاصة تنتظم بها الأجزاء في شبكة مميّنة من علاقات . وما قلته عن كل شيء على حدة ، تقوله عن الوجود بأسره .

غير أن هذه العلاقة الشبكية التي تمسك بأطراف الوجود فتجعله ذا بنية معلومة ، لا تقتضى أن يظل الوجود على حالة واحدة لا يتغير ولا يتطور ، بل إن العالم لفي تغير دائم ، تغيرا يحتفظ فيه بذاتيته ، بفضل عملية يطلق عليها هوايتهد اسم « التشرب » .

فهو يرى أن الشيء — أو الوجود بأسره — يشرب ماضيه شربا يسرى في كيانه كله ، ثم يسقيه إلى ما سيتلوه في مراحل تاريخه ، فلي الرغم من أن كل كائن هو فريد في ذاته وصفاته ، إلا أنه في الوقت نفسه حلقة في سلسلة ممتدة ، ورثت سالف

الحلقات ، وستنورث خصائصها المتجمعة فيها لما سيحيى بمدها من حلقات . وهكذا يشمر الفرد الواحد - في مجرى خيره الحية - بشعورين في وقت واحد : يشمر بفرديته التي يتفرد بها ، ثم يشمر بأنه رغم فرديته جزء من كل واحد ، هو الوجود .

إننا في المادة نتصور الثبات في أنفسنا ، حتى إن تصورنا التغير الدائب في الأشياء التي نذكرها ، لكن هوابتهد يحمل التغير شاملا للذات وللأشياء معا ، فلا يفك ما حولنا يتغير ، كذلك ما تفك الذات المدركة تتغير ، فإذا كانت الأشياء الخارجية لا تظل لحظتين متتابعتين على حالة واحدة ، فكذلك الذات المدركة لا تثبت على حالة إدراكية واحدة لحظتين متتابعتين ، كان هرقلitus - وهو من فلاسفة اليونان السابقين على سقراط - بذهب مذهب التغير في الأشياء ، وقد صور ذلك في عبارة المشهورة : « إنك لا تعبر النهر الواحد مرتين » ، ومعناها أنك حين تعبر النهر للمرة الثانية يكون قد أصبح نهرا آخر ، فليس الماء هو نفسه الماء الذي كان أول مرة ، وجاء هوابتهد فوسع من الببدأ نفسه بحيث شمل الذات أيضا ، حتى ليصح أن يقال عنها عبارة شبيهة بتلك ، فنقول : « إنك لا تفكر الفكرة الواحدة مرتين » أو « إنك لا تمارس الخبرة الواحدة مرتين » لأنك في كل لحظة تتغير ذاتا بتغير موضوع إدراكك ، وهكذا يكون العالم كله - ذاتا وموضوعا - جديدا أبدا ، لا يدوم على حالة واحدة لحظتين متتابعتين .

لكن الشيء إذا تغير تغيرا لا يقف تياره ، فهو إنما يفعل ذلك باطرأحه لصفات ، واكتسابه لصفات جديدة - هذا بديهي ، إذ لو دامت للشيء صفاته لما طرأ عليه تغير ، فلنا أن نسأل : ومن أين للشيء بالتغير صفاته الجديدة التي يها بتغير ؟ إن تفسير ذلك محال إلا إذا افترضنا وجود تلك الصفات بالإمكان لا بالفعل ، لا بد أن يكون هناك عالم المكنات إلى جانب هذا العالم القلي ، لكي يتسنى

للكائنات الفعلية أن تلبس من عالم الممكنات ثوبا ، ونخلع ثوبا تخلخل سيرها ونطورها .

أفيكون هوايتهد - إذن - أفلاطونيا صريحا ، يفرض عالين : عالم المثل - أو إن شئت قبل عالم الإمكان - من جهة ، وعالم الموجودات الفعلية من جهة أخرى ؟ هذا ما ذهب إليه بعض الشراح لفلسفة هوايتهد ، لكننا نقض على هذا الشرح شرحا آخر يفاضل بين هوايتهد وأفلاطون ، وهو أن عالم الإمكان عند هوايتهد عالم رياضي صرف ، أي إنه عالم من علاقات صرفة ، ليس يملؤها مضمون كيني ، شأنه في ذلك شأن الصيغ الرياضية التي تراها في قوانين الطبيعة كقانون الجاذبية - مثلا - أو قانون الغازات ، فالصيغة الرياضية في كل من هذه الحالات تصور عالم الإمكان ، الذي يجيء الواقع الفعلي على غراره ، دون أن يكون في الصيغة الرياضية إلا شبكة العلاقات الصورية خلوا من مضمونها الكيني ، هذا هو ما يريده هوايتهد بعالم الإمكان الذي يستمد منه الواقع صورته التي ما تنفك تتغير مضمونها ، وأما المثل عند أفلاطون فهي لا تسكتفي بمجرد الصيغة الرياضية ، بل إنها لتبت فيها كذلك حشوها الكيني ، « قالبياض » مثلا مثال من المثل الأفلاطونية ، مع أنه كيني الطابع ، وأما عند هوايتهد فالكيني لا يكون في عالم الإمكان الأزلي الأبدي الذي يقرر وجوده .

تلك لمحة موجزة سريعة ، قد تقيد قارئ هذا الكتاب في إلقاء الضوء على بعض ما قد ورد خلال المحاورات من آراء .

أما بعد فإن لي مع كتاب « محاورات هوايتهد » قصة طريفة أرويها في ختام هذه المقدمة :

كنت أستاذًا زارًا بجامعة أمريكية في ولاية واشنطن ، وهي في أقصى

الشمال الغربى من الولايات المتحدة ، فى العام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ ، وفى ربيع عام ١٩٥٤ نشرت مجلة « آتلاتك » الأدبية فصولا عن هوابتهء توطئة لإصدار كتابه هذا ، فتابعت هذه الفصول ، ولقت نظرى فى أحدها رأى غريب عن المسيح . إذ يقول عنه إنه يتصف بسماحة النفس التى لا نعرفها فى أبناء البلاد التى ظهر فيها ، ونعرفها فى اليونان ، وإذن فالأرجح أن يكون المسيح من عنصر هلبنى كان قد انتقل إلى الوطن الذى ظهر فيه ...

عجبت لهذا الخطأ المنطقى المنهجى يقع فيه علم من أعلام المنطق والتفكير الرياضى الصارم ، لأن أبجدية المنطق السليم فى النظرية العلمية هى أن نبنى النظرية على أساس الواقع ، لا أن نحور فى الواقع حتى يتفق مع النظرية ، فإذا كان الفرض النظرى عند هوابتهء هو أن أهل الشرق الأوسط لا يعرفون سماحة النفس ، كما عرفت هذه الصفة عند اليونان ، ثم وجد نبى التسامح يظهر بينهم ، فالأدنى إلى الصواب أن يغير من نظريته حتى يتفق مع الواقع المشهود - والواقع هنا هو ظهور المسيح فى الشرق الأوسط - لا أن يحتفظ بنظريته كما توهمها ، ثم يلف الواقع لفا تتحقق به نظريته المزعومة .

وبعد قراءة هذا المقال فى المجلة ، جاء موعد محاضرتى - وكان دائما من الحاضرين عدد كبير من الأساتذة - فبدل أن أحاضرهم فى الموضوع الذى أدير حوله محاضراتى ، وهو الفلسفة الإسلامية ، فاجأتهم بأن أجمل موضوع المحاضرة تعليقا على هذه النبذة التى وردت فى المقال المذكور .

ومضت الأيام ، وجاء يوم الأربعاء ٢٦ من مايو سنة ١٩٥٤ ، وهو اليوم الذى ألقى فيه آخر محاضراتى فى تلك الجامعة ، فإذا حدث ؟ هاأنذا أنقل إليك أسطرا من مذكراتى اليومية .

« ... بعد أن فرغت من محاضرتى فى الفلسفة الإسلامية اليوم ، دعانى أعضاء

الفرقة التي أحضرها - بما فيها من طلبة ومستمعين - إلى حفلة صغيرة أعدوها توديعاً ، بمناسبة انتهاء الشوط الدراسي ، وهناك قام الدكتور « ه » أستاذ الأدب الإنجليزي - وقد حضر لي جميع محاضراتي بغير تخلف - فألقى كلمة تقدير اهتزت لها نفسي ، ثم قدم إلى هدية كتاب « محاورات ألفرد نورث هوابتهد » الذي صدر هذا الأسبوع ، وقد وقع الحاضرون على غلافه من الداخل ، بمد أن كتب نيابة عنهم الدكتور « ه » عبارة على الغلاف ، سأعز بها ما حييت .. هذا نصها :

« إلى الأستاذ زكي نجيب محمود

إننا نقدم إليك هذا تقديرًا عميقًا لمحاضراتك الوضاعة التي ألقيتها علينا في الفكر العربي . فبرغم أنك تحدثت إلينا بلساننا . وهي لغة تختلف عن لغتنا اختلافاً بعيداً . فقد بهرتنا أبدأً ، وسحرتنا بهذه السيطرة الجميلة التي سيطرت بها على اللغة الإنجليزية ، في كل لقطة من لطائف لغتها ، وفي كل موضع من مواضع سياقتها .

اللهم اجعل الشمس والقيث لك مددا . فيثمران لك عمرا مرصولا من رصانة الحكمة وخصوبة الحياة » .

ثم شاء الله لقصتي مع هذا الكتاب الرائع أن تنتهي بفصل مشرق بهيج . وهو أن يتولى ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية شقيقى الأستاذ محمود محمود ، الذى مهما اقتضت صلتى به أن أقصد في عبارة التقدير ، فإن ينعنى ذلك من القول بأن الترجمة قد جاءت للأصل البديع صنواً بديعاً .

زكي نجيب محمود

الجزيرة في ٢٧ يناير ١٩٦١

» عن هذا المصدر أخذنا الفلسفة

وإن الآلهة لم — ولن — تقدم خيرا أعظم منه للإنسان الفاني » .

— أفلاطون — تيموس

» هذا المكان مقدس ، في جميع مظاهره —

يسكسوه الفار والزيتون والكرم ،

وفي قلبه تشدو فرقة مريشة من طيور المندليب،

فاجلس هنا، فوق هذا الصخر الأصم .

— سوفو كاييس :أوديب عند كولونس

فاتحة

يزخر القرن الذى يقع بين عامى ١٨٥٠ و ١٩٥٠ بمجموعة من المسير بمجىز
عن ابتسكارها أى كاتب من كتاب القصص الخيالية . وهذه الوفرة البالغة من
مختلف الشخصيات ترتبط عادة برجال العمل ، ولكنها يمكن كذلك أن ترتبط
برجال الفكر . بل لقد كانت ثورة الفكر فى القرن الماضى أشد عنفا . أى روائى
يستطيع أن يتخيل سيرة تبلغ ما بلغت سيرة هوايتهد من تشابك بمصر أشد
نفجراً من المصر الذى عاش فيه أهل يستطيع ذلك أتونى ترولوب ، ربما استطاع
ترولوب أن يرسم البداية ، لأن القصة تبدأ بشخصية إنجليزية ، ولكن عندما
تغادر هذه الشخصية بيئة كاتدرائية كاتربرى وتيت - رئيس الأساقفة - الذى اعتاد
أن يذهب إلى أبرشية القديس بطرس لتناول العشاء مساء كل يوم من أيام الأحد -
يقصر خيال ترولوب - كما يقصر عقله - عن مجاراتها . وكان ترولوب نفسه كان
يدرك ذلك حين قال :

« ينبغي أن يكون الأدب قابلاً للتصديق إلى حد كبير . فى حين أن خبرات
البشر فى الواقع تفوق كل قوى الخيال . ومن ثم كان « الأدب الاجتماعى » مطابقاً
للعرف . بينما يتخطى التاريخ « كل حدود العقل » .

* * *

وتقع حياة هوايتهد فى ثلاثة مجلدات ، يشمل المجلد الأول جامعة
كامبردج ، ويشمل الثانى لندن ، والثالث كامبردج فى ماساشوست . وقد قال
أيضاً إنه يحس كأنه عاش ثلاث حيوات فى ثلاث فترات متتالية . الأولى من

عام ١٨٦١ إلى عام ١٩١٤ ، والثانية خلال الحرب من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ ،
والثالثة بمد هذه الحرب المالية الأولى .

وتبدأ قصة « المدن الثلاث »^(١) هذه بداية هادئة . فهو ابن أستاذ مدرس
وحفيد أستاذ مدرس كذلك . ثم أصبح أبوه قسيساً فيما بعد . وفي حياته
كقسيس كان يعتقد بنصوص العهد القديم ، خطبه ومواظله ين صداها تحت
قبة كنيسة نورمان . والمنظر كله آية في الروعة - رامجيت التي تواجه البحار
الضيقة بين إنجلترا والقارة الأوروبية ، تلك البحار الضيقة « التي تولت عنها
كل الحكومات الحرة في العالم - هولندا وإنجلترا والولايات المتحدة . وقد كان
(الآباء المهاجرون) من أبناء هذه البحار » . وعلى مقربة منها تقع تلك الأسوار
النايسة : أسوار قلعة رتشبره ، التي شيدها الرومان . وعلى بعد ميل من ساحل
إبرفليت ، حيث رسا السكسون في غابر الزمان ، يقع المكان الذي ألقى عنده
أوجستين أولى مواظله . وعلى بعد ستة عشر ميلاً فقط تقع كاندراية كاتربري ،
حيث كان يستطيع الطفل الصغير منذ تسعين عاماً - ولا يزال يستطيع حتى اليوم -
أن يشهد البقعة التي قُتل عندها توماس بكت ، ويرى المدة الحربية التي
كان يندرعها (الأمير الأسود) . إن التاريخ لهذا الصبي لم يكن شيئاً
يتعلمه من الكتب ، بل كان شيئاً يحثك به كل يوم ، تسكتخل به عيناه ويستشقه
مع الهواء .

ومع أن هوابند كان يعد نفسه دائماً إنجليياً شرقياً ، ومع أن سورته
كانت مثلاً لذلك - إذ كان أشقر اللون ، أحر الوجنتين ، أزرق العينين - إلا
أنه كان يلتخط في تاريخ أرومته خطلاً خفيفاً يجعله مخالفاً بعض الشيء لهؤلاء

(١) الإشارة هنا إلى « قصة المدينين » المروية

الإنجيليين . فقد كانت إحدى جداته من ويلز ، تنتمي إلى أسرة وليامز ، وكان يختلف عن إخوته اختلافاً رجع إلى الدم السكتي الذي كان ينبض في عروقه .

ولد في الخامس عشر من شهر فبراير من عام ١٨٦١ . وكان طفلاً ضعيف البنية ، فعلمه أبوه في البيت ، وقضى جانباً كبيراً من وقته في الخلاء مع بستانى ويجوز حمل له طوال حياته العرفان بالجميل ؛ لأنه كان أول من جمعه برى النور الذى بضىء في الظلام . وفي الشتاء كان يزور جدته في لندن . وكانت أرملة الخاطئ عسكري ، تقطن بيتاً في المدينة . يحمل رقم ٨١ بيكادلى . ومن نوافذ هذا البيت التى كانت تطل على « الحديقة الخضراء » اعتاد أن يرى الملكة فكتوريا ، وهى تمر في عربتها ، وكانت آنذاك أرملة في منتصف العمر ، ولم تكن محببة كثيراً إلى النفوس . وكانت جدته سيدة ثرية ، بيد أنها - كما تقول - « قد أخطأت إذ أنجبت ثلاثة عشر طفلاً » مما أدى إلى انخفاض نصيب كل منهم في الميراث . ولا بد أن تكون الجدة كذلك رهيبة الجانب ، لأن المحور الذى كانت تتماسك الأسرة من حوله كان يتركز في مدبرة شئون المنزل جين ونشاو ، وهى التى كانت تقرأ روايات دكتور جبراً للطفل الصغير ، وهو يجلس على مقعد قليل الارتفاع متكئاً على ركبتيه إلى جوار موقد النار .

ولم تكن حياته المدرسية بأقل من ذلك روعة . التحق بشربرن مرافقاً يبلغ الخامسة عشرة من عمره إلا أربعة أشهر . وجدبر بالذكر أن هذه المدرسة قد احتفلت بعيدها المائتين بعد آلاف في عام ١٩٤١ . فتاريخها يرجع إلى عهد القديس أولدم ، وتزعم أن ألفرد الأكبر كان من بين تلاميذها . وما زالت مباني الدير تستعمل حتى اليوم ، وبيت الرهبان به من أفخم المباني القائمة ، وما برحت قبور الأمراء السكسون ماثلة للعيان . وفي خلال المائتين الأخيرين في هذه المدرسة لم يأتهد كانت حجرة درسه الخاصة تشتهر بأنها كانت مأوى رئيس

الرهبان ؛ وكان الفتى يعمل على مسمم من أصوات أجراس الدير - « الأصوات الحية لاقرون الفائرة » - تلك الأجراس التي أتى بها هنرى الثامن من (ميدان الثوب الذهبى) وأهداها للدير .

وكان منهج الدراسة - كما ذكر هوابتهد بعد ذلك بسنوات - يسترعى ذهنه بملاءمته لسكانه وزمانه . « كنا نقرأ اللاتينية والإغريقية باهتبارها سجلات تاريخية للشعوب الحاكة التي كانت تقطن إلى جوار البحر وتبسط نفوذها البحرى . لم نعتبرها لغتين أجنبيتين ، بل لقد كانتا مجرد لاتينية وإغريقية . ولم يكن بالإمكان أن تمرض علينا آراء لها أهميتها بأية وسيلة أخرى . فكنا نقرأ العهد الجديد بالإغريقية . ولم أسمع عن أحد قرأه بالإنجليزية فى المدرسة - اللهم إلا إن كان ذلك فى كنيستها ؛ ولم يكن ذلك أمراً ذا بال - فإن ذلك معناه عقلية دينية بنقصها التهذيب . كنا متدينين ، بذلك الاعتدال الذى يتصف به قوم يأخذون دينهم عن اليونانية » . ولم يذاكر هوابتهد قط الأجرومية الإنجليزية . وإنما كان يتملها عن طريق الأجرومية اليونانية واللاتينية .

ولم يكن الفتيان فى هذه المدرسة مرهقين بالعمل . فقد كان يتوافر لهم الوقت للألعاب الرياضية والمطالمة الخاصة - وهى عنده الشمر ، وبخاصة ورد زورت وشلى ، وكان يقرأ كذلك كثيراً من التاريخ . وكان رياضيا ممتازا ، وأسمى أخيراً « عريفا » ، واحداً من كبار الطلبة الستة المكلفين بالتبغات الإدارية ، وبمحافظة النظام . وأكبر هؤلاء الطلبة هو رئيس المدرسة . وبهذه الصفة دعى هوابتهد ليضرب طالبا سرق مالا « وكان لابد من ضربه أمام التلاميذ أو طرده من المدرسة . ولا أقول إنى أصبت فيما فعلت ، ولكنى ضربته » .

وبعد ما تلقى هوابتهد بذور الدراسة الكلاسيكية ، تابع تنميتها بقية حياته .

ولما تقدم القرن العشرون ، وظهر أن كثيرا من رجال العلم ينقصهم التوازن الثقافي بدرجة مؤسفة ، صار هذا التوازن المحمود عند هوايتهم بين العلم والدراسات الإنسانية مزية من مزاياه الفريدة ، وشاع أن « هوايتهم يلم بالطرفين » .

* * *

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره ، التحق بجامعة كبرديج ، وقد حذق الرياضة من قبل . وكانت طريقة التدريس في كبرديج في تلك الأيام أفلاطونية إلى حد كبير . والجدل حري بين الأصدقاء ، فتعلم - كما يقول - من المحادثة بقدر ما تعلم من الكتب . سئل مرة كيف استطاع أن يكتب « العلم والعالم الحديث » فصلا في كل أسبوع خلال العام الدراسي ، وهو يلقي في الوقت نفسه محاضراته المقررة بجامعة هارفارد ، فأجاب « بأن كل ما في الكتاب قد نوقش في الأربعين السنة الماضية » .

وأصبح زميلا في ترنتي في عام ١٨٨٥ ، في سن الرابعة والعشرين الناضجة - وكلية ترنتي بكبرديج من أعظم المؤسسات التعليمية فوق الأرض . ثم كانت بعد ذلك تلك التجربة الكبرى التي وجد فيها تلك الجوهرة النادرة ، وأقصد بها التواضع الحق .

في القرنين السابقين كان العالم يرتاح إلى القول بأن سير إسحق نيوتن قد كشف قوانين السكون الطبيعي النهائية . ثم حدث أمر هام . وسأحاول أن أذكر كلمات هوايتهم بنصها بقدر ما تسمحني الذاكرة .

« كنا نعتقد أن كل أمر هام تقريبا في الطبيعة قد بات معروفا . ولم تبق إلا بعض النقاط القليلة النامضة ، بعض الشواذ الغريبة التي تتعلق بظاهرة الإشعاع ، والتي كان علماء الطبيعة يتوقعون تفسيرها بحلول عام ١٩٠٠ ، وقد أمكن تفسيرها فعلا ، بيد أن العلم كله خلال هذا التفسير قد تقوض ، وتبددت طبيعة نيوتن التي كان يُظن أنها نهاية الأرب . أجل ، إن طبيعة نيوتن كانت - وما تزال - نافعة

كطريقة من طرق النظر إلى الأشياء ، ولكنها لم تتمد صدقة باعتبارها وصفا نهائيا للحقيقة . فقد تبدد اليقين .

وما زال الأمر كذلك . ولكن كم غيره قد تعلم هذه الحقيقة ؟ إن تبدد اليقين - حينما كان يظن أن اليقين لا يتعرض للجزم - قد أثر في تفكير هوابتهد بقية أيام حياته . تبددت نهاية الأرب ، ومع ذلك فقد لاحظ هوابتهد أن رجال العلم أنفسهم الذين يعرفون قصة هذا التبدد كثيرا ما يتقدمون بمستكشفات يرضونها وكأنهم يقولون : وأخيرا بلغنا اليقين !

« إن العالم فسيح . وليس هناك أعجب من ذلك الجزم القاطع الذي يؤمهم به الإنسان نفسه في كل عصر من عصور تاريخه ، فيقوم أن طرائق المعرفة عنده نهائية ، والمؤمنون والنيكيرون في ذلك سواء . والعلماء والمتشككون هم في الوقت الحاضر أكبر اليقنين ، يسمحون بالتقدم في التفاصيل ، وينسكرون كل تجديد في الأساس . وفي شيوخ اليقينية هذا قضاء على المفاخرات الفلسفية - إن العالم فسيح »

وهكذا نبلغ ماسماه هوابتهد « مغالطة النهائية اليقينية » . وهو أقل تعاليمه شيوعا . وعندما يثار هذا المذهب في حديث أو في مطبوع للجمهور ، سرعان ما يرى فيه الناس البدعة والضلال ، فالراء قد لا يعرف حقيقة ما لا يحب ، ولكنه يعرف أنه لا يحب فيمضب ويزجر كلما بدا له الشبح .



والمنظر الثاني هو « بيت » دكنز « المكشوف » . لم يكن بيتا تخياليا ، إنما هو منزل من حجاز السودان يقع على رأس باور في البحر عند برود ستيز . وهو بيت مكشوف فعلا ، تهتز جذراته من تلاطم الأمواج في عواصف الشتاء . وهناك الثقل ألفرد هوابتهد بأقلى ويد ، وهي سلبية أشرة أرلندية عشوائية . نشأت في

بريتاني ، ونقلت دراستها في دير لاراهايات ، وأنت في صباحها إلى إنجلترا لتميش فيها . واقترن بها هوايتهد في ديسمبر من عام ١٨٩٠ ، وعاشا في كبردج عشرين عاماً من هذا التاريخ ، قضيا ثمانية منها من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٦ في بيت مل بجرانشستر ، وهو بيت ريفي من القرن السابع عشر مستقوف بالغاب ؛ يقع موقعا جميلا وسط حديقة غناء ، وعلى مقربة منه البركة التي ورد ذكرها في شوسر .

ولم تكن هنا فجوة بين الحياة المدنية والحياة الدينية . وقد شارك في حياة القرية مشاركة حية . وضربا لأهل القرية مثلاً بالامتناع عن شرب الخمر ، وكان أهل القرية في ذلك الحين يدمنون الشراب . وحللا على عاتقهما إغاثة المحتاج وعول الخدم . فكان في سلوكهما هذا بقية من سلوك الأسراء في القرن الثامن عشر ، بل سلوك الإقطاعيين في القرن السابع عشر . وقد سادت هذه التجربة هوايتهد إلى إدراك الخلق الإنجليزي والمادات الشعبية الإنجليزية التي استطاع أن يربطها بتميماته الفلسفية . والتي عاونت على صيغ تفكيره المجرد بالمسحنة الإنسانية . وانغمس كذلك في سياسة الأحرار « وكان عملاً مثيراً . . . كان البيض الفاسد والبرتقال من الأسلحة الحزبية الفعالة ، وكثيراً ما رميت به . ولكنهما كانت دلائل القوة أكثر من دلائل الشعور السيء » .

سئل مرة : « في أية فترة من فترات حياتك بدأت تحس أنك ملكة زمام موضوعك ؟ »

فأجاب في خشونة غير مبهودة فيه : « لم يحدث ذلك قط » .

ولمدة ستة عشر عاماً في كبردج - فيما يظهر - كان في صراع دائم مع الأرق . وكما حل شهر سبتمبر بعد قضاء عطلة الصيف في الريف الإنجليزي ، في كنت ، أو في قرية صغيرة على البحر ، ساوره الشك أن يحتمل عاماً دراسياً بعد ذلك ، بيد أن الأرق لم يؤثر قط في عمله ، وأخذ يزول في لندن ؛ وبرأ منه نهائياً آخر الأمر . (م - ٣ محاورات)

وخلال ثمانى سنوات من سنى كمبردج كان يطلع على علوم الدين . وكانت مطالعته كلها فى هذه العلوم خارج المنهج الدراسى ، بيد أنها كانت شاملة بحيث أمكنه أن يجمع مكتبة دينية ضخمة . وفى نهاية هذه السنوات الثمانى طلق الموضوع وباع الكتب . وعرض عليه أحد باعة الكتب فى كمبردج مبلغا طيبا نظير هذه المجموعة ، ولكن تبين له أن هوابتهد يريد أن يبيعها لقاء كتب من مكتبته . واسترسل هوابتهد فى شراء الكتب حتى أنفق فيها أكثر ما يملك من مال .

* * *

وفى منتصف حياته ، بعدما أنجب ثلاثة أطفال ، حزم وزوجه أمرهما على الهجرة إلى لندن . وكانت مغامرة صادرة عن إيمان ولكنها بغير هدف معين . وفى جامعة لندن « اشتغلت بفنسل الزجاجات » على حد تعبيره . ولبت على ذلك ثلاث سنوات ثم أنشئ له بعد ذلك كرسي أستاذية ، وبعد اثنى عشر عاما أصبح رئيس مجلس الجامعة .

« وهذه الخبرة بمشكلات لندن ، التى مارسها أربعة عشر عاما (من ١٩١٠ إلى ١٩٢٤) حورت آرائى فى مشكلات التعليم العالى فى مدينة صناعية حديثة . وكان السائد فى ذلك الحين ضيق الأفق فى النظر إلى وظيفة الجامعات - بل إن هذا الأفق الضيق ما يزال قائما . كان هناك طراز اكسفورد وكمبردج من ناحية ، والطراز الألماني من ناحية أخرى ... غير أن الكتلة الهائلة المائجة من أرباب الحرف ، الذين يبحثون عن الاستنارة العقلية ، وذلك الشباب الناهض من كل مستوى اجتماعى الذى يتشوق إلى المعرفة الشافية ، والمشكلات المتنوعة التى ترتبت على ذلك - كل هذا كان عاملا جديدا فى الدنية . ولكن دنيا العلماء كانت غارقة فى الماضى السحيق » .

وانتهى القرن التاسع عشر فى ٤ من أغسطس من عام ١٩١٤ . واشترك

ولده نورث وأريك في الحرب العالمية الأولى ، ومات أصغرهما أريك في الحرب وكان طيارا . والتحقت ابنته جسي بوزارة الخارجية . ولا تستطيع أن تدرك إلا إدراكا طفيفا جدا كيف أثر فقدان أريك في والديه ، وذلك بعدما تتعرف إليهما شيئا فشيئا عاما بعد عام . واستطاعا في نهاية الأمر أن يتحدثنا عنه في حماسة وبابتسام ، ولكن هوايتهم قال مرة إن الكلمات التي تعبر عن الحزن مهما بلغت حيويتها ، ومحاولات المزاء حتى حينما تصدر عن أساتذة اللفظ ، عن الشعراء الإنجليز ، ليست عنده إلا محاولات مخففة « تجعل من الماطفة الحقيقية شيئا تافها » .

وبهذا انتهى المجلد الثاني من حياة هوايتهم .

* * *

وكانت دعوته للجامعة هارفارد في عام ١٩٢٤ مفاجأة تامة . سلمته زوجته الخطاب ذات مساء مقبض في الداخل وفي الخارج . وقرأ الخطاب وهما يجلسان إلى جوار الموقد ، ثم رده إليها . فقرأته ، ثم سأله . « وما رأيك فيه ؟ » ولشد ما كانت دهشتها حينما قال : « إنى لأؤثر هذا على أي شيء آخر في الدنيا » .

أما طريقة مجيئهما فلم تعرف بعد على وجه عام . صدرت الدعوة - بطبيعة الحال - من المستر لولى باعتباره رئيسا للجامعة ، غير أن فكرة الدعوة قد نبقت أولا في ذهن لورنس هندرسن وأمدت أمرة هنرى أوزيرن تيلر المبالغ اللازمة لكسرى هوايتهم . ولم يعلم بذلك هوايتهم وزوجه أنفسهم إلا بعد سنوات عدة .

والآن يبدأ المجلد الثالث من حياته .

في عام ١٩٢٤ يبدأ ألفرد نورث هوايتهم وهو في الثالثة والستين من عمره في أرض جديدة حياة جديدة ، وهي في سيرته أشد سنى حياته بريقا وإنتاجا . وقد شغ هذا الضوء العظيم فوق هارفارد في رفق وفي هدوء . وبدأت السماء تضيء

باشياع الخلود الأبيض الناصع . وتحدث الناس مرة أخرى عن قسم الفلسفة كما كانوا يتحدثون عنه قبل ذلك بمشرين عاما ، إبان ازدهاره في عهد وليم جيمز وجوسيا رويس وجورج سنثايانا وهو جو مونستربرج . وبدأت مؤلفات هوابتهد الكبرى تتوالى واحدا في إثر آخر : العلم والعالم الحديث في عام ١٩٢٥ ، والتطور والحقيقة في عام ١٩٢٩ ، ثم أشق مؤلفاته وإكته المؤلف الذي قال عنه صاحبه إنه «أشد ما يكون حاجة إلى كتابته» وهو (مغامرات الأفكار) في عام ١٩٣٣ ، وهو كتاب فيه قطعا من نفس هوابتهد أكثر مما في غيره من المؤلفات . وفي عام ١٩٣٨ أخرج (طرائق التفكير) . . . وقاعة الكتب المنشورة أطول من ذلك بكثير بطبيعة الحال .

وكان المتوقع أن يكتب في هارفارد ولا يعلم إلا قليلا . وقد قام بالعملين معا . فكان يحاضر ثلاث مرات كل أسبوع ، ولم يكفه أن يسمح لطلابه بالاجتماع به عشرين دقيقة ، بل كان يخصص لهم فترة ما بعد الظهر بأسرها أو فترة المساء كلها . «ومن وحى هذه الاجتماعات يعود المرء بنعم جديد» . وكانت الأفكار تسير في اتجاهين متقابلين ، لأن هوابتهد كان يحس أنه بحاجة إلى الاحتكاك بالمقول الشاب كي تبقى يناييمه في تدفق مستمر . وهو يقول : «من الخطأ الفاحش أن نظن أن السكبار لا يستطيعون التعلم من الصغار» .

ولم تكن هذه الاجتماعات عملية فحسب ، بل كانت شخصية كذلك . ولمدة ثلاثة عشر عاما على الأقل منذ منتصف العقد الثالث بعد عام ١٩٠٠ إلى ما بعد منتصف العقد الرابع ، كنا نسمع عن «المهرات في بيت هوابتهد» ليلة كل أسبوع يفتح فيها البيت للطلاب ، وإن يكن صاحب البيت يرحب بأي زائر . وكانت هذه الحفلات غاية في البساطة ، أحاديث ، وشراب الشكلاطة الساخنة ، مع قليل من الكمك . وكان التلاميذ يماونون في عمل الشكلاطة وفي الخدمة . أما الحديث فحديثهم

يشجعهم عليه بمهارة مضيعة ومضيعة . وبالجمله كانت الأمسيات أمسيات الطلبة ، ولم تكن أمسيات آل هوابتهد . وقد كان الطلبة يحضرون في أول الأمر حذرين مثنى مثنى ، كي يحمي كل منهما الآخر ، ثم اعتادوا أن يأتوا زرافات . وقد طلب إليهم هوابتهد أن يصحبوا زميلاتهم ، وكانوا بالفعل يصحبونهم . ثم كانوا في نهاية الأمر يأتون في جماعات كبيرة ، وقد يبلغ الحاضرون من ستين إلى ثمانية وتسعين في الليلة الواحدة . فكان بيت هوابتهد « صالونا » بالمعنى الفرنسى في القرن الثامن عشر ، يقوم في بلد على ويروده الشبان والشابات ، يتناولون فيه الكعك الخفيف والشكلاته الساخنة . وكانوا يصبون إلى جانب هذا ذلك الرحيق العقلي الذى ينعش ولا يسكر ، وهو الحديث مع آل هوابتهد ، مع الرجل وزوجه ، وقد قال بنفسه مرة : « إننى وحدى أستاذ من الأساتذة ، ولسكنى مع اقلن أستاذ من الطراز الأول » .

* * *

وذات صباح في شهر مايو من عام ١٩٣٢ دق التليفون بمنزلى . وكانت التكلمة مسز تاديوز دى فريز ، التى راح زوجها الشاب ضحية وباء الحرب في ممسكر حربى في عام ١٩١٨ ، والتى كان رئيس تحرير (بوستن جلوب) . قالت :

« لقد دعوت آل هوابتهد للعشاء عندى غدا . فهل تستطيع أن تحضر ؟ »

« آسف . فقد حزمت متاعى استمدادا للسفر إلى آل بر كشير »

« إنهم ضماف ، وقد تقدمت بهم السن . وخير لك أن تعدل عن رأيك »
(وعدت من رأيى) .

وأخذت معرفتى بهوابتهد تنمو ببطء . وكنت في السنوات الست الأولى من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٨ واحدا من عشرات ، بل من مئات ، ممن يقصدون

هذا المسكن وينادرونه . وقد قال مرة إن الحديث ينبغي أن يبدأ بنغم هادى . « يجب أن يسمح للناس أن يتحدثوا فى الأمور العامة حتى يكتسبوا حرارة الحجرة . والطقس موضوع ملائم . والحديث فى الجو يكتفى » . وقد عكست صورة هذا الرأى فى الصفحات الانتاحية من هذه المحاورات . وسوف تنمو كذلك معرفة القارىء بهوابتهد شيئا فشيئا .

ولسكن بمد نحو هامين بسطت شخصيته نفوذا عجميا . وكأن شخصه وأفكاره قد تملكت كل شىء . وبلقته عجمية من لفتات الخيال طابقت شخصيته . إحدى المقطوعات الموسيقية الرائعة ، تلك الصفحات من خاتمة سمفونية براهمز الرابعة ، تلك (الباسا كجليا) المظيمة حيث تردد الأبواق الموضوع فى نتهات ذهبية متدفقة متصلة فوق (الاريجياى) الرنان ، مع الجوقة و (فيولونسل) و (فيولا) - أى السكمان الجهير والسكمان الأوسط - (والمقاييس من ١١٣ إلى ١٢٩) ويبدو أن وجه الشبه بين شخص هوابتهد وهذه المقطوعة الموسيقية هو الجلال فى كل .

ثم اختفى شخصه بمد ذلك . وبقي صوته واضحا ، رنانا ، رفيقا ، حازما ، دقيق النطق ، بريطانيا فى نغمته ونبرته . وبقيت صورة وجهه ، جادا ، مشرقا ، باسما فى أغلب الأحيان ، وبشرته بيضاء فى نورد ، وعينه زرقاوان برافتان . صافيتان بريئتان كعيني الطفل ، ولكن فى عمق الحكماء ، ضاحكا فى أكثر الأحيان ، أو مرحا بالمشاهدة . قوامه نحيل ، ضميم ، احدودب من مشقات البحث العلمى الذى شغله طوال حياته . وكان دائما حليما ، لا يضمثر مثقال ذرة من شر . ورغم تسليحه باللفظ المريع ، لم يجرح قط امراة بكلمة . وكأن وجوده المادى لم يكن إلا موصلا ، لاستفراق الحاضرين كلية فى أفكاره . وكأن هوابتهد الفكر قد اختفى فى محيط أفكاره . ولم يحدث ذلك مرة واحدة . . . ولكنه كثيرا .

ما حدث ، وبغير انقطاع . وحدث شيء غير ذلك أيضا . فكم من مرة توجهت إلى كبرج مجهدا بعد عمل يوم كامل لا أستطيع أن أحتمل حديثا متصلا ، فأجدني عائدا في منتصف الليل بعد أربع أو خمس ساعات من تبادل الحديث معه ملتجئا بنار الحياة المشتعلة . فهل كانت تشع منه كهرباء الروح ؟

وكان يحيرني أن زائرين آخرين كانوا يتلقون ذلك الفيض من الآراء القوية المبتكرة في برودة بادية . فهل كان مجرد فرد من كثيرين ، وهل لم يحدث شيء غير عادي ؟ هل كان يمكن لهؤلاء الزائرين أن يظفروا بمثل هذا الحديث في مائة موضع آخر ؟ أما عني ، فلم أستمع إلى حديث يشبهه في أمريكا أو في أوروبا ، وأستبعد أن أستمع إلى مثله مرة أخرى . إن كان هذا الحديث في الكتب ، فما عناوين تلك الكتب ؟ كلا . إنه حديث لم تتضمنه الكتب ، بل لم تتضمنه كتبها عينا كما ذكر فيما بعد .

وقد يسأل سائل بعد قراءة هذه المحاورات : « ما هو وجه العجب الشديد فيها ؟ » أحسب أن تفكير هوايتهد بطيء التأثير . إنه كالوعظة في السلوك ، ليست لها قيمة إلا باتباعها ، أو كالوسيقى ، صامتة قبل أدائها ، أو كالبنود ، عقيمة ما لم تبذر وتررع . يقول الناس عن كتب هوايتهد : « لقد قرأناها ، فهنرنا وأمتعتنا ، ولكننا لم نذكر فيما بعد ما قاله فيها » . ويصدق مثل هذا القول على نغات (دبابيل التنوعة) لبيتروفن ، وعلى جمهورية أفلاطون .

* * *

ولكن حذار ، فإن بعض ما في هذه المحاورات يدعو إلى الجدل الشديد . ومن الكتب ما يحوى شيئا يسر كل إنسان ، وأرجو ألا يكون هذا الكتاب منفرا على إطلاقه . ومع ذلك فأعتقد أنه يمكن القول ، في شيء من التواضع ، إن

في الصفحات التالية ما يزعم كل قارئ ، وأنا واحد من هؤلاء . إن ساكن الحدود لا يستمتع في الوقت عينه بلذة المقامرة والراحة المستقبية التي تتوافر لأفراد المجتمع المستقر . إن كان من القراء من لا يعبأ بنقده للعقائد المسيحية ، أو انحرافه عن الفكر المبراني ، فأنا لا أعبأ كذلك ببعض أحكامه في الموسيقى والشعر ، وهما بما أدين به ، والفارق هو : أي الديانتين محل الطمن ؟ أما هوابتهد فكان يسير نحو مرتفع رصين يملو على الجدل .

« إن لميبي مزيج من النيران يملوها جميعا » .

لم يكن هوابتهد ممن يحمدون الرأي ، لأنه كان يمتق اليقينية النهائية ، ولم أكن أعارضه (وعلى أية حال كنت أعجز عن ذلك عجزاً تاماً) . إنما كانت مهمتي أن أعاون على استمرار الحديث وتدفق الأفكار . لم أعارض قط « لأن أسوأ ما في المعارضة هو أنها تفسد البحث الجيد » ومن ثم فإن كان بعض ما يصدر من أفكار جارحاً ، لم بسمي إلا أن أردد ما قال تودجر فيرميل في قصة (ماجور باربرا) - كما روى يل ووكر .

يقول : إنه ينظر إلى السماء ويقول « أتمنى أن أكون جديراً بالمهانة في سبيل الله ! » .

ثم إن الأرجح أن تسجيل حديث رجل من البارزين عمل لا يحمده عليه فاعله . بل إن خير رواة الأحاديث لم يكتسبوا سوى نعمتهم لمائة عام أو مائتي عام بالحير الأذلاء الأتباع المتزلفين . أضف إلى ذلك أن كل امرئ في الوقت الحاضر يحسب أنه في امتياز غيره من الناس ، إن لم يفقههم جميعاً ، ومن ثم فإن تقديري لغيري سوف يصمى بالنقص في احترامي لذاتي . بيد أنني أخالف في الرأي مخالفة قاطعة هذه المساواة المزعومة . إن راويكم لم يبلغ مبلغ هوابتهد ، والمفارقة العقلية بيني وبينه قاعة كذلك .

مثلى مثل سبى إنجليزى فى السادسة عشرة من عمره ، عامل على ظهر حمامة البضائع (دقونيان) التابعة لشركة لاى لاند ، التى اعتادت قبل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أن ترسو عند إيست بوستن قريبا من منزل سنت مارى للملاحين . كان الصبى لندنى المولد ، واسمه شارلز بيللى (وينادى كول بايللى) وكان حسن التربية ، إذا اشغدت معرفتك به وأمكنك أن توجه إليه السؤال ، فتقول له :

« قل لى ياشارلز ، لقد ذكرت لى أن أبويك فقيران ، وأنتك نشأت فى مرفأ شرق لندن ، فكيف حدث ذلك ؟ »

فيجيبك شارلز فى تواضع جم :

« لقد تعلمت أن أزم حدود الأدب فى حفرة من يفضلى » .

إن هذه الكلمات الذهبية كالعلة الصحيحة ، لاتزال تحتفظ بريقها كما كانت يوم صدرت عن دار سك النقود . والآن ونحن قادمون على المحاورات أقول :

« اسمع يا كول : سوف أزم حدود الأدب فى حفرة من يفضلى » .

° ° °

وليست « المحاورات » إلا عنواناً ملائماً ، وإن بسكن هو العنوان الذى يجب اختياره . وأى نزوع إلى منافسة « محاورات أفلاطون » التى سبقها ضرب من السخف ، بل إن هذه المحاورات وتلك على طرفى نقيض . فمحاورات أفلاطون قد صيغت لى تبدو حديثاً تلقائياً . أما محاورات هوايتهد فهى فى الواقع حديث تلقائى ، حتى لمختلف المتكلمين الذين كثيراً ما بطيمون وصية سقراط « أن يتابعوا الجدال إلى حيث ينتهى » . وحتى فى هذه الحالة يجب قراءة بعض ملاحظات هوايتهد فى محيطها التاريخى المحدد مع مراعاة التاريخ المضبوط الذى أبدت فيه . وهو شرط من الشروط التى حتمها هوايتهد صراحة ، وذلك لأن ما يشوق عصرأ متأخراً فى هذه المحاورات هو كيف كان الناس يحسون وفيهم كانوا يفكرون بشأن الحوادث وهى جارية وقبل إمكان صدور حكم نهائى فيها . وهو أمر قلما يذكره القارئ ،

لأن الجنس البشرى ، الذى يفتقر إلى بعد النظر إلى الأمام ، يغرم غراماً شديداً بالنظر نظرة تنبؤية إلى الوراء . وكـم من عالم فى التاريخ ، على التأهيل ، يطلع على بعض هذه الصفحات بعد طبعها ، تراه يقع فوراً فى هذا الفخ ، ويحتج قائلاً :
« كان ينبغي له حقاً أن يكون أكثر من ذلك علماً ! »

« ولكن هل كنت أنت أكثر من ذلك علماً فى عام ١٩٣٤ أو عام ١٩٤٤ ؟ »

بيد أن هذا الجانب من المحاورات ليس كبيراً ؛ لأن الجزء الأكبر من هوابتهيد لا يتحدث عن أمور زائلة . كان اهتمامه بالحوادث اليومية بشغل ذهنه ، وكان دائماً يفكر تفكيراً مبتكراً فى كل حادث ، غير أن شعاع تفكيره الحق كان يتسلط على مدى قرون .

وبلاحظ أن بعض الموضوعات بظهور فى هذه المحاورات من بدايتها إلى نهايتها . ومن السهل معرفتها . ولكن العودة إلى هذه الموضوعات بين حين وآخر ليس من قبيل التكرار . فكلما عاد ذكر الموضوع تعرض الفكرة من وجهة جديدة . وكان من اليسور أن يضم شتات الموضوع فى عرض واحد شامل للفكرة . ولو فعلت ذلك لحرفت الأصل تحريفاً لا يفتقر . وبدلاً من أن أفعل ذلك رضيت أن أعود إلى الموضوع مرة بعد أخرى ، وكل مرة أعرضه بشكل جديد يختلف باختلاف المناسبة ، كأنه نغمة موسيقية تملو حيناً وتنخفض حيناً آخر وفقاً للجو الفنى . وهذا العرض الذى يشبه العرض الموسيقى ، أقوى فى النفس أثراً ، وإن يكن من غير تدبير سابق . (وكأنى استمد لصيد معين ، ثم أطاردته حتى أبلغ نهاية الشوط) ولا أجد بأساً من عرض الموضوع وما يناقضه ، كأنه حركة موسيقية ، حتى تأتى اللاحظة التى يتملك فيها هوابتهيد الزمام ، كما يحدث كذلك عندما تعزف الموسيقى . وبهذه الطريقة تبلغ الحركة قممها ، وتأخذ الآلات الموسيقية فى المهبوط تدريجاً حتى يتم صمتها فى هدوء .

ونمة تشبيه آخر بصري لسز هو إيتهد ، « تفكيره كمنشور الضوء . يجب ألا تنظر إليه من جانب واحد فقط ، ولكن من جميع الجوانب ، ثم من أسفل ، ومن أعلى . والمنشور - حينما تنظر إليه بهذه الطريقة وأنت تدور في حركتك - يمتلئ بالأضواء والألوان المتغيرة . فإن أنت نظرت إليه من جانب واحد فقط فكأنك لم تنظر إليه ألبتة » . فالرؤية من جانب واحد هي ما يسميه هو إيتهد « نصف الحقيقة » - « ليست هناك حقائق كاملة ، كل الحقائق أنصاف . ومن الضلال أن تحاول أن تعاملها باعتبارها حقائق كاملة . » (وقد صيغت من قديم ألغاز رياضية لإثبات ذلك) .

ولذا فإن الاعتقاد بأن العودة إلى الموضوع الواحد في أكثر من مكان تكرار لفائدة منه اعتقاد ليس له محل . فلم تكن مهمتي أن أبتز أو أقتلع أو أقطع ، وإنما كانت مهمتي تسجيل ما قيل .

إذن لماذا قيل ؟ وإلى أي حد يعتبر النص هنا موثوقا به ؟ عند الاشتغال بتدوين المحاورات من الذاكرة بنصها تقريبا حرفيا بقدر ما يستطيع الكاتب ، نجد أن الثلاثين السنة الأولى هي أشق السنوات جميعا . وقد بدأت ممارسة التدوين وأنا تلميذ بالمدرسة في أول يناير من عام ١٩٠١ . تابعها كما يتابع كاتب الاختزال المحاضرات ، ثم كما يتابع الصحفي الأخبار (وسرعان ما يدرك الصحفي أنه إذا أخرج القلم والورق على رأى من شخص لم يتعود المقابلة ، فإن هذا الشخص المنسكود يسكاد بتجمد لتوه) . ثم تلت ذلك سنوات اخترنت فيها أحاديثي عن كل أنواع الرجال وكل ظروفهم ، المشهور منهم والمغمور . ولما حل عام ١٩٣٢ ، حينما بدأ اجتماعي هذا بهو إيتهد ، بات تسجيل الحادثات عندي شيئا أكثر من ذلك . وربما يجدر بي هنا أن أضيف أن الذاكرة تكون أقرب إلى الدقة بمدنمان وأربعين ساعة منها بعد أربع وعشرين ساعة - كأن الفترة الطويلة تسكب المادة من الوقت ما يفرقها إلى الأعماق لكي تطفو مرة أخرى إلى مستوى الوعي .

وما أشبه ذلك بتجربة المستمع إلى حفلة موسيقية ، فإن الموضوعات بعد العزف مباشرة يشق تذكرها . أما في اليوم التالي ، أو الذي يليه ، فإنها تعود من تلقاء نفسها . بيد أن هوابنهد توقع الشك في دقة التسجيل (ولا أضمن صحتها مائة في المائة) فقال عمادون في الأمسيات الأخيرة ، حينما كنا معا :

« يجدر بك أن تدون ملحوظة بأن هذه المحاورات قد قرأناها معا ، وأنها تطابق ما قيل . والا تشكك الناس فيها . بل أنا نفسي ربما لا اعتقد في صحتها... » وما مبلغ اعتقادي في دقتها ؟ في الأحاديث العامة التي لا تعدو أن تكون انتهازا للمناسبات ومتابعة للفكر ، تكون المحاورات حرفية في أغلب الأحيان ، مع التنبيه إلى التمايز المميزة خاصة . أما في أحاديث هوابنهد المطولة ، فإن استخدام اللغة يتم عن دقة رياضية ، وسيطرته على الإنجليزية كاملة ، والتفكير ذاته يركز أحيانا إلى درجة تجعلني أصنى إليه في ذهول خفي : « كيف أستطيع الاحتفاظ بكل هذا ؟ وكيف آمل أن أدونه في صورة شبيهة - ولو إلى حد - بالوضوح الذي يتميز به وهو يلقيه شفاهة ؟ » والجواب أني كثيرا ما أعجز عن ذلك . وفي هذا الصدد أردد ماجاء باللاتينية المرفوعة على إحدى قاعات الرقص في معسكر غربي للتمدين :

« لا تقتل عازف البيانو ، فهو يبذل قصارى جهده »

واستمر الحال على ذلك تسع سنوات ، من عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٤١ ، وقد دونت نصف الكتاب ، دون أن يعلم أحد - دون أن يعلم الكاتب نفسه - أنه سيخرج على صورة كتاب . ولم يعلم آل هوابنهد أني كنت أسجل أحاديثهم ، ولم يكن هناك ما يدهو إلى علمهم . « إن ذلك من حسن التدبير ياهوراشيو » . ثم قدمت الأحاديث للمسحف ، وكنت أرسل صوراً مما ينشر إليه في حينه (ولم يذكر اسمه قط في مطبوع) وذلك إنصافاً من ناحية ، ولكي أناكد من ناحية أخرى إن كنت قد احتفظت بالمادة صحيحة وفهمتها فهما جيداً .

نم كانت الحرب الثانية . وكانت زوجه وابنها في لندن تحت القنابل ، وكان حفيدهما في إنجلترا كذلك عرضة لوابلها - كما قالت مسز هوايتهد . وقد طبعت هذه المحاورات حتى خريف عام ١٩٤١ وبعثت بها إليهم من قبيل التسلية . ولم أذكر شيئاً عن نشرها حتى ديسمبر من ذلك العام . وسيجد القارىء في حديث ذلك التاريخ رأى الفيلسوف في إمكان الانتفاع بها . هل كان العلم بالاحتفاظ بها يوهن من تلقائيتها ؟ إن أحداً لم يفكر في ذلك ، فقد كان هناك الكثير غير ذلك مما يثير الاهتمام .

وبعدما تقاعد هوايتهد في عام ١٩٣٧ ، كان لابد من أن يتناقص عدد زائريه . وقد واظب كثير من زائريه على الحضور ، وبعضهم من أقامى أركان العمورة ، ولكن تقدم السن والصمم جعلاً المؤانسة على المستوى الأول غير ممكنة التحقيق . ومع هذا ، فبالرغم من أن الاجتماعات الكبرى ربما استخلصت أوجها أكثر من أفكاره وأظهرت جوانب أكثر من شخصيته ، فإن مرور الزمن واقتصار المحاورات على أربع أو حتى على ثلاث جملة يوغل في الأفكار التي كان يتميز بها بصفة خاصة . فقد كان من قبل لا يجب أن يُسأل عما جاء في كتبه المنشورة . ولا يود المساس بموضوعها . فهي مطبوعة يطلع عليها كل قارئ . وقد بذل أقصى جهده في عرضها في صيغة مفهومة . فكان يجب الخوض في شيء جديد .

والآن جاوز الثمانين من عمره . ولم يبد عليه ألبتة ما يبدل على ضعف قواه العقلية . بل لقد أخذ التيار في الصمود . وفي سنواته النهائية ، حينما كان يتخذ فندق امباسادر مسكنه له ، لما كانت جلساتها تبدأ مبكرة في السابعة والنصف مساءً ، وتستمر حتى منتصف الليل ، كان ينتهي من الحديث وهو أوفر نشاطاً مما بدأ . وكان اسم الفندق - امباسادر أو السفير - كثيراً ما يذكّرني برواية هنرى جيمس ، « السفراء » ؛ لأن هوايتهد كان حقاً سفيراً بأروع ما تحمل الكلمة من معنى .

وهو يدين باحتفاظه بقواه لاعتداله فى كل أمر من الأمور . كان شديد الإمساك ، يتمف فى ما كل ، ويسمح بالنبيذ ، ولا يدخن . وكأنه لم يشته المذبهات قط . إن منظر هذا الرجل الذى جاوز الثمانين من عمره ولا يزال متورد الوجه ، صافى العينين ، نقى البشرة ، لا تبدو عليه سمة من سمات الانهماك التى يتميز بها الرجال عامة . هذا النظر - كلما تقدمت به السن - لم يكن أسمى عوامل تأثير شخصيته . وعامل آخر من عوامل التأثير أقوى من هذا ، رؤيته وهو يعيش فى مسكن من أربع حجرات حياة أبعد مدى وأكثر حرية وأوسع أفقا فى العقل والروح من حياة الكثيرين فى بحبوحة ورغد . إن المرء يعتاد التسامح مع المسنين فى ولاء بنوى لما يبدر منهم من انفعال وشذوذ . بيد أن هوابتهد لم يتصف بما يدعو إلى التسامح . فقد كان هذوؤه وجلاله واتساع أفقه يرد توافه الحياة اليومية إلى قيمتها الحقيقية . ولكن البادىء العامة عنده كانت ترتفع إلى قضايا هامة ينبغى الدفاع عنها بجرارة شديدة . لم يعمل هوابتهد على ميدان المعركة ، ولكن ميدان المعركة كان رفيع المستوى . ومن أجل هذا كان يتميز بصفات عجيبة . فقد قابل مشكلات كثيرة وأوجد لها الحلول ، وهى مشكلات لم يدرك وجودها قط أكثر الناس . كنت تحس فى حضرته أنك أمام رجل لا يخاف - لا يخاف من أعداء البشرية المألوفة : المرض والفقير والشيخوخة وسوء الحظ والموت . بل ولم يخش ما فى مصير البشرية من ألتاز عوبصة ، أو ما فى الكون من متاهات . فى تلك المجالات الريبة كان مطمئن النفس مرتاح الضمير . وهذا معنى أن يكون المرء فيلسوفا : أن يصادق العدو ، وأن يروؤ فى المجهول فى دخيلة نفسه . كان الناس يرون فيه اعتماد النصر . وكل انتصاراته - التى نسبها من أمد بعيد - كانت إلى جانبه تعمل وتجاهد ، دون أن يراها أحد ، وإذا بالناس يفتاجون عند ما يتظلمون إلى قتته بكثرة ما يملك من المراتب الحربية والفرسان .

قال مرة إن الكتاب المقدس بدلا من أن ينتهى بسفر الرؤيا للقديس يوحنا ،

كان ينبغي أن ينتهى برثاء بركليز . وفي هذا الرثاء عبارتان : إحداها تليق بفاتحة هذه المحاورات ، والأخرى بنهاية حياته . وهما :

« ليس لدينا لجارنا نظرات سوداء أو كلمات ساخطة إذا كان يستمتع بحياته على طريقته الخاصة » .

و « الأرض كلها مقبرة لمشاهير الرجال ، وقصة حياتهم لا تنقش على الحجر في أوطانهم فحسب ، ولكنها تحيا كذلك بعيدا ، دون أن يكون لها رمز برى ، متغلغلة في تاريخ حياة غيرهم من الرجال » .

ذلك لأن شخصا جديرا بعهد بركليز كان يعيش في عصرنا .

المحاورات

(١)

٦ من إبريل ١٩٣٤ .

الذكرى السابعة عشرة لدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى .
كان إعلان الحرب في يوم مقدس هويوم الجمعة الحزينة ، وهي سخرية من سخريات
التاريخ لم يلتفت إليها أحد في حينها على ما يبدو . وكان هذا الأمر يشغل أذهاننا
في أحد مؤتمرات هيئة التحرير ، ومبارح عالقا بخاطري وأنا أقصد كانتون
لأتناول العشاء مع آل هوايتهد . وكان ابنهم الأصغر أريك الطيار قد لاقى حتفه
في الحرب .

وعرفت من إشارة تليفونية أن العشاء في الساعة السادسة . فسارعت إلى
ميدان ما تا بان بالقطار ، ثم استأجرت سيارة حتى منزلهم بشارع كانتون المطل
على « التلال الزرقاء » . وعندئذ علمت أن العشاء لن يكون قبل الساعة السابعة ،
فخففوا بذلك ارتباكى بلهاقة . وقابلنى الدكتور نيكولاس ، وهو طبيب شاب
في أحد المستشفيات الكبرى بلندن ، قدم مع زوجته إلى بلادنا لأول مرة في اليوم
السابق فقط ، وقد علمت أنهما يمتان إلى آل هوايتهد بصلة القرى . ثم أبلغت
رسالة في الحال .

قال الرسول : « تفضل بالذهاب إلى المكتب لكي تتحدث مع مستر هوايتهد
حتى يحين موعد العشاء »

وكان هوايتهد جالسا إلى مكتبه بجوار نافذتين ، وضاء الجبين عمرة من

أثر أشعة الشمس التي كانت تغمره إلى وقت متأخر في الأسيل .

فنهض وقال :

« ما أسعدنى بقدمك مبكرا ! كان وقتى بمد الظهر متقطعا ، وكنت أنسكهم حتى يحل موعد العشاء » .

وانتقينا مقعدين كبيرين إلى جوار الموقد ، وأخذ يتحدث عن الصحف .

قال : « إن الصحف الأمريكية تترك في القارىء من عناوينها انطبعا خاطئا عاما . فإذا ماشرع القارىء في الاطلاع على ما ورد تحت العناوين وجد أن محرريه قوم معقولون جدا ، وهم فيما يسمع لهم به من مجال أشد إنصافا من المحررين الإنجليز لخصومهم في السياسة . إن الصحف الإنجليزية أحسن تحريرا على وجه الاجمال ، ولكن عندما يرتفع مستوى الكتابة في الصحف الأمريكية ، فإنى أعتقد أنه يملو المستوى الإنجليزي » .

قلت : « ذلك يتفق مع بعض خبرتى ؛ في الصيف الماضى كنت أحرر مقالا عن معرض مخطوطات فاجنر في بيروت لصحيفة « تايمز » اللندنية . ولم أجد تحريره كالأو كتبت « لبوسن جلوب » . لأن التنازع تريد أن يتخلص الأسلوب من كل زبجة . »

والظاهر أن هوابتهد كان كذلك يعلم أن اليوم يوافق يوم الذكرى ، وأخذ يتحدث عن بمد الكتب - التي ألفها الأساتذة عن الحرب العالمية - عن الواقع :

« إنهم يفحصون الأوراق الرسمية بدقة بالغة ، ولكن ماشأن الأوراق الرسمية بها ؟ إن حالة الخوف التي سادت من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩١٤ كانت مكتومة ، تكاد

أن تكون لا شهورية . امتنع الناس عن الإجابة بها ، آملين بذلك ألا تنفجر المفرة ماب ، ولكن الفرع كان دائما في النفوس . إن إنجلترا لم يسدها الإحساس بالأمن إلا بضع سنوات بعد عام ١٨٧٠ حينما كان من الجلى أن فرنسا لن تهاجم . إن التاريخ الحقيقى لا يكتب لأنه ليس فى عقول الناس ، ولكن فى أعصابهم . وقلوبهم .

« هب أن ثقافتنا الأمريكية قد بحيث ، فمن ذا تظن أننا فدا أنجينا حتى الآن ممن يستطيع أن يكون عونا دائما للعالم ؟ »

« والت هويتان »

« أليس امرسن ؟ »

« لقد أمنت فى قراءة امرسن فى شبابى ، ولكنى أستسمح جيرانى الطيبين ، أسرة فريز وهم (حفنة امرسن) فى أن أقول إنه لم يكن شديد الابتكار . فى حين أن هويتان قد أدخل فى الشعر شيئا لم يكن فيه من قبل . وكثير من أقواله فيه من الجدة ما كان يضطره الى اختراع صيغة جديدة للتعبير . يبدو لى أن هويتان كان واحدا من عظماء الشعراء القلائل الذين وجدوا فى التاريخ . إنه يستطيع أن يقف بسهولة الى جوار الشعراء الأوربيين المظاء حقا . . . إذا اندرت المدنية الإنجليزية قبل عام ١٥٠٠ ، ما كانت الحسارة فادحة . فان شوسر لا يباغ قامة دانتي أو هوسر ، ومع أنه لدينا بعض الكاتدراتيات الجميلة ، إلا أن الفن القوطى الإنجليزي لا يبلغ من الجودة مبلغ الفن القوطى الفرنسى . ولكنك لو حطمت الحضارة الإنجليزية من عام ١٥٠٠ الى عام ١٩٠٠ أفقرت العالم كثيرا ، لأنها أضافت شيئا هاما الى تقدم الروح البشرى »

قلت : « لاحظت فى كلية ونشستر فى الصيف الماضى شيئا اعتقدت أن له قيمته ؛ فقد ساقى رجينولد كوبلاند كما ساق سام موريسون من أكسفورد لى يرينا أين كانت مدرسته . وأثناء مرورنا بحجرات الصفوف العليا من التلاميذ

لاحظت على مكانهم أنصوص ايسكلنس ، وثيو سيديد ، وغيرها من « المصنوع العظيم » ، ولم تكن أنصوصا دراسية ، مجموعة لتلاميذ المدارس ، وإنما كانت الأصول العريقة بعينها . فسألت كوبلاند : « هل يدرس هؤلاء التلاميذ المؤلفين المسرحيين والمؤرخين في القرن الخامس في هذه السن ؟ وأجابني : كلا ، إنهم يقرءونهم من تلقاء أنفسهم . أما في هارفارد فيحسن الطالب أن يقرأ هؤلاء المؤلفين في العام الثاني من دراسته الجامعية . لشد ما كان ذهولى . »

فقال هوابند محدرا إياى : « يجب أن تذكر أن التلاميذ في ونشستر مجموعة مختارة ، يخضعون لنوع فريد جدا من التدريب ، يتأرون به غاية التأثير . إنهم يكتسبون في هذه الناحية مهارة فائقة ، فإن جاوزوها كانوا على جهالة شديدة . إنهم يعرفون الكثير عن عادات الرومان في عصر حروب قرطاجنة ، ولكنهم قليلا ما يعلمون - بل قد لا يعلمون شيئا - عن المشكلات الراهنة في بلدهم ورمانيهم . إنهم يتفوقون في الجامعات ، ويشتهرون في المهن ، ويدفع صيتهم كرجال إدارة في المستعمرات ، أو موظفي حكومة . ولكن ما نصيبهم من الفنون المبتكرة ؟ لا أحسب أنك تجد منهم الكثير متفوقين في هذا الميدان . إنهم يحسنون الكتابة ، ولكن بخيال محدود . الطلبة الأمريكان أقل معرفة ، ولكنهم أشد شغفا بالتعلم : أما التلاميذ الإنجليز فهم أقل شغفا وأكثر علما . الطالب الأمريكى قليل المعرفة فيما يهيمه ، والطالب الإنجليزى كثير المعرفة فيما يبدو أنه لا يهيمه كثيرا » . قال هوابند ذلك وبريق الضحك يترقق في عينية الزرقاوين اللامعتين .

فوافقته وعقبت بقولى : « أجل ، ولكن التربة الثقافية في أوروبا بأسرها أشد خصوبة » .

« إنك شديد الاهتمام بالتربة . ليس الأمر أمر التربة : فأنتم من الشعب الأوروبى عينه ، وتستطيعون تناول التاريخ الأوروبى بأسره . غير أن الأمريكان شديدو الخجل » .

« يستمرى نظرى أن كتابنا لا يعرفون ما يكفى » .

« حقا إن أكثر عظماء الكتاب كانوا يعرفون الكثير . ولكن من الجائز أن يعرف الإنسان أكثر مما ينبغى . إنما المراد «إحساس» عميق بالاشياء . والخطر السكامن فى الدنيات القديمة هو أن تعاليمها ربما كانت «أطيب» مما يجب . وذلك يشبط من همم التلاميذ . أنهم يعرفون الكثير عما هم عمله ، وهم يحسنون الكتابة ، ولكن بغير جدّة . من السهولة القائلة لعصر من عصور الفن الناهض أن يموت بسبب الإغراق فى الدراسات القديمة وشدة الخدلة ، فتزهق روحه . لقد لبثت أكسفورد تعلم الأدب القديم قرونا عدة ، ورفضت كبردج قرونا عدة رفضا باتا أن تعلم الأدب ، وعلمت الرياضة ، ومع ذلك فقد خرجت كبردج من الشمرء ضف ما خرجت أكسفورد »

« لا يستطيع أحد - على الأقل - أن يشكو أن عصرنا لا يمدنا بالمثيرات الكثيرة ليكتب فيها الكتاب . أما المشكلة فى التاريخ فهو أنه يمدنا بأكثر مما تتطلب . »

قال هوايتهد : « لو أردت مثلاً قويا لزماننا اقرأ حياة «الملسكة إليزابث» (١) لمؤلفه نيل . إنها مثل حياننادقة بدفة : فيها الشك ، ولم تخطر ببال أحد أية فكرة عما عساه يحدث ، وقد كانت فرص الاغتتيال لإليزابث سانحة ، ثم كان دور مارى ستيوارت ، ولو أنها عاشت بعد إليزابث لحدث أحد أمرين : فإما أن تكون ملسكة وينهار ماتم فى عهد الإصلاح الدينى ، أو تنشب حرب أهلية طاحنة . ومع ذلك فإن ذلك العصر قد تمخض عن عمل رائع . »

(١) « الملسكة إليزابث » لمؤلفه جون أرنت نيل ، أستاذ التاريخ الإنجليزى بجامعة لندن — هاركورث بريس ١٩٣٤ .

« هل عصور الانقلاب ملائمة للخلق ؟ » .

« أحسب أنها كذلك: إذا لم يطل أمدّها ولم يشتدّ عنفها . في عصر إليزابث ، كانت تمرّ بعض الأسابيع الهادئة لا يحدث فيها الكثير ، فكان الشاعر يستطيع أن ينصرف إلى تأليف مسرحياته . ثم هناك أيضا الحافظ الذي يصدر عن شخصية كبيرة تؤدى عملا طيبا ، فتتلوها شخصيات أخرى كثيرة » .

« وهل يمكن أن يستنفد فنان واحد أو - فنانان عظيمان - عصرنا بأسره ، أو أن يستأثر وحده بصورة من صور الفن ؟ إن عصر النهضة يضمحلّ بعد مشيل أنجلو ، والأوبرا العظيمة بعد فاجر صورة هزيلة » .

« أجل إن ذلك قد يحدث ، وأمثال هؤلاء الرجال يظهرون في نهايات المهود . وموضع الخطر أن تكون الموضوعات الكبرى قد تمّ أداؤها بصورة رائعة ، فلا يجد الفنان المتأخر سوى الموضوعات الثانوية ، أو أن يجمّل بما سبق أو أن يزيد من تفاصيله ، فينساق الفن أو الفكر إلى الأماكن الضحلة . وما أيسر أن يتم ذلك ، وما أفتك بالفن . أقصد الموضوعات التي هي من قبيل حب الأم ناطقها ، إنها عالمية جدا ، حتى إن التمييز عنها يعتبر أمرا مبتذلا ، ومع ذلك فقد استطاع النحاتون في العصر الوسيط والمصورون في عصر النهضة أن يعبروا عنها تعبيراً جديلا يفوق التصوير . ومن الغث أن تحاول تقليدهم . إنني أحس أن أعظم الفنون لا يبتكر إلا في المصور ، وفي الموضوعات ، التي يشتد لها التحمس والديوع ، وينتقد عليها الإجماع . إنها تخاطب العامة من الناس ، وعندما يبدأ الفن في التصدع إلى حلقات خاصة تقل أهميته ؛ وعندما تقول هذه الحلقات : « إن هذا الفن أرفع من أن تفهمه العامة » حينئذ أشك في جودة الفن وفي عظمته .

« وعصرنا عصر تصدع ، وربما لم يهتد مفكرونا بعد إلى أنجاهاتهم في العهد الجديد . وربما كان ذلك سببا في تخلفهم . لقد زرعغت عقائد القرن التاسع عشر .

ومن دلائل ذلك كتابة السَّير بروح الهِكم . إن ليتن ستراتشي — الذى عرفته واستمعت به — يكتب عن شخصيات عصر فكتوريا فى ألفة بهم وحاسة بالغة لهم ، ولكن عندما يقول أحد المعاصرين : « دعنا نجلس ونسخر فى هدوء من هذه المخلوقات الغليظة ، دكتور توماس أرنولد والمملكة فكتوريا . عندما يقول ذلك ربما كان مسلّيا ، وربما مس مواطن الضعف فيهم ، ولكنه لا يكتب عما كان يمدّم بالروح المعنوية ، أو عما كان يدفع القرن الذى عاشوا فيه إلى الأمام . والحصول الثانى الذى نحصله من مثل هذه السخرية قد يدعو إلى الرثاء . وأظن أن جيلك قد قاوم التصدع أكثر من الجيل الصاعد . إنه لا يعرف عالما غير عالمه ، ولكن جيلك قد عرف . خذ مثلا هذه الدقائق الخمس عشرة التى نقضيها فى الحديث الآن . إننا نتكلم جادين . أما هم فيقولون : « ما يميز خمس عشرة دقيقة عن مثلها ، مادام المرء يقضها فى متاع ؟ ولماذا يكون هناك أى فارق ؟ وما هو الهدف ؟ وماهى القيمة ؟ وما هو الغرض ؟ » .

قلت مؤكداً : « ولكنك ولكنى لا نعتقد أن هذه الدقائق الخمس عشرة ليست بأكثر أهمية من مثيلاتها » .

« ذلك لأننا ننتهى إلى جيل كان يشمر أن بمض الخبرات أعلى قيمة من غيرها ، وكان عندنا حس بالاتجاه الذى تسير فيه » .

ثم أثير موضوع العلم — أو العصر العلمى — وهل هو يمادى الشعر ؟ قال : « أعتقد أن بعض عظماء الشعراء لو عاشوا فى زماننا ربما كانوا علماء ولم يكونوا شعراء . شلى — على سبيل المثال — أظن أنه كان بالإمكان أن يصبح كيمويا أو عالما من علماء الطبيعة . وخذ مثالا آخر : الأستاذ آمر الدارتموتى . لقد اشتهر اسمه فى أوروبا وأمريكا بكشفه فى ميدان علم النفس والبصريات . لو تحدثت إليه تبين لك على التو أنك تتحدث إلى شاعر أو صوفى » .

(وتنهت إلى أن هذا بعينه يحدث في مسرحية « أجنحة فوق أوروبا »
لصاحبها روبرت نيكولاس وموريس براون . العالم فيها شاب شاعر مثالي
يؤمن بشئلى) .

وهنا دخل علينا مستر جورج أجاسز ، وبينما كان يبحث على عجل مع الأستاذ
هوابتهد بعض شئون جامعة هافارد ، التى كان مستر أجاسز مراقبا عليها ، تهباً
لى الوقت لأنفرس فى الغرفة . إنها حجرة كبيرة ذات سقف مدبب يستند إلى
دعائم مكشوفة ، بها موقد من الطوب يتسم لكتل خشبية يبلغ طول الواحدة منها
ثلاث أقدام . وهذه الحجرة الدراسية تغطى جدرانها الكتب . والأريكة والمقاعد
حول الموقد مكسوة باللون الأخضر الفاتح ، وثيرة باردة ، ولكن لهيب الكتل
الخشبية كان يشع دفئاً مستحبا فى برودة إبريل الفاترة المتخلقة من فصل الشتاء .
والكتب وحافظة الأوراق تستقبل ضوء النهار استقبالا حسنا . ولكن مكان
عمله كان بالتأكيد ذلك المقعد الكبير المنخفض بجوار النافذة الجنوبية الغربية ،
وكان معدا بلوح للكتابة يمكنه أن يضعه فوق حجره .

ومن تلك النافذة يطل المرء على رقعة فسيحة من سلاسل التلال ، والمراعى
والغابات . وكان الوقت بعد ساعة الغروب ، فكانت التلال التشابكة تبدو فى
الآفاق أرجوانية كالشفق ، تحت سماء صافية فى ربيع باكر .

* * *

وكانت مسز هوابتهد فى حجرة الجلوس على مقعدها التمدد . وما أكثر
ما وقع من حوادث . لقد انقسمت رقبة ابنتها جس وهى تنزلق فوق ثلوج جبل
واشنطن . وظلت أسابيع معلقة بين الحياة والموت . ولما تقشع هذا الهم أصيبت
مسز هوابتهد بنوبة قلبية . فكانت صاحبة اللون ، ولكن ما برحت تتقبد

فيها شرارة الحياة . كانت بقامتها المديدة وقدها النحيل وشعرها الأبيض وردائها الأسود تبدو سيدة جليلة أكثر مما تبدو سيدة عليية ، وإن كانت تتناول عشاءها على نضد « طاولة » في مرقدها . أما نحن فقد أجهنا نحو مائدة الطعام ، ولكن الباب بيننا وبينها كان مفتوحا بحيث نستطيع أن نشارك في الحديث ، وكانت تفعل ذلك الفينة بعد الفينة .

وقبل البدء في العشاء كانت تطالع بصوت مرتفع ، وفي حماسة بالغة ، بمض الفقرات الأولى من « چون براونز بودى » التي قرأوها جميعا وأحبوها جميعا . ودخات علينا مسز نيكولز وقدّمت إلينا ، وهى سيدة إنجليزية أنيقة شابة من الطراز ذى الشعر الأسود والعيون الزرقاء ، صريحة ودود

وعلى مائدة الطعام ، واصل الإنجليز الثلاثة موضوع الأدب الأمريكى محاملة فيما يبدو لى ، ثم اتجه الحديث وجهة أخرى عندما قال أحد الحاضرين إن « البيت المكشوف » إحدى روايات دكنز القليلة التى تمالج بمض الشئ المذى الفسيح والتنوع فى الحياة الاجتماعية (مثل ماجاء فى قصائد هويتان من ذكر مطول لمختلف الحرف) .

قال دكتور نيكولز : « أجل ، كلها إلا فى البداية » .

وقال مستر أجاسز « كان دكنز جيداً فى نهاياته وأوساطه ، ولكنه ضعيف فى بداياته . أما تاكرى فكان جيداً فى البداية ، ضعيفاً بعد الوسط » .

وقال هوايتهد : « عندما كنت فى كبردج (وكان ذلك فى سنة ٨٣) لم يكن هناك من يقرأ دكنز . كان لا يستحق الاعتبار » .

فسأت مسز نيكولز : « وهل ذلك لضعف كتابته ؟ »

« إلى حد كبير فيما أحسب » .

« إن ناكري يستطيع بالطبع أن يكتب »

ثم ذُكرتُ « برأى تشسرتن فيه. ذلك أن (ناكري) كان يعتقد أن أموراً كثيرة ستبقى ، في حين أنها كانت فانية . « إنه لم يعرف من الجهلاء عدداً يمكنه من معرفة الحقيقة »

وقال هوايتهد : « لم يشرع رجال الجامعة والطبقات المثقفة في الاطلاع على دكتور بوجه عام — فيما أظن — ألا بعد عام ١٨٩٠ » .

« وما الذي أظهره آتند ؟ هل عاونه الاشتراكيون ؟ »

« كلا ، لم يماونوه البتة فيما أحسب » .

« كنت أفكر في الفايين ، وقد بدأ نشاطهم في عام ١٨٨٤ »

« كلا . بل لقد ظهر بنفسه ، مع ظهور تلمنن بمهونة الفقراء ، وإصلاح المساكن . »

ثم اتجه الحديث نحو إزالة أحياء الفقراء ، وانتصار الاشتراكيين في الانتخابات لتولى مجلس لندن البلدى ، مما دفع الحكومة إلى وضع مشروع ضخيم لإزالة المساكن القديمة . وهو مشروع — كما يقول الأستاذ — « كانوا يلوحون به ولكنهم لم يقصدوا فعلاً أن ينفذوه » . وجرى مقارنة بين أحياء لندن القديمة وأحياء نيويورك القديمة ، وقيل إن أحياء لندن تتميز على الأقل بمبانيها التي تصلح للبقاء أكثر مما تصلح نظائرها في نيويورك ، وإن أخطار النار فيها قليلة أو معدومة . وتمجبوا من وجود منازل خشبية ، ولكنهم رأوا أنها أليق بطبيعتها بمناظرنا الطبيعية . ثم أضاف هوايتهد إلى ذلك قوله : « إن من أبرز ما يميز المدينة الأمريكية — كما لاحظت — براعة رجال المطافئ بها »

ثم تساءلت قائلاً : « قبل أن تترك موضوع الروائيين ، ماذا حدث لجورج إليوت ؟ »

فأجاب الأستاذ : لقد تدهورت ، وإنى لأعجب لماذا حدث ذلك ، وقد كان كتابها (مدلارش) كتاباً عظيماً .

وتسكمت مسز هوايتهد من غرفة الجلوس قائلة :

« هل حاولت قراءتها أخيراً ؟ »

قلت : « أجل »

قالت : « وكذلك فعلت ، ولقد كانت جلييلة فيما أذكر ، ومازالت في بعض مواضعها . ولكن ألم تجد لديها فقرات طويلة مملة ثقيلة ؟ »

قلت : « ما أخرج هذا السؤال ! أجل لقد وجدت . بيد أنى كنت في المقعد الثالث من عمرى أقسم بها ، وهى لاتزال ترفع النصل يمينها على الأقل »

قالت مسز هوايتهد : « وكذلك كان الأمر معى . ولقد كففت عن حث صديقاتى فى حماسة على مطالعتها » .

وقال هوايتهد : « هذا أمر خطر . لقد لبثت أعواماً أعبد أنبياء العهد القديم . وحقا لم أطلعهم حديثاً ، ولكنى أذكر أنهم كانوا فى قمة المجد . ثم حاولت أن أقرأ أشمياء فلم أستطع أن أتابعه » .

« ماذا لمست فيه ؟ هل صرفتك عنه الطريقة التى دونت بها التراجم المختلفة للعهد القديم ؟ »

« كلا : إنما صرفنى عنه اللغو والابتماد عن الموضوع . ولقد وجدت أنى

عند ما أتحدث عن أنبياء العهد القديم ينبغي لي أن أسير في طريق آخر غير طريقى .

« هل تذكر ما قال سترانشى عن الأنبياء ؟ »

« كلا » .

« ذلك فى مقاله عن كارليل . حيث يقول إن كارليل لا يقدر الفنانين ، وإنه ليؤثر أن يذكر كنبى من الأنبياء . ولكى يكون المرء اليوم نبيا ينبغي أن يتحلى بصفات ثلاث : صوت مرتفع ، ووجه جهور ، وحدة غضب (وقد اقتبس سترانشى هذه الصورة الفكاهية من أرسطوفان . غير أن قيمتها لم تقل من أجل هذا) . ولكن سترانشى يتساءل : من ذا الذى يذكر الأنبياء على أية حال ؟ ربما ذكرنا أشعيا وأرميا ، ولكنهما كانا محظوظين جدا إذ نقلتهما إلى الإنجليزية لجنة من الأساقفة فى عهد إليزابث ! »

وقالت مسز هوابتهد : « أذكر لهما ما قاله سترانشى فى بيتنا عن جين أوستن . »

« كان ذلك عندما كنا نقطن كامبردج ، فى نهاية عهدنا بها ، وكان سترانشى يقيم معنا . وقال إنه قرأ جين أوستن ، فقلت له ، أنت تقرأ جين أوستن ! ماذا عندها لك ؟ ، فأجاب سترانشى : « العاطفة ! »

وقال أجاسز ، وكأنه يفكر بصوت مرتفع : « إنى أرى أن السخرية - رغم ما يقولون - لا تكون إلا عند الفشل فى تحقيق الشفقة الإنسانية . »

وعلى الدكتور بقوله : « إن الإنجيل يخلو من الفكاهة بدرجة ملحوظة ، وإنى لأعجب لماذا ؟ »

وأجاب هوايتهد جادا : « وإنك لتكتب أيضا إذا كان (يهوه) فوق رأسك دائما

» وقال مستر أجاسز : « على النقيض التام للإغريق وفكاهتهم » .

وسألت مسز نيكولز قائلة : « وأين ذاك ؟ » .

« أرسطوفان » .

وقال هوايتهد : « نعم ، ولستكني أعتقد أن الفكاهة جاءت متأخرة من المرحلة التي ينتمى إليها الأنبياء . أعتقد أن الفكاهة أمر جاء أخيرا ، وأن أرسطوفان يرجع فيها خاصة . فهل عند هومر من الفكاهة قليل أو كثير ؟ » .

وأضاف الدكتور قائلا : « وكتاب اليهود القدس - فوق ذلك - كان أدبا دينيا » .

وقال هوايتهد : « أجل . وعند ما تكون الكتابة جديدة لا يدون الناس ما يحسبونه تافها . وما برحت القبائل البدائية تمد سوء الخط من التوافه . ويحدثنا بعض إخواننا الذين كانوا في أفريقية مع الزنوج خلال الحرب كيف أن الزنوج قصدوا مرة جدول ماء في طلب شيء معين ثم عادوا وهم يقهقهون ضاحكين .

ماذا أضحكهم ؟ لقد أطل من الماء فجأة تمساح واختطف أحد زملائهم . ولم يكن المخطوف من البيض ، وإنما كان من زملائهم هم » .

وكان هذا الحديث يدور حينما كنا نهض عن مائدة الطعام ، ورذاذ الريح يتساقط ، ونسمع نغمه الموسيقى فوق رؤوسنا ، لأن سقف حجرة الجلوس ، كسقف المكتب ، يستند إلى دعائم من البلوط ، ملونة باللون الأسود ، يفصل بينها دهان أبيض . والأبواب الزجاجية الثلاثة ذات الشقين تفتح على بهو يواجه الغرب ، وتطل عبر الأرض الخضراء والحديقة على (التلال الزرقاء) التي اشتقت ماساشوست اسمها الهندي منها . والغرفة فسيحة بهيجة . بها مدفأة ضخمة . ومقاعد وأرائك.

منتقاة من الماهوجاني ، مكسوة بالحرير الفرنسي رمادي اللون ، مما يشير إلى الطراز الإمبراطوري . والأزهار على الموائد الجانبية ورف الدفأة من السوسن والتسرين والترجيس وزنبق الوادي .

وقالت مسز هوابتهد — وقد انضمت إلى الحديث عند عودتنا إلى ججرة الجلوس :

« عند ما كنتم تتحدثون على المائدة عن ليتن سترانشي أردت أن أذكر هذه الأبيات من الشعر لس وردزورث عن ليدي مرغريت هول :

لو كان كل طيب من الناس ماهرا .

وكل ماهر منهم طيبا .

لكان هذا العالم أجمل مما نحلم أنه يمكن أن يكون .

ولكن الظاهر أنه قلما — بل يستحيل —

الجمع بينهما كما ينبغي .

فالطيب عند الماهر جاف .

والماهر عند الطيب فظ قليل الأدب .

وتسألت مسز نيكولز قائلة : « إذن فهل يجب على المصورين الماهرين أن يدهانوا من يصورونهم من الأشخاص الطيبين برغم قبحهم ، بل وبساطتهم .

وهنا أبدى مستر أجاسز هذه الملاحظة : « إنه لما عرضت في نيويورك صور جون سارجنت لأشخاص أرباء — ولكنهم غير مقبولين — بمن جلسوا للتصوير ، همس في أذني أستاذ من هارفارد قائلا « هذا هو الخلود الزائف » .

وعندئذ قالت مسز هوايتهد : « إن للجبالسين للتصوير كذلك حقوقهم »
وتحدثت عن مناصراتهم الحديثة مع أحد المصورين ، وقالت : « إنه رسم لي صورة
أولا . وجلست أحد عشر صباحا مميتا ، حتى سألتني : أأود أن أرى سير عمله ؟
وكنت بطبيعة الحال أعلم أن أمثال هذه الخطوط الأولى لا تسر البتة ، ولذا فلم
أتوقع أن أرى شيئا يذكر . وسألتني رأيي فيها . قلت : المرء — بالطبع —
لا يعرف منظره . واستمر في عمله ، وكأنه يعد شمرات رأسى واحدة واحدة . ولما
أتم الصورة أطلع عليها زوجته . فقالت له : « إنها مزعجة ! إنها لا تشبهها قط ،
ماذا تريد أن تفعل بها ؟ »

« أريد أن أضعها في إطار وأقدمها لمستر هوايتهد على سبيل التذكار ، فقالت
له : « لن تفعل . ولا بد أن تمزقها . » ولم أعلم قط ما انتهى إليه أمر الصورة ،
ولكنه أسر إلى بعد حين قائلا : « اعلمى أنني لم أكن قط مهتما بموضوع الصورة ،
إنما كان كل اهتمامى بوسيلة التعبير ! »

ثم سأل مستر هوايتهد قائلا : « وماذا كان من أمر الصورة التي صورها لي ؟ »

فأجابت مسز نيكولز : « إنها تظهرك في السادسة من سنك »

وقالت مسز هوايتهد : « أجل ، ولقد ظل على هذه الصورة عشرين عاما بعد
ذلك عندما تزوجت منه ، ولمدة سنوات بعد هذا . » وابتسمت ابتسامة تدل على
التكريات القديمة ، مشوبة بشيء من السكابة الخفيفة ، واستمرت قائلة :

« وقد فهمت معناها ، ولزمت الصمت ! »

وقال الفيلسوف متلفظا : « كنت أتحدث إليه وهو يقوم بالتصوير ، ولكن

كان يتوقف ليخط على الورق مذكراته ، حتى اضطرت إلى أن أوجه إليه هذا السؤال :

« هل أنت فنان أو سكرتير كاتب ؟ » فأراد أن يجرنى إلى جدل يخصه :

قال إنه سافر إلى الخارج وعاد ومعه ضريح إيطالي ، آية في الجمال فيما أحسب ، وقد وضعه وسط المتحف ، ثم غاب عن البلاد مرة أخرى لمدة عام ، ولما عاد وجد أن الضريح قد اختفى . وأخيراً وجده في الطابق السفلي ، ولكنه لم يستطع أن يرفعه مرة أخرى ، وحاول أن يكسب تأييدي قائلاً : « لو انضمت إلى أظن أن تأثيرك سيكون من القوة بحيث يكفي لرده إلى مكانته التي يستحقها . فسألته :

« وأي فائدة مني ؟ إنني لا أعرف شيئاً عن الفن . كل ما أعرفه أن ضريحك آية في الجمال » .

« ذلك كل ما يعينك أن تعرفه » (مقتبساً سطراً من كينس)

« تعال وقل لهم ذلك »

« ولكنني أستطيع أن أقول هذا هنا دون أن أذهب إلى المتحف . ثم إن قولي لن يعينك ، لأن المصلحة تميل إلى الحفريات ، وضريحك قد يكون جميلاً ، ولكن إذا لم يثبت أن تاريخه يقع في حدود عشر سنوات من الفترة المطلوبة ، فلن يخرج من الطابق السفلي »

وقالت مسز هوايهد : « ولكن لا تخطيء فهمنا . إنه عزيز علينا ، ونحن به جدم مغرمين . »

ثم انجبه الحديث إلى حركة بوشان ، التي كانت في طريقها إلى الظهور

في ذلك الحين ، صوتها مسموع ، وإن يكن بغير ضجيج .

وسأل سائل : « ما هذه الحركة التي تجعل الـكثوم ينتفض ؟ »

وقال هوايتهد شيئاً عن حقيقتها في تعبير لا يخالجه التردد .

وقالت مسز هوايتهد : « هل سمعت عن زيارة الدكتور رتشارد كابوت وزوجه لجامعة المترفين ؟ »

« كلا »

« في اللحظة الملائمة أوماً مستر بوشان برأسه - وهو لا يعلم من ها - مشيراً إلى أن دورها قد جاء ليؤديا الشهادة . فنهض الدكتور كابوت وقال في حزم :

« أنا الدكتور رتشارد كابوت ، من الأطباء ، وأستاذ علم الاجتماع في كلية هارفارد ، وتبتمته زوجه (وانخفض صوتها إلى حد التمتمة) وقالت : « اسمي الا كابوت . وأنا باحثة جادة عن الحقيقة ، ثم جلست . وهذا كل ما حدث »

قلت : « الظاهر أنها ضرب من ضروب جيش الخلاص للطبقة العليا . في أوقات الاضطراب الاجتماعي يخرج الناس على العقائد القديمة ويتمسكون بالأوهام . والاعتراف الجنسي نقطة من نقاط المساومة » .

ثم عقت على ذلك مسز هوايتهد قائلة : « وكذلك الأمر مع علماء التحليل النفساني . أليس مما لا مفر منه أن يتسكون لديهم ذوق خاص من كل هذا التقصى البعيد لأسرار الاشعور ؟ أظنهم قد انتهوا بالتقصى لمجرد لذة التقصى . وما جدوى الفقير منه ، الذي هو بحاجة اليه - بل أشد حاجة - من الفنى ، إن كانت به فائدة ؟ إننى لا أرى عيادات مجانية لملء التحليل النفساني .

(م - هـ مجاورات)

ومما يذهلنى أن الأطباء النظاميين كثيراً ما يتناولون مرتبات ضعيفة ، فى حين أن هؤلاء العلماء النفسانيين يكسبون كثيراً . أليس التحليل النفسانى نوعاً من الشغف الشديد بنش ما فى عقول الآخرين ، وحملهم على الإباحة بما ربما كان من الواجب عليهم أن يبوخوا به ، ولكن لغير هذا الذى ينش ويحاول أن يحمل الناس على الإباحة ؟ »

ودافعت زوجة الدكتور نيكولز عن المهنة فى غياب أصحابها بكفاية وجدارة ، والظاهر أنها كانت تعرف الكثير عنها .

ثم قال الفيلسوف : « إن (كنيسة الملك) فى بوسطن فريدة بين جميع فروع المذاهب البروتستانتية التى أعرفها . إنهم يسمحون لكل إنسان بالدخول ثم يعظونه - حتى أنا - على سبيل المثال . إنها محترمة إلى درجة لا تصدق . »

ثم وجه إلى السؤال قائلاً : « هل تعرف مكاناً أكثر منها احتراماً ، حتى فى بوسطن ؟ »

« ليس هناك مكان آخر غير شارع جبل قرنون . ألا يقول عنه هنرى جيمس إنه أكثر شوارع أمريكا احتراماً ؟ »

وقال الفيلسوف : « أخشى ألا يعيننا ذلك ، لأن كنيسة الملك - كما أعلم - ملك لقوم يقطنون فى شارع جبل قرنون . إنها نادرة الامتياز . إن هناك ديناً خاصاً لكنيسة الملك . ديناً فريداً فى نوعه فى هذا الوجود . وأعتقد أن هذه الكنيسة هى المكان الصحيح الذى يتزوج فيه الإنسان . »

وعلقت مسز هوابتهد بقولها : « لقد ذهبنا إلى هذا المكان القدس ، وجلسنا جميعاً . ثم اعتلى (أولتى)^(١) منبراً عالياً ، وتوقعنا بطبيعة الحال أن نشهد نشيدا دينياً ،

(١) الإشارة هنا إلى ألفرد هوابتهد

أو أن تلو وردا ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وأشهد أن أولي قد انفجر
بعد ذلك بالحديث ، وهو أروع ما يكون ... »

قال : « إننا في حرية مطلقة ، حرية هارفارد . هل تعرفون أن هارفارد
محاضرة موقوفة يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر . وكان المفروض أن يتحدث
المحاضر بإسهاب في الأخطاء اللعينة لكنيسة روما ، بل لقد دعوا قسيسا
كاثوليكيا لكي يقوم بإلقائها . »

« وكيف يتعلمون على الشروط ؟ »

« في يسر شديد ! ربما لا يستطيع المحاضر أن يكشف أى خطأ لعين في كنيسة
روما . فلا ينتظر في هذه الحالة أن يتحدث فيها . »

« إن أحد أصدقائي القدامى يستسيغ ذلك . إنه الآن قسيس ولكنه كان
فيما سبق أستاذا للتاريخ في هارفارد ، وكان بميد الصيت . وكنا نطالب العلم في
الجامعة معا ، واشتهرنا بتفوقنا . وكلانا من الغرب الأوسط وآنذاك كاترة . وكان
حتى في ذلك الحين متمقا في حكم الكنيسة الإنجليكانية العليا . »

فقال الفيلسوف : « لا بد أن يكون هو ذلك الرجل الذي كثيراً ما ألقاه في
المكتبة . إننا على وشك أن تبادل التحية . »

« أرجو أن تتبادلاها في المرة القادمة »

« ألا يرجع انبعاثه إلى الكنيسة إلى عهد بعيد ؟ »

« حتى منذ ثلاثين عاما كنت أعجب - بجهالتى الدينية - كيف كان يحتفظ
بعقيدته في الكنيسة الإنجليكانية المالية ومعرفة بفلاسفة ما وراء الطبيعة
الألمان كل في ركن ذى منطق محكم . »

فقال الفيلسوف : « إننى لا أتصور ذلك من الصعوبة كما يبدو . كلنا يفعل ذلك . إنما المسير أن تحتفظ بهما فى ركن واحد » .

(٢)

٢٢ من إبريل ١٩٣٤

انقضى أسبوعان آخران من فصل الربيع . وقد انتشر فوق غابات تلك الأرض الجبلية بساط من أوراق البراعم الخضراء على طول الأميال الأربعة التى نمت من مانتابان إلى بيت آل هوبز . وبلغت الدار هذه المرة قبل الساعة السابعة بقليل . وطلبت إلى سائقى العربة - كالمرة السابقة - أن يعود فى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة ، حرصاً على صحة مسز هوبز الضعيفة . وهو طلب ألقيته فيما بعد .

وقد جىء بها منذ برهة إلى أربكتها الممتدة فى حجرة الجلوس على مقعد ذى عجلات . وقام بذلك بهمة ونشاط الأستاذ هوبز وهو فى المقعد الثامن من عمره . ثم أخذ يتحرك هنا وهناك بأمرها ، يرب القاعد والأضواء . وعتباً على انصرافى مبكراً فى المرة السالفة .

« وقال (أولتى) : هل أثقلنا عليه ؟ وهل نفدت قدرته على احتمالنا ؟ »

وقلت له : ربما كان عليك أن تحرر مقالاً للند . وإن المرء ليتوقع ذلك حينما يحضر صحفى للشاء . ولكن جريس دى فرىز تقول لى إنه لا بد لك أن تأوى إلى فراشك مبكراً » .

« ولكن جريس دى فرىز أخبرتنى أنك أنت الذى لا بد أن تأوى إلى فراشك . »

مبكرة ، أو ما يشبه ذلك . لقد تحاملت على نفسى كثيرا حينما طلبت إلى سائق
العربة أن يمود في الساعة التاسعة وأربعين دقيقة » .

« إذن لا تفعل ذلك مرة أخرى ! »

« ولكنى فعلت ذلك مرة أخرى » .

« إذن ألغ هذا الأمر » .

والفيتة بالتليفون .

وعلى شيء من التعجل قالت لى : « إن زوجة الأستاذ مورجان سوف تحضر
(أما المسكين فلن يستطيع الحضور ، فهو فى المستشفى . يبالغ من السل كما تعلم) .
وستحضر أيضاً مسز نيكولز التى التقيت بها هنا فى المرة الماضية : (أما الدكتور
فقد رحل إلى آن آربر للدراسة) والأستاذ روزنستك هسى ، وهو المانى ، ومستر
أجاسز وزوجه ، وقد كانا هنا أيضاً فى المرة الماضية . وزوجه سيدة مهذبة
محترمة من إنجلترا الجديدة ، وهى نموذج لطرازها من السيدات . أما هو فكما
أقول له (فى فكاهة بيننا) فيبدو كرجل الشارع الباريسى ، وهوييوريتانى مستقيم
من بوسطن ، وعضو بطبيعة الحال فى هيئة الملاحظين بهارفارد . وهو قدير على
رد الفكاهة بالفكاهة ، بل يردّها بأحسن منها ، فهو يقول : عندما أكون فى
باريس يكون ضميرى ببوريتانيا ، ولكن ذلك لا يصلح فى بوسطن . ومن
ثم فأنا أتحمّل الثائب دائماً » .

ومرعان ما التأم الجمع . وقدم المشاء لمسز هوايتهد ومسز أجاسز على مائدة
صغيرة فى حجرة الجالوس ، أما بقيتنا فقد توجهنا إلى غرفة الطعام .

وقال أحد الضيوف للمضيف : « عرفت أنك تشبه الرئيس روزفلت بأعسطس قيصر ولكنى جمهورى ، لا أحتمل هذا الرجل » .

وتلفت هوابتهد الى المتكلم وفى نظره تردد واضح ، ثم أجاب بنغمته اللطيفة : « لم يحدث فى التاريخ إلا مرتين - فيما أعلم - جلس فيها على العرش رجل مهذب » فقالت مسز نيكولز فى لطف ، لأنها رعية بريطانية : « العرش ، يجب أن يرضى أى جمهورى معاد » .

وتساءل روزنستك هسى ، ولم ينب عن ذهنه ولهم من أسرة « هو هنزلرن الذى يمت إلى إدوارد بصلة قرابة ، قال : « ألم يكن الملك إدوارد السابع رجلاً مهذباً ؟ » وأجاب الفيلسوف بقوله : « ما أبعد ذلك عن الصواب . وقد نشأ نشأة سيئة ، ولم يستطع أن يجارى قيصراً » .

قالت مستر أجاسز : « إن أحداً لا يستطيع أن يجارى قيصراً ، ثم إنه كان خال قيصر . كانت مسألة عائلية . وكانت علاقة الخال بابن أخته تجمل الأمر مستحيلاً » .

« ليس هذا لب الموضوع - انما كان من واجب إدوارد أن يجارى قيصراً . ومن أجل هذا دفعنا له المال ، ودفعناه بوفرة وسخاء . كلا ، لقد كان مبيء التربية ! لما ذهب إلى الهند وهو أمير ويلز ناز فى وجه قائد عجوز جاء إلى الاستعراض فى زى غير ملائم . وقال فى ثورته : ، أنتم أيها القدامى تتحللون فى عاداتكم هنا ؟ فقال الجندى العجوز وهو يقرع ذراعه الخشبية بيده الأخرى السليمة ، بما فى ذلك هذه الذراع يا صاحب الجلالة ! » .

وعلمت مسز مورجان بقولها : « وكأن إدوارد هو الرجل الذى يتحدث عن المعادات المنحلة » .

« أستطيع أن أنسامح معه في هذا ، فقد كانت أمه على شيء من الصلف . وإنما كان من الواجب عليه أن يرعى قواعد الآداب أمام الجمهور . يؤسفني أن أقول إنني لم أعبأ به كثيراً . وقد كانوا يعرفون الآداب الملوكية خيراً من ذلك في القرن الثامن عشر . كان هناك رجل من الوجهاء الأقوياء يدعى توم كوك ، وكانت له ضياع شاسعة ، وكان يقيم جورج الثالث . وفي حفل عشاء عام ضخم اقترح أحد الحاضرين أن يشرب المحتفلون نخب الملك . فانفجر توم كوك قائلاً : لن أشرب نخب ظالم مستبد ! ، وكان قولاً مثيراً ، وتطلع الحاضرون في شغف إلى ماعساء يحدث . ولكن لما كان المرش في ذلك الحين قد بدأ يترنح قليلاً ، فإن كل ماحدث أن وصل إلى توم كوك خطاب من جلالة الملك يبيئه بأنه لن يقدم إلى المحاكمة ، لأن جلالته قد فهم (الروح) التي أبدت بها الملاحظة ! » .

وانتقل الحديث إلى إخراج جرانفل باركر « لنساء طروادة » ليوربديز على مسرح هارفارد في عام ١٩١٥ ، ثم تجمع حديث المائدة في هدوء صامت لحماية الرجل الألماني الموجود من القلق الذي كان يساور كل عقل في ذلك الحين ، القلق من أن المسرحية كانت أداء معاصراً لرواية « النساء البلجيكيات » ، ومن أجل هذا مثلت .

وقال قائل : « إن الأساة أشعرت الشاهدين بالإثم المشترك في جميع الحروب » .

وسأل هوايتهد : « هل شاهدها أحد من الحاضرين ؟ » .

« نعم ، ولقد قال أحد أساتذتي القدامى في قسم اللغة اليونانية ، وكان يجلس إلى جوارى ، هذه هزيمة مطلقة لي . لقد قرأت (نساء طروادة) مراراً وتكراراً ، وعلمتها ، ولو سألتني هذا الصباح ، لقلت لك إنها مليئة بالأخطاء ، وإنها ليست في الحق مسرحية غاية في الجودة . ولكن ها هي ذى الآن ، جذرائمة . إنك لا تعرف المسرحية إلا بعد أن تشهد تمثيلها » .

وقال مستر أجاسز من غرفة الجلوس : « ومع ذلك فقد قيل إن قوة الأداء يرجع خمسة وعشرون في المائة منها إلى يورديز ، وخمسة وسبعون في المائة إلى جرانفل باركر » .

وقالت مسز أجاسز : « بل إنى لأرى عكس هذه النسبة » .
وقال هوابتهد : « إنى أعرف يورديز . وأرى أن خمسين في المائة من الأداء يرجع إليه » .

وانسحبنا من المائدة إلى غرفة الجلوس لتناول القهوة . وأنجبه الحديث إلى كيفية الوصول إلى حكومة جيدة . وقال أحدهم إنه قد وجدت دول كثيرة تستند إلى القوة . والواقع أنه لم يوجد من الدول غير هذا النوع ، على صورة من الصور . ولكن لماذا لم توجد دولة ثقافية ، فتستبدل بحكومة المالكين حكومة الخالقين ؟

فقال الأستاذ هوابتهد : « هذا حق ! ولا كان المالكون يهتمون بالشئون المادية فإنهم يستطيعون الاستيلاء على الحكومة » .

وسألت : « أليس ذلك هو السبب في أنهم يديرونها عادة إدارة سيئة ، والسبب في وجود طبقات أنانية حاكمة ، والسبب في أنهم يقومون بأعمال تهورية ، ولا يأبهون بالفن إلا قليلا ، ويتممون سياسات ضعاف العقول ؟ ولكن ذلك لأنهم إنما يعبرون عن غرائز التملك . كيف نستطيع أن نجعل الدوافع الخلاقة تدير دفة الحكومة ؟ »

فقال هوابتهد : « لا بد لذلك أن يكون الحكم شائقا . ومن رأيت أن سياسة الدولة في الوقت الحاضر ليس فيها من التشويق ما يكفي لاهتمام الشاعر أو الفنان لا بد أن يكون الحكم شائقا كالشعر . »

وقال روزنستك هسى . « أعرف قصيدة واحدة تهتم بمثل هذه الموضوعات .

وهى لجيته ولم تترجم قط إلى الإنجليزية فيما أعلم . وهو فى هذه القصيدة يروى استمتاعه بالمعمل الإدارى الذى قام به فى وعمار ، كتعبيد الطرق ، والتنظيم الحربى وأعمال التعمدين .

وسألت . « وما عنوانها ؟ »

« المناور »

« ألم تكتب لعيد من أعياد ميلاد الدوق كارل أغسطس ؟ »

« نعم . هل قرأتها ؟ »

« حدث ذلك منذ عهد قريب . بيد أن هناك صعوبة . فقد استمتع جيته بالإدارة ، وأجادها ، ولكنه أجادها أكثر مما ينبغي . وانغمس فيها إلى حد يمرق قرض الشعر . ومن أجل هذا فرّ إلى إيطاليا . »

وقال هوأيهيد . « إن ما زیده فيما أحسب رأس الدولة مطمئن إلى درجة معتدلة . بشرط ألاّ يبالغ فى طمأنينته . »

« وما رأيك فى الأباطرة الأنطونيين ؟ »

« كانوا بارعين فى الإدارة . وكان نظاما فريداً ينتقل من حاكم إلى حاكم بالتعيين وتؤمنه أوليجاركية عسكرية . ومن عجب أن أكثرهم تقديراً أقلهم استحقاقاً له . أقصد ماركس أوربايوس ، لأنه شذ عن القاعدة بتعيينه ابنه كومودس ، وكان تعييناً سيئاً . ولولا أن ماركس كتب تلك المذكرات الشائقة ، التى برغم ما فيها من متعة وعلم ، لآتت إلى موضوعنا بصلة — لولا ذلك لساءت ذكراه من بعده . لقد كان من واجبه أن يجد خلفاً طيباً . »

« وما رأيك فى جدارة بركليز ؟ »

« إنه يدعو إلى الإهجاب . فهو رأس دولة انتخب في منافسة سياسية حرة ، وكان من الممكن زواله بمنافسة سياسية حرة مثلها » .

وعاتبته زوجته بقولها : « عزيزى أولتى ، إنك تحمل على ماركس لأنه تطفل على أثيرتك الفاسفة التى لا ينتمى إليها » .

« كلا . إنى لا أقول بأنه لا ينتمى إليها . وإنى لأحب أن أغامر بمبدأ عن الفلسفة لو تضاعفت سنوحياتى ومكنتنى من إجراء التجارب » .

« إلى أين ؟ على سبيل المثال » .

« أحب مثلاً أن أكون رئيساً لمحل تجارى ضخمة » .

« أنت ؟ تدير محل جوردان مارش ! »

« لا أقول فى بوسطن . ولكن فى لندن »

« وتنافس محل سلفردج ؟ » .

« لا يتحتم ذلك ، فربما جاملنى مستر سلفردج بموته وخلف لى محله لإدارته » .

« لكنه مات فعلاً يا عزيزى ، وهأتذا لا تدير محله ! »

« كلا . لا أظنه قد مات . ولأرجع فى ذلك إلى الدليل » . وذهب إلى مكتبه

ليبحث عنه .

وقالت مسز هوبز غاضبة « إنى لأعجب لك ! أنت تريد أن تشتغل بالحرير

والأطلس ، وأحسب أنك لتحب ذلك » .

« أو كد لك يا عزيزتى أن شغفى بالإدارة أكثر من ذلك بعدا عن الاتصال

بشخصى » .

ثم عاد في الحال ومعه الدليل ، مفتوحاً في الصفحة المطلوبة .

وقرأ بضمة مقتطفات قائلا : « إنه ما يزال حيا . وهذا هو اسم » . جوردن . سلفردج » .

وقالت مسز هوايتهد : « ولكن هذا ولده . أليس كذلك ؟ » .

« لابد أن يكون كذلك يا عزيزتى » .

« أود أن أعرف يا استاذ هوايتهد أى أثر فى الجمهور يكون لك فى عمل تجارى ؟ » .

« الذوق ، والتدبير المنزلى . وكيف يستطيع المرء أن يعيش بحاجات أقل وأحسن » .

« حينئذ يلتهمك منافسوك ويبتلعونك » .

« لا أظن ذلك . فإن مما يبهرنى فى هذا العمل أن أبتعد عن بطونهم » .

(٣)

٢٤ من يناير ١٩٣٥ .

انتقل آل هوايتهد من كانتون عاندين إلى مسكنهم السابق فى راندون هول عند (مموريال درايف) المطل على نهر تشارلز بكمبردج .

وكان اليوم التالى لهبوب عاصفة ثلجية شديدة . وصفا الجو ، وهبت ريح

شديدة البرودة من الشمال الغربي ، وتسكدست الثلوج في الطرقات على عمن
قدمين أو ثلاث . ولم تمهد الطرق بين ميدان هارفارد وتشارلز . فخفضت فيها
وتعشرت ، وتذكرت ما قاله دافيد ما كورد على نهج روبرت لويس ستيفنسن :

في بوسطن عندما يتساقط الثلج في المساء

يزيلونه في أضواء الشموع

والأمر على تقيض ذلك في كبردج

يتساقط الثلج فيتركونه مكسدافي مكانه

وكان المساء في الساعة السابعة والرابع . ولم يحضر سوى أفراد الأسرة :
الأستاذ هوابتهد وزوجه ، ومارجوت ، زوجة ولدها (مسز نورث هوابتهد) ،
واريك حفيدها ، وهو صبي أشقر اللون ، أزرق العينين في الثالثة عشرة أو الرابعة
عشرة من عمره . وكانت مسز هوابتهد أوفر نشاطا ، فأبناها تدخل وتخرج من
المكتبة عدة مرات .

وكان حديث المائدة عن حياتهم في كبردج بآنجلترا ، بالموازنة مع حياتهم
في كبردج بماساشوست ، وعن المسرح الإنجليزي كما عرفوه في لندن . وقد
شاهدوا حفلة من أولى الحفلات التي مثلت فيها (مسز تانسكري الثانية) لپنرو
وفيها مسز باترك كامبل التي قامت بالطبع بدور بولاناانسكري في فأتحة المسرحية ،
وقالوا إن كل من شاهد المسرحية خرج من المسرح مذهولاً ، ويكاد ينمقد لسانه
سماُعدً في ذلك الحين صراحة مكشوفة . وبرغم هذا ، فإنه منذ ست سنوات ،
عندما بعثت المسرحية من جديد ، وأجادت تمثيلها فرقة ممتازة ، فترت حرارتها ،
وسخر منها النظارة فعلا . فم كان كل ماثار من ضجيج ؟ وماذا في الموقف لا يمكن
يسطه في حديث ساعتين مم طيب نفساني خبير ؟

وتفرقنا بعد المشاء فأنجّمت السيدات إلى المكتبة ، وانصرفت مع الأستاذ هوأتهى إلى غرفة الجلوس ، حيث تناولنا القهوة . وتحدث قليلا عن الصحافة ، وتعرضنا لموضوع الشهرة التى يجلبها النشر الآلى ، ولماذا باتت كنبات صيفى سريع النمو بعد ما كانت كشجرة من أشجار البلوط تحتاج لنموها إلى ثمانين عاما .

وتساءلت : «هل هناك قانون روحانى يعوض عازف البيان الصادق المجيد الذى لا يقيم غير حفلين فى العام إزاء المازف المحترف الذى يقيم مائتى حفل فى العام؟»

فقال : « إننى أميل إلى الاعتقاد بأن من المأسى الدائمة فى الحياة أن الصفة الجيدة لا تتقلب على ما يتلوها فى الجودة » .

ثم سأل لماذا تكون عناوين الصحف مثيرة للحس ؟

«إنها إعلانات لبيع القالات»

«إنها كثيرا ما تعطى القارئ فكرة خاطئة عما تحتويه الصحيفة »

« هل تظن ذلك ؟ إننى أتصور فى بعض الأيام أنها تمويض مستخدة عن الملاعب الرياضية الكبرى التى كانت معروفة أيام الرومان ، والتى كان يصارع فيها اللاعبون المستشهدون الحيوانات المفترسة » .
وبدا عليه الجدل ولم يجادل رأى .

وعدنا إلى المكتبة . وقد سحبت الستائر الثقيلة المصنوعة من القطنية السوداء فوق النوافذ الطويلة التى كانت تطل على النهر وعلى (ميدان الجند) . وكانت نار الحطب تشتعل فى الموقد، تعلوها مدخنة سوداء من الخشب المنقوش على طراز كلاسيكى . وكانت حوائط الحجرة الطويلة الفسيحة مغطاة بالكاتب

من ثلاث جهات ، والحجرة مضاعة بالمصاييح بصورة بهيجة . هذه هي غرفة الدراسة الخاصة بالفيلسوف ، وله فيها مقعد للقراءة ومكتب في زاوية مريحة من زواياها .

ولما دار الحديث سنحت الفرصة للسؤال إن كان الحاضرون قد لاحظوا عقما في الفنون المبدعة بين أهل بوسطن . وسرعان ما تبين أنهم قد لاحظوا ذلك .

وطرحت مسز هوابتهد هذا السؤال في شيء من الحياء : « هل لذلك علاقة بفقدانهم سيطرتهم السياسية ؟ »

قلت : « لقد عالج هذا الموضوع فردريك ستمسن ، وهو محام من بوسطن ، وروائي ، وكان في وقت من الأوقات سفيراً لنا في الأرجنتين ، في سيرة حياته بقلمه التي كتبها تحت عنوان « بلادى الولايات المتحدة » . وقد نشر الكتاب منذ نحو أربعة أعوام . وجاء فيه أن ثروة طائلة قد جمعت في بوسطن في الستين السنة الأولى للجمهورية ، ولكن الأثرياء بدلا من أن ينشقوا في أبنائهم ويزجوا بهم مخاطر في أنفسهم في بحار الحياة ، كما فعل آباؤهم من قبلهم ، حبسوا أموالهم في الأسهم والسندات حتى لا يبددها ورثتهم من بعدهم . وكان من أثر ذلك أن قتلوا في أبنائهم القدرة على الابتكار » .

فقال الأستاذ : « إنني أجد بين الأثرياء القلائل الذين التقيت بهم حالة من الذعر مما تقوم به إدارة روز فلت - بحكمة على ما أظن - ولا أجد لديهم استعداداً لفهمه » .

قلت : تبين ذلك عندما داهمتنا حرب الطبقات في عام ١٩١٢ عند إضراب لورنس الأول . كانت ثورة كبرى ، وقعد بهم الخوف عن إدراكها » .

وقالت مسز هوابتهد : « إن نساءهم جبناء ، وإن ذلك ليبدو في بيوتهم ،

فإن كل بيت يشبه الآخر في أثنائه ، ولا تجرؤ إحداهن على المخالفة .
والتشابه ممت حتى إنى كلما زرت بيتاً من هذه البيوت كدت أصرخ » .

ووافق على ذلك قائلاً . « إن أمثلة الذوق المتنزل في البيوت في إنجلترا
أكثر منها هنا ، ولكنها على الأقل ذاتية فريدة ، وداخلها يتم عن شخصية
أصحابها . كما أن المحلات التجارية هنا لا تعرض الأشياء التي تقابل اختلاف
الأذواق . وعلى المرء أن يأخذ ما يجد » .

وقالت : « الاستثناء الملحوظ هو بيت جريس دى فريز . ففيه ذوق وشخصية
فردية » .

ثم أثير السؤال عما إذا كانت اللغة المشتركة تعين أو تموق التفاهم بين
الإنجليز والأمريكان . وقد عبر هوايتهد منذ قدومه إلى هارفارد ، وجالبرت
مرى عندما كان هنا أخيراً قادماً من أكسفورد في عام ١٩٢٦ ، عبراً عن رأيهما
بأن اللغة المشتركة تخدع الشعبيين ، إذ يحسبان أنهما متشابهان ، في حين أن
الخلافاً بينهما بعيد المدى ، ويؤدي ذلك فعلاً إلى سوء التفاهم » .

وقال . « كمت أقرأ كتاب (كرمويل) ليجون بكان . والراى الذى يصر
عليه هو أن كرمويل وشارل الأول كـلاهما قد هزم . ثم كانت فترة انتقال ما بين
عام ١٦٨٠ وعام ١٧٣٧ حينما كان هناك فراغ ثقافى يكاد يكون تاماً . ثم وقفت
إنجلترا على قدميها مرة أخرى ، وانطلقت في القرن الثامن عشر ، ولكنها سارت
في طريق الأرستقراطية وملكية الأرض ، التي امتدت حتى الانقلاب الصناعى
في القرن التاسع عشر وتداخلت فيه ، فاختلطت الأرستقراطية القديمة
بالأرستقراطية الحديثة . ولكن تاريخكم الأمريكى ينبع من المنشقين من الطبقة
الوسطى البيوريتانية المصطبغة بصبغة ديموقراطية قوية . إن ثورة كرمويل

لم تهزم في أمريكا . ومن أجل هذا تطور القطران في اتجاهين مختلفين جد الاختلاف . ومع ذلك فما أعجب علم الاجتماع ! فإنه بالنسبة إلى الصعوبة التي تلاقيها المواهب الفردية في إنجلترا في شق طريقها صموداً إلى الطبقات العليا ، نجد أن الناس يلزمون طبقاتهم . ويرتفعون بها . حتى إنا لنجد حركة عمالية يقودها رجال من طبقة المال قيادة قديرة . فلما تولى حزب المال الحكم في عام ١٩٢٤ ، وفي عام ١٩٢٩ كانوا مؤهلين غاية التأهيل لحل أعباء جميع وزارات الإمبراطورية ، بما فيها وزارة الشؤون الخارجية .

« إن حرر كتننا المالية ما زالت بعيدة عن ذلك جداً » .

فقال هوابتهد : « نعم . أو ليس ذلك من الأسباب التي تمكن أصحاب المواهب الاستثنائية عندكم من سرعة الارتفاع خلال الطبقات العليا ؟ إنهم يرتفعون أفراداً ، ولكنهم يخلفون طبقاتهم وراءهم . ومن ثم فإن الأرستقراطية الإنجليزية تخلق ديموقراطية حقيقية ، في حين أن الديمقراطية الأمريكية تخلق نوعاً من أنواع الأرستقراطية » .

وقال إن طالباً جامعياً شاباً في مدرسة اللاهوت قد استشاره فيمن يقرأ من آباء الكنيسة الأوائل .

« وسألته : كم لبث أسلافه في هذه البلاد ؟ فأجاب بأنه أتى إلى هنا من النرويج وهو في الثالثة عشرة من عمره . وكان أبوه قسيساً ريفياً ، أفقر من أن يعلمه تعليماً ثانوياً ، فأرسله إلى وسكنسن أو منيسوتا إلى أحد المعارف ، الذي أوجد له عملاً في مزرعة لمدة عام . ثم التحق بمدرسة عالية ، ونجح فيها ، وشق طريقه إلى كلية صغيرة ، وحصل على منحة علمية ، ثم جاء إلى هارفارد ، وهنا

أخذ يبحث في أوريجن وتوماس الكويناس . وعرفت أنهم ينظرون في أمر تعيينه معلما بالجامعة . ولا شك في أنه كان محظوظا في ذلك ، فإن عنصر الحظ قوى في مصائر الناس ، ولكن لا بد أيضا أن يكون قد عومل معاملة تنطوي على عطف شديد . وأود أن أخلص من ذلك إلى أنني لا أعرف مكانا آخر في الدنيا يمكن أن يحدث فيه مثل ذلك » .

وقال ان من رأبه أننا لم نستكشف بعد في جلاء قدرة الأديرة على إبراز العناصر الحساسة وذات الخيال القوى من البشر ، وذلك بحمايتها في العصور الوسطى . « كان العالم الخارجى عنيفا ، ولكن هنا كان عالم الفكر يسير معه جنبا إلى جنب ، وكان له نفوذ عظيم . وقد وجد العلماء المتواضعون الفقراء في هذه الأديرة ملجأ لهم . ثم لاحظ بعد ذلك كيف سارت الدراسة في المعاهد . فنجد فترة الانتقال من القرن الخامس إلى القرن السادس ، حينما أسس القديس بندكت نظامه الدينى ، حتى القرن الرابع عشر - أى ما يقرب من ألف عام - كان كل عمل عقلى لا يمكن أن يؤدي إلا في حيازة الأديرة . ولكن إذا ما بلغنا عهد إرازمس ، نجد أنه لا يكاد يذكر راهبا دون أن ينحرف وينمته بصفة ثم عن الازدراء . ولست أعرف إلى متى تحتفظ جامعاتنا بقوتها . إنها اليوم ذائمة الصيت ولها نفوذ عظيم . لكن التعليم قد يبلغ حدا من الإجادة أبعد مما نطلب . أنه يستطيع أن يثبت فينا التقاليد ويفقدنا الروح . وفي ظنى أن جامعة كمبريدج التى أتقنت تدريس الرياضيات ، هى التى أخرجت من بين طلابها كثرة من الشعراء الإنجليز ، وحين أن أ كسفورد التى تخصصت في دراسة العلوم الإنسانية ، قد أخرجت كتابا بلغوا في مهلتهم حدا عاليا من التوسط . وأعتقد أن المرء إذا بحث في الأدب مع أستاذ عالم ذكى مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع لعدة سنوات ،

تحدث عنه من جميع نواحيه ولا يرى داعيا للكتابة فيه . انه عندئذ يدرك فوق ما ينبغي العمل الجيد الذي تم أدائه في وفرة وباتقان ، فيقدسه أكثر مما يستحق ثم يقول : « من أكون حتى أجز هؤلاء ؟ » .

وأخذنا نتلصق بمحاولين أن تبين هل الشعراء الإنجليز قد نشأوا في قطاعات بذاتها ، فسادوا في بقاع جغرافية معينة . والظاهر أن خط سيرهم قد امتد من البحيرات جنوبا إلى وسط الجزيرة شرقي محور رأسى متوسط ، ثم إلى أنجليا الشرقية ، لكي يتركزوا بطبيعة الحال في لندن .

ثم أخذ يتحدث عن الجامعات الأمريكية متعرضا لوظائفها العامة ، وقال : « اننى لا أتفق مع أبراهام فلنكسز في رأيه بضرورة وجود معاهد مستقلة موزعة في أنحاء البلاد كل منها يقدم لونا معيناً من التدريب ^(١) . ويبدو لي أنه من الخير لنا أن تتبع نظاما أكثر من ذلك مرونة ، نظاما يستطيع فيه الطالب الذى يتلقى تدريبا فنيا أن يحصل على دراسات ثقافية أيضا إذا أراد وإذا أحس الحاجة إليها . ويخيل إلى أن جامعاتكم الكبرى في الوسط الغربى تفعل ذلك بصورة مقبولة . وهذه المرونة تمكن الطالب من التلفت حواليه واستنشاق الهواء . ان المقول لا تنقسم أنواعا معينة بالسهولة التى يراها بعض زملائي فيما يبدو لي . وأنا قوى الشك في الرجل الذى يصفونه بأنه من طراز (١) . أنه يستطيع أن يستعيد ماتريد أن تسمعه منه في امتحان ، ولما كان الامتحان وسيلة تقريبية من وسائل الاختبار ، فلا بد لك أن تمنحه درجة (٢) التى يستحقها إذا استعاد لك ماتريد . ولكن القدرة - ولا أقول الإرادة - على استعادة ما ينتظر منه تبعث الشك في ضآلتها وسطحياتها .

(١) راجع ما كتبه في « الجامعة في الحياة الأمريكية » في مجلة اتلانتك الشهرية ، مايو سنة ١٩٣٢ ، الجزء رقم ١٤٩ وفى « حيوب مدارسنا العليا » في نفس المجلة ، إبريل سنة ١٩٣٢ الجزء رقم ١٤٩ . وما كتبه في « الجامعات الأمريكية والانجليزية والألمانية » طبعة جامعة أكسفورد في عام ١٩٣٠ .

أما الرجل من طراز (ب) فقد يكون مهوش التفكير إلى حد ما ، بيد أن مهوش التفكير شرط سابق لا استقلال الرأى . وقد يكون فعلا رأيا مستقلا مبتكرا فى أولى مراحلهِ . وربما لا يتجاوز - بطبيعة الحال - مرحلة التهوئش ، ولكن حينما يمتد على زملائى لأنى أمتح درجة (١) لأكثر مما يحبون ، ويصموننى برقة القلب ، أقول اننى لا أود أن ينسب إلى أننى كنت الأستاذ الذى ثبت الهمة لدى شاب ذى موهبة ناشئة .

(٤)

٢٥ من مارس ١٩٣٥

تناولت الشاى مع الأستاذ هوايتهد وزوجه فى كبردج . ولم يشر بعد شجر الجيز الذى يمتد فى صفين على طول طريق (موريال درايف) ، ولكن شمس الربيع البياكر قد أرسلت ضوءها الذهبى الفازر ، والهواء برغم برودته الخفيفة ساكن لطيف ، والنهر أزرق صقيل . لايهز سكونه طلبة الكلية بمجاديفهم .

وتقدم لنا الشاى فى حجرة جلوسهما . ثم أخرجنا مجلدين قديمين من الرسائل ؛ عنوانهما « ثلاثة أجيال من النساء الإنجليزيات » ، مسز جون تيلر ، ومسز ساره أوسن ، والسيدة دف جوردن . جمعتها جانت دف جوردن . وقال الأستاذ :

« أعتقد أن الصورة التى تحصل عليها عن مصر من المصور من الرسائل الخاصة التى كتبها أصحابها تلقائيا ودون التفكير فى نشرها ، أصدق من الصورة التى تحصل عليها من القصص فى ذلك العصر وأحسن فى أكثر الحالات مما تحصل عليه من مؤرخيه » .

وقالت زوجته : « وفى هذا الباب تفضل السيدات الرجال » .

فوافقها قائلاً : «أفضل بالتأكيد من المؤلفين الذين يتبادلون الرسائل بنية نشرها في المستقبل » .

« كان أدمندجوس يشكو من أن الرسائل التي كان يكتبها إليه روبرت لويس ستيفنسن لا تنبئه بشيء مما كان يود أن يعرفه عن صديقه . ولو أنها كانت قطعا من الفن والأدب - مما حفز كارولين ولز إلى تأليف تلك القصة الشعرية التي ردد فيها قوله : لا بد أن يظهر المرء بمظهر حسن فيما يطبع » .

وقرأ الأستاذ جهراً قطعة كتبها ساره أوستن إلى م . ب . سنت هيلير في ٧ يولية من عام ١٨٥٦ (الجزء الثاني ، صفحة ٤٢) عن بسمارك فيها تنبؤ يدعو إلى الإعجاب ، قالت :

...لأن هذه الممالك الجرمانية الصغيرة ، التي تحكم حكما يدعو إلى الإعجاب ، لا بد أن تختفي ، وسيمع قريباً حكم القوة المسلحة الذي بدأه الثورة الفرنسية والحروب التي أعقبتها . وسوف تهزمكم بسلاحكم تلميذتكم بروسيا . ولن يتردد م . دى بسمارك في استخدام العنف والخداع والوسائل الوضيعة . وسوف يصبح كفتا على الأقل لكل ما تملكون . أن احرارنا الأغبياء يصرون على رؤية الحرية في بروسيا ، والاستبداد في النمسا . ولكن هؤلاء القوم لهم كلمة واحدة . وأسم واحد .

ويؤسفني أن تنبؤاتي قد صدقت . وسوف يححو الوحوش الذين لا يعرفون غير قانون القوة الولايات المستقلة للصغيرة ويبتلعونها ابتلاعا .

ثم ألقى الكتاب وقال :

« وقد صدق ذلك كله في دقة بالغة . ولم يكن مجرد تنبؤ غامض بالكارثة ، وإنما كان تنبؤا بالحوادث محدداً من عضو من الأحرار في أعلى قمة الحربة في القرن .

التاسع عشر . ان عكس ماحدث في عام ٤٨ قد وقع ، ولكن قل من أدرك مقدار ما كان ينطوى عليه من جد » .

وعلقت على ذلك بقولى : « أن چانت دف جوردن روس التى جمعت هذه الرسائل تبدو كأنها من معارفنا القدامى . كانت صديقة صغيرة لجورج مرديث ، وهى السيدة فى قصة (الحب الحديث) ، وهى روز جوسلن فى قصة (ايفان هارنجتن) وهى چانت إلسترفى قصة (مغامرات هارى رنشمند) . بيد أن صفاتها اقل جاذبية من صفات اولئك البطلات فى الشعر وفى القصص » .

وسألت مسز هوايتهد قائلة . « ألم تكن لها قصة مع ويدا ؟ »

« كانت تقسو على ذلك الرواى الذى أقام فى شارع بوند . وكانت قطعا لأحدى تلك الشخصيات الجبارة فى القرن التاسع عشر بأجلترا التى كانت تفعل ما تشاء ، فيقبله الناس قبولا حسنا » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن تلك الأسرات الحرة العظيمة لم تكن أبداً قليلة العدد ، وإن تكن فقيرة فى أكثر الحالات ، وكانت تستطيع أن تتجول فى كل مكان فى إنجلترا وفى القارة الأوربية ، وتعرف كل من ينتمى إلى حركة التحرير . وكانت الأفكار جواز المرور ، ومازال هذه الحالة قائمة إلى حدى » .

فقال : « عندما تقابل رجلا من الأحرار بارزا ، فانك عادة تجد من ورائه جماعة منسقة على العقائد السائدة : وكثيراً ما يكونون من صفار القوم ، ومن التجار ، ومن إليهم . ولننتقل الآن إلى موضوع آخر : لقد قرأنا لك مقالين بسرور بالغ ، أحدهما بتوقيعك فى مجلة ييل عن سبيليس ، والآخر من غير توقيع فى مجلة جلوب عن حركة هتلر نحو إعادة التسليح ، وقد أبديت فى هذا المقال رأيا معقولا بنى الموضوع على مانظن . ولست موسيقيا ، وإن تكن زوجى كذلك ، ولكنك استطعت أن تثير اهتمامى بمقالك عن سبيليس إلى درجة قصوى . لقد تناولت تلك

الشخصية الهامة وعرضتها في صيغة جعلتها شخصية عالمية ، وتناولك للجانب الاجتماعي بتلك الالة المادية جعل موضوع الدراسة كله حياً » .

« إن أشد ما كان يثيره حسه في الحديث بيننا أن كلينا كان يعرف (أحاديث مع جيته) لمؤلفه أكرمان من أوله إلى آخره . وكان يرجع إلى هذا الكتاب يستمد منه المون » .

« كنت تقوم بعمل شاق وأنت تجعل من شخصية معينة رجلاً عالمياً . ويذكرني ذلك بسيادة الحس الجمالي على الحس الإداري عند سلسلة الشعوب المتجاورة من البلقان ، بين ألمانيا وروسيا حتى اسكندنافيا . باعهم في السياسة قصير ، وباعهم في الفن طويل . ان تاريخ فنلندة السياسي قصير ، وهي مع ذلك تخرج هذا الفنان العظيم . أما في إنجلترا الشرقية ، ذلك الجزء من إنجلترا الذي ولدت فيه ونشأت صيبيا ، فإن قدراتنا التنفيذية طيبة ، أما قوانا الجمالية فتكاد لا تذكر . أن سواحلتنا تواجه الأراضي المنخفضة التي انتقلت النهضة عبرها ، ولكن ما انتقل كان أكثره مما يتصل بالحريات السياسية ، ومن إنجلترا الشرقية جاء أكثر المستعمرين لإنجلترا الجديدة في بلادكم . أما غرب إنجلترا فأكثره نورماندى ، وهو يواجه فرنسا . والتقليد فيه أكثره ملكى من المهد الوسيط ، وكان ملوك بلانتاجنت يتعلمون عبر المانش إلى أقاليمهم الفرنسية في انجو واكويتين . وكانت جامعة كمبردج قليلة الاهمية إذا قيست إلى أكسفورد لمدة أجيال بعد تأسيسها ، ولا أعتقد أنه من قبيل المصادفة أن يجد شارل الأول أكسفورد الانجليكانية ملكية موالية له ، وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن يكون كروموويل عضواً في مجلس النواب من كمبردج . إن إنجلترا الشرقية أكثرها من الدمارك والسكسون . أما غرب إنجلترا ، بين الأراضي المتوسطة وويلز ، فكان أكثره من النورمان الفرنسيين ، وأشد ميلاً إلى الجمال في ذوقه » .

« إذن فإنجلترا الجديدة قد ورثت الاتجاه غير الفنى من إنجلترا الشرقية ؟ »

قال: «إنها سلسلة من الرواسب، من إنجلترا الشرقية، وإنجلترا الجديدة، وغربكم الأوسط. وإن عند أهل الغرب الأوسط شيء أعتقد أنه من الخير لإنجلترا الجديدة إن تظفر منه بنصب أوفر. كما أن بلادكم إنجلترا الجديدة لديها شيء من الخير لإنجلترا الشرقية أن تظفر منه اليوم بنصيب.»

«ما أعجب ما تقول. لقد ذكر دكتور هارفي كسنيج شيئاً يكاد يطابق ذلك تمام المطابقة - لو استبعدنا إنجلترا الشرقية. في يوم من أيام الآحاد بعد الظهر في يولية من عام ١٩٣٢ عند بروكلين قبل أن تسمح له هارفارد بالعودة إلى بيل، كنا نتحدث عن الحماسة، وكيف أن الليل هنا يتجه إلى احباطها. فقال: لا يمكن أن يؤدي عمل جليل - قديم أو حديث - دون حماسة. وهو شديد الحماسة، ولم يستطع هذا المجتمع قط أن يثبطها، ولكنه قادم من الغرب الأوسط، ولا يمكنك أن تفهمه دون أن تعلم ذلك. وقال إنه يعتقد أنه منذ عهد الاستعمار كان المهاجرون الذين وجدوا جو مستعمرة ماسا شوست باي خافوا بعض الشيء ينتقلون إلى كنكسكتك وجزيرة رود - هارتفورد، نيوهافن، بروفدنس - وبالتالي، كان أولئك الذين يجدون كنكسكتك بطيئة بعض الشيء ينتقلون بعد الثورة إلى المستعمرات الغربية في أوهايو - وهي موطنه. ثم قال إنه لحظ آثار هذه الرحلات الطويلة كذلك في بلومنجتون وإنديانا وفي مواقع أخرى في أيوا.»

فقال هوايتهد: «أظن أن حقيقة الأمر أن الشعب الحلي ينتقل في المكان وفي غير المكان، لأن الإنسان قد يصطبغ بصبغة الزمان الوقتية، كما يصطبغ بصبغة المكان المحلية.»

«لا بد أنهم قالوا لك عندما كنت تقطن على طريق ملتن إن إحيى خالات كامرون فوربس قالت - أو قيل أنها قالت - أثناء غيابه الطويل جاءها عاماً للفيلين، أنها تأمل ألا يفقد (كلم) صلاته بملتن، ولا أشير بذلك إلى أنك تفقد صلتك بها، ولكن كيف أحسست عندما عدت إلى هنا وسط الجواذث؟»

قال : « لقد استنفدنا هذه التجربة . كانت ممتعة لما كنا نمر بها - لمدة خمس سنوات ، ولكننا أحسن حالا هنا » .

وأضافت إلى ذلك مسز هوابنهد : « قريبا من أصدقائنا . إن سكنى الريف حينما لا نستطيع الشئ أو الخروج أمر سخييف » .

رواصل حديثه قائلا : « أعتقد أنه من الخطأ أن تنشب بمكان لأنه أمذك بخبرة بهيجة ذات يوم . إنك بذلك إنما تحتفظ بملك زائل . لا تلمسك بالقديم لأنه أدخل على نفسك السرور في وقت من الأوقات . بل إنتقل إلى ما يليه ، إلى الاقليم المجاور ، والخبرة التالية . لقد خلفنا وراءنا سلسلة من المساكن البهيجة ، وكلها آية في الروعة ، وكان كل منها في وقت من الأوقات بمعنى لناكل شئ ، ولكننا لا نأسف اليوم على أى منها بعد ما تركناه » .

(٥)

٥ من ابريل ١٩٣٥

كان على الأستاذ هوابنهد أن يحضر اجتماعا لرؤساء الأقسام . ولبثت ومسز هوابنهد بانتظاره في غرفة جلوسها الصغيرة ، التي تطل على فناء راندور هول ، وعلى النهر ، خلال أشجار الجميز التي بدأت الآن تنفتح أزهارها . وكانت كتبها الخاصة هنا فوق الرفوف من سطح الأرض حتى السقف .

قالت : « إن أكثرها مذكرات فرنسية ، في صفين ، يملوها سنت سيمون للرجوع إليه . وعندى صنارة أستطيع أن أجذب بها المجلدات . إن فرنسا - كما كان يقول أولتى عندما كنت تتناول معنا الشاي في المرة الأخيرة - كان من سوء حظها أن تفقد عددا كبيرا من رجالها الذين كان يرجى لهم أن يكونوا من المفكرين

الأحرار في ثورتها ، وإلى ذلك يرجع السبب فيما أظن إلى ضعف أدبها في أوائل القرن التاسع عشر . إنني لم أطق قط قراءته ، ومن أجل هذا آثرت المذكرات والرسائل . »

وعاد الأستاذ في الموعد الملائم قبل ساعة العشاء ، وانسحبنا إلى المكتبة إلى جوار الموقد لأن هذا المساء من إبريل كان قارص البرودة .

قال الفيلسوف : « إنني أومن أشد الإيمان بأن أسمح للضيوف بالبداية في الحديث في الشؤون العامة حتى ينفضوا ما لديهم ويكتسبوا حرارة الغرفة » وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال : « حتى الجو أو المناخ موضوع ملائم للحديث دائماً » .

وكان من بين الضيوف الأستاذ رالف بارتن بري ، وهو زميل لهوايتهد في قسم الفلسفة ، ومؤرخ حياة وإليم جيمز . ولما كنت طالباً استمع إلى محاضرات الأستاذ جورج هربرت بامر في تاريخ الفلسفة ، كان بري - وهو حينئذ شاب أسمر ، وسيم الطلعة - يقوم بالقاء إحدى محاضرات بامر بين الحين والحين . والآن وقد تجاوزت ربيع العمر ، لم يفقد شيئاً من حدة نظرته ، أو سناء طلته . وجاء متأخراً بمضى الشيء ، وقبيل وصوله كان مضيقنا يقول :

« إن الأمم الغربية عندما تقترب أمراً مشيناً فهي على الأقل لا تفخر به ، ولكن يظهر أن ألمانيا تنفرد بهذه الصفة . وهي أنه كلما كان العمل بشما ، اشتدت حماسة الألمان لتأكيد صوابه . »

واتفق رأينا جميعاً على أنه بمقدار ما يدافع عنهم أحد الأحرار في بلد من البلدان يخيبون ظنه بالاساءة إليه . وقد حدث لنا ذلك مراراً وتكراراً في صحيفتنا ما بين عام ١٩١٤ و ١٩١٧ حتى سئمتنا .

وكان على مائدة الطعام هوايتهد وزوجه ، ونورث ، ابنهما ، وكان حينئذ ن

الصف الأعلى من مدرسة هارفارد لإدارة الأعمال على الضفة المقابلة من نهر شارلز؛
والأستاذ يرى . وبدأ الحديث عن السكحول ، لأن الخدمة قد وضعت قنينة كبرى
على المائدة - مما أدى إلى إمتعاض مضيفتنا - وقد بلغت القنينة من الضخامة أنها
كادت أن تخفي بتاتا باقة أزهار الربيع .

وقال هوابنهد : « منذ سنوات عديدة كنا نقطن قرية اعتاد أهلها الشراب ،
وقد إمتعنا عنه بتاتا آمليين بذلك أن نضرب لهم مثلاً حسناً ، وذلك لأن رجال الكنيسة
كانوا يشنون حملتهم على تناول الخمر . وكانت النتيجة أننا لاحظنا آثار الشراب
على الآخرين عندما كنا ندعى إلى حفلات المشاء . وأخيراً قلت لأحد مضيفي :

« أنصت إلى قولي : هل تدرك أنه بالرغم من كثرة الضحك بعدما يتناول كل
واحد كأسين من الشمبانيا ، فإن النكات لا تنم في الواقع عن فطنة أو ذكاء ،
ولكنكم تحسبونها كذلك ؟ ؛ ولشد ما كان عجبى لأجابته . قال : نعم ، ولكن
هذا تعريف للفطنة . أما النكتة فتكون طريقة إذا حسبتها كذلك ! »

وعلقت على ذلك بقولي : « إن كتر دج كان يقول إن كل موضوع نكتة حينما
يكون الناس في نشوة » .

فقال نورث : « أجل ، ولكن هناك فارق بين الفطنة والنشوة ؟ عرفت .
بحارا عجوزا ما رأيته قط صاحيا ولكنه لم يكن سكران . وكان يتحدث كثيرا في
السياسة ، ولكنه يلتزم دائما عمومياتها الكبرى ، دون الخوض في تفاصيلها . لم
يكن ذكيا فطنا في الواقع ولكن لما كنت أتناول شيئا من الخمر كنت لاحظ أن
نكاته في مسمى ، أروع وحكمته أسمى » .

« هل اتضح لكم لماذا يؤثر أهل الشمال الشراب القوي على النبيذ ؟ » .

وكان من رأي هوايتهد أن ذلك لتفادي الأحساس بالبرودة والرطوبة .

« هل يمكن أن يكون ذلك لأن المنب لا ينمو في الشمال ؟ » .

وواقفني برى قائلا : « إنني أعتقد أن ذلك هو السبب إلى حد كبير » . ثم

أضاف قوله : « ولكن تخمر العصير قديم قدم المدينة » .

وداعبه نورث هوايتهد بقوله : « هل تمنى أن الكحول مميّار من مميّارين

الحضارة ؟ » .

وأجابه الاستاذ برى بابتسامة مريرة : « لو كان الأمر كذلك لكنت حضارة

الولايات المتحدة من نوع شديد الانحطاط في المقد الثالث من القرن العشرين ! » .

وعلقت على ذلك بقولي : كان النورمان يذممون الشراب منذ ألف عام . وكان

من المؤلف في معاملة المدو أن تنتظر حتى يسكروا جميعا ثم تحرق دارهم بمن فيها . وقد

ورد ذكر هذه المادة المستحبة في كثير من القصص التي امتدت حتى بلغت اسكتلندة »

« ولكن هل كانوا يشربون في عرض البحر ؟ » .

« كلا ، فيما يبدو » .

« ولكن الملاحين النشطين يستطيعون استبعاد الكحول » .

« كما يستطيعون استبعاد القهوة » .

« ثم هناك توزيع الروم عليهم » .

فقال نورث : « لاناخذوهم مأخذ الجد . انهم قلة تدعو إلى العطف » .

« ان الأوامر بهذا الصدد في السفن الانجليزية غاية في الدقة ... لا يجوز

ادمان الشراب في البحر ، الا في عيد الميلاد » .

وبذلك الانتقال السريع الذي يحدث في الحديث ، انتقل الموضوع من بدرجة

الشراب في البلدان اللاتينية التي تقع جنوبى « خط النيبذ » إلى كفاية الملاحين النسبية في فنون الملاحة . وقال قائل :

« لابد أنهم كانوا بارعين في يوم من الايام ، لأن أكثر تلك الرحلات البحرية الجريئة التي تمت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قام بها البرتغاليون والاسبانيون والايطاليون » .

فقلت مسز هوايتهد: « كان ذلك من زمان بعيد وروت لنا أنها كانت على ظهر باخرة ايطالية اقلعت من نابلى » وقد لقي البحار « الذى كان يُقلع السفينة مشقة في فك حبل زورقه . وصاح القبطان الذى كان يقف قريبا من إحدى الخادومات وطوقها بذراعيه . فصاحت ، وعم الصياح بين الملاحين . واستطاع البحار أن يخلص نفسه ، ولكن بداية الرحلة على هذه الصورة لم تكن قط تدعو إلى الاطمئنان » .

قلت : « إن أردتم مثالا لبراعة البريطانيين في الملاحة ، فإليك هذه القصة ، وهى حديثة العهد جدا . وقدروها صبي نجا من حريق الباخرة مورو كاسل ، وهو شاب من فيلادلفيا ، رواها لجون رتشاردز احد اساتذته القداى في سنت پول . أمسك بحبل كان معلقا بقضيب الباخرة ؛ وتشبث به أربع ساعات وهو في شك من التهام النار للحبل ، ثم ماذا حدث ؟ أبحرت السفينتان الأمريكيتان ، ولم تفعل الا قليلا بل لعلهما لم تفعل شيئا ؟ ثم ابتعدتا . وأخير عند منبثق الصباح أتت السفينة البريطانية ، ويقول جون أن الصبي الأمريكى روى القصة ثلاث مرات دون أن يدرك أنه كان يكرر ما يقول ، وذكر أثر ما اتصف به البحارة الانجليز من كفاية هادئة وتدريب حسن على نفسه . وكانت السفن شديدة التلاصق حتى استطاع أن يسمع طعقة الاذرة التى تحمل السفينة وصليل القطع الحديدية . ثم طرق أذنه صوت هادى . رزين انبث من الضابط الأول ورن فوق سطح الماء وهو

يقول للرجل المسئول عن أحد قوارب النجاة: «مستر هوكز، أن قاربك بطيء - اهبط به إلى الماء أيها اللعين»

والظاهر أن هذه القصة قد بمثت في نفس الأستاذ هوايتهد سرورا شديدا ولكنه قال: «ربما صاح بالأمر - فيما اعتقد - رجل لا يتي شديدا الحماسة وحصل على مثل هذه النتيجة»

ثم انتقل الحديث إلى السفن الأمريكية الطويلة السريعة في القرن التاسع عشر، أو سفن جلستر للصيد في القرن العشرين، حيث بلغ كل طراز منهما قمة الانقار، بحيث أصبح عملا فنيا، حتى حلت محل الأولى سفن تجارية، وحلت محل الثانية سفن تندفع بقوة الاحتراق الداخلي.

وقال هوايتهد: «اذكر أن الانقار يسبق التغير دائما، ويدل على اقتراب نهاية عهد من العهود».

وانتقل هذا الحوار من مائدة الطعام إلى حجرة الجلوس حيث كنا نتحصى أنداح القهوة، وعندئذ ذكر مضيفنا «أن القدرة على الاختراع في أمريكا ليست ابتكارا غير مسبوق كما ينسب إليها هذا الفضل دائما، ولكنها توجد غالبا في مخترعات الدرجة الثانية التي تنشر السلعة وتعمم استعمالها» وواصل حديثه قائلا: «إنكم لم تبتكروا السيارة. إنما الفرنسيون هم الذين فعلوا ذلك. أما ما قمتم به فهو تحويلها بحيث تصلح للجماهير»:

«نعم. أوليس الجانب الأكبر من هذه القدرة على الاختراع ينتهي إلى جهاز لنقل الأجسام، ونقل الأفكار، ولا ينتهي إلى التفكير نفسه؟ فما رأيك في التفكير البتكر؟ لو كانت هذه الولايات المتحدة بمنزلة كقارة اطلانطيق الخرافية، ماذا كان يتي لنا لنذكر به؟»

فقال هوابند : « ان تممكم لتعلم القراءة والكتابة ، ورفع مستوى الراحة والرفاهية بين الجماهير يمد في ظني من أعظم الأعمال في تاريخ البشر . في البلدان القديمة وفي الأزمنة السابقة — حتى في أحسن الظروف — كانت الثقافة تنتشر بين أفراد طبقة صغيرة عليا فقط ، لانزبد عن عشرين في المائة على الأكثر . واعتقد أن إمداد الجماهير بمستوى من الميشة ملائم على الأقل يمد خدمة كبرى للمدينة » .

وسألت قائلا : « إن هذا لا يمدو مجرد الرفاهية المادية وراحة الناس ، أليس كذلك ؟ » ووافقني الأستاذ بى .

وقال بى : « إن الفنون الحقيقية هى علوم الجمال ، والعلوم ، والفلسفة : أما ما عدا ذلك فجهود ثانوية ، وليس من الجهود العظمى » .

وسأحت مسز هوابند قائلة : « ما أعجبكم أيها الأمريكان ! إنكم دائما تحطون بمن شأن أنفسكم ! » .

قلت : « إننا لم نبلع مرحلة النقد لأنفسنا إلا أخيرا فقط . وربما كنا مبالئين فيه .

ولكن لماذا شاعت في كتبنا الشعبية نفمة الغضب والمرارة والحقد ، في الوقت الذى زاد فيه توفير الراحة عن أى وقت سابق أو لاحق — من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٩ ؟ ألا تذكر أى أثر أليم تركه ذلك ؟ هل كان ذلك راجعا إلى تهديد أوهامنا بشأن الحرب ، أو إلى احساسنا بمعجزنا السياسى المؤقت ؟ لقد وصلت الرفاهية إلى أوساط الصفوف الدنيا من الطبقة الوسطى أو إلى بيوت العمال على صورة راديو ، وعربة رخيصة ، ومظلة من الجلد للمصباح ، وستائر كريتون ، وكرسى وثير ، وأجهزة منزلية توفر العمل . فهل يرجع سبب الغضب

إلى أن الراحة والفراغ قد توفرا لأناس لم يتدربوا على استغلالهما ، ثم حرموا منهما قبل أن يتعلموا طريقة استخدامهما ؟) .

وقال بى لنكى يستفزنى : « إنهم كانوا يقطلمون إلى وقت تزداد فيه أصباب راحتهم المادية وكانوا دائماً يترقبون هذه النعمة التى لم تتحقق . فبقوا ساخطين » .

وقالت مسز هوايتهد : « أنتم مستمجلون جدا . لم ينقض من تاريخكم سوى ثلثمائة عام ، وقد انقضى من تاريخ أوربا ثلاثة آلاف » .

« ولكن الأغريق فى حضارتهم لم ينقض على تاريخهم سوى ثلثمائة عام » وهنا تدخل هو ابهيدي قائلا : « نعم ، ولكنهم لم يعبأوا إلا قليلا جدا بمصر وفارس . وملك لاحظت ذلك . حقا لقد أنتبسوا بمض مبادئ الحضارة من كريت وميسيني وآسيا الصغرى ، وقليلا من مصر — وملك تذكر أن رجال الدين المصريين فى قصة أفلاطون كانوا يقولون لصولون : « أنتم الأغريق لستم الا أطفالا » . أردت أن أقول أنهم صنموا حضارتهم بأنفسهم . وكانوا — كالأمريكان — على درجة من العنف . وانى لأتحيل المصريين والفرس يقول بعضهم لبعض : « أليس من المؤلم أن يرتكب كثير من جرائم القتل فى اليونان ؟ لابد أن يكون المجتمع هناك غير آمن إلى حد مزعج ، بيد أن جرائم القتل لم تعترض انشاء المدينة . ان أكثر الأماكن التى زرتها شها باليونان — فيما أتخيل — هو اجتماع للملأ الجامعين فى شيكاغو ! كانت المدينة فوضى ولكنها تزخر بالحياة . لم يدرس الأغريق خير النماذج التى يمكن الحصول عليها خارج بلادهم ، كانوا يصنمون نماذجهم بأنفسهم . وذلك فى ظنى أقصى ما يستطيع امرؤ أن يصنع مما يكون له صفة اغريقية . أما عن قيمة دراسة اللغة فى أصولها ، فانى أعتقد أننا نستطيع أن نستمد من الترجمات أكثر ما فيها من مميزات . ولقد قرأت المهد الجديد فى أصله وأنا شاب ووجدت اليونانية — كلغة — لا تستحق التقدير ، وأفضل منها بكثير الترجمة إلى انجليزية أوائل القرن السابع عشر . ان تسمين فى المائة من هيرودوت العزيز يمكن الحصول عليه من

الترجمة ، وكذلك ستون أو سبعون في المائة من نيد سيديد . بل ان أفلاطون المقدس ذاته لا يفقد الكثير في الترجمة ، ولقد قمت بتدريس كثير من خير مجاوراته لفصول متتابعة من الطلبة ، وكثيرا ما سألت نفسي أية قيمة لما تحتويه من آراء تبرر الجهد الذي يبذل في سبيل تعلم اللغة . وعندما انقضى الآن أربعون عاما منذ كنت أقرأ اليونانية بطلاقة ، أتناول ترجمة لوب التي تمرض الترجمة الانجليزية في صفحات مقابلة وبمعاونة معجم ليدل وسكوت أستطيع بوجه عام أن آيين في أى المواضيع يمرض جوت نفسه للسخرية ، وذلك تقريبا مرة في كل مجلتيين . . .

واعترضت زوجه طلاقه المتدفقة بقولها : « هذا من عمل اكسفورد يا عزيزى اولى كما تعرف ! » .

وفي خضوع لزوجته خفف من حدة نعمته في الكلام وقال : « أجل ، يا عزيزتى ، ان ما قصدت اليه ، هو أن أبدى شكى فيما يعود من فائدة للطلاب المتوسط من إمعان البحث في دقائق المعنى من الأصول . ان اليونان أنفسهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك . وحينما يقول لى دارسو الاغريقية ، نعم ، ولكن ما عناهم مؤلفنا حقا هو .. فأنهم لا يمانون بذلك على ظهور الفكرة . إنهم يقولون ان أية طريقة أخرى لاتتفق وزماننا . ولست على يقين من ذلك ، ولكنى أرى أن طريقتهم هى التى لاتتفق وزماننا . ان هذا التقيد بالتقاليد الذى ينظر إلى الوراء إنما جاء في عصر النهضة . ولم يكن من صفات اليونان . وقد عانى قسم الفلسفة الذى أنتمى اليه كثيرا من ذلك بصفة خاصة . ومن أجل هذا حاولت أن أخترع مصطلحات جديدة للأفكار الجديدة . إن للتفكير رطانة تمرض سبيل التفكير نفسه . ولا يقل ذلك في مساوئه عن رد الفن الأمريكى إلى الآثار القديمة . كان الأمراء في عهد التصوير العظيم إبان النهضة يشترون الصور التى كانت ترسم في ذلك الحين ، ولم يشتروا الصور التى رسمت منذ قرون . ولو أن أصحاب الملايين عندكم لم ينفقوا أموالهم

في جمع روائع الفن لكبار الأساندة ، وإنما اتفقوها على الصور المعاصرة ، لا نتمنى
الفن في أمريكا . إن جوهر الحياة عندكم هنا في أمريكا هو أنكم لا تتطلعون إلى
الخلق وإنما تتطلعون إلى الأمام . إذا كان تاريخ الفن هو كل ما تريدون إذن
لكان مرجع الفضل كله إلى أوروبا ، أما إذا كنتم تريدون إبداعا يتطلع إلى
الأمام وجب عليكم أيها الأمريكان أن تعتمدوا على أنفسكم ، وإليكم سوف
يرجع الفضل كله .

وساورني شك خفيف في أن الفيلسوف الطيب كان يميل قليلا إلى الانحياز
الآخر كي يوازن ما عندي من فرط الحماسة للهلينيين . بيد أن اشتغالي باستيعاب
هذا الدرس في صدرى صرفني عن هذا الشك . وتبادلت معه الفكاهة . وكان
يتحدث مع برى عن المعركة التي دارت في أحد اجتماعات الكلية بشأن الاستفتاء
من ضرورة اللاتينية لدرجة البكالوريوس في الآداب . واجتذب سمي بفتة اسم
(راند) — وهو ادوارد كنرار راند ، الأستاذ البابوي للاتينية في جامعة
هازارد الذي عرفني بلابقي وهو داس إبان الدراسة بالجامعة .

وذكر برى « إن كن راند هو الذي ألقى الخطبة الرئيسية دفاعا عن ضرورة
اللاتينية ، وكانت خطبة قيمة . وفق فيها إلى الحجج الصحيحة . وكان فكها
في مواطن الفكاهة » ، ثم وجه إلى هوايتهد قائلا : « وبهذه المناسبة . لقد كان
لك ضلع في هذه المعركة » .

« أنا ؟ » .

« نعم . فقد اقتبس في حديثه بحرية من إحدى مقالاتك في (أهداف التربية) » .
« إذن فهو لم يقتبس كل نقاطي ، فليست كلها في جانب رأيه » .
« من هذه النقاط ما يكفي لتمضيد رأيه ، حتى منينا بالهزيمة المنكرة في
صدورنا بالفرد . وكان من بين الأعضاء عدد كبير لم يتكلم طويلا ، ولكن

لما لجأوا إلى التصويت — ومنهم شباب ما كنت تتوقع أن ينضموا إلى هذا الجانب من الرأي — صوتوا مع راند — ومعك .
فقال هوابتهد : « هذا أمر يدعو إلى العجب — إنها محاضرة أقيمت منذ عدة سنوات » .

قالت مسز هوابتهد : « كانت من خير محاضراتك يا أولتى » .
« نعم ، ولكن . . . » .

وصممت أن أنهى الموضوع فقلت : « ليس الأمر عجبيا جداً يا سيدى . وأنا أقر بذلك » .

ومنذ بضعة أسابيع أقيمت في بيت سام موريسون حفلة عشاء لجمع الذخيرة للدفاع عن اللاتينية . وقد وجدتهم لا يعرفون ذلك الفصل في مقالتي (أهداف الغريبة) ، فوجهتهم إليه .

وبدت الدهشة في وجهه بى ، وتكشف له السر ! ولكنى قدرت ذلك قبل أن أنكمهم . ولع بريق السرور في عيني هوابتهد . وسواء أَرْضى أو لم يَرْضَ من النتيجة ، فقد استطاع أن يدرك ما في الموضوع من فكاكة » .

وكذلك استطاع بى أن يجابه الموقف بما عنده من روح الفكاهة . ولما خرجنا حمانى في عربة إلى ميدان هارفارد ، حيث افترقنا ، وكل منا يؤكد تزميله استمرار تقديره له .

(٦)

٢٥ من أغسطس ١٩٣٥

تناولت الشاي والمشايع آل هوابتهد في كبردج ، وقد قرأوا مقال « هلاس والأرواح » ومقال « ممالك الذهب » في « اكسفورد روندو » التى نخرجها

« نحن الشماليين » ، وكنت قد عرضت هذه الفصول على الأستاذ هوايتهد لأنى اقتبست منه طويلا فى كثير من الموضع ، وبعض اقتبائى من كتبه المنشورة ، وبعضه من حديث ٥ من إبريل ١٩٣٥ ، وقال لى إنه طالع المطبوعات ثلاث صرعات ، وكان ذلك نقطة البداية لحديث عام .

قال الأستاذ : « إن اليهود يفتقرون إلى روح الفكاهة بدرجة فريدة » .

واعترضت قائلا : « إنهم فى أمريكا على الأقل يرسلون بعض النكات الطريفة ، ومنها نكات عليهم أنفسهم . وبعض الكوميديين اليهود من أكثر الناس فكاهة على الأرض » .

« نعم ، ولكن فكاهتهم من قبيل التهكم عادة . ويمدحون مثالا للفكاهة اليهودية . إنهم فى ذلك المر الذى يقع بين إمبراطورية بابل والإمبراطورية المصرية ، كانوا شعبا فى موقف يائس ؛ يحس أنه لا يقظر بحقوقه . ومن ثم فإن تنكيرهم ثقیل من أوله إلى آخره » .

وسألته : « إذا أخذنا فى اعتبارنا كل الشروح التاريخية المألوفة ، فبماذا نفسر تسلط هذا الفكر العبرى علينا نحن الأوروبيين الشماليين ، لأن هذه هى حالتنا ؟ » .

قال : « الأمر عجيب ، وأعتقد أنه يجب أن نذكر أنها نظرة إلى الحياة نفذت عن طريق الرقيق والعمال المأجورين ، وهى نظرهم التى ترى أن المرء يمكن أن يعيش حياة طبيعية حتى لو كان دون مرتبة السكالب . وقد لونت هذه النظرة بطبيعة الحال كل ما تلا ذلك من التاريخ الأوروبى ، وهى نظرة أقرب إلى بولس منها إلى المسيح وليس هناك ما يدل على أن بولس قد رأى المسيح قط ، ويبدو أنه كان يعطف بعض الشيء على بيثته ... » .

وقاطعته مسرعا هوايتهد بقولها : « نعم ، كآه أستاذ فى أكسفورد ... » .

« أجل ، وإن المرء ليحسب أن بولس قد توجه إلى الرسل وقال لهم :

« تعالوا حدثوني عن كل ما تذكرون عنه ، وكيف كانت سيرته ؟ ولكنّه لم يفعل ذلك ، بل قال : « اجلسوا أمامي وسأحدثكم عن معنى كل ذلك » . يبدو أن المسيح كان أحد أولئك الناس الذين يكتسحون غيرهم ، فتنسب إليه أمور طيبة ، فلما أخذت تلك الطبقات المهضومة تضع برنامجاً للحياة يجعل العيش ممكناً لهم ، تجمعت حول شخصية المسيح ... ومن عجب أن العنصر الهليني الذي تسرب إلى المسيحية كان علاجاً لنفس المشكلة من الطرف الآخر الناقض ، أي أن المفكرين الإغريق رأوا أن [القبضة الحديدية] أمر وضيع ، أو « بربري » كما كانوا يقولون . وباعتبارهم من الأرستقراط رأوا أن الشفقة وحسن المعاملة هما زينة الحياة الدنيا . واثلف هذان العنصران ، ولكن يجب أن نذكر أن المسيحية أتت إلى أوروبا عن طريق « الطبقة الدنيا من الكهان ! » .
وسألته : « ألا يدل اتجاه اليهود البنيص على حالة عقلية لم ترتفع إلى مستوى هذا السمو ؟ »

« بالتاكيد ، وقد أصبت في تعريفك للبروتستانتينية في أمريكا . »

« قلت إنها لا تستند إلى تقاليد قديمة تخفف من وطأتها . »

هذا هو الفارق بينها هنا وفي أوروبا . في إنجلترا - واعتقد أن ذلك كان بعد تدوين (مسرحية الماسفة) أي بعد عام ١٦١٠ فيما أظن - كان الشعب الحى الحساس ، من أصحاب الذوق الفني ، لا يستمد راحته النفسية من الإبداع الفني ، وإنما يستمدّها من الخبرة الدينية ، لتحسين عامّاً بعد ذلك على الأقل . وتلاحظ انحطاطاً ظاهراً في الفن ، والمهارة ، والشعر (أما الفردوس المفقود للثن فهي استثناء لا يقاس عليه) حتى بعد حكم الملكة آن . أما الأدب فجيد ، بل عمل عبقرى ، ولكنّه لم يبلغ جودته الموهودة ؛ وفي فن المهارة رشاقة ولكن تنقصه القوة . واعتقد أن الخبرة الدينية ينقصها شيء يستمد من التعبير الفني . إنها تهز الشاعر ولا تهدها . وربما كانت تنفقر إلى التدريب الذهني الذي يكفله التعبير

الفنى . عندما يراقب الناس غروباً رائماً - مثلاً - تثور مشاعرهم ، ولكنهم كذلك يهدأون ، وإذا أضفت إلى ذلك عنصر النظام الذى يدخله الفنان فيما يبدع ، والذى ينبغى كذلك أن يحيط به من يستمتع بالفن ، إذا أضفت ذلك وجدت أن شيئاً من المجهود العقلى يُطلب بالتعاون مع الفنان كي يحدث الأثر . وقد عرفت الكنيسة الكاثوليكية ذلك ، واستطاعت أن تدبر أمرها بطريقة أفضل . إن كرسى الاعتراف يهز الشاعر التى يثيرها فى الإنسان تقصيره فى بلوغه أعلى مستوياته ، ثم يهدئها بصرف الناس مطمئنين مرتاحين . ولا أقول أنها تتعرض لسوء الاستعمال ؛ ولكن وازن بينها وبين مذهب كالفن الذى لا يطمئن فيه الرجل التائب إلى أنه أصبح واحداً من المقربين إلى الله أو أنه حكم عليه باللعنة الأبدية ، وليس هناك ما يستطيع أن يفعله بهذا الشأن . بل إن الأعمال الطيبة نفسها إن تنجيه فهو « خارقة قدرة » : إن العقيدة هى أن الله عالم بكل شيء ، حكيم ، قادر على كل شيء . خلق هذه الدنيا كما أرادها تماماً ، وحتى ما فيها من شر قد سبق تقديره . وبالرغم من أنهم يلقون بضع عبارات يخففون بها من قسوتها ، إلا أن ذلك لا ينقذهم حقيقة من الموقف الصارم الذى زجوا بأنفسهم فيه .

« ما الفرق - فيما تظن - بين الخبرة الدينية والخبرة الفنية الذى يحمل الثانية فى كثير من الأحيان على ما يبدو - أعنى استجابتنا لصورة من صور الفن أو لشعور من المشاعر الفنية - أصبح كثيراً من الخبرة الأولى ؟ (بما فيها أيضاً التربية العقلية) . »

« أقول إن الفرق هو هذا . الخبرة الفنية تهديء كما تثير . والخبرة الدينية تميل إلى أن تترك المرء مملقاً وسط الفضاء . تثور العواطف ولا تُشبع . »

« إن الوقار غير الطبيعى الذى يتصف به الكثيرون من محترفى الدين هو عندى نقطة ضعف فيهم . »

قال : « كنت ألاحظ دائماً أن الأشخاص المتدينين حقاً ومن الأعماق مفرمون جداً بالفكاهة وإني لأشك فيمن ليس لديهم فكاهة . إن جهد الوقار لا يحتمل لأنه غير طبيعي . ولملك تذكر أن الاثنين كانوا دائماً يقدمون بعد مكاسهم مهرجاً على المسرح . »

« نعم ، وكثيراً ما كان المهرج يسخر من موضوع المسرحية . بل ومن أشخاص النساء . »

قال : « انني في كتابي (العلم والعالم الحديث) قد عالجت موضوع « ضرورة الهزل . » وأزل الكتاب من فوق الرفوف . واطلعنا على ما كتب في هذا الصدد في الفصل الثالث عشر ، الذي قرأناه معاً جهاراً .

(هل حقبة الأمر أنه ليس هناك أمر من الأمور ، ولا خبرة من الخبرات حسنة كانت أم سيئة ، ولا عقيدة من العقائد ، ولا سبب من الأسباب ، ليس هناك شيء من هذا يبلغ من الحلاوة في حد ذاته ما يكفي لشغل الحياة كلها بحيث لا يبقى مكان للضحك ؟ الضحك هو الذي يذكرنا بأن نظرياتنا ليست سوى محاولة لجمال الوجود مفهوماً ، لكنها بالضرورة لا تمدو أن تكون محاولة . ثم ألا يتدخل ما ليس معقولاً وما هو غرزي لكي يحفظ التوازن صحيحاً بطريق الضحك ؟)

وواصل هوابند حديثه قائلاً : « كثيراً ما يبدو لي أن الرجل الأوربي بلغ أوجه بين عامي ١٤٠٠ و ١٦٠٠ - ومنذ ذلك الحين أثقلنا بالتمثيل تقديرنا للجمال . نحن المتعلمين ثقفاً إحساسنا بالجمال أكثر مما ينبغي ولا ندرك كنه الجمال في بساطة . ومن الجائز أن يكون الإحساس بالجمال أصديقي وأقوى لدي غير المتعلمين منه لدينا . أن بناء الكاندراتيات الأوائل - حتى النورمان والرومانسك - لم يصوغوا النظريات . إنما كانوا (يبنون) ، كما أن السمرات انصرفوا إلى عملهم مباشرة أكثر مما تفعل . نحن أبناء اليوم نبالغ في تمقيد الأمور . إن المكان

الوحيد الذى يترأى لى أن ازدهاراً عظيماً آخر للثقافة الأوروبية قد يظهر فيه هو الغرب الأوسط فى أمريكا ، حيث يمكن أن تكون البداية جديدة ، وأن تنمو الثقافة من أصولها . وقد عاجلت فى الفصل الذى كتبته علاجاً معقولاً مسألة الفارق بين الأمريكان والأوربيين . لا ينبغي للأمريكان أن يحاكوا الأوربيين . يجب أن يكونوا أنفسهم ، وأن يبدعوا من جديد . إن هذه المحاكاة الأمريكية لأوربا ستفتقر دائماً إلى التشويق والحيوية ، شأنها فى ذلك شأن كل المشتقات . وعلى الأمريكيين أن يدرسوا أوربا وأن يرفقوا ما أنجزته من أعمال . ولكن عندما يكون الأمر أمر خلق وإبداع ، فبالله انسوا كل ما تم عمله من قبل ، وأخلقوا وأبدعوا ! »

قلت : « لا يبقى للمرء فى أغوار الخلق والإبداع شيء يستطيع أن يؤديه . اما الدراسة فقد تعين المرء ، ولكنها لا تنجيه . »

قال : « انها لا تعينه الا اذا تمثلها حتى نسبها وأصبح لا يميزها . وإننا لنجد - كما كتبت مرة - فى أكثر الجامعات التى تدرس الأدب ، أن الدراسة لا تنجيه إلى ما ينبغي عمله وإنما تنجيه إلى ما تم عمله . وهى لذلك تميل إلى تقديس الماضى واحترامه . وإنى لأفزع من تجميد الذكاء الخالق بالتعليم البالىم فى جودته - بالأفكار الساكنة . فيقال للمتعلم : « هذا هو الشيء الصحيح الذى ينبغي لك أن تعرفه » . فذلك قبول سلبي للتعليم المقدس ، دون أية نية للتصرف فيه . وعلى المعلمين أن يحسوا احساساً حاداً بالمعوق الكامنة فى المادة التى تدرس . إن ما يملونه قد يفتقر كل الافتقار إلى عناصر التغذية الضرورية . عليهم أن يحذروا مادتهم وأن يملوها تلاميذهم أن يحذروها . إن التعليم اذا تجمد ، فقل عليه السلام . إن أقسام هذه الكليات سوف تحتاج إلى التعليم . والخطر فى أن تتجمد التربية ، فيظن « أن هذا وذاك هو الصحيح الذى يجب معرفته » وإن حدث ذلك مات التفكير . لشد ما أضيى بالغرور الذى ألمسه فى بعض ألوان الحديث

الذى يدور بين زملائي ، ذلك الحديث الذى يرسلونه فى ازدياء قائلين بأن النظرية لا تجود اذا [اختبرت نصف اختبار] فحسب . وأنه لابد من جمع الحقائق فى دقة بالغة . كما أضيق كذلك بائتمام الجامعة عن الحياة العملية : ولا أقصد بائتمامها عن الحكومة الفدرالية وحكومة الولاية فحسب . وإنما كذلك بائتمامها عن الشئون المحلية "بلدية" . إن وظيفة كبرى تنتظر الجامعات الأمريكية . وذلك أن يمدنوا العمل : أو على الأصح أن يحملوا رجال الأعمال على أن يمدنوا أنفسهم باستخدام نفوذهم فى شئون الحياة العملية ، فيمدنوا وظائفهم الاجتماعية . ولا يكفى أن يجمعوا الثروة بهذه الطريقة أو بتلك ، ثم يتبرعون بمد ذلك لإحدى الكليات أو المستشفيات . إنما ينبغى أن يكون (الدافع) فى جمع الثروة استخدامها فى غرض اجتماعى انشائى . »

« وهل يستطيع الرجل الذى يندفع بدافع الإيتار أن يجمع ثروة ما ؟ » .
 « الأرجح أنها تنفق عند جمعها . إنما قصدت أن القانون قد تمدن - فعل ذلك اليونان والرومان وجستنيان وغيرهم - وتخلص الطب من السحر ، وتخلصت التربية من الدجل ، وقد آن للعمل أن يعرف وظيفته الاجتماعية . لأن أمريكا - إن أرادت أن تتمد - فلا سبيل لها إلى ذلك (فى الوقت الحاضر على الأقل) إلا عن طريق طبقة رجال الأعمال ، الذين يملكون النفوذ والعمليات الاقتصادية . نولست بحاجة إلى أن أذكرك أن هناك محاولات كثيرة لتحقيق ذلك ، فى كلية هارفارد والمدارس العليا على هذا الجانب من نهر شارلز ، وهناك محاولات فى مدرسة هارفارد الجديدة لإدارة الأعمال على الجانب الآخر من النهر . ولكنها محاولات تسودها روح الاستعلاء وانعدام الخيال ، ولو أن الجامعات الأمريكية عرفت واجبها لتناولت العمل بين يديها وعلمته قواعد الأخلاق ومستويات المهنة المالية » .

ثم قال إن من رآه أن تفسير التاريخ بالعامل الاقتصادى طريقة معيبة جدا ،

وإن محاولة الأسكندر توحيد العالم بإدخال الحضارة الهلينية في شرق آسيا - « وبرغم أنه أصاب نجاحا ، وخلف من بعده فوضى » - حتى هذه المحاولة بجهود أنبل وعامل أفضل .

وتحدثنا في السبب الذي أدى إلى تفوق الطبقة الوسطى بهذه الدرجة المؤسفة ، وكان من رأيه أن ذلك راجع إلى أنهم نخبة ممتازة نجحت في حياتها لأنها جديرة بوظيفة محدودة - هي وظيفة خلق العمل المريح - في عصر معين ، وإن لم يكونوا في الواقع فئة ممتازة ، ولكنهم طبقة ذات موهبة تدفع بها الظروف المتقلبة إلى أعلى . « أما في إنجلترا فإن هذه الطبقة عند ما يمتريها شعور صادق بالخروج على التقاليد الدينية ، تتحول إلى طائفة من الناس لها قيمتها ، ولها أهمية تاريخية قصوى » .

« هل تنقسم الطبقة الوسطى إلى فئتين : إحداها تتأثر بالماطفة الدينية أو بالإحساس بالجمال - الذي يخفف من وطأة وظيفتهم الاقتصادية - والأخرى تلك التي تتأثر أساسا « بدوافع الملكية » أو لعلها تتأثر بهذه الدوافع وحدها ؟ »

« نعم . وأظن ذلك بفسر لنا الحقيقة . وقد وجد أن الطبقة الأرستقراطية وطبقة المال في إنجلترا بينهما قدر كبير مشترك ، وتفاهم متبادل ، أكثر مما بين إحدى هاتين الطبقتين والطبقة الوسطى . إنهما يتعارفان عن طريق الرياضة ، وكلاهما أقرب إلى الواقع وإلى الارتباط بالأرض . واعتقد أن طبقتكم الوسطى هنا في أمريكا أعلى وأقوى أثرا من مثيلتها لدينا . ولا أحسب أن حركة اتحادات العمال عندكم مشغولة من الناحية السياسية أو تستطيع أن تستولى على الحكم . أما الأرستقراطية بالأممى الأوربي الذي يقصد طبقة مشغولة حاكمة ، فلا وجود لها عندكم بطبيعة الحال » .

« إن كلمة الأرستقراطية في هذه البلاد معتلة . في الغرب الأوسط ، عند ما كنت

صيبا ، كانت كثيرا ما تقرن بسمك القد . فقد انتقلت هذه الفكرة إلى هناك من إنجلترا الجديدة وهي تقصد بوسطن بصفة خاصة . يبدو لي أن أرسطقراط إنجلترا الجديدة ، إذا أطلقنا عليهم هذه الصفة قد فقدوا ، أو تخلوا عن قيادتهم ، واستوردوا جموعا حاشدة من الأوربيين الجنوبيين يعملون لهم ، ولما خافوا كثرتهم وفلقهم وقوتهم الكامنة ، أصابهم الذعر ، وتخلوا عن محاولة الحكم . ونحول أصحاب الأصل الطيب منهم إلى دكارة وأساتذة ، ولكن كثرتهم تعيش على المال للوروث وعلى المركز الاجتماعي .

فقال : « إن الأرستقراطية التي تنفض قيادتها تنهى وجودها . لأن المسوغ الوحيد لبقائها هو توليها القيادة . إن أفراد الطبقات العليا من الأمريكيان في بوسطن وإنجلترا الجديدة من أرق من قابلت من الناس . انهم مثقفون جذابون . ولكن لما تدفق المهاجرون الى هنا من أوروبا في القرن التاسع عشر ، لم يفعلوا لهم شيئا سوى المطف البشرى في بعض صوره . وترتب على ذلك بعد جيلين - لما زاد المهاجرون عنهم في العدد والأصوات - ان وجدوا أنفسهم من الناحية السياسية تحت رحمة أناس لا يشعرون بنحوهم او نحو مؤسساتهم بالولاء » وبعد لحظة قال : « ان عائلات التجار المنشقين على تقاليد الدين تزاوجت مع الأرستقراط الإنجليز ملاك الأراضي في القرن التاسع عشر فبعثت جديفة خلقية في طبقة الأرستقراط لا أظن انه قد سبق وجودها في التاريخ . »

وكنيت في بداية المساء قد لاحظت مثلا من رقة قلب هوايتهد ويقظته : وكان يتحدث عن الكاثوليكية . وانخفض صوته وهو يقول : « ان عقلنا كاثوليكي ونحن نكرس حياتنا للكاثوليكية » وكان نص ما قال :

« ان الأناجيل الجملة من تفكير قوم أقوياء : إن الحواريين يجمعون الحنطة يوم السبت ، يزجرهم حاكم القرية والمجلس القروي . وهم يجيبون في خشونة (واخشوشن صوته الى حد الفظاظلة) : « وما الخطأ في ذلك ؟ » ، غير أن الدين

الرسمى الذى يبدأ زهاء القرن الثانى - أعنى التماثيل الكاثوليكية - فلسفة فى الحياة ، وكأنها تصدر عن رجل عاش عيشة منحلة ، وجرب كل شئ ، وكانت له علاقات جنسية مثيرة كثيرة ، ثم - على حين بفتة - فى سن الخامسة والثلاثين. انقلب الى النقيض ، وتخلّى عن كل صنوف الاستهتار .

قلت : « ولماذا تحصر ذلك فى المسيحية الرسمية . ألم تصف لنا بذلك صديقنا العزيز ليو تولستوى ؟ » .

وقال باسم : « ليس الى هذا الحد ! » .

وأدى بنا ذلك إلى موضوع التأليف . قال :

« ان المرء فى الواقع يكتب لقراء يبلغ عددهم نحو العشرة . وربما أعجب بما يكتب آخرون ، هذا أمر واضح ، ولكن اذا اقتنع هؤلاء العشرة رضى الكاتب عن نفسه . لابد من قدر معين من التشجيع » .

وأثرت هذه المشكلة ، وهى : لماذا يستنفد خالق العمل الفنى خبرة الفنان المبدع ، فى حين أن لهذا العمل الفنى قدرة لا حد لها لتكرار إثارة الحس عند المشاهد ؟

قال : « ربما كان ذلك لأن كل المجهود البشرى يوجه نحو غرض من الأغراض ، سواء تحقق أو لم يتحقق ، وهدف الفنان - وإن لم يبلغ النتيجة التى كان رجوها برمتها - يحقق إلى حد كبير ، ومن ثم فإن الأمر بالنسبة إليه منته . والنقطة التى ينتهى عندها هى نقطة البداية عند المشاهد » .

« هذا رأى أقبه إجمالاً ، ولكنى أرجح أن بينه وبين وقاجر وبراهم وجيته قد رضوا عن أنفسهم الى حد كبير بما أنتجوه فى السنفونية التاسعة ، ترستان) ، بالمزف على الكمان ، أو (فادوست) - ولا أقصد أنهم لم يتمتعوا أن يكون العمل أفضل مما انتهى إليه ، ولكنهم استطاعوا أن يحسوا أنه يلغى

من الجودة الحيد الذي يستطيعون ، ولم يكن أمامهم بعد ذلك ما يزعج خواطرهم .
وعلى مائدة الطعام تحدثنا عن تدخل الصحافة الأمريكية في حياة الأفراد الشخصية . قال :

« إن الناشر الإنجليزي يستطيع أن يوجه الخطاب الى جمهور متماثل لا بأس به من ذوى الأذواق ، ممن يسهل الاتصال بهم . ولذلك فإن الناس المهتمين بكتاب له قيمة حقيقية يسمعون عنه ، ويكفي عددهم لأن يجعل نشر الكتاب ذا فائدة . أما هنا فإن الجمهور صاحب الذوق مشتت على رقعة فسيحة . ولا تزال البلاد قليلة السكان . ولذا فلا مناص للناشرين من إرسال المندوبين شخصياً الى أماكن نائية على مسافات شاسعة . ويبدو أنهم يحسون في إعلانهم بأنه لا بد من أن تكون سمعة الكتاب أشد إثارة من الحقيقة . لا بد في أمريكا من اشاعة الحرارة في كل شيء ، ومن بعث عنصر الإثارة فيه . أن جمهوركم في حقيقته أكبر من جمهورنا ، ولكنه بالنسبة الى مجموع السكان عندكم أقل منه عندنا بكثير . جمهورنا يبلغ نحواً من خمسة وعشرين ألفاً . أما جمهوركم فأكثر عدداً ولكنه موزع . ويترتب على ذلك أن ناشرى الصحف خاصة بدلا من أن يخاطبوا نخبة ممتازة تقبل الروائع ، لا بد لهم من تخفيف المادة وتزيق المقال حتى يمكن توجيهه الى جميع الطبقات ، ويؤدى ذلك الى الهبوط الى القاسم المشترك بين معارف الناس . أضف الى ذلك أنهم تورطوا في ارتفاع تكاليف الأنباء ، بحيث أصبحوا يعتمدون على الإعلان للاتفاق عليها ، ويضعف ذلك من استقلالهم .
وتحدثنا كذلك عن الفجوة بين الشباب والشيخوخة منذ الحرب . وقيل إنها أقل عمقا بكثير في إنجلترا . وسألته عن رأيه فيما حدث هنا .
فقال : « إن الجيل الذى يبلغ أبناؤه اليوم التحسين أو ما يدانها كانت نشأته — فيما يبدو لي — شديدة الاضطراب . وإني حينما أخطب جمعا من الشباب يخون سن الثلاثين ينتابني شعور بالاحترام القلبي لهم » .

رواصل حديثه قائلا : « واعتقد أن ذلك راجع الى أن آباءهم قد فقدوا عقائدهم ، ولكنهم ظلوا مضرين على صيغ السلوك البائدة كي يجمعوا أبناءهم (طبيين) ، في حين أنهم هم أنفسهم لم يعودوا يثقون في هذه الصيغ البائدة . وقد كشف الأبناء حقيقة الأمر في النهاية ، فخدعوا آباءهم بدورهم ، فكانت النتيجة خداعا في خداع . كانوا يعرفون أن دينهم القديم كان فارغا ، ولكنهم لم يخلصوا لأنفسهم ولا لأبنائهم في هذا . وكان أبنائهم في تلك السنين فيما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ، في السن التي يمارس فيها المرء لأول مرة الضرورات الحيوية ، عاطفية وبدنية ، فلبثوا في جهل تام بالنتائج الاجتماعية التي تترتب على ضروب معينة من السلوك » .

كان يقول ذلك في طريق عودتنا الى المكتبة بعد تناول المشاء . ولما استقرت رفقتنا ، ألقى أحدهم بسؤال ظل معلقا امدا طويلا :

« لماذا لبث العلم في تقدم بخطوات واسمة منذ عام ١٩٠٠ في حين أن كثيرا من الأمور الأخرى قد أخذ يتراجع ؟ » .

قال : « من الأسباب التقدم العظيم في علوم الرياضة فيما بين عام ١٧٠٠ وعام ١٩٠٠ فتوافرت به لرجال العلم أداة دقيقة مضبوطة يستكشفون بها عوالمهم الجديدة » .

« ولكن لماذا كان هذا التقدم في القرنين السالفين ، في حين أن الرياضة نفسها تطورت تطورا كبيرا على أيدي اليونان منذ ستة وعشرين قرناً على الأقل ؟ » .

قال : « كانت مستكشفات الإنسان في الرياضة قبل ذلك تأتي عن طريق ملاحظة بيئته الطبيعية ، فتميز بذلك عن التعليل المجرد وناقضه . لاحظ الإنسان فوق سهول كلدنيا النجوم ندور ثم تدور ، فاستنبط فكرة الدائرة ، وأخيراً وسل

الى المجلة . ومن ذلك ترى أن المجلة ليست اختراعا واضحا كما يظن . وحتى القرن الخامس عشر حينما وجد الأوروبيون أمريكا ، كانت المجلة لا تزال مجهولة في هذا النصف من الكرة الأرضية . والهندسة — قياس الأرض — قد تطورت على أيدي المصريين بسبب حاجتهم إلى إعادة رسم الحدود التي يحجوها فيضان النيل السنوي .

ثم قال : « ولكن حدثت فجوة طويلة فيما بين هذه المستكشفات القديمة التي استنبطت من الخبرة المادية ، والمستكشفات التي جاءت فيما بعد ، والتي لم يمكن بلوغها إلا بالتفصيل المجرد . كانت طريقة العدد الرومانية ثقيلة غير متقنة ، ولم تصل إلى أوروبا طريقة العدد العربية — وهي أسهل في تناول — حتى القرن الثاني عشر . ولما وصلت إلى أوروبا تجملت صورها المبسطة — التي يسهل على العيين استيعابها — الرياضة في تناول عقول أكثر عددا وأشد تنوعا . ولما أشرقت القرن السابع عشر على نهايته ، بلغ هذا التقدم — الذي بدأ في النهضة الإيطالية — قوته عند نيوتن وليبنز ، فتطورت اللوغاريتمات وحساب الثلاث والجبر ، وانتهى المهسد قطعا باتقان حساب التفاضل والتكامل ، إن لم يكن باختراعه اختراعا . فأصبح الطريق الآن مفتوحا ، منذ عام ١٧٠٠ إلى ما بعده ، لتلك الجولة في الرياضة التطبيقية التي أمدت العلماء بوسيلة مركبة حساسة تخلق صيغ فلكية يفسرون بها مدرجاتهم للظواهر الحسية . »

فعلقت بقولي : « ولكن مع تقديرنا للتقلبات التاريخية ، وانهيال الإمبراطورية الرومانية ، والمصور المظلم ، وما إليها . . لا يزال من المعجب أن تحدث تلك العكسة الطويلة بمد تلك البداية المبشرة في العالم القديم . »

فقال : « ما أكثر البدايات المبشرة ، ثم لا ينفذ منها إلا القليل . وأن تتبع البدايات التي شرعها العلماء بكل ما تفرع منها لتستغرق مائتي عام . ويمكن أن

يتم ذلك على أيدي رجال أقرب في الحقيقة إلى رجال الصف الثاني ، رجال ذوى عقول ذكية يستطيعون متابعة طرق معينة داخل دائرة محدودة ، ولكنها ليست عقولا مبتكرة . وقد تنسم أعمالهم بطابع الابتكار ، ولكنها محدودة جدا ، فهي قد لا تمثل جزءا من ألف من التجارب . لقد بلغ العلم حدا يستطيع معه أن ينقل هذه السهولة في البحث . ولكنه بحث ذو قيمة ثانوية . ليس بحاجة إلى رجل مثل شكسبير ليقوم به .

« هل تريد بذلك أن تقول إن مبدعى العلوم الحقيقيين في ندرة شكسبير ؟ » .

« إنما أردت أن أقول أن كثيرا من الناس ، ومن بينهم البرزون منهم ، ممن يعدون من العلماء لا يصدقون في الواقع أن يكونوا مجرد تقنيين (أى ماهرين في الصناعة) إنما لا نظفر بعالم حقا إلا مرة في كل جيل طويل .

« وكيف يمكن أن ترتفع الخبرة إلى مستوى الوعي وتنتقل من اللاوعي إلى صيغة فنية ؟ » .

« أنت تتكلم كلاما ممعنا في التمثل . إنها في أول الأمر خبرة فنية ، يشهد الإحساس بها — خبرة عاطفية مشوبة بتصورات ذهنية — ثم تتطلب بعد ذلك صياغة فنية معينة .

ومشكلة المبدعين اليوم هو محاولتهم استبدال الفكرة العقلية بالخبرة الفنية . إنهم يفكرون على هذا النحو : « أليس مما يثير الحس أن تعالج هذا الموضوع بهذه الطريقة ، وهى طريقة لم يحاولها أحد من قبل ؟ بيد أن الجدة عديمة الأهمية . وكل ما له أهمية هو عمق الخبرة التى يصدر عنها الفن وسلاحياتها . فان صدرت عن مجرد استدلال منطقي بارع واع كان مقضيا عليها بالفشل . إنك حينئذ تعالج تصورات ثانوية وخبرة ضحلة نسبيا ، أنها لا تحمل طابع الحق العميق . » .

« كنت منذ برهة تتحدث عن غربنا الأوسط ، وتقول شيئا عن . . . » .

وقاطعني بشدة قائلاً :

« كانت ملاحظتي أن المكان الوحيد الذي أعرف أن الإنسان الأوربي يستطيع حتى الآن أن ينشئ فيه الحضارة على نطاق واسع هو الغرب الأوسط في أمريكا » .

« بين جبال ابلاش وجبال روكي ؟ » .

« نعم حوض المسيسيبي ، على وجه التقريب » .

« ولماذا لا تكون المناطق الساحلية ، على الأطلانطيق والمحيط الهادئ ؟ » .

« إنها مجرد ناقلة للثقافة . وثقافتهم أقرب إلى الاشتقاق . أما في الغرب الأوسط ، فالجو ، والتربة ، والطعام ، كلها ملائمة — وهي عناصر ثلاثة لازمة لازدهار الحضارة . إن محاولات الإنسان الأولى في الحضارات الدوثة في التاريخ قامت في الأجواء الحارة حيث يتوافر الطعام ، وحيث تكاد لا تنشأ الحاجة للملبس والمأوى . فقد قامت الحضارة الهندية إلى حد كبير على الرز ، كما نشأ مجتمع متمدن فيما بين النهرين على القلة ، وفي مصر توافر البلح ، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية توافر للزراعة والانتكا الذرة والموز . بيد أن زيادة السكان ، التي ربما كان السبب فيها رخص الطعام ، هبطت بقيمة العمل وأفسحت الطريق للاستبداد السياسي . وبالرغم من أن الثروة — ومن ثم الفراغ اللازم للثقافة — ربما تنشأ من العمل البعس ، إلا أن ما ينتج عن ذلك من فقدان الحرية يبطل الذهن . وكان من نتيجة ذلك أن مدينتنا الشمالية في أوروبا ، حيث الجو أشد برودة ، وحيث الحصول على الطعام والملبس والمأوى أكثر مشقة ، وحيث تكثر الجنس البشري أقل غزارة . ولكن الفردية أشد وضوحاً — هذه الدتية اجترأت على التفكير العقلي ، وكان التفكير فيها أقل تقيداً بالخرافة الدينية ، فانتجت أخيراً ذلك الخلق التوافر النشاط . المعتمد على نفسه ، وأعني به الإنسان الأوربي . »

« إن كل نوع من أنواع الإنسان الأوربي تقريباً يوجد في مكان ما في غربنا الأوسط »

« بل إن به بيئة بشرية أشد ملائمة لحضارة جديدة ؛ فالإنسان هناك ليس من سلالة مختارة فحسب ، بل إن أهل الريف والمدن الصغيرة لا يزالون يكوّنون نسبة كبرى إذا قورنوا بسكان المدن — وذلك مما يعاون على نشر الحضارة . إن خير تفكير الإنسان ما يقوم به إما أفراد يقطنون الريف وإما في جماعات صغيرة ، وإما أولئك الذين نشأوا في مثل هذه البيئة في حياتهم الأولى ، ثم عززوا نجاحهم بمد ذلك بالحياة في المدن : لأن المطلوب هو الاحتكاك بعمليات الطبيعة الأولية إبان سنوات الشباب حينما يكون العقل في دور التكوين » .

قلت : « لاحظت مراراً عند الموازنة بين أطفال الريف أو أطفال المدن الصغرى ، وأطفال المدن أو الأطفال الذين نشأوا في الضواحي ، لاحظت أن الصبيان الذين نشأوا في الريف أكثر اعتماداً على أنفسهم وأوفر مادة . هب أنهم يفقدون وظائفهم : عندئذ تجد أن الشباب من المدينة أو من الضواحي ، الذي ينتمي عادة إلى طبقة الموظفين ، مضطرباً ، يشعر بالعجز ، في حين أن الشباب الريفي يتقبل الموقف ببرودة شديدة . أي عسر أمامه ؟ لقد كان يكسب عيشه بالعمل بيديه ، وهو يستطيع أن يعمل بيديه مرة أخرى إن اقتضت ذلك الضرورة » .

وواصل هوايتهم حديثه قائلاً « إن التمدن (حياة المدينة) نقطة ضعف لكثير من نواحي تفكيرنا الحديث ، وبخاصة في المشكلات الاجتماعية . إن التفكير مستمد أساساً من المدن ، في حين أن المدن ربما لا تهتم كثيراً . إن المسرحيات البارة نكتب للمشاهدين المستهترين في المدينة ، والشعر الفريد والروايات الشائمة تؤلف عن ساكني الطرقات المزدهمة ، الذين يبعدون أكثر العام — لسوء حظهم — عن الاتصال بالتربة ، وبالغابات ، والبحار ، والذين ربما لم يقوموا بعمل يدوي شاق يوماً واحداً في حياتهم ، والذين قد لا يحسون إلا إحساساً ضيقاً

بتقلبات الجو ذاتها . إنهم محرومون من ذلك النظام الذى يفرضه الاتصال اليوى بنمو المحصولات الطبيعى ، والذى يفرضه القلق الذى ينجم عن خضوع هذه المحصولات لرحمة اهواء الطبيعة . وهم محرومون كذلك من تلك التجربة التى تبعث الطمأنينة فى النفوس - ألا وهى جود الطبيعة فى نهاية الأمر » .

وعلمت بقولى : « منذ وقت ليس ببعيد كنت أقرأ المناظر الخاصة بالحنات فى جزئى (هنرى الرابع) . إن هاتين المسرحيتين صدرتا فى أوج عصر إليزابيث بإنجلترا ، ولم يسمنى إلا أن أتأمل دائماً جلال اللفظ فيهما ، والمسرحيتان تستندان مادتھما من الحياة العادية : وكثير من المسادة مستمد من الريف ومن حظائر الحيوانات . ولما كانت خبرتى بالحظائر واسعة منذ الطفولة ، أحسست كأن رائحة الحظائر تفوح صادقة من ألفاظ شكسبير . وعلى أية حال فإن مثل هذه الكتابة لابد أن تصدر عن الريف - كما قلت - ولا يمكن أن تصدر عن أى مكان آخر » .

ووافقنى على ذلك هوايتهد قائلاً « أجل ، وأعجب من ذلك أنى لا أعتقد أن شكسبير كان يتصيد الألفاظ فى أى موقف من المواقف . هل يمكنك أن تتخيله يقرض طرف قلبه مفكراً فى الكلمة الملائمة ؟ إن لديه من الخصوصية ما يحمل الكلمات بتدفق من تلقاء نفسها - فيما أظن - بمجرد تخيله المنظر واضحاً . ويجب أن تذكر أن هذه القوة العارمة قد سادت إنجلترا كلها فى عهد التيودور . ولو اجتمعنا مما مرة فى كبردج أود أن أصحبك إلى الحجرة العامة فى كلية ترنيتى ففهما ستجد صور موظفى الكلية منذ نشأتها - وقد أسسها هنرى الثامن . ستجد أولاً التيودور والالزابيثيين الذين يفيضون حماسة ، ثم الپيورتان الأشداء ، ثم أبناء القرن الثامن عشر الذين تدب فيهم الحياة . أما فى القرن التاسع عشر فستجد العالم والرجل المذهب ، وفى القرن العشرين تجد العالم وتفقد الرجل المذهب ... » .

وامتعضت مسر هوايتهد ، ولكنه لم يعبأ بامتعضها .

« إن التدريب العقلي الذى اجتازه الملوك النبودور لابد أن يكون قد هيا
أذهانهم للحكم . ولقد كانت تربية الزايت أشمل تربية تستطيمها أوربا . كانت
تألف اليونانية واللاتينية أثناء زياراتها لجامعات أ كسفورد وكبرج . كانت تقرأ
الإغريقية كل صباح مع مربيها ، ووجر اسكام ، بادئة نهارها بالنص الإغريقى
للكتاب المقدس ، ثم تقرأ بعد ذلك وترجم مؤلفين قدامى من أمثال سقراط
وسوفوكليس وديموسستيز . وكانت تنفق الأصائل فى اللاتينية ، وقد قرأت كل
شيشرون تقريباً وجانبا كبيراً من ليشى . ولما وجه إليها السفير البولندى خطاباً
مهمناً باللاتينية - وقد أراد أن يسىء إليها - ظاناً أنها تستطيع أن تفهم ومفترضا
أنها لا تستطيع أن ترد عليه بلفتة - لما فعل ذلك أجابته بكلام مبهين فظيع استغرق
نصف ساعة ، وكان باللاتينية ! »

(٧)

١٩ من مارس ١٩٣٦

عند تناول المشاء - وكنا ثلاثة فقط - سألتنى رابى فى المناوشات
الأوروبية . قلت : « إنها ليست حرباً - أو إنها ليست كذلك الآن على الأقل . »

فقال الأستاذ : « إن الدبلوماسية الجرمانية فمالة . إنهم يحسبون أنفسهم أبطالاً
خياليين . استطاعوا فى عام ١٩١٤ أن يسبقوا العالم بمراحل دون قتال ، ومع ذلك
فقد أوجبوا على أنفسهم القتال . وإنى لأتخيل أن رجال الصناعة عندهم قد أدركوا
سخر هذا الانجاء ، ولكنهم خضعوا حينما استطاع رجال الحرب - كما حسبوا -
أن يثبتوا أنها لن ندوم أكثر من ستة أسابيع أو ستة أشهر . وهل يطرا لك
أن نصف قرن من موسيقى فاجنر قد يكون له أثر كبير فى وقوع هذه السكارثة ؟
لقد كان أفلاطون يعرف ما يتحدث عنه حينما قال إن « من الموسيقى ما يجافى

الأخلاق » . إنها لا تتمشى مع قواعد الأخلاق . صحبتني مرة إلى كارمن فتاة صغيرة جميلة كي أستمع إليه في حفل عيد ميلادها ، ولما انتهى الأداء ، أذهلتني بسؤالها : « هل كانت كارمن حقا امرأة لطيفة ؟ » إن السؤال لم يطرأ لي من قبل قط .

فالرء يستمتع بالموسيقى وينبذ أحكامه الخلقية السابقة . والألمان عاطفيون وحساسون للموسيقى . وفاجز يستهويهم لافتخارهم بمنصرهم . وإني لأجرو على القول بأنه لو أقيمت بإنجلترا سلسلة من الأوبرات الفاخرة المذهلة حقا ، ذات الموسيقى الرائعة والعروض البديعة ممجدة إنجلترا من عهد التيودور حتى عام ١٩١٤ ، أقول بأن هذا يستطيع في جيل واحد أن يحطم العبقرية الإنجليزية في الحكم الذاتي السياسي » .

ولم أشأ أن أؤمن على هذا بأكثر من قولي : « إن الفكرة تدعو إلى القلق » ولكنني إيماناً في الصراحة زدت على ذلك قولي : « لملك تعلم أني قد حضرت الحفل في بيروت في يولية من على ١٩٣٣ ، وكانت الذكرى الخمسين لوفاة فاجز . ولقد حضر الشيطان أيضا - . . . جاء هتلر ، وحضر ست حفلات في ثمانية أيام ، كما حضر الأوبرات الأربع : رنج وميشتر سنجر وبارسفال ، ثم جلس في مقصورة فاجز في فستسيلهاوس مع فراو وينفرد ، أرملة سيجمفرد . وكان قد استولى على الحكم منذ بناير فقط ، وكانت النازية لا تزال في شهر العسل . جاء وأتجه الى ما بين السرح والمطعم بين صفين من الألمان ، كل واحد منهم يستطيع أن يطمئن بخنجبرين جنبيه ويقضى عليه . وكان نضر البشرة ، بني الشعر ، لا تلاحظه إذا مشى في الطرقات . وقد جلس في دار الأوبرا ، يوما بعد يوم ، يحضر حفلا في آر حفل ، وتمجبت في ذلك الحين ماذا عساه يستمد من تلك الحفلات ! »

فقال هوابتهد : « رأينا بعد عام تطهيره الدموي الأول » .

وما دام الفنانون لا يلامون على طريقة استغلال أعمالهم ، فقد تخلينا عن الحديث عن قاجر الى حين .

وبعد العشاء عدنا الى المكتبة . وقد أسدلت فوق النوافذ الستائر الثقيلة السوداء المصنوعة من المخمل ، وكانت نار الحطب تشتعل في الموقد تملؤها مدخنة سوداء .

وكانت مسز هوايتهد في زياها الاسود والأبيض المعهود ، فبدت أنيقة متمتزة .

وكان هوايتهد يتحدث عن كيفية استكشاف الوهبة ، وعما ينبغي عمله بها بعد استكشافها .

قلت :

« أليس بعض المصور وبعض الحضارات مواتيا لتطور نوع معين من المواهب ؟ ثم أو ليس من المستحب أن نخلق حضارة تلائم جميع أنواع المواهب ؟ »

فابتسم في خبث وقال : « أعتقد أن أقصى ما تتطلب من الحضارة ألا تسحق كل نوع من أنواع المواهب » .

فسألته : « أأست ترى أننا نحن النورديين من النوع الذي يزدهر بعد وقت طويل . وإذا لم تمجيك كلمة النورديين (وقد فاحت رائحتها على أيدي بعض الناس) فلنستبدل بها الأوربيين الشماليين - ألسنا ننضج أبطأ مما ينضج غيرنا ؟ في حداثتنا على الأقل نرى الأحداث اليهود قادرين على التفوق علينا تفوقا ساحقا » .

ووافقاني على هذا الرأي ، وأخذنا نبحث في النضج المبكر برهة من الوقت .

قال هوايتهد : « ولستكنك حينما تلتقي بهم وهم طلاب ، يشق عليك أن

تعرف أى العوائق تفرضها عليهم كى تسوى بين اتجاه أولئك الذين يبكرون فى
نضجهم وبين العقول التى ربما كانت أشد عمقا ، ولكنها تنضج أشد منها بطئا .
إنك بحاجة إلى أن تعرف الطالب أولا بنفسك ، ثم أنت بحاجة بعد ذلك إلى أن
تعرف ما يرى الآخرون فى قدراته ، وأنت بعدئذ بحاجة إلى أن تعرف أولئك
الآخرين كى تدرك لماذا يرون فيه رأيا معيناً .

فسألته : « ألا ترى أن البحث العلمى فى ألمانيا برغم طول باعه فى الدرس وبرغم
عمقه ، متخلفا بعض الشيء فى البدهة ذات الخيال البعيد ؟ »

قال : يستطيع البحث العلمى (الذى يستند إلى دراسة القديم) أن يوجه إلى
نفسه ثلاثة أسئلة : أولا « ماذا كان يعنى بالضبط مؤلف من المؤلفين القدامى عندما
كتب بضعة ألفاظ بعينها ، وماذا بالضبط كانت تعنى تلك الكلمات لمصريه ؟ »
(وذلك ما كان البحث العلمى يقوم به على نطاق واسع خلال القرن التاسع عشر)
ثم يسأل نفسه بعد ذلك : ما هى وأين توجد تلك الومضات التى تدل على البدهة
فى عمل عبقرى من العباقرة يرتفع به عن زمانه إلى جميع الأزمان ؟ - تلك
الومضات التى تكون دائماً شاذة فى زمانها ، بمعنى أنها لا ترتبط بزمان من
الأزمنة (وهذا ميدان لا ييجول فيه الدارسون الباحثون كثيراً ، وهو مجال قلما
يجد البحث العلمى نفسه فيه مطمئناً) . وأخيراً هذا السؤال « كيف نستطيع أن
نخلد وأن ننشر هذه الومضات العبقريّة النادرة التى ارتفعت فيها الإنسانية عن
نفسها ، كما لم تفعل فى أى مجال آخر ؟ » .

« إن الدراسة الإنجليزية الكلاسيكية تفضل فى هذا دراستنا . فى العقد
الأول من القرن الحالى كان عندنا هنا فى هارفارد جماعة من خيار الأساتذة وبخاصة
فى قسم الدراسات اليونانية . وكان هربرت وبرايت حينئذ حجة فى ايسكس .
وقد ألحقونى بهذا القسم أربع سنوات . وسررت بهذا اللحاق - فدرست الشعر
والتاريخ والفلسفة والدراما . ولكنى لم أبدأ فى فهم ما تعنيه الأفكار الهلينية
العظيمة إلا بعد اثني عشر عاماً ، وكان من وجهونى هذه الوجهة هم مصرى

ولفنجستون وزيمرن وكورنفورد وكاسون وزمرتهم . وقد ترد على ببولك إني بذلك قد أوضحت قضيتي وإني كنت بحاجة إلى اثني عشر عاماً أو أربعة عشر عاماً أخرى ، لأنني من الذين لا يفتضحون إلا بعد وقت طويل جداً . بيد أن نفس الشيء قد حدث لغيري ممن أعرف . »

وأخذوا ينقبون عن نماذج للأنضج المبكر بين الأوربيين الشماليين . فذكروا كيتس وشيلي بطبيعة الحال ، ثم موزار ومندلسن . بيد أن هوايتهد كان يمتدأ أنه بالرغم من كونهم نماذج شائعة ، إلا أنه لا يصح أن نمدح ممثلين لغيرهم ، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أن من خصائص الموسيقى والشعر العجيبة أنهما يبلغان حد الإجادة على أيدي الشباب . »

ثم باغتني بحدة سائلا :

« أين ملحنوكم الأمريكان ، برغم حبكم العنيف للموسيقى ؟ »

وكانت العبارة التي صيغ بها السؤال تدعو إلى الحيرة . لأنه لو كان لدينا ملحنون من مستوى الألمان المظالم ، غير منازعين ، ما وجه إلى السؤال . ولكن ما جادت به قريحتي للرد عليه هو أن هذا الفن - فن تلحين السمفونيات ، التي تطور في القارة الأوربية في القرنين أو الثلاثة قرون الماضية ، دخل أمريكا بعد ما بلغ قمة التعميد . ومن ثم فإن ملحنينا بدلا من أن يبدأوا من حيث بدأ الأوربيون - في بساطة - بدأوا بالتمعيد ، وحاولوا أن يزيدوه تعقيداً . وربما كان من سبق الأوان أن نحكم أن ذلك نجاحاً أو فشلاً .

(٨)

٨ من مايو ١٩٣٦

تناولت العشاء مع آل هوايتهد . وقد أقمنا في فصل الربيع إلى درجة لا يستحب فيها السير على الأقدام من ميدان هارفارد إلى النهر . وأزهرت أشجار

الدرار ، واخضرت بقاع العشب الصغير أمام بيت همكس ، ذلك المسكن الريفي الأبيض الخشبي ذى السقف المنحني ، الذى كان مقراً للجندال اسرائيل بننام أثناء حصار بوسطن فى عامى ١٧٧٥ و ١٧٧٦ . وقد أبعد الآن عن مكانه الأول وأصبح مكتبة دار كيركلاند . ثم ظهر بعد ذلك المدخل المقوس لبنت كيركلاند ذاته ، ذلك المدخل الضخم الرسمى بما فيه من أبواب حديدية مثبتة فى واجهة من الطوب الأحمر على طراز عصر النهضة . وبدأت بعد ذلك على رأس زاوية تقاطع شارع بويلسطن وموريل درايف واجهة أخرى من طراز عصر النهضة ، وهى واجهة المكتبة بدار اليوت ، التى تعرض نوافذها التى تتجه غرباً أعمدة قصيرة بيضاء .

وقد اخضرت كذلك شواطئ النهر ، وازدهرت أشجار الجوز التى تمتد على جانبي موريل درايف . وكان سطح النهر ساكناً لا يهتز كأنه صفحة المرآة . ولا يشق سكونه إلا بضعة ملاحين رسوا منذ برهة عند مرسى نوك ثم رفعوا سفينتهم إلى أعالي النهر مزعمين السير إزاء الرصيف حتى يبلغوا مرسى القوارب . وانبعث من النهر نسمة باردة تفوح برائحة الماء العذب الستساعة ، التى تنعش الروح كما جاء فى أغنية شويير .

وكان العشاء فى السابعة - أو فى السادسة فعلاً ، لأننا دخلنا الآن فيما يسميه الفلاحون « ضوء النهار الضائع » . والضيوف الآخرون نورث ومارجيت وشيلا ، وهم الابن وزوجته والحفيدة على التوالي ، « ودكتورو الترب . كانون »^(١) وزوجه كورنيليا^(٢) . وهو رجل من الغرب الأوسط أحمر البشرة بغير

(١) دكتور والتر برادفورد كانون ، عالم فى الفسيولوجيا ، ولد فى بريرى دى شير عام ١٨٧٩ ، وتخرج فى هارفارد عام ١٨٩٦ ، وحصل على الدكتوراه فى الطب عام ١٩٠٠ ، واشتغل استاذاً بمدرسة الطب بهارفارد منذ عام ١٩٠٦ ، وتوفى فى عام ١٩٤٥ .

(٢) كورنيليا جيمس كانون (زوجة دكتور والتر برادفورد كانون) ، تشغل بالتأليف . ولدت بسنت هول عام ١٨٧٦ ، وتخرجت فى راد كليف عام ١٨٩٩ . وحصلت على الدكتوراه من هويتن عام ١٩٤٨ . وقد تزوجت فى ٢٥ من يونيو عام ١٩٠١ .

هندام ، ذو صوت عميق ، ساذج ، صريح ، لا يعرف اللغو ، حجة في موضوعه ، متقل باللقاب الشرف التي لا تبدو على مظهره . وزوجته شديدة الشبه به ، روحها الفكاهية قوية ، رقيقة ، متملة ، بارعة ، ذكية ، لا ترى داعيا للانحياز . ولم تكن هناك حاجة إلى ضياع الوقت في المقدمات الإجماعية .

وانعكست على المائدة أشعة صفراء منبعثة من الشمس الغاربة ، ممتدة فوق الأسقف والمسلات وقم الأشجار في كبردج ، وكان لها على المائدة بريق الفضة وتلاؤ الزجاج ، وهي ترسل الضوء براقاً فوق أعواد السوسن الصفراء المودعة في إناء للزهروسط الغرفة . وكانت مسر كانون على أحد طرفي المائدة ، ومسز هوايتهد على الطرف الآخر .

وتحدث الدكتور كانون عن روسيا وألمانيا والصين حيث كان يقوم بالسياحة ويحضر مؤتمرات طبية في الصيف الماضي .

وكان إيفان بافلوف ، العالم الروسى (صاحب نظرية رد الفعل المشروط) أحد أصدقائه القدامى . وذكر لنا أن بافلوف — كما دته — كان يماق على الجوادث العالمية إبان الأيام الأولى للثورة ، وذلك قبل أن يبدأ سلسلة محاضراته العامة المنتظمة . استدعته التشيكا (وهي الهيئة القديمة التي كانت تقاوم النشاط الناهض للثورة) وبعد ما استجوبوه برهة من الوقت ، أخرج ساعته وقال :

« أرجو المخذرة أيها السادة . فإن عندى عاضرة على أن ألقبها » ، ثم انصرف .

فقال هوايتهد : « إنك تستطيع أن تفعل ذلك لو كنت مثل بافلوف ، وإلا ذهبت إلى سيريا » .

وقال الدكتور كانون : « إن الدبلوماسيين والقناصل الأجانب في روسيا ليس

لهم أصدقاء من الروس . فالروس لا يجسرون على أن يُروا وهم يتحدثون مع الموظفين الأجانب . كان بلننجراد قنصل بريطاني يهوى دراسة فنون الفجر الشمسية ، وكان سعيداً بما كان يتوقعه من ذهابه إلى هناك لأن الرجل الروسى الذى يعد حجة في شئون النجر يقطن هذه المدينة ويعلم فيها ، ولكنه قضى فيها عامين دون أن يتمكن من مقابلته . وقد ألقى القبض على صديقين لآل پافلوف ، وهما عالم شاب وزوجته . قبضت عليهما الهيئة التى تقاوم الحركة المناهضة للثورة ، في وقت كان ولدهما الصغير الذى لا يجاوز السابعة من عمره ، نائماً ، وحبساً منفردين دون أن يصرح لأحدهما بالاتصال . وقد شهدا البواب وهما يبعدان فأخبر آل پافلوف الذين أخذوا الطفل عندهم . وباتصالهم بموسكو استطاعوا إطلاق سراح الأبوين بعد أسبوع ، ولكن الأم كانت محطمة وربما لا تشفى مما أصابها أبداً . وترتب على ذلك حتماً أن ينشأ الطفل في جو استثنائى جداً ، فهو يذهب إلى المدرسة تحت الحراسة ، ولا يجد له زملاء في اللعب .

وقال هوايتهد : « إن مطاردة العلماء من أعراض الانحلال الاجتماعى ، وهى تظهر في أوروبا الغربية أيضاً بين الحين والحين . إن هؤلاء العلماء في فزع دائم » .

فقال الدكتور كانون : « هو كذلك . وهم ينقلونه معهم . حينما زارنى پافلوف هنا في كبردج كان الجو حاراً رطباً في يوم من أيام شهر بولية . وكانت أسرتى في هامبشير الجديدة ، وصحبته إلى ميدان هارفارد ، فسألتى : « وأين حارسك ؟ - قلت : ليس عندى حارس ، فأجاب : سيسرق منزلك - قلت : لا أظن ذلك - ولما شاهد عربتى القديسة من طراز فورد في الفناء الخلفى ، قال : إن سيارتك الجميلة هذه ستسرق قطعاً ! قلت : كلا ! فقال : عجباً ! إذن فستوى الأخلاق في بوسطن أعلى منه في نيويورك ! » .

وكان قد سرق منه ألفان وثلاثمائة دولار في المحطة الضخمة الوسطى في

نيويورك ، وكان يريد العودة إلى روسيا من هناك في ذلك الحين ، فأرغم على البقاء .
ضيفاً على مؤسسة روكفلر .

وواصل دكتور كانون حديثه قائلاً : « وإبان وجوده هنا ربط في ذهني لفظاً
بآخر وفقاً لنظريته المعروفة . وكنا متجهين نحو وودز هول بالقطار ، ورأى رجلاً
في المقعد الأمامي يطالع صحيفة كان بها عنوان بالخط العريض وردت فيه هذه اللفظة .
« Fizzle » (ومعناها أزيز) ، فقال شيئاً عن « Fizzle » وهو اسم شخص ،
ومن ذلك الحين ارتبط في ذهني اسم الشخص بالأزيز » .

ثم أخذ الدكتور يصف حادثاً في روسيا ، وكان قد شاهد رافعة ضخمة تدبرها
امرأة . « كانت ترفع أطناناً من المعدن ، وكأنها تُرقد طفلها في الفراش » . وكان
واضحاً أنه أشد تسامحاً في حكمه على السوفيت من كثير ممن زاروا دولهم أخيراً .
وقد أقر أنها قد رفعت من مستوى عامة الناس .

وقال عن ألمانيا انه التقى بزميل له في المهنة في مُنخن ذكر له أن روح الجامعات
الأمريكية وحريتهم العقلية التي تسكونت خلال القرون قد سُحقت سحقاً .
« ولم أر في حياتي شخصاً أشد منه حزناً » .

وقص لي : « أن يهودياً شاباً من مشاهير الرجال قد فصل من أستاذه .
وعرضت وظيفته على أحد أصدقائي من الألمان . فأجاب بقبولها ولكن بامتناع .
شديد . وكان جزاؤه إبعاده عن كل مكتبة وكل معمل في ألمانيا . . . والظاهر أن
من رأى النازيين أن الجامعات لا توجد للتقدم العقلي وإنما توجد لتربية « الزملاء » .
وذلك بقرار صادر من برنارد رست ، وزير الثقافة والتربية في الرايخ الذي يتحكم
في الجامعات » .

فسأل هوايتهم : « وكيف ينشأ ذلك في ألمانيا ؟ هل يمثل من يقوم بطلاء

البيوت الألسان لأنه يقوم بهذا الطلاء ؟ (وعندهم الكثيرون ممن يقومون بطلاء البيوت !) وهل هذا التجنيد تمبير عن الروح الحربية ، أو عن صفات الرجال ؟ لو أن آل هوهنزرن قد خلفهم دكتاتور نابليونى لامع لأمكن تفسير ذلك بالروح العسكرية ، إنما الأمر يبدو كأنه أقرب ما يكون إلى ثورة الأغبياء .

وقال دكتور كانون : « أعتقد أن الشباب هو الذى يرى فى هتلر فرصة للحصول على ما يريدون فى الحياة ، وهم لا يعبأون إلا قليلا أى قيم حليا تتلاشى فى سبيل ذلك وكيف تتلاشى . إن ذوى العقول الممتازة فى الجامعات كثيرا ما يستسلمون بسبب ما يرونه يحدث من حولهم . . . ونحن عندنا الآن جماعة من الشباب مثل هؤلاء ، وللسبب عينه — ينضبهم إنكار الفرص الاقتصادية » .

وقالت مسز كانون : « كما يحدث فى الدمارك ، حيث ترى حملة الدكتوراه يبيعون أربطة الأحذية فى الطرقات » .

فقال هوايتهد : لست أرى لماذا لا يبيع حملة الدكتوراه أربطة الأحذية ، إنهم يستطيعون أيضا أن يتفكروا فى المشكلات الفلسفية » .

« كما كان سينوزا يصقل العدسات ! »

« هذا عمل أفضل . ولكن خير للناس أن يتعلموا فى المدارس من ألا يتعلموا فيها ، سواء باعوا أربطة الأحذية أم لم يبيعوها » .

قال الدكتور كانون « المشكلة هى أن كثيرا من الأمريكان لا يريدون التعلم من أجل ذاته ، وإنما يريدونه أملا فى الحصول على عمل أفضل » .

وسألت مسز كانون : « ألا نستطيع أن نربى جيلا يرى قيمة التعلم فى ذاته ومن أجل ذاته ؟ إن النعمة كلها التى يترنم بها كل الشباب الذى نقابله قد تغيرت فى ست

سنوات، من موسيقى الجاز في عام ١٩٢٠ إلى اهتمام جدى فى المسائل الاجتماعية .

وأوجه الحديث إلى الوقت البالغ فى طوله الذى يستغرقه الطالب فى التعلم حتى يصبح طبيباً . وقال كانون إن ذلك راجع إلى قرار إليوت الذى يقضى باستبعاد الدراسات الممهدة للطب من مرحلة الآداب الحرة ، وإن كان الطالب باختياره العلوم يستطيع إلى حد ما أن ينقض هذا القرار . أما الشباب الذى يأتى من الجامعات الغربية وهو يحمل بكالوريوس العلوم فإنه يستطيع أن يستغنى عن الامامين الأولين فى مدرسة الطب .

وقالت مسز كانون « إن الشاب عندنا فى سن الثامنة والعشرين ، إذا كان من خريجي كلية الطب ، ماهراً فى الجراحة ، يتقاضى كطبيب امتياز راتباً سخياً يبلغ خمسين دولاراً فى الشهر .

ورأى هوايتهد أن الشاب يجب أن يكون قادراً على أن يبدأ مهنته الطبية فى سن السادسة والعشرين .

وقال : « ان الخيال يكون على أوسع به بين التاسعة عشرة والخامسة والثلاثين . ويسير المرء بعد ذلك إلى حد كبير على الأسلوب الذى مارسه فى هذه الفترة . ويجب أن يبدأ الطبيب عمله ، إبان فورة خياله .

وقالت : « ألم يكن هدف إليوت — كما كان هدف مستر لول — أن يتقنذ كلية الآداب الحرة من أن تنقرض من الصفوف العليا بإقحام الدراسات الإعدادية للمهنة ؟

فقال هوايتهد « ان كثيراً من الدراسات الحرة يعطى فى أوروبا فى المدارس التى تعد للجامعة . أما هنا فى هارفارد فلا يزال المستجيدون يمايلون كطلاب

الصفوف العليا من الثانوى ، ويمتحنون مرة كل أسبوع للتأكد من أنهم يعملون .

وسأل دكتور كانون: « هل تذكر تعريف وليام جيمس لمثل هذه الاختبارات؟
قال إنها لا تبدو أن تكون كنفخ المدة !
وأغرقنا فى الضحك .

وانتقل الحديث إلى موضوع عداوة الطلاب الشديدة للأساتذة ، وهل لم تخف هذه العداوة فى هارفارد . إن جانباً كبيراً منها لا يزال قائماً ، ولكنها آخذة فى التخفف .

وقال نورث: « يبدو أن الطلاب يخرجون من الاعتداء على وقت مدرسيهم -
كأن هذا ليس من واجبنا !

وقال أبوه « أو بصراحة ، كأن ذلك ليس ما نؤجر عليه .

وقالت مسز كانون « إننا لا نستقبلهم فى بيتنا إلا مرتين فى العام .

وسألت مسز هوايتهد : « وهل يتم ذلك فى مواعيد منظمة ؟

« كلا . ولكن لست كنوانت مواعيد منظمة ، ويمتد آال كنوانت أن
الحفل يكون كبيراً لو حضره ثلاثون من مجموعة يبلغ عددها ستة آلاف .

فقال هوايتهد : « إن الرئيس لا يتوقع بالطبع أن يقابل الآلاف الستة . إن
الشئ الذى يقدم إن هو إلا إشارة ، وأذكر لكم أنه إشارة نافعة ، ولكنه يجب
أن يبقى إشارة فحش .

فقالت مسز هوايتهد : « يحسن أن تكون الحفلات فى المساء ، بعدما ينقضى
عمل اليوم .

فقال نورث : « نسمع في السكليات الأخرى أن الطلبة الذين يصادقون مدرسيهم يوصمون بالشك في أنهم يداهنونهم كي يحصلوا على درجات طيبة . »

« هذه عقيدة بدائية آخذة في الزوال السريع . »

وسأل نورث دكتور كانون مقاطعاً : « هل هناك موت بالسحر ؟ » وهو يعلم بالتأكد أن الدكتور لابد أن يكون قد تعرض لذلك بالبحث .

ثم تلا ذلك جدل علمي عن التجارب الموجّهة . وهلا يدس الرجل الذي يدعى الطب السم لفريسته سراً . وُذكرت في هذا الصدد أمثلة من استراليا ومن الآداب القديمة . ثم أثبت بعد ذلك هذه المشكلة : كيف وصل الأمريكيان الأسليون إلى هذه القارة من آسيا - هل كان ذلك عبر مضيق بهرنج أو عبر المحيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة . وروت مسز كانون أنها شاهدت طفلاً حديث الولادة في بلاد المغول وعليه العلامات المغولية الزرقاء (التى يتميز بها هذا الجنس) فى عجزه - وقالت ان الطفل قد اختير اعتباطاً بوساطة ممرضة فى بيت من بيوت الأمومة - وأضافت إلى ذلك أن رجلاً دنماركياً أنجب طفلاً من امرأة من الإسكيمو فى جرينلاند ولاحظ الظاهرة عينها فى الوليد . إنها سرعان ما تختفى بعد الميلاد .

ولما كان أحد من الحاضرين - فيما يبدو - لم يعرف عن أى طريق جاء الأمريكيون الأوائل ، استؤنف الموضوع بعد ذلك بأيام عندما حضر دكتور ألفرد فنسنت كندر الأثرى الذى استكشف كهوف السكن فى الجنوب الغربى من أمريكا وفى أطلال مايا فى غابات جواتيمالا .

وقال : « لا جدال فى أنهم أتوا عبر مضيق بهرنج منذ نحو خمسة وعشرين ألف عام ، إما على الأرض التى جفت فى نهاية العصر الجليدى ، أو فوق الجليد . أو فى الزوارق . أما الحيوانات فقد دخلت جيمها على الأقدام . وتسألون عن

العلامة المولوية « وناول الموضوع باهتام قائلا « كنت فى حفل عشاء فى جواتبالا وسألنى أءءم عنها . وقال ماضىقنا : إن طاهىتى قء أنجبت طفلا منذ وقت قريب . وصفقت بىءىها (وهى الطرىقة التى بناءون بها الخءم هناك) وقالء : اطلبوا إلى مارىا أن تأتى بطفلها ، وءىء بالطفل ، وقلبته المضىفة ظهراً عن بطن وأطمعنا على عىزه الصغىر . وناكءنا جمىعاً من وجود [العلامة] ! »

* * *

وأسءلت سءائر النوافء بإءكام فى المكءبة وأوءءت الشموع . واكءسب المكان بهءة من أوانى الزهر التى ملئت بأعواء التفءاح ذات الزهر القرنفل والأبىض ، وسرنى أن أشاهء وءه هوائهء الرصىن الوضاء ، فى هءه المكءبة البسىطة الجمىلة ، مكءبة الرءل الباءء . وبءا علىه قلىل من الإءهاء .

وبىنا . كءنا نناول القهوءة نءءء ءكءور كانون عن رءلته فى الصىن . وكان أءء تلامىذه السابقىن وزىرا للصءة العمومىة فى ءكومة نانكىنج ، وقء شءعه على التءءء إلى مائى طالب ىمرفون الإنءاءىة .

« وعءء رؤىة ءمائىل بوذا البرونزىة التى مءلوم التعمىر ءببطء هءى ، ولسكنى روىء قصة فكاهىة ، فضءكوا جمىعا . وءرى رىقى طبعىما مرة أخرى ، وشعرت بالإطمئنان . أن الصىنىىن ىفضءكون من نفس النكاء التى فضءك منها ، أما ما ىضءك الىابانىىن فلا ىمرفه عىر الىابانىىن » .

وقال هوائهء : « لءقء أءبءم أىها الأمريكان ءءمة كبرى للغة الإنءلىزىة بفضلكم فى مقاومة الجمىة الصىنىة التى ءماءى الأءانب » .

« هءا ما وءءء . ان كلىائنا ءبعء إلى الصىن بالفوء فى أثر الفوء من الصىنىىن بعء ءعلمهم اللغة الإنءلىزىة » .

« لءقء قءر للإنءلىزىة أن ءكون اللغة المالىة الءانىة » .

وسأل الدكتور : « هل كان بوسع شكسبير أن يفهم اللغة التي نستعملها على لوحات الإعلانات في القطارات التي تسير تحت الأرض ؟ وفيها الفاظ مثل فيتامين وجرثومة ، وما شابههما ؟ »

وقال نورث : « لا شك أنه كان يلتقطها في لمح البصر . وكان بالتأكيد يسر من العامية الأمريكية » .

وأضاف أبوه قائلا : « وبخاصة الزوائد منها . هلا يمكنكم أن تتخيلوه وهو يؤلف منظرا عن فولستاف وهو يندفع إلى حانة (بورهد) سائحا جى ، هويز ! »
- وهى زوائد من اللغة الأمريكية لا معنى لها - « ورأى بعضنا أن العامية كانت تصبح بذلك أقوى » .

وسأل الدكتور :

« لماذا نحرم استخدام لفظة « ملمون » (وهى تقابل لفظة فى اللغة العامية الإنجليزية لا يستحب ذكرها) ؟ » .

« لأنها مشتقة من القسم بالمذراء » .

قال نورث : « ولكن التحريم لا يشمل كل أنحاء العالم » .

وعاد دكتور كانون إلى موضوع ما يضحك الصينيين قائلا : « عند ما كان هوارد لندسى يمثل مسرحية (الحياة مع الأدب) فى فيلادلفيا ، عاد شاب صينى بعد الأداء يشكره على قضاء سهرة ممتعة . وتمجب لندسى لذلك ، إذ ماذا عسى أن يكون هناك فى حياة عائلة أمريكية مما يثير الضحك فى رجل من الصين ؟ وسأله لندسى : « أرجو أن تذكر لى ما أشد ما أمتعك فى المسرحية ؟ » - فأجاب الصينى قائلا : « ان أبى كان يحدث مثل هذا الضجيج تماما ساعة الإنطار » .

(٩)

١٩ من إبريل ١٩٣٧ .

ظهرت في خلال عام واحد ثلاث روايات عن بوسطن ، آخرها المنبر رقم ٨ من تأليف جوزيف دين ، وهي دراسة سياسة البلدية ، مع رسم صورة حية لمارتن لومازي ، وهو رجل وسط بين أن يكون حارسا أو قيصرا في « الحى الغربى » . وتعالج الرواية الأحياء الثلاثة الأخرى بالمدينة التي لم تمرض لها رواية المرحوم جورج أبلي من تأليف جون ماركاند ، وإن لم تغفلها كل الأغفال . أما قصة سانتاينا « آخر بيوريتاني » - وهي أوسع انتشارا - فكلانها تنتهى قبل القصتين الآخرين بفترة مداها عشرون عاما .

وكان هوابند وزوجه يقرآن في ذلك الحين قصة المنبر رقم ٨ فسألوني :

« هل تعرف المؤلف ؟ »

« بالتاكيد . وهو مراسل لجريدة جلوب » .

فتهافتا سائلين : « زدنا به علما . كم يبلغ من العمر ؟ » - « حوالى الأربعين »
« هل ولد في بوسطن ؟ » - « نعم ويعرفها جيدا من الداخل » .

فقال هوابند وهو يتسم مبتهجا : « لقد عرفنا ذلك من قبل ، ولكننا لم ندر أهو قد أرغم على الإحساس بالقلق على أثر صدور كتابه » .

« قاتلته بالأمس في الطابق العلوى في حجرة المراسلين ووجهت إليه نفس السؤال . فأجابني بقوله « في أما كن معينة تستطيع أن تقدرها أضطر إلى الإحساس

كأنى رجل أَرَصَ في مرحلة من المرض متقدمة ، بيد أن ذلك لم يؤثر البتة في ظهوره بـ«عَظْهر اليائس» .

وقالت مسز هوايتهد ، وهى أرنلندية الأصل : « ما أشد فهمه لشعبه » .

« هذا بعض تهيمته . بيد أن الحكم ليس إجماعيا » .

« هل تستطيع أن تأتى به إلينا ؟ وهل يقبل الحضور ؟ »

« لا أستطيع أن أتهد بذلك - ولكنى سوف أحاول » .

وكان الأمر أيسر مما توقعت . وذهبنا . وكان هوايتهد وزوجه كلاهما فى أحسن حالتهما : فاستقبلانا أحسن استقبال : فى لطف ورعاية وأستىاق ولكن فى غير استسلام . وسرنى أن أرى چو وقد خرج على ما اعتاد من عدم البِالة . وبدأ بدفاع عام عن طريقته : وعمل على هدمها بطريقة سقراط فى السؤال : أية خدمة يؤدّيها الرئيس ؟ هل هو وكيل لتوريد المال ؟ نعم . هل يدخل الروح الإنسانية فى المنبر ؟ نعم . ولكن أليست الجزية التى يفرضها باهظة ؟ وما رأيك فى بيع أصواتهم بعد أن يدفعوا له مبلغا نظير توفير العمل لهم ؟ هل تستطيع أن تدافع عن الغرض من ذلك ؟

وتناول دنين الموضوع بروح طيبة . وكان فوق ذلك يعلم أن مسز هوايتهد تمطف عليه ، وأنها وزوجها يعجبان بالرواية . وأخذ يشرح لهم مشكلات المجتمع فى اتّحادات المال ، الاتّحادات التى تتوقع أن يبيعها وكلاؤها المنتجون ، الذين يبررون عملهم هذا صراحة بحجة مقتضيات السياسة ، كما شرح لهم مشكلات المجتمع فى الأعمال التجارية والمالية والصحافة . وقال إنه جو عام يحيط بنا .

وانتقل الحديث إلى الموازنة بين النظام الاجتماعي في أمريكا والنظام الاجتماعي في إنجلترا . وقال هوابتهد : « عندنا في إنجلترا نظام فاسد ورثناه من نظام الإقطاع في المصور الوسطى ، وهو نظام ما كان ينبغي أن يطبق ، ولكنه في الواقع يطبق . بنجاح لا بأس به . في حين أنكم هنا في أمريكا لديكم نظام ممتاز ينبغي أن يطبق بنجاح تام ، ولكنه في الواقع يطبق تطبيقا فاشلا إلى حد ما » .

قلت : « إن نظامكم يبقى كل فرد ينتمي إلى طبقة معينة في طبقته ، ولكنه بذلك يمدّها بقيادة قادرين ، مما يرفع الطبقة كلها تدريجيا . أما نظامنا فيسمح للأفراد بالارتفاع ، ولكنه بذلك يحرم طبقة من قادتها الطبيعيين ، ويترتب على ذلك أن تبقى الطبقة منحلة في جلتها » .

فقال دينين : « هذا أمر عجيب لم يطرأ على ذهني من قبل » .
« ولم يطرأ على ذهني أنا أيضا يا جوزيف حتى نبهني إليه مستر هوابتهد منذ عام . ومن ذلك الحين وأنا أفكر فيه » .

وعاد هوابتهد إلى الحديث ، وقال عن نظام الطبقات في إنجلترا :

« هناك ، حيث يكون إدراك نظام الطبقات أشد وضوحا ، وحيث السكان يتجانسون نسبيا ، يعرف الناس أنهم يكونون محل الرعاية عند الاضطراب . وأنا أتحدث الآن عن القرية والريف حيث يأخذ العمدة والأعيان على عوانتهم مسئوليات معينة عن الأمراض والكوارث . وبعد الإصلاحات التي تمت عام ١٨٣٠ مثلا حينما استولت الطبقات المتوسطة على الحكم قبل ذلك بوقت قصير ، زرى أن هذه الطبقات الحاكمة قد زادت قانون الفقراء قسوة وشدة ، في حين أن أعيان المحافظين (التورى) هم الذين وقفوا مقاومة العنيفة ، بالرغم من أن القانون الجديد يخفف من أعبائهم المالية عن ذى قبل . أما هنا فالأجور قد تكون أكثر ارتفاعا ، وقد تتوافر الراحة ، وتسير الأمور في يسر ، غير أن ما يترتب على

المحرف الحظ أو على كثرة من الكوارث مزيج شنيع . وكان مصير الفقراء لا يهتم
أى إنسان ... إن فوارق الطبقات في إنجلترا قد تكون صارمة في العلاقات
الاجتماعية الكبرى ، ولكنها هينة لينة في العلاقات الصغرى ... إن أبناء
الفلاحين يلبسون الكريكت مع أبناء الأعيان . أما هنا فإن أخوتنا السطحية
بين الطبقات تسمى أبصارنا عن الفجوات العميقة التي تفصل بينها ، حتى
يقع الصدام » .

وقال دينين : « وما رأيك في التجاء أصحاب الأعمال في متشجن إلى القضاء
حينما تقاعد المال مضرين ؟ » .

« طبقا للقانون الحالى هذا النوع من الإضراب غير شرعى على الأرجح . إنهم
إذا مكثوا في البانى وامتنعوا عن العمل كانوا معتدين على ملك غيرهم . أما إذا كان
ذلك هو الموقف الذى ينبغى أن يفقه القانون فأمر آخر . إن التطبيق الصارم للفكرة
الحالية عن حقوق الملكية (وهى أن يفعل المرء ما يريد بما يملك) قد ينفع في الوحدات
الصغيرة كالحوانيت الكائنة بشارع جبل أوبرن التى لا تستخدم إلا قفرا قليلا
من الناس . أما في الصناعات الجماعية الكبرى التى تؤثر في حياة مئات الألوف
من الناس ، فيبدو لى أن الحكومة يجب أن تتدخل - إذا دعت الضرورة -
للتوجيه كي تضمن سير الإدارة في خدمة مصالح الكثيرين . وخير وسيلة لذلك
- فى ظنى - أن تترك الإدارة الفعلية للعمل الحر حتى لا تفسد عامل الابتكار ،
ولا تمارس الحكومة إلا سلطة عامة للإشراف وتلك هى الفرصة الوحيدة التى
تتكفل للنظام الرأسمالى البقاء فيما أحسب .

« وليست الرأسمالية كما تعلم قديمة العهد ، فتاريخها يرجع إلى ثلثمائة عام على
الأكثر . وكثيرا ما يترأى لى أن آدم سمث قد أخطأ في حقنا خطأ جسيما حينما
أكد الدافع الاقتصادى . إنه دافع هام من غير شك . فنحن لا بد أن نأكل ،

ولكنه ليس مهما إلى هذا الحد . تصوروا ما يمكن أداؤه بتأكيد دوافع تقدير الجمال ، إنى أستطيع أن أتصور حال مجتمع - حتى في ظل نظامنا القائم - لا يساور فيه القلق الشديد نفوس الآباء على كسب أبنائهم للمال الوافر - كما نراهم الآن . أعنى ذلك الكفاح الذى يرهق الأعصاب الذى يقوم به الآباء الأمريكان فى سبيل رفع أبنائهم بأى ثمن إلى طبقة أعلى من طبقهم من حيث الدخل ، وهو ما يمرون عنه بقولهم « أن أعطى أبنائى فرصة أحسن من فرصتى » : ولكن فرصة لأى غرض ؟ هل زيادة المال أو للأموال التى تملق بالذهن والروح ؟

« وأستطيع أن أتصور مجتمعا - حتى في ظل الرأسمالية - لا يهتم فيه كثيرا إن كانت الأسرة تملك مالا كثيرا : فهناك الموسيقى - والفرق المجانية ، وهناك الراديو . (وأنا أعرف أن الراديو لا يبلغ من الجودة مبلغ صالات الموسيقى ، فالمرء لا يريد أن تأتية الموسيقى من اتجاه واحد وصادرة عن صندوق ، وإنما يريد لها محيطا له من كل جانب . ورغم ذلك فالراديو يصلنا بالموسيقى الجيدة) وهناك الصالات التى يمرض فيها الناس مسرحياتهم ، وهناك المحاضرات ، والندوات التى ربما يمرض المشكلة فيها متحدث فى الإذاعة ثم يتابع النقاش فيها جمهور المستمعين ، وهناك روايات السينما التى تقدمها الدولة للجمهور بالجان على نطاق واسع حقا ، وهناك الملاعب لضروب الرياضة المختلفة ، وهناك المكتبات العامة التى هى لدينا بالفعل . وأزجو إلا تفهم من ذلك أنى أعنى أن يكون ذلك كله سمجا قليلا . فهناك الموسيقى الخفيفة ، والمباريات الودية ، والمسرحيات المسلية . ولكن فى مثل هذه الظروف يستطيع الفرد المادى أن يكفل لنفسه حياة طيبة دون مال كثير . »

وفى الساعة العاشرة قدمت لنا الشكلاته الساخنة ، وانصرفنا فى منتصف الساعة الحادية عشرة . واضطر دينن إلى العودة إلى مكتب صحيفته (جلوب) ، ولينا كان قد نقلنى إلى كمبردج فى عربته ، فقد حملنى فى العودة إلى تل بيكن .

وفي الطريق كنا نتناثر في رواية (الرخوم جورج آيلي) التي اطلع عليها كلانا ،
وفي خلال المناقشة أخذنا نسردها ما افدناه في هذا المساء .

وقال دفين : « إنني لا أعرف أين أبحث عن أي أمر في مدينة بوسطن بعيداً
عن آل آيلي »

« إنهم - برغم هذا - أصدقاء أوفياء لكثير من آل آيلي ، ويقدرون
صفاتهم الطيبة »

ووافقتني على ذلك جوزيف في شيء من شرود الذهن قائلاً : « ربما كان ذلك
صحيحاً . ثم انفجر - والسيارة تندفع بنا - قائلاً : « إنني خرجت بهذه النتيجة :
إنه مستعد للإجابة عن كل سؤال ، أكثر من أي شخص آخر قابليته في حياتي .
الم تقل لي إن مادته كانت في الأصل علوم الرياضة ؟ »

« نعم »

فقال دفين : « إنه عالم بالرياضيات العليا »

(١٠)

٢٤ من مايو ١٩٢٧

أخذت السماء تصفر في الأصيل بعد هطول الأمطار ، وانبعثت رائحة عطرية
من الخشائش وأوراق الأشجار المبتلة التي تقع على طريق مموريال درايف بجناء
شاطيء النهر وقد اخضارت وأينعت في شهر مايو .

وكان آل هوايتهد بالانتظار في مكتبهم بمسكنهم في راندور هول . وكانت
خادمتهم قد استأجرت هذا اليوم ، وكانوا يتضاחקون سروراً من استمتاعهم
بخدمة أنفسهم .

«... ونحن نؤدى هذه الخدمات بطريقة سيئة على وجه الجملة ، ونجهدنا الجهاداً تاماً .»

وكان مستر هوابتهد يرتدى حلة المساء الرسمية ، ذات السترة السوداء مدببة الذيل والياقة النشبة . وربما كان يقوم ببعض العمل الأكاديمي . وقدم الشاي . ودار الحديث حول موضوع التسامح .

فقال : « ليس هناك تسامح إلا إن كان هناك ما يدعو إلى التسامح ، ومعنى هذا - من الناحية العملية - على الأرجح أن هناك من الأمور ما يبعده أكثر الناس غير محتمل .»

« هل تعتقد أن روح الاضطهاد خاصة بالديانات ، أو يبعض الديانات دون بعضها الآخر ؟ فلم تكن الهلينية - مثلاً - دين اضطهاد .»

فقال هوابتهد : « إن الدين يحمل نوعين من الناس بسيران في اتجاهين متضادين تماماً . انه يحمل الرقاء ذوى القلوب الرقيقة نحو الرأفة والعدالة ، وهو يحمل محي الاضطهاد نحو القسوة الشيطانية وإبذاء الناس . ولو أن ذلك ربما يبرر في ظاهره ما نادى به القرن الثامن عشر - عصر التعقل - من دعوى أن الدين ليس إلا خدعة منظمة كبرى ، ولمنة على الجنس البشرى . إلا أنه أبعد ما يكون عن الحقيقة . إنه يحوى هذين الوجهين ، وبستهوى وجه الشر منهما الافراد المستعدين للسكرامية الصميمة . بيد أن ما يحدث فعلاً هو أنك عند إثارة الطوائع حتى أغوارها السحيقة بشأن المشكلات التى تحس أهميتها الساحقة ، عندئذ تثير فيها الشر كما تثير فيها الخير - أو الطين والماء . وليس من المهم كثيراً - فيما يبدو - أى المذاهب تناشد . لأن الوجهين يظهران في جميع المذاهب ...»

« ان بعض الديانات تزعم لنفسها نظاماً محكماً ، نظاماً يقوم للاجابة عن كل سؤال ، فهل لذلك علاقة بالامر ؟»

« ألا يتضمن تعريفى السابق الرد على هذا الى درجة كبيرة ؟ ذلك أن الناس حينما تقوى مشاعرهم إزاء موضوع ما ، يعتبرون أمثال هذه الأسئلة مما لا يقبل الجدل . »

« وهل الاعتماد المحايد عن مثل هذا الجدل (على فرض السماح به) يعد موقفا ذا أثر فعال ؟ »

« يتوقف ذلك على ما نعى بذى أثر فعال ، إننا نتوقع من الأفراد ، ذوى الآثار الفعال ، أن يعملوا ، والعمل يؤدي بك إلى النزاع »

« إن ذلك يقودنا إلى موضوع المنف . أذكر أنك قلت فى كتابك (منامرات الأنسكار) - وهو من الكتب القلائل التى استطعت أن أقرأها على ظهر السفينة - قلت إن المسوغ الوحيد لاستخدام القوة هو تخفيض مقدار القوة التى لامناص من استخدامها . »

قال : « لو أن شابا يجعل من نفسه إنسانا مزعجا شيطانيا بضموده السلم فى هذا البناء وهبوطه منه وهو نمل ، فيقض بذلك مضجع اثنتى عشرة أسرة تقطن جابه من مساكن ، لو أن شابا فعل ذلك لكتبنا رسالة بشأنه إلى الصحيفة اليومية أو استدعينا البوليس بالتليفون . والتصرف الأول شكوى لينة ، وفى الثانى استخدام للقوة . ولو أصر على عمله لجأنا إلى إبعاده ، وفى ذلك حد من تصرفه . »
وابتسم ساخرا ومتشاغلا .

وانتقلنا إلى موضوع عدم المقاومة ، وهل لا تظهر إلا كسلاح أخير لقوم عزل من كل سلاح سواه : فكان ظهورها فى روسيا القيصرية ، والمهند البريطانية ، وبين النادين بالقضاء على الرق فى أمريكا ، ودعاة السلام إبان الحرب ؟ .

وظنتنى مسر هوايتهد بهذا أحمذى السياسة البريطانية الاستعمارية فى الهند ،

فشرعت تسوغها حتى شرحت لها أننا أئنا الموضوع لأهمية السيكلولوجية فحسب، وذكرت الفصل الوارد في كتاب «لم أجد سلاماً» لصاحبه وب ملر، وما جاء فيه عن التكتل القائم بين المؤمنين بعدم المقاومة في الهند، ودلالة ذلك على أن عدم المقاومة يزيد - فيما يظهر - من وحشية المهاجمين. ولما لم يلق هذا الموضوع قبولا بوجه خاص (وهو أمر كان ينبغي لي أن ألم به من قبل) تخليناعنه لتتحدث في غيره، وهو كيف تتجه الوهبة في أشكال المجتمع المختلفة.

فقال هوايتهد: «ان الأرستقراطية ترحب بالوهبة. لم يكن لبرك حسب ولا نسب، ومع ذلك فقد كان يسر الأرستقراط أن يضموه إليهم، وكان دائماً يظفر بمتمعد في البرلمان، لأنهم كانوا يعرفون أنه من النوايع. وكانت الملكية - كما كان بيت هانوفر طوال تاريخه - غير شعبية دون أن ينجم عن ذلك ضرر، إذ كانت تسمح بأن تتولى الحكم جماعة من البرلمانيين بإمكانهم دائماً أن يهددوا الملوك بأنهم إذا أساءوا السلوك أعيدوا إلى البلاد التي أتوا منها! ومن ثم انفسح مجال الأعمال الجليلة لأصحاب المواهب. وخشي الطبقات الوسطى كانت صاحبة امتياز حتى الحرب المالية. كانت كذلك فعلا بالرغم من أننا لم ندركه. وكان أبي على يسر معقول برغم أنه كان قسيساً ريفياً. ومع ذلك دفعت نفقات تعليمي فعلا من اعتمادات التفوق حتى بلغت الجامعة وخلال تعليمي الجامعي. ولم يكن ذلك لمجزنا عن سد النفقات، وإنما كان لأننا لم نطالب بالدفع. أما الآن فقد تغيرت الحال، فالمفروض أن تنفق اعتمادات التفوق - فيما اعتقد - على الطلبة المحتاجين إليها وحدهم.»

وكان التليفون يدق باستمرار. وكانت مسز هوايتهد تنهض بين الحين والحين وتذهب إلى غرفة جلوسها لكي تجيب عليه. ولما عادت أخيراً جلست على ذراع المقعد العميق الذي كان يستوى فيه زوجها وقالت:

« إنه عميد إحدى كليات الشباب في ماساشوسيت وزوجه ، وذكرت اسمها ،
 يؤكّدان ضرورة لقائك يا أولتي . فما رأيك في مساء الخميس ؟ »
 « لتناول المشاء ؟ »

« كلا . بل بمسّد ذلك . لا يجب أن تكون دعوة عشاء . وينبغي أن توفر
 لنفسك راحتها . »

« إذن فلانظر في مفكرتي . »

وأخرج من جيبه مفكرة مواعيد صغيرة مصنوعة من الجلد الأسود المذهب
 الأطراف ، واستطلع صفحاتها .
 وقال : « يوم الخميس مناسب » .

« سيدعوك إلى إلقاء محاضرات في العام المقبل . ويجب أن تكون حازما ..
 « أعرف ذلك » .

« واذكر إنه الماني . وسوف يرغب في الحديث . وعليك أن تلزم
 الصمت ، وينبغي ألا يغلبك بكثرة الكلام . »
 « لن أمكنه من ذلك » .

وأتجهت إلى وابتمست لهذا الحوار المائي . وكان زوجها غاية في الثبات .
 ثم دق التلفون مرة أخرى . وكانت المتحدثة هذه المرة سكرتيرة مدرسة
 إدارة الأعمال ، وقالت إن أباهما - وهو قسيس ريفي من مين - « يرغب ملحّة
 في زيارة هوايتهد » وتذمرت مسز هوايتهد وقالت لزوجها كأنك الإله بنفسه !
 (يا للمعجب ، هل أنت إله !) . وتقرر قبول الزيارة بيد أن الفتاة اعتذرت عن عدم
 حضورها شخصيا برغم رجائها في ذلك .

« لماذا اعتذرت ؟ »

« لقد قالت إنها لا تملك ما تأتى به . وهو كلام لا معنى له ! ويدعو إلى الأسف . ومن أين لها هذا الخط من شأن نفسها ؟ »

فقال هوايتهد : « إنه (الإحساس بالإثم) وهو أسوأ الذكوارث التى حلت بالإنسان » .

وبعد ما انتهى هذا الحديث المائلى المترض ، عدنا إلى النقاش فى الموازنات بين القواعد التى تتحكم فى الأشكال الفنية المختلفة ، وفى الحيل التنوعة التى لجأ إليها الفنانون للتعليق على موضوعات فهم ، ومنها أغانى الجوقات فى المسرحية الاغريقية ، ومنها تلك الصورة الرمزية التى تراها على مقابر مدينتى والتى رسمها ميشيل أنجلو .

وقال هوايتهد : « إنه التاريخ البشرى يتحدث فى الصور الأربع الاربعة ، ولكن أهل مديشيا لا يفقهون ذلك » .

قلت : « يظهر أن ميشيل أنجلو كان يعرف ذلك فى حينه ، فلما قيل إن تمثال جوليان ولورنزو لا يشبهانها ، أجاب ميشيل أنجلو بقوله : (ومن الذى يدرك ذلك بعد اليوم بعشرة قرون ؟) »

وقال هوايتهد : « أما عن أغانى الجوقات فى المأساة اليونانية ، فهى تحتل مكانتها ، وكأن الشاعر يكف عن الكلام ، فتبدأ الطبيعة البشرية - وحقائق الحياة العظيمة الأولى - فى التحدث على لسانه . »

« هل من العدل أن نقول - كما يقول الكثيرون - إن الفكر العبرى فيه من عناصر الشفقة الإنسانية أكثر مما نجده فى الفكر الهلنى ؟ »

وكانت إجابته كأنها حديث مروى ، وقد ألقاها فى رفق ولين .

قال : « أعتقد أنه لابد من إضافة هذه الوصية الحادية عشرة : (صادق دائماً من يخدمك) » .

(١١)

١٧ من مارس ١٩٣٨

يوم العطلة المعتاد احتفالاً بجلاء البريطانيين عن بوسطن . غير أن الصحف لا تمطل في هذا اليوم لأن هناك دائماً استعراضاً ضخماً جنوبي بوسطن ، حيث كانت تصوب مدافع واشنطن من قلعة تيكونديروجا .

وقضيت المساء مع آل هوايتهد . وكان ذلك إثر استيلاء الألمان على النمسا مباشرة ، وكانوا يحسون بالاستياء الشديد . وقال هوايتهد إنه يرى الموقف سيئاً للغاية ، وقالت زوجته إن معناه قيام حرب أخرى عاجلاً أو آجلاً . وتحدثنا عن تأليف الوزارة البريطانية فقال :

لقد أدارت دفة السيارة الخارجية جماعة من المحافظين (التوري) يريدون السلام ما في ذلك شك - ولكنهم يريدونه لأسباب خاطئة ، يريدونه لكي يحتفظوا بما يملكون . ولست أريد بذلك أن أقول إنهم خائنون .

قلت : « ليست بهم حاجة إلى ذلك . فإن الطبقات ترى صالح الأمة في صالحها » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن ذلك يصدق على أغراض المال كما يصدق على المحافظين » .

وواصل هوايتهد حديثه قائلاً : « كان المال يتنادون بنزع السلاح كلما ورد المدفع على لسان متحدث ، ثم بدأنا بعد ذلك مباشرة في الصدام - كما حدث عندما »

سكنت إيطاليا حملتها على الحبشة ، فصاحوا فائلين : « إن ذلك ما كان ليحدث .
لو كنا مسلحين . »

« كنت دائماً أتساءل ماذا عسى أن يفعل المال لو حملوا التبعة على حين غرة . »
فأجابني بقوله : « إن المحافظين والمال كلاهما كانوا يسرون إلى منتصف الطريق
في سياسة خاطئة . المال يمارضون التسليح ، والمحافظون يحاولون الصلح مع
الدكتاتوريين »

يبدو أن الأمر الوحيد في الديمقراطية مما يستحق الإبقاء عليه هو حرية الفرد
فماق على ذلك هوايتهد بقوله : « بل ها أمران . أحدهما حرية الفرد . بيد
أن عليك بالتاريخ يذكر بأن في أعماق المجتمع دائماً ضرباً من ضروب البؤس :
الرق في العالم القديم ، ونظام الإقطاع في العالم الوسيط ، والمال الصناعيون
المأجورون منذ تطور العمل الآلي . وعصرنا هو العصر الأول الذي لا يشوبه
العوز المادى إذا نظم هذا الإنتاج الآلى بدرجة معقولة . غير أن روسيا قد خففت
من آلام الجماهير على حساب الحرية الفردية ، والفاشين حطموا الحريات
الشخصية دون أن يخففوا في الواقع من وطأة الظروف التي يمانها الجماهير : إن
من واجب الديمقراطية أن تخفف من بؤس الجماهير مع الاحتفاظ بحرية الفرد . »

وهل فيمن نسميهم الأرستقراط فائدة كبرى لنا ؟

« لو ظلوا على قيد الحياة . من رأي أن ترتفع ضريبة الميراث بحيث لا يمكن
الأمرة من الأرستقراط الكسالى أن تعيش . ولكنى لا احبذ تحديد مستوى
الدخل . ويجب أن تتوفر للأسرات ذات الثراء حرية التجريب . فإن هواية الفنى
في جيل هي حاجة الفقير في الجيل الذى يليه . من سيارة رولز رويس الى سيارة
فورد . ولولا الأمرات الفنية ما قامت جامعاتكم في أمريكا التي تستند إلى

التبرعات الشخصية. وإعما هي هارفارد ، وپرستون ، وشيكافو ، وأمثالها ، التي ترسم الطريق للجامعات الحكومية ، التي لولاها لوقفت جامدة بغير حراك ، »

وفي تمام التاسعة دق جرس الباب وكانت القادنة جريس دي فريز ، أنيقة ، عالية الروح ، ترندي زيا أسود اللون ، مثل مسز هوايهد ، وهولون يلاعهما كليهما . وفي الأسبوع السابق كانت في نانتكت فتوجهت إلى طرف الحقل حيث قبر زوجها الشاب ثادبوس ، الذي كان رئيساً للتحرير بصحيفة (جلوب) . ولما كانت نانتكت موطن أسرة دي فريز لأجيال أربعة ، فقد ورد ذكرها بإيجاز ، ثم انتقل الحديث إلى ضباب البحر الذي أطبق على الجزيرة ، ثم إلى « برك الندى » في منخفضات ولتشير ، حيث كان آل هوايهد يقضون فصل الصيف من كل عام لمدة سنوات . ولما عدنا إلى الحديث في مهام الموضوعات ، أثرت ملاحظات هوايهد التي أبدتها في العام الماضي بشأن الأوبرات العظيمة ، فصيحح ذاكرتي قائلاً :

« أنا لا أقول إن فاجنر ليس جليلاً ، أو أني لم أستمتع به ، وإنما أقول إن مَثَل القوة والمجد الذي يستند إلى التاريخ العنصري من اليسور جداً أن يساء فهمه ، بل لقد أسى فهمه فعلاً . إن الكفاح والطموح والنشاط البطولي — كل ذلك من الاتجاهات النبيلة ، فيها من التبل ما في أي اتجاه إنساني ، ولكنها حينما تنحدر إلى مجرد حب للسيطرة تصبح من الشرور . »

« إنني حينما أطبق رأيك هذا بأن مثل هذه السلسلة من الدرامات الموسيقية كان من الجائز أن تحطم النبوغ السياسي للشعب الانجليزي في جيل من الأجيال ، يقال لي « وما الرأي في شكسبير ! »

وتعالت الضحكات ، وتبادلوا النكات فيما قلت ، بل واشتركت بنفسي في هذه النكات .

« في الصيف الماضي قادوني إلى المسرح التذكاري في ستراتفورد على نهر آفون لكي أشاهد تمثيل مسرحية (الملك هنري الخامس) ، وبعد إنقضاء ثلاث ساعات ، انمحي ثلاثة قرون من التاريخ ، حتى إنني لم أعد أعبا إن كنت أمريكيا أو إنجليزيا . قد تقول إنها الموسيقى التي يتلاشى معها الحسن الخلقى ، ولكني أقول إن شعر شكسبير قد ينطوى على مثل هذا الخداع . »

ثم أخذنا لفترة ما نتحدث عن سكان المدن الصغرى والضواحي والريف باعتبارهم نماذج بشرية طيبة . ووصفت لنا مسز هوابتهد امرأة من سيائل ربت أربعة أبناء على كثير من الظرف والرجولة :

قالت : « إنها تتكلم في التوافه - ومع ذلك ففي حديثها غذاء وشفاء »
« وكيف استطاعت ذلك ؟ »

« بما عندها من شفقة ، وما لديها من مرح ، وباحتفاظها بهم في موطنهم . إنها تأتي إلى هنا ، ونتحدث في توافه الأمور - وأود لو استمعت إلى وأنا ألوك هذا الكلام - بيد أن ذلك لا يهم . فهذه المرأة طيبة كأحسن ما تكون المرأة الطيبة . »

فصاحت جريس وهي تضحك مسرورة : « كم أود أن أستمع إليك وأنت تتكلمين في التفاهات ! »

« لا أحب لك ذلك ، إن مثل هذا الحديث الآن لا يكون على طبيعته . أما حينما ألتقي بها وجها لوجه فمعتقد يكون صادقا كل الصدق . إننا لا نقول شيئا ما ، ومع ذلك يفهم كل منا الآخر فهما تاما . »

قالت : « هانتندى على أحسن ما تكونين . ولا تستطيعين أن تسكوني أفضل من ذلك . »

وفي العاشرة جيء بمربة الشاي ، وهي تحمل الويسكى ، والسودا ،
والجوجيرابل والثلاج . وكانت نار السكتل الخشبية تحترق في الموقد .

وفي نقاش بشأن الحرب قال هوايتهد :

« إن الداعي الى السلام المطلق مواطن سيء . فهناك أوقات لابد من استخدام
القوة فيها لإقامة الحق ، والمدل ، والمثل العليا » .

ودهشت لهذا الرأي ، وعددته تطرنا . هل الأمر بكل هذه البساطة ؟
وغادرنا جريس قبيل الحادية العشرة بقليل . وكانت مسز هوايتهد قد
أخطرتني بذلك من قبل ، وطلبت إلى أن أبقى معهم قليلا . وفي الحادية عشرة
أداروا الراديو ليستمعوا الى الأخبار :

وقال : « لابد لنا من الاستماع الى الاعلانات مع الأخبار ، فالنبا يذاع ويعقبه
إعلان وهكذا حتى تنتهى النشرة . لقد انحطوا بمستوانا الى درجة كبرى . ولم
نعد نعتي بالأمر كثيرا ، أو نعتي به ألبتة . سلنا نجيبك عن شراب هكر ومعجون
الأسنان الذى يخرج فرد من الأفراد ويفضل به كل ما سواه من أنواع » .

وأداروا الراديو . وطرق آذاننا صوت من الفضاء يقول : إن شراب سنودلدى
يصنع من الشعير المحمص .. »

وقال مستر هوايتهد وهو يبتسم ساخرا « هذه هى الأنباء ! إننى لم أعرفه
ذلك من قبل . »

ثم تلت ذلك الأنباء . وكانت مزعجة : القاء القنابل على برشلونه ، وصوله
تسعة من اللاجئين النمساويين بالطائرة الى أنجلترا ، ولما لم يسمح لهم بالدخول
تناول أحدهم السم فى المطار ..

ونظروا إلى متساءلين - كأننى أعلم من الأمر مالا يعلمون ! وكل ما استطعت
أن أقول هو :

« إن المبالغة تشوه الحقائق .. أطلع في صحف الصباح وأنا أهبط إلى المدينة
التناوين الضخمة التي تملأني فزعاً ، برغم عملي الطويل في الصحافة . ولكنني حينما
أصل إلى مكتبي أعود إلى الصحف مرة أخرى أطلعها بدقة ، فيتبدد الخوف والفرح .
وقد سارت الأمور على هذا النسق إثني عشر عاماً - وكمن مرة تخيلت أن
انفجاراً شديداً سيحدث ، ولكن الانفجار لا يحدث ، والضرر الذي قد ينجم
عن ذلك بطبيعة الحال هو أننا قد نفقد في النهاية الحساسية » .

(١٢)

٢٨ من أبريل سنة ١٩٣٨ .

يوم من أيام الربيع التي تشتد فيها حرارة الصيف فجأة ، وبلغت الحرارة
التسمين إلا نصفاً بدرجات مقياس الحرارة ، ولا يزال البخار علاً جواً
المكاتب ، فأضبت بالاجهاد الشديد . ولم يكن بوسع أى إنسان أو أى أمر أن
يفرني بالخروج في المساء — اللهم إلا آل هوابتهد ، وحتى في هذه الحالة بلغت
دارهم ، ذابلاً في الساعة الثامنة .

وزالت بيننا الكلفة في ذكر الأسماء ، وأمكنا أن نستغنى عن ولية المشاء ،
واستطعنا أن ندير الحديث وحدنا في عمق وفي سرعة ، وانفتحت النوافذ تستقبل
ليل الربيع ، فنسينا كل ما أصابنا من إجهاد أثناء النهار .

وتحدثنا عن حياتهما في جراتشستر حينما كان هوابتهد زميلاً بسكلية ترنتي في
كبردرج . وكانا يقطنان (بيت مل) القديم ، وأطلعاني على صورة ملونة له في
(المجلة الجغرافية الوطنية) لشهر سبتمبر من عام ١٩٣٦ . وكانت الحياة في القرية
تسير بكل ما عرف عنها من تفسكك من عهد شومر ، وإلى جوارها الجامعة
خوانسها غير آبهة بها . فالقرية أشبه بابن الزنا - يخرج إلى الوجود نتيجة (لغلطة

يسيرة) ؛ وكان أهل القرية في سذاجتهم وحسن نيتهم يعمدون بفريزتهم على الأعيان ، كما كانوا يفعلون منذ قرون ، والأعيان لا يخيمون رجاءهم - فإن فعلوا فقدوا مساكنهم . وإذا أخطأ أحد المرشحين لمجلس النواب من الأحرار فتخلل من المادة المحمية ، ثارت زوبعة من الغضب : واضطر إلى الإبتعاد بفاديا لسوء المواقف . وكان (بيت مل) جذاباً بهيج المنظر ، ليس به إلا عيب واحد ، هو الفيران . وكانوا يقاومونها بمختلف الطرق ، ولكنها كانت تمود أحياناً ، فيحاربونها حرباً شعواء داخل جدران ذلك المسكن القديم . فكانت الحياة في هذا البيت في نظر الزائر مثيرة . وكان آل هوايند يروون لنا قصصهم مع الفيران ، فكنا نقابل ذلك بالضحك العميق .

ثم انتقلنا أخيراً إلى ما أسماه هوايند « الألفاز التاريخية » : هل أوهن من ذكاء الإسبانيين طردهم اليهود والبرتغاليات . ثم أضاف قائلاً : « إن الذهب الذي أتوا به من أمريكا حط من خلعهم ، كما أن الجيوش التي أرسلوها إلى أوروبا استنزفت جانباً من أعز ما لديهم من دماء . لاشك في أن الجند قد أنجبوا عدداً مناسباً من الأطفال - ولكن في غير أسبانيا . بيد أن السكران لم تلحق بالفنون .

وهل أجّل طرد الهوجونوت الفرنسيين اشتعال الثورة الفرنسية ؟ »

قال : « ربما كان سبباً فيها » .

« إن ذلك يفسر هجرة الألمان في عام ٤٨ ، فإنه بعد فشل الثورات ، تنهبت جموع كبيرة من الألمان وجاءت إلى هنا » .

« كان حظكم فيهم حسناً أيها الأمريكيان . وأعتقد أنكم ظفرتُم بالألمان

الذين لم يستطيعوا العيش في جو سياسي خائق . ولاحظ أن الهجرة دائماً تختار
خير العناصر - بمعنى من المعاني . لا بد للناس من سبب للانتقال . وقد تختلف
الأسباب من دواع خلاقية كبرى إلى وكلاء البواخر الذين يستوردون العمل
الرخيص من جنوبي أوروبا لو أننا نحن الإنجليز وجدنا مناجم للذهب في
أمريكا الشمالية ، بدلا من الأرض الصالحة للزراعة ومن التجارة ، فربما كان
ذلك سبباً في دمارنا . وحتى في هذه الحالة ، نجد أن شعبنا في القرن الثامن عشر
شعب غبي إذا قورن بأهل القرن السادس عشر ، بعد أن سحبت الهجرة العناصر
النشيطة في القرن السابع عشر وما دمنا نسأل أنفسنا الإجابة عن الغار
التاريخ ، فإليك واحداً منها: ألم يؤجل بت الصغير انهيار أوروبا في العصر الحاضر
وذلك بإشغال حرب لزعيم نابليون ، أعاد بها إلى الأمرات الحاكمة الواهنة
نفوذها لمائة عام ساءت خلالها الأمور إلى حد يستعصى على الإصلاح ، وذلك
بدلاً من أن يترك هذه الأمرات تؤول إلى السقوط الذي تستحقه ؟ ألم تنهياً
الفرصة ليت لكي يصدر قراراً من أهم القرارات التي تؤثر في تاريخ البشرية ،
فأخطأ في القرار ؟ . . . وذلك بأن استمع إلى برك وزمرته ، بدلاً من أن يستمع
إلى الأحرار ؟ »

ولما تقدم الساء قال : « كنت أفكر في العلاقة بين المهارة الفنية والفن ،
وكنيت أحاول أن أخرج بنظرية ، لست على يقين من إمكان تأييدها في جميع
الحالات . وتلك النظرية هي أن المهارة الفنية - في المراحل الأولى افن من الفنون -
ليست إلا وسيلة من وسائل التعبير عن العقيدة الملتهبة التي تجيش في صدور
الفنانين . وكثيراً ما تكون هذه المهارة على شيء من الخشونة . خذ الكاندرانيات
مثلاً : انك تجد فيها شيئاً عميقاً يحرك النفوس ، وإلى جانب ذلك تجد شيئاً بعيداً
عن الإتقان ، ولكنه لا يحط من شأنها . ثم بعد ما ينضج الفن ، وتقدم فيه

الصناعة ، بحيث يمكن نقلها بالتعليم ، يُنتقى الصبيان الأذكى الذين يستطيعون أن يتملوا الصناعة بغير إبطاء ، ويهمل الصبيان أصحاب الأحلام العظيمة . فترى في العمل أثر المهارة وإتقان الصناعة ، ولكن ينقصه العمق » .

وشرعنا نجول في مختلف الفنون لإختبار صحة النظرية ... وكان من رأيه أن رفائيل هو أحد هؤلاء الصناع الماهرين الذين يظهرون في اللحظة التي يبدأ فيها العمق في الإختفاء ،^٩ وأن ملتن مثال آخر لذلك . وأن الأسلوب المتلائي الزاهي في الفن الفوطي مثال لذلك أيضا .

وقال : « إن الفن الفوطي الإنجليزي قد استغرق حوالى أربعة قرون ، من عام ١١٠٠ إلى عام ١٥٠٠ ، ومر بأربعة أساليب متتابعة — الرومانسك ، والإنجليزي القديم ، والمزخرف ، والعمودى ، وكل أسلوب منها دام زهاء قرن من الزمان ، حتى كان القرن السادس عشر حينما بدأ هذا الفن في التلاشي . وخلال هذه القرون الأربعة كانت تستكشف أوجه جديدة لفكرة المهارة الفوطية ، ثم تأخذ هذه الأوجه في التطور . وكان إمسكان التجديد فيها لا يتهى — فيما يبدو . ولما حل عام ١٥٠٠ بدأ هذا الإمسكان في النفاد ولكنه لم ينفد بتاتا . ثم جاءت بعد ذلك فترة إنصراف شامل . وعاد البناءون إلى أسلوب المهارة عند اليونان والرومان ، وتلك هي « النهضة » واستخدموا هذا الأسلوب لكل غرض في العالم الحديث من الكنيسة إلى محطة السكة الحديدية . فشهدت لندن كاتدرائية القديس بطرس بدلا من الدير الفوطي ، وشهدت نيويورك محطة بنسلفانيا للسكة الحديدية ، وهي منشأة على طراز حمامات كارا كللا في روما » .

وطبقنا هذه النظرية على فن المأساة الإغريقية ، وتأكدنا من خضوعه لنفس هذه الدورة الحيوية : كانت لإيسكس معتقدات خلقية مشتملة ، ولم ترد قدرته الصناعية في مسرحيته (الفرس) إلا قليلا عن الموال أو الموشح ، ولكننا نجد

هذه القدرة في (أجاممنون) عظيمة متقدمة . وفي مسرحيات سوفوكليز التي بقيت . لنا نجد توازن المصير المتوسط : نجد العقيدة القوية ، ونجد الأفكار التي يعبر عنها بقوة فائقة ، وبمهارة صناعية فائقة في الوقت ذاته ، مهارة تطلق قوة الأفكار إلى أقصى غاياتها . وتنتمى إلى هذه المجموعة (انتيجون) ومسرحيتي (أوديب) .. ولما نصل إلى يوربيديز نجد أن المهارة الصناعية قد باتت مفهومة إلى الحد الذي يمكن من التلاعب بها ؛ وبالرغم من أن العقيدة القوية ما زالت باقية ، وبالرغم من أن الأفكار ما زالت قوية ، فإن الروح السائدة هي روح النقد الذي يشكك ..

ووجدنا أن ما كنا نناقشه في مجال المهارات الصناعية هو الدورات الحيوية للأشكال الفنية . ويمكن تتبع أمثال هذه الدورات في فن النحت اليوناني ، وفي التصوير لمهد النهضة ، وفي الموسيقى الحديثة ، التي بدأت منذ ثلاثة قرون واستمرت حتى القرن العشرين ، حتى أمست المهارة الصناعية للتوزيع الموسيقي السمفوني معروفة إلى الحد الذي يمكن من تعليمها للصبيان الأذكاء ...

وقد ألفت نظرية هوايتهد هذه فيضاً من الضوء فقلت : « إن بعض هؤلاء الصبيان الأذكاء يقدمون عروضاً تخطف السمع بما فيها من مهارة صناعية فائقة ، وضربات تأخذ بالألباب . وهم يستطيعون أن يذهلوا الأهالي بمركبات صوتية لم يسمع مثلها من قبل ، ويستطيعون أن يهزوا قلوب الشيوخ باستخدامهم الكلمات الخبيثة ذات الحروف الأربمة في تنافر منسجم وانعدام للنغم . ولكنهم لما كانوا لا يؤمنون بشيء فإنهم لا يجدون شيئاً للتعبير عنه . وفنيت الفكرة التي كانت قوية فيما مضى فناء مطلقاً » .

وقال هوايتهد محذراً : « ولكن الفكرة قد تعود إلى البعث . من الأفكار ما استقر دفيناً لمدة قرون ، ثم نهض مرة أخرى ، وأشعل ثورة في المجتمع الإنساني . قد تجد صبيّاً من الصبيان ليس ذكياً فحسب ، يعثر على فكرة ما » .

كان يُظن أنها ماتت من زمان بعيد ، فبعيد إليها الحياة بين يديه . لأنه حينما تتقد شرارة شاب من الشبان عند استكشاف فكرة عظيمة ، لا نهمنها لديه الفكرة المينة التي اكتشفها ، بمقدار ما بهمنها الوميض الذي تشمله الفكرة في نفسه . فهنا تجد الإحساس بالمغامرة ، وبالحدة ، لأن الفكرة القديمة قد تراثت للبصر من جديد في صورة جديدة . لأن حيوية الفكرة في المغامرة . (والأفكار لا تدوم) ولا بد من صيانتها . حينما تكون الفكرة جديدة تكون عند حفظها الحماسة ، ويميشون من أجلها ، بل ويموتون من أجلها إن اقتضى الأمر ذلك . ويستقبل ورثتهم الفكرة ، وربما كانت قوية وناجحة ، ولكنهم لا يرثون التحمس لها ، ومن ثم فإن الفكرة تستقر في منتصف العمر الهادئ ، ثم تدب فيها الشيخوخة ، ثم تموت . بيد أن النظم التي تحاك حولها لا تقف عند حد ، إنها تواصل الإندفاع بقوة القصور الذاتي المكتسب وحدها ، أو تصبح كالفارص الميت محمولاً على ظهر جواده .

ولم يخصص هوايته القول في هذا التعميم .

(١٣)

١٧ من يناير ١٩٣٩

أصبح هوايته الآن أسياداً متقاعداً . وقد بلغ التاسعة والسبعين من عمره . ورحل وأمرته منذ تقاعده - نظراً لانخفاض الدخل - من راندور هول إلى مسكن ذي أربع حجرات في فندق امباسادور بشارع كبرديج . وتطل النوافذ من الطابق الخامس على قمم الأشجار جنوباً . وترى من الناحية الغربية الأبنية الخضراء والأشجار الظليلة ، والدلتا التي تقع فيها تلك الكاندرائية الملمانية ، المشيدة من الطوب الأحمر ، مموريال هول .

وقد رست أكثر كتب مكتبته فى هذا المسكن . فكانت حجرة الدرس مليئة بالمكتب الموضوعة فوق الرفوف التى تحيط بجدران الحجرة الأربعة من الأرض إلى السقف ، لا يقطع اتصالها إلا باب واحد ونافذة واحدة كبرى . وكان بحجرة الطعام ثلاثة جدران أخرى من رفوف المكتب ، وقد رست فى أناقة بالغة ، حتى أن الرأى لا يحس أنها فى غير موضعها . وحجرة الجلوس فسيحة إلى درجة مقبولة ، وترتيب الأثاث فيها بارع ، مما يترك أثراً طيباً فى النفس ، حتى أن الجالس فيها لا يفتقد الموقد ، رغم عدم وجوده ، إلا قليلاً ، فإذا ما دار الحديث لا يفتقده بتاتاً . وجدران المسكن - كما كانت فى راندور هول - تصطبغ بلون يكاد يكون أسود ، ولكنه يريح البصر ولا يشيع الكآبة .

ولما لم يمد ممكننا لهما أن يدهوا إلى حفل عشاء ، فقد كانا يدعوان الضيوف إلى ما بعد العشاء للحديث . وقد وصل بسيارته روبرت كمنجهم قادماً من اكستر ، وكنا نتناول العشاء فى زى السهرة بدبرجن بارك فى حى السوق ، وهو أمر عادى لأن الرجال والنساء يقصدون هذا المكان للعشاء قبل ارتياد الأوبرا بالزى الرسمى الكامل ، ويجذبهم إليه أن العشاء فيه أفضل منه فى الفنادق الفاخرة ، وبسر السوق .

ولما رأنا أحد تلاميذ كمنجهم السابقين فى اكستر ، وهو الآن مستجد بهارفارد ، تقدم إلينا ، وتحدث معنا . رأى أستاذة مرتدياً زياً كاملاً ويتناول عشاء فى السوق ، فإلى أين يقصد ؟ وثار عواطف الشاب وكاد يلتهم الفضول .

فسأل قائلاً : « هل أنت على موعد ؟ »

فأجاب كمنجهم : « نعم ، وهو ثقيل . »

وكان يتحرق شوقاً إلى المعرفة . وأخيراً قال كمنجهم :

« نحن ذاهبان إلى بيت الأستاذ هوابتهد للحديث معه . »

وعاد إلى نك رشده وصوابه .

ووجدنا عند آل هوايتهد مستر ومسز رتشارد جير ، وهو رئيس لجنة القبول الكلية هارقارد . وهما من فيلادلفيا ، ميولهما الدينية صاحبية . وكان الرجل فيما سبق ناظراً لمدرسة بن تشارتر . وسرعان ما انضم إلينا و . ج . كنستابل أمين قسم الصور بمتحف بوسطن للفنون الجميلة ، الذى التحق به بعد قدومه من المتحف الوطنى للصور بلندن ، وهو رجل إنجليزى واسع الخبرة والعلم والثقافة ، رفيق محب يود المرء أن يراه دائماً . وأخيراً جاءت جريس دى فريز ، فى فراء أسود وغمل أسود ، وقد تضاعف لطفها المعهود وروحها المالية عندما تقادت بدخولها برودة الشتاء فى المساء .

وتحدث هوايتهد عن الفروق بين القرنين السابع عشر والثامن عشر فى إنجلترا . وكان من رأيه أن الإنجليز فى القرن السابع عشر كانوا أشد عمقا : « كان اهتمامهم السائد بالدين ، مقابل تجرد العقليين فى القرن الثامن عشر من العاطفة والهوى . وهذا التجرد شئ جميل فى تحقيقه ، ولكنه كالمياه الضحلة نسبيا . أما جونسون ، وهو رجل أشد صلابة ، فكان لا يزال فى جوهره مشبها بروح القرن السابع عشر . ولو أنه التقى بقلتين لما استطاعا أن يتبادلا الحديث طويلا . ومن عيوب القرن الثامن عشر أن كثيرا من أصحاب الجد فى الحياة هاجروا إلى المستعمرات ، مخلفين وراءهم النوع الآخر من الناس لتكون له السكامة . كان ملوكهم شاحبي اللون ، أشباحا من عهد عودة الملكية إلى جيولف ، أسرته المالككة من ملوك مستأنسين يحتفظون بعروشهم بحسن سلوكهم ، وتدير البلاد هيئة من الطبقة الأرستقراطية . وكان جورج الثالث هو الملك القوى الوحيد ، ولكنه خلط شئوننا بالمستعمرات الأمريكية خلطا سيئا ، وما كان ينبغى لنا أن نحارب نابليون .

وما الذى كنا نشارك فيه فى ذلك الحين الملصكية فى القارة الأوروبية ؟ كان من واجبنا أن نلزم الصمت وزاقتهم .

وسأل كنفجهم : « كم من مظاهر أمثال هذه اليهود - فيما تحسب - ينشأ عن الجماعة ؟ وكم منها ينشأ عن الأفذاذ من الأفراد ؟ » .

« إن الظروف الاجتماعية المحيطة فى عهد من العهود المظيمة لا بد أن تكون قاعة ، بيد أن كثيرا من الأمر - إن لم يكن كله - يتوقف على فرصة وجود شخصية قوية تدفع هذه الظروف إلى الأمام . فإذا انعدم وجود هذه الشخصية تلاشى فمل الظروف . وكان جون وزلى مثالا لهذه الشخصية . وقد أشمل حساسة . إثنين آخرين ، أثاروا الكثرة الغالبة من الناس . أما فى الأوقات الناضجة ، فإذا لم تظهر أمثال هذه الشخصيات الفعالة ضاعت الفرصة . ان كثيرا يتوقف على الظهور العارض لرجل عظيم بوجه قدراته نحو حاجات عصره . إنه يعبر عن هذه الحاجات » .

فسأل كنفجهم : « ومن فى رأيك أقدر الناس فى إنجلترا اليوم ؟ » .

« طبقة الصناع المليا » .

ولم يدهش بمضنا لهذا رأى ، غير أن كنفجهم - وهو صاحب منحة رودس الدراسية سابقا بكلية الملصكة فى اكسفورد (عن طريق برنستون) - أراد زيادة فى الإيضاح :

فقال : إذن فليسوا هم المقليين ؟ » .

فرد هوابتهد بقوله : « إننى لم أستطع قط أن أفنع أصدقائى إقناعا كافيا بأن المقليين لا يمبرون عن أمتهم . إن أردت أن تسمع صوت الأمة وأن ترقبه وهو

يعمل . قف عند الطرقات الخلفية ، واستمع إلى الفئة الهادئة من الطبقة الوسطى .
والعاملة . أنهم حين يعملون ينزوي العقليون جانباً » .

وقالت مسز هوايتهد في خفة : « إنهم الفئة ، المحترمة ، وأنا أبحلهم من أجل .
ذلك . وهم يحبون حياتهم الدينية مرة كل أسبوع » .

فسأل رتشارد جير قائلاً : « ولكن هل يطبع الدين هؤلاء الصناع ؟ » .

فقال هوايتهد وهو يبتسم متلطفاً : « إنهم - على المكس - خارجون على
تقاليد الدين ، لهم كنيتهم الخاصة ، وأول ما يفكرون فيه هو أن الكنيسة
الإنجليزية يجب أن تنحل ، وهذا مما يحلهم معتدين ! » .

وسألني من أين يأتي الأحرار الأمريكيان أساساً في ظني . فأجبت الإجابة ،
وسألته : لماذا نرى الأطباء رجعيين في تفكيرهم الاجتماعي ؟

فقال : « حينما كنت في كبردرج بكلية ترنتي ، أثير موضوع منح الدرجات
العالمية للسيدات . فكان يؤيد الرأي من ناحية الرجال الذين يعملون في المامل ،
وبمارضه من ناحية أخرى أولئك الذين يدرسون الكائنات البشرية - ومنهم
الأطباء . وكان المؤيدون لمنح الدرجات العالمية للسيدات أولئك الذين يعالجون
المادة التي لا حياة فيها ، وذلك بغير استثناء . أما أولئك الذين كانوا يعالجون
النساء كمخلوقات حية فكانوا من المعارضين . وقد رأيت كثيراً من الأطباء
في لندن . أنهم بعد عمل اليوم حينما يلتقطون الكتاب أو الصحيفة للاطلاع
لا يفقهون ما يقرأون من شدة الإجهاد » .

فقال مستر جير : « الأطباء في هذا البلد دقيقون من الناحية العلمية .
وعطوفون على غيرهم من الناس . ولكننا لا نتوقع منهم أن يفهموا المشكلات
الاجتماعية » .

وسألت جريس : « وهل يرى الطبيب كل جوانب الكائن البشرى ؟ »
 فأجاب هوايتهد قائلاً : « كلا إن المرء حينما يسكون منتعشاً لا يقول : (هيا بنا زور طبيبياً) . فالطبيب آخر من يفكر فيه . إنه لا يرانا إلا حينما نعتل ، والأمر أسوأ من ذلك أن كان طبيبياً نفسانياً ، فهو لا يأتى إلا حينما يبدأ أصدقاؤنا فى القلق عاينا . أعتقد أن أصحاب المهن الرفيعة — على وجه الجملة — لا يحسنون الحكم خارج نطاق المهن التى يحترفونها . »

« هذا يمود بنا إلى سؤالك عن الأحرار الأمريكان . إن كثيراً من خيارهم — قبل الحرب ، وربما حتى الآن — كانوا يأتون من أمرات الطبقات المتوسطة الذين على شئ من الدعة ، حيث يتوافر التعليم المدرسى الجيد والتربية الدينية . ثم هم بعد ذلك إما يشهدون الفقر بإنانمتهم فى منازل المحلات الإجتماعية ، ومن هؤلاء جين آدمز وليليان والد ، أو يلتقون بشخصيات فعالة مثل براند هويتلوك ، أو كما فعل نيوتن بيكر فى نوم جونسون السككية فىلاندى . ثم هناك من الأحرار أيضاً الصحفيون الثأرون الذين أصبحوا من المؤلفين ، وهى الزمرة التى تشمل إيدا تاربل ، وراى ستانارد بيكر ، ولنسكولان ستفنز . »

وسألت جريس : « وماذا حدث لإيمانهم الدينى ؟ »

« إنجه نحو الخدمة الإجتماعية »

وأثير بعد ذلك سؤال عما إذا كان هناك أمل الآن فى ظهور طبقة ماثلة .

فقال هوايتهد : « حينما بدأت محاضراتى فى السكيات الأمريكية — وذلك على وجه التقريب بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ — سرعان ما رأيت أننى إذا استمرت آية من الانجيل لا أجد من بين طلابى من اطلع عليها من قبل ، أو من عزم على الإطلاع عليها ، أو كانت لديه أدنى فكرة عما أتحدث فيه . وإذا أحسوا أنى أتكلم

في الدين ، أشاحوا بوجوههم حتى أظرق موضوعاً آخر . أما فيما بعد عام ١٩٢٩ حتى التقاعد ، وهي السنوات السبع الأخيرة من حياتي التعليمية الفعالة ، فقد تغير هذا الاتجاه ، وإذا تحدثت في الدين أصغوا إلى منصتين . «

فقال كنستابل : « إنني أشاهد ذلك بين الشباب الذين ألاقهم في المتحف . إن العمل عندهم كأنه رسالة دينية يؤدونها بحماسة بالغة . وهم يشعرون بهذا الإحساس بمض النظر عن مواردكم ، يحسه أبناء الأثرياء منهم ، كما يحسه أولئك الذين لا يكادون يملكون ما يقيم أودهم . »

فسألت : « وهل معنى ذلك أن الروح الدينية في عهدنا ، التي يبدو أنها تنحسر من الكنائس ، قد تعود إلى الظهور على شكل نشاط فني خلاق ؟ »

بيد أن أحداً من الحاضرين لم يأبه بقولي . وتحول الحديث إلى موضوع الزينة الداخلية ، فقال مستر كنستابل :

« كان من واجباتي بمعرض الصور الوطني بلندن حينما كانت تتفتت ضيعة من الضياع أن أزورها لأرى أبها أي شيء مما له أهمية قومية ؟ وكثيراً ما ردت حجرات لم يردها أصحابها أنفسهم . ولم يكن ذلك من حقي فحسب ، بل من واجبات وظيفتي كذلك . وكثيراً ما عثرت على أعجب الأشياء . في بيت هظيم في الطابق العلوي لأحد الأجنحة الذي عزل ليكون غرفاً للخدمات في القرن الثامن عشر ، أتجهت إلى الدهليز وعثرت على طاقم كامل من اثني عشر كرسياً من طراز شبنديل ، اثنان منهما في كل غرفة (وكانت الغرف ستاً) وزعت هذا التوزيع منذ نحو قرن من الزمان . وكل ما فعلت هو إخراج الكراسي إلى الدهليز . أما في أسفل الحجرات الفاخرة من البناء فكان الأثاث من شجر الجوز الأسود على الطراز الفكتوري . »

فقال هوابتهد : « يبدو لي - حينما أرى أئانا إنجليزيا - كأن الأثاث مستورد من بيت تتوافر فيه الراحة ولا تراعى فيه المظاهر، بيت من بيوت الطبقة المتوسطة من الناحية الاجتماعية . ومن هذا البيت يمكن أن ينتقل الأثاث إلى بيت أرقى أو أدنى ، ولكنه يحافظ بوجه عام على صفة الراحة التي تميزه خاصة . أما في فرنسا (ولزوجتي التي عاشت هناك أن تصححني إن أخطأت » - فقالت زوجته : « لا يكون ذلك علنا يا عزيزي » وقد نهضت لتدير الشطائر على (الحاضرين) .

وعاد هوابتهد إلى حديثه قائلا : أما في فرنسا فسكلم شهد أئانا خيل إلى أنه تقايد لما في القصور - سواء أجيد هذا التقليد أم أسيء . وأخذ الإنجليز الثلاثة يقارنون بين انطباعاتهم عن القصور الملكية البريطانية، كل وفق هواه .

وقالت مسز هوابتهد لـ كنستابل : « انني لم أزر بكفنجهام قط . فهل زرته أنت ؟ »

« نعم . وكثير مما فيه لا يختلف عما يتوقعه المرء ، مزعج إلى درجة قصوى . فالكراسي محاطة بالاستائر القصيرة ، والهدب الطويلة حول أسفلها . ولكن حتى في الحجرات الرسمية الكبرى لا بد أن تراعى الراحة دائما . وفيها ما يوحى للناس أن يجلسوا على راحتهم » .

وضحكت مسز هوابتهد قائلة : « والأمر كذلك تماما في وندسور »

وانجبه الحديث ثانية نحو موضوع الحماسة الدينية .

فقالت مسز هوابتهد : « الدين في إنجلترا ليس من الموضوعات التي يتحمس لها المرء ، فذلك يناق مظهر الاحترام ! »

فقال مستر هوابتهد : « كلا . إنما يتحمس نيابة عنا أهل ويلز وسكتلندا » .

« والروح الدينية عند كليهما تتغلغل في السياسة . وقد تخرج لويد جورج مثلاً من كنيسة ويلزية »

وكانت وفاة بيتس قد أعلنت ، فأدى ذلك إلى نقاش حول احياء الروح الكلتية .

فقال هوايتهد : « أعتقد أن محاولة إحياء اللغة نفسها كان خطأ كبيراً . لقد أضاف أهل أيرلنده إلى الإنجليزية صفة مميزة بالأصوات التي أسمعونها عليها . أما لهجة الجليك فشيء قل من يفهمه . وقد انتهى الأمر بأن تعلم هذه اللهجة الكثيرون مع بقائهم أميين في الإنجليزية » .

فقالت مسز هوايتهد : « لما وصل مسرح آبي التنتل لأول مرة في زيارة لكمبردج ، طلبت إلى الفرد أن يدعو أفراد الفرقة إلى الغداء بالكلية . وكان بيتس متكلفاً في مظهره ومسلكه ، منكوش الشعر ، شديد المجاملة للسيدات المستقبلات ، يسمح لإحداهن أن تحمل كوفيته ، ويسمح للآخرى بحمل معطفه الذي يبقى به المطر . لقد نظم أبياتاً من روائع الشعر ، بيد أنه كان ولا شك منغوراً . وكان هناك شاب رث الثياب ، لم يكذب فوه بكلمة ويسمل سمعاً شديداً . وبعد الغداء طاف بهم مطوف في أرجاء السكايه ، ولكن هذا الشاب تخلف مع الفرد ومعى . ثم أخذ يتحدث ثلاث ساعات حديثاً شائقا . ولم نعرف منه اسمه ، ولكننا بعد انصرافه قلنا ، لا يهم من يكون ، غير أنه ليس رجلاً عادياً . انه في ذلك الحين لم يكن قد نشر شيئاً ما . وعرفنا فيما بعد أن اسمه سنج ! فلمنا أنفسنا لأننا لم نسع إلى التعرف اليه . »

وانقض الجمع نحو الساعة الحادية عشرة . ولبثت مع كفنجهام نמיד المقاعد إلى أماكنها وتزبل الأطباق والآكواب ، وتحدثنا خلال ذلك عن اللهجات الكلتية والبريتونية والارلندية ، وتحدثنا عن الأجناس الكلتية ، وعن موطن أوجل

الكائنات البشرية . وقد قيل إنها في شمال إيطاليا ، وبخاصة الشقراوات من النساء ، وفي المقاطعات الإيطالية بسويسرا . ونساء لنا : هل الإنجليز من بين الأجناس الجميلة . فقال . هوابتهد : « لا . أنهم أسماء خشنون ، ولكن قلما نجد فيهم جميلا » . وقال قائل : ان الجمال في أجزاء معينة جنوبي إيطاليا ، حيث لا يزال الناس يشبهون الاغريق القدامى من سكان ماجنا جراسيا .

وكانوا منتمشين منتمشين ، فانقضي المساء على خير . وقبل الانصراف قالت لي جريس دى فريز على حدة :

« إنها حفلة بغير عشاء ، ولكنها تفضل أكثر حفلات العشاء » .

(١٤)

٢٧ من فبراير ١٩٣٩

ظهر في عدد مارس من مجلة الاطلنطيق الشهرية مقال لهوابتهد تحت عنوان « نداء الى العقل » ، وكان العدد بالفعل في أيدي باعة الصحف . وقد جفزه إلى كتابة هذا المقال العواطف النائرة حول تشيكوسلوفاكيا . بيد أن مناقشة هوابتهد للموضوع تجاوزت الحوادث الجارية حتى أن القارىء ينتهى من المقال وهو يحس كأنه في عالم أرحب وأوسع . ونشرت مجلة جلوب ملخصا لمقاله في افتتاحيتها .

وقال في هذا المساء متلطفنا .

« قرأت لك وقرأت لي » .

« ليس ما كتبتُ إلا إعلانا عن ظهور مقالك . وقد أرسلت عددا إلى بارنجتون وارد بصحيفة التايمز اللندنية »

قال : « كتبته في نوفمبر الماضي . وقد نسي كل امرئ تشيكوسلوفاكيا الآن » .

« هذه بالضبط هي قيمة المقال . قد تزول المناسبة المارضة . بيد أن التطورات التاريخية التي تربطها أنت بها لا تزول قط » .

قالت مسز هوايتهد : « بدأ المقال أول الأمر خطاباً الى فلنكس فرانكفورت وكان يحفزنا الى الحديث في الموضوع ، بقوة وعنف » .

« لا بد أن هذه الأيام كانت ألمية على نفسه بدرجة عظيمة ، لما لديه من احساس دقيق بالمعادلة » .

قالت : « ثم إن هناك عرقاً صليبياً ينبض في فلنكس » .

قالت : « إن الجهد الذي بذله في سبيل المحاكمة المعادلة لساكو وفازنى وقع من نفسى موقماً أقوى من مجرد الحماسة الصليبية » .

فقالت متوددة : « إنى أتصوره دائماً من فينا . فعنده مرح أهلها ، وإن تكن السنوات الست الماضية — علم الله — لم يكن فيها الكثير مما يبعث على المرح » .

فقال هوايتهد : « في اليوم الذى أعلن فيه نداءه الى المحكمة العليا ، تصادف أنى كفت واذلن نستمع الى الراديو فأصغينا إليه . فناديناه إحدى العربات وانطلقنا إليه نهنته . وقد سبقنا إليه عدد قليل من تلاميذه الذين كانوا يدرسون عليه القانون . وكان منظراً ساحراً . كانوا في نشوة كبرى ، ورأينا فيهم كيف يكون الشباب في أحسن حالاته : رأينا اللطف والركة » .

ومن هنا انحرفت المحاوره الى محاوره في الحماسة الصليبية ، وقال هوايتهد عن

الصليبيين المحترفين : « إن شيخوختهم أمر يدعو الى الأسف . إنهم ينتقلون من (قضية) الى (قضية) » .

وسألته : « متى بالضبط تفتقر الحماسة الصليبية عند الانسان ؟ هل يحدث ذلك حينما تبرد دماؤه ؟ »

قال : « إنها لا تفتقر قط عند المحترفين »

« إن دفاعك الحار عن اليهود في مجلة إاطنطيق يحنثني على السؤال عن السبب في كراهية الشعوب لهم في كثير من الأحيان — كما ذكرت »

« إن ذهنهم حاد . وهذه الحدة كثيراً ما تكون في صورة تثير الحسد ، وهي صورة النجاح في التجارة . أنها ليست عمقا دائماً . وينبغى للمرء حينما ينتقى الرجال أن يحذر من تألق الشبان اليهود . إنهم يفضجون في التاسعة عشرة أو العشرين ، وقد يعلمون ، ولكنهم لا يحققون دائماً الآمال المقودة عليهم ، والتي تقوم على أساس هلوهم على غيرهم في هذه السن » .

وأضافت مسز هوايتهد قولها : « وهم فوق ذلك لم يكنسبوا خبرة حكم الشعوب الأخرى ، أو حتى حكم دولة لهم خاصة بهم » .

قال : « إن ذلك يزيد من اهتمامهم بالمثل الأعلى الذي يفهمهم . إنهم يفتقرون إلى روح الفكاهة بدرجة ملحوظة ، أو هم كانوا كذلك حتى عاشوا بين الأوربيين . إن الإنجيل يفتقر إلى روح الفكاهة . لم نكن عندهم بمد مآسهم — فيما يبدو — حكاية مضحكة لارستوفان » .

« إن موقعهم بين إمبراطوريات حربية لم يهيء لهم ما يضحكهم منه » .

قال هوايتهد : « إن اليهودى مكتئب بطبعه . ولا يمتزف لهم أحد بفضل العمل العظيم الذي أدوه والأثر القوي الذي كان لهم في تقدم أوربا إذا استثنينا

ثلاثة قرون، كان الإنجيل أكثر الكتب شيوعاً خلال ألف وخمسةة عام، ولا يزال حتى اليوم كذلك . . . » .

ومحدثنا فيما حققوه في الفنون الخلاقة . في الموسيقى مثلاً ، وهي الصورة الفنية السائدة في عصرنا ، أو كانت كذلك حتى العقد الثالث من القرن العشرين . إنهم يقدمون لنا في الموسيقى مؤلفين من الطراز الأول ، من مندلسن إلى أرست بلوخ ، ووفرة من المازفين ، فنانين لامعين في الأداء ، وبخاصة في عشرات السنوات القلائل الماضية ، من عازفين على الكمان ، إلى عازفين على البيانو ، إلى قواد الأوركسترا . كما قال هوايتهم إنهم أنتجوا بمضا من علماء الرياضة المتأزين .

وكنت أترقب دورى في الكلام لأسأله رأيه في تقدير المستقبل لأعمال لورنس لول :

« ماذا كان اسم سابقه ؟ » .

« إليوت » .

« لقد قام إليوت بعمل نافع جداً . إنه حطم التقليد الكلاسيكى في الكتابة الأمريكية . وما كان للكلية هنا أن يكون لها معناها في أوروبا لأنكم بعيدون جداً عن مصادرها . ليس لكم اتصال جغرافى مباشر بالمدينة الإغريقية الرومانية القديمة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد . ولكنكم لاتصلون كذلك بعالم العصور الوسطى الذى نقل هذه المدينة . ثم إن العلوم الانسانية -- كما تدرس في الجامعات وكما تشتق من اليونان والرومان -- تفصل حياة التأمل عن العالم العملى الذى ينشأ فى مجتمع به رقيق . إن الرقيق يقومون بالجانب الأكبر من العمل اليدوى . ولابد من تدريب اليد والدماغ معاً . وقد فتح إليوت مجال الدراسة كله للاختيار وأبقى عليه مفتوحاً فترة من الزمن . وأخيراً ، وفى الوقت المناسب جاء لول ،

فوفق بين الجوانب المختلفة ، وقد جاء بميد اللاحظة الصحيحة . وكان ما قام به عملاً جريئاً شاقاً » .

قلت : « يقال إن الرئيس المتقاعد إليوت قد قال إنه بعد ما كرس حياته لتحويل هارفارد من كلية إلى جامعة ، كرس لول حياته لتحويلها من جامعة إلى كلية مرة أخرى . وربما لم يقل بذلك إليوت ، وربما كانت المقابلة بحجة » .

فقال هوايتهد: لقد عني لول كذلك عناية كبرى بالمدارس العليا ، وقام بعمل آخر كانت الحاجة إليه ماسة ، وهو إسكان الشبان .

وقالت مسز هوايتهد: « قال لي مستر لول مرة في شيء من الفخر إنه حينما كان فتى في السادسة عشرة من عمره هنا في هارفارد ، يسير على شواطئ النهر التي لم تكن مهيأة في ذلك الحين ، حدث نفسه قائلاً : لو كان لي نفوذ في هذا المكان قمت بعملين : أنقل الكلية إلى شاطئ النهر ، وأهدم ساحل الذهب ^(١) — ثم أضاف قائلاً ، وقد قمت بالعملين .

قلت : كنا في القرن التاسع عشر نضع نظمنا الجامعية على غرار النظم الألمانية : أما في القرن العشرين فالظاهر أننا بدأنا ننقل عن الإنجليز . وإني لأعجب على أية صورة سوف تكون نظمنا . . . » .

« لست من أولئك الذين يقللون من شأن ما يعمل في جامعات الولايات الكبرى في الوسط والغرب الأقصى . فهناك محاولات أكثر للتوفيق بين الدراسة النظرية والحياة العملية . وأعتقد أن هتشنر في شيكاغو كان على خطأ شديد حينما هزأ منها لما فيها من دراسات في المهارات العملية . وربما كانت بعض الدراسات التي أسماها

(١) مساكن أبناء الأثرياء في شارع جبل أوبرن

«مهارات عملية منزلية» سخيفة — لست أدرى — بيد أن المبدأ ليس سخيفاً .
أما هنا في الشرق فالعلوم أفضل من الدراسات الإنسانية لوجود العمل في المعامل،
يعمل يؤدي ويختبر ، ويبلغ حد الدقة ، ولا يُترك معلقاً في الفضاء . . . »

« ان اهتمام لول المعروف بقسم التاريخ واللغة الإنجليزية هو — كما أفهمه —
محاولة للقيام بعمل شبيه بما تقوم به أكسفورد في دراسة اللغة الإنجليزية ولكن
السؤال لا يزال قائماً : كيف يمكن ربط هذه الدراسات بالحياة العملية ؟ » .

قال : «أرجو ألا تحسب أني أقول إن الاغريقية واللاتينية ليستا من الدراسات
المتأثرة لمن يدرك معناها . وإنما أردت أن أقول إنكم في أمريكا — وأنتم على
مبعدة من الاتصال المباشر بالمدنيات القديمة والوسيلة — إنكم في حاجة إلى مزيد
من الخيال عما يلزم لجميع الطلاب ، إذا استثنينا قلة منهم ، لكي تدركوا كنه
تلك العوالم القديمة من الكتب . إن زملاءكم في أكسفورد — سر ريتشارد
لفنجدستون على سبيل المثال — يقرأون اليونانية واللاتينية دائماً باحثين عن أثر
ذلك في حياتنا اليوم ، وكيف نستطيع أن ننتفع به في العالم الحديث ؟ » .

« كان سر دافيدروس ، الذي قدم إلينا في عيد الميلاد ، يتحدث عما لام به
أحد النقاد الجامعات الأمريكية — وأظنه أبراهام فلكسندر — وقال إنه كان يكتب
ويفكر كأن الجامعات إنما تنشأ للدارسين الباحثين وحدهم ، أو إذا لم يكن ذلك ،
فلكي تخرج الباحثين ؛ في حين أن عدد الطلاب — كما قال — الذين يلتحقون
بالجامعة ، من المؤهلين لأن يصبحوا من العلماء الباحثين أو من العلماء قلة صغرى ؛
وهل يقوم النظام الجامعي بأسره من أجل هذه القلة ؟ » .

وهنا أثرت مواطن الضعف عند لول .

فقال هو يتهد : « إن به عيوباً . وقد عرفته جيداً لمدة سنوات ، وأستطيع

أن أرى هذه العيوب . منها أنه لا يفهم الرجال المهيبين ، وبحسب التهيب مذلة ..

وأضافت إلى ذلك مسز هوابتهد قولها : « .. وهو يصيح في وجه التهيب .. حدث لوشيان يا أولتي عن تلك الخبرة التي مرت بك مع رجل مهذب متواضع أراد أن يمرض أمرا على لول ... »

ولما خشيت ألا يتحدث في ذلك زوجها ، أخذت تقص القصة : قالت إن هذا الرجل جاء الى هوابتهد يقول له : « لا أستطيع أن أعرض ذلك على لول . إنه يصيح في وجهي . فهل نستطيع أنت » فأجابه هوابتهد قائلا : « كلا ، ولكنني سأصحبك » . وقد فعل . وبمَثَّ تهيب صاحبنا الضيق في نفس لول فصاح في وجهه ثلاث مرات ، وفي كل مرة يرفع هوابتهد يده قائلا : « تريث ! » وأخيراً استطاع الزائر أن يمرض قضيته ، ولما كان هوابتهد مستشاره ، فإن لول لم يغضب .

وقالت مسز هوابتهد : « إنه أعجب الديمقراطية . إنه لا يستطيع أن يمارس الديمقراطية بشخصه ، ولكنه يمتد في اعتقادها جازما . »

وأضاف زوجها الى ذلك قوله : « وأحكامه كأحكام رجال الدولة . »

وأدى ذلك الى جدل حول بوسطن باعتبارها جزيرة للأمريكيين الشماليين في بحر ارلندي آخذة في الاضمحلال .

قال هوابتهد ، وهيناء تتألقان بالسرور الباطني « إن هؤلاء الأمريكيين الشماليين لا يختلطون . اليوم بمد الظهر فقط ، كنت مع جماعة منهم ، تضم لورنس لول ، ولورنس هندرسن ، وجون لفينجستون لويس — وهو من إنجلترا الجديدة ، على الأقل تشبها بأهلها — ولن تستطيع البتة أن تنخيل من كلمة واحدة.

مما ينطقون أنهم يعيشون وسط مجتمع من مليون ونصف المليون من البشر ،
سبعون في المائة منهم على الأقل من الأرلنديين الكاثوليك » .

فقلت له إن برننج ، رئيس قضاة ألمانيا السابق ، ذكر خلال حديث له في بيت
هانز زنسر أن التربية يجب أن تخصص للطبقة الممتازة .

قال هوايتهد . « الى خمسين عاما مضت كانت التربية في إنجلترا محصورة في
طبقة عليا صغيرة ، ولم يكن أحد يفكر أن من الخطأ أن تبقى الجماهير على أميتها .
أما اليوم فتحن نسلم بضرورة تعلم الكتابة والقراءة . وكان أبي يدبر مدرسة
القرية حينما بدأ الالتزام في التعليم . وكان يلاقى أشد المعارضة . فإن القرويين لم
يتعلموا ولم يريدوا لأبنائهم أن يتعلموا » .

فعلقت بقولي : « حدث في هذا البلد زحف ضخم مفاجيء نحو التعليم بعد
الحرب العالمية ، واستمر هذا الزحف منذ ذلك الحين . ولما حل عام ١٩٢٦ أصبح
الزحف شاملا ، واستمر في سنوات الأزمة الاقتصادية . ومع انتشار التعليم
زاد اعتبار المعلم » .

فقال هوايتهد : « في أوائل القرن التاسع عشر بأمریکا — كما فهمت — كان
المعلم والدارس والأستاذ في مكانة مرموقة . كانوا موحدين ، تحيط بهم هالة من
رهبة الدين . ولما تقدم القرن زالت هذه الهالة . فإن التوحيد كان ديننا لا يدعو الى
إله واحد وإنما يدعو الى (إله واحد على الأكثر) بل الى (إله واحد) اذا كان ذلك... »

قلت : زد على ذلك أن القارة كانت مفتوحة ، فتكون إحساس في نهاية
القرن بأن الرجل إذا كان رجلا كما ينبغي له أن يكون ، فلا بد له من جمع الثروة .

وهذا ما دعا وليام جيمس إلى أن يسمى النجاح (السكبة المؤهلة) غير أن هذه العبادة لاتسود الآن كما كانت في ذلك الحين .

وقالت مسز هوابتهد : « لا يزال في كلياتكم « هاربون » من الحياة العملية » .

« لست أنكر ذلك . ولكن رجالا من ذوى الكفايات الممتازة لا يحترفون اليوم مهنة التعليم فحسب ، وإنما يلقون احتراما كذلك من أجل هذا » .

وحفزتنى فقرة في مقال هوابتهد « نداء إلى العقل » إلى أن أعود إلى السؤال مما إذا كانت إحدى الولايات قد صرحت بالتعبير السكافي عن الدوافع الخلاقية عند الإنسان . إننا نرى رؤساء الولايات بين الحين والحين - رغم إنسانيتهم - لا يعملون وفقا لدافع الخلق والابتكار عند المجتمع ، وإنما وفقا لفرائز الملك فيه .

« كان هربرت هوفر باعتباره من طائفة الأصحاب ، يطعم الأطفال البلجيكيين بالبلين . وقد أمر هربرت هوفر باعتباره رئيسا للولايات المتحدة بإلقاء القنابل السيلة للدموع على المحاربين القدماء من جيش المتقاعين لطردهم من واشنطن . فما هذا التناقض البعيد المدى ؟ » .

فقال هوابتهد : « إن تقديم الابن للأطفال البلجيكيين لا يعنى قطعا توافر المواطف الإنسانية لديه ، إنما كان ذلك عملا تنظيميا قضت به الماطفة السائدة في زمانه ، عملا لا مفر من أدائه ، وقد كاف بالقيام به . نعم انه من الأصحاب ، ولكنه ضيق الخيال . كان عمله في وظيفته الأولى كمهندس أن يستخرج المعادن من المناجم في الداخل حتى من البحر . وأمثال هؤلاء الرجال لا يتكرونها في حدود القيم الإنسانية أو رفاهية البشر . إنما تأتي هذه القيم إن أتت اطلاقا - عرضا في العمل الرئيسي ، وهو نقل المعدن من مكان وطرحه في مكان آخر . ولا تتجه أفكارهم إلا إلى ذلك . . . فلما اقتضى الأمر طرد جيش المتقاعين من واشنطن ،

نشأ موقف لا بد من علاجه بحكمة بالغة ، وقد أثبت قوة قبضته العملية ... »

« إذن دفعني أذكر لك مثالا آخر. وقع لنا حادث مع المكسيك في عام ١٩١٤ ، ذلك أن أمرا مثيرا قد وقع في ميناء تامبيكو ، وكان أول الأمر عراكا ، ثم تحول إلى نزاع حول إهانة تتطلب اعتذار المكسيكيين ونحية عامنا . وأخذت الأمور تزداد سوءا . فصدرت الأوامر لأسطول شمال الأطلسنطيق بالتحرك صوب ساحل المكسيك ، واشتملت نار الشعور العام (أو هكذا على الأقل كان صوت الصحافة) وأمر الرئيس ولسن الأسطول بمهاجمة فيرا كروز والاستيلاء عليها . وقد فعل ، ومات في سبيل ذلك سبعة عشر فتي ، ستة عشر من القوة البحرية وأحد البحارة . (ومات بعد ذلك ببضعة أيام رجلان متأثرين بجراحهما) . وقبل ذلك بست سنوات فقط لم يكن مستر ولسن رئيسا للولايات المتحدة ، إنما كان رئيسا لأكاديمية في برنستون ، رجلا إنسانيا مهذبا كأى زميل من زملائك هنا ، يحزن إذا مات سبعة عشر طالبا مستجدا في فصله على أثر وباء . وجى ، بالجثث إلى فناء الأسطول في بروكان تحملها طرادة مسلحة ، وسارت النعوش مغطاة بالأعلام في أرض الاستعراض في مناسبات مختلفة . وجاء الرئيس من واشنطن ليلقى كلمة التأيين . فقال إنه يغبط هؤلاء المشبان . وكان ولسن الموظف الذى أصدر إليهم الأمر بالهجوم . وكان ولسن الرجل هو الذى ينظر إلى النعوش السبعة عشر . وأذكر أن ذلك كان في شهر مايو من عام ١٩١٤ ، وهويتنبأ بالحرب المالية أكثر من أى إنسان آخر . فلم يكن عالمنا قد قسا قلبه بعد بمرور سنوات عديدة من القتل الجماعى ، وكانت أمثال هذه الحوادث تقابل بالشعور العادى . فتحطم قلب المستر ولسن . إنما أردت أن أقول إنه كرئيس كان لزاما عليه أن يعمل ممثلا لصالح الملكية الجماعية بطريقة لا يرضى عنها كإنسان . إنما كان جانب من الرجل فقط هو الذى يعمل كرئيس ، لأن جانبها من الرجل فقط هو الذى تنظمه الدولة . »

فأجاب هو ابتهد بأن الرجال داخل الدولة يتابعون مشروعات عديدة مشتركة

تعبّر عن أوجه أخرى من طبائعهم : تربية ، وخيرية ، وخلافة ، وفنية ، واجتماعية . وربما كان من وظيفة الدولة حتى الآن أن تهيب ظروفًا من الهدوء الكافي الذي يمكن أن يمارس فيه المرء هذه الضروب المتنوعة من ألوان النشاط . وكثير من هذه الألوان — كالعلم والتربية — أصبحت بالفعل دولية ، تتجاوز حدود الولاية .

وكان ما قاله في مقاله « نداء إلى العقل » هو :

(إن كل كائن بشري بناء أشد تمقيدا من أى نظام اجتماعي ينتمى إليه . إن أية حياة جماعية معينة لا تمس إلا جانبًا من طبيعة كل فرد متمدد . وإذا خضع المرء خضوعًا كليًا للحياة العامة ضمرت شخصيته ... إن الجماعات تنقصها دقائق الطبيعة البشرية ... والحرب قد تحمي ولكنها لا تخلق) .

وخلال مناقشتنا لهذا قال فيما بعد :

« ليس واجب الحكومة إرضاء كل إنسان وإنما واجبها على الأقل إرضاء شخص ما . إذا أَرْضَتْ طبقة واحدة لها نفوذ معقول ، أو طبقتين ، حاولت أن تبقيها في الحكم . وكلما زاد عدد الطبقات التي ترضيها زادت صلابتها ... إن المدنية لا تنهار إذا انحرفت ناحية واحدة كبرى أو ناحيتان من نواحي النشاط . ولكن الاقتصاديات في عصرنا قد تضخمت حتى باتت مشروعات جماعية عظمى أنت بلون جديد من الظلم يحتاج إلى المماثلة ، وأقلت من أيدينا عيار القومية ، ونمزق إيماننا بالدين ... ويبدو أن مدينتنا بين هذا وذاك قد باتت في مأزق » .

قلت : « إن حكم الإمبراطور دوميشيان قد تأثر أثرًا سيئًا من تاسقس ، وهو من غير شك يستحق ذلك . ولكن بالرغم من أنه من الواضح أن وحشية الإمبراطور قد شلت الفكر الروماني مدى جيل على وجه التقريب ، بحيث لم يطمئن أحد من النبلاء على حياته ، إلا أن عجلة الحياة العامة واصلت دورانها . وربما لم يكن ذلك من عمله ، ولكنه حدث على كل حال » .

فقال هوابتهد : « كان ناستس يحقته مقتا شديدا ، وكنت دائما أعتقد أنه من المحافظين ، بكره - نيابة عن طبقته - في دوميشيان ترقيته إلى مناصب السلطة الإدارية شردمة من الأشخاص الغمورين ، من الإغريق المتحررين ومن إليهم ... » .

« إذا كان اليهود لم يضحكوا إلا قليلا حتى المصور الحديثة نسبيا ، فما رأيك في الرومان ؟ إننا لم نسمع ضحكاتهم كذلك ، على الأقل حتى القرن الثاني قبل الميلاد . كانوا في القرون الأولى في قتال مستمر ، آنا مع السكت ، وآنا مع أهل قرطاجنة ، ولما بدأوا يضحكون ، أى لما ظهر الضحك في أدبهم ، ألم يكن من قبيل التهكم ، أو الاستمتاع بمصائب الآخرين ؟ » .

وانطلق هوابتهد يقول : « كان الرومان قوما عجيبين ... » وفكر قليلا ، ثم صم على ترك الموضوع .

قلت : « إن موهبة الإغريق في الضحك ، بما فيه ضحكهم على أنفسهم . أدعى إلى العجب ، إذا عرفنا أن العالم القديم لم يعرف إلا قليلا من الضحك فيما يبدو » .

قالت مسز هوابتهد : « ولكن أمريكا لا تهيب لكم إلا قليلا من الفرص . لكي تدرسوا الإغريق ، لأنكم أنتم أنفسكم كالإغريق - تخلقون عالما جديدا » .

قال هوابتهد : « حقا ما قلت . وإن آخر ما كان الإغريق يفكرون في عمله هو أن يقرأوا عما يفكر فيه سوام ، أو يفعل ، أو يقول » .

ولكى نضحك قليلا نحن أنفسنا ، بدأنا نستعيد ذكرياتنا الباكورة التي نميها . وكان من ذكرياتها « أتى عضضت أذن أبي فلكنى لسكة شديدة من أجل ذلك » ومن ذكرياته أنه وهو طفل في الثالثة من عمره يتناول وجبة في مطعم . تسويمرى ، أحس بالعطش الشديد فأخذ يشرب كوبا من الماء تلو الآخر ، حتى

رآه رجل كان يجلس تجاهه ، فقال له : « أيها الطفل الصغير . لا ينبغي لك أن تشرب هذا القدر الكبير من الماء » - « وعلى أثر ذلك تناولت معلقة ، ورميته بها ، وأصيبته في فيه ! وتصرف أبي تصرفا عاقلا فلم يعاقبني . أولا لأنه سر مما رأى ، وثانيا لأنه ظن - فيما اعتقد - أن الرجل لاقى ما يستحق » . وقد ذكر هوابتهد هذه الحادثة مثالا « للذاكرة الكاذبة » . « فقد أعيد ذكرها على مسمعى مرارا كلما كبرت ، فلما بلغت التاسعة استطعت أن أصور لنفسى المنظر كله كاملا وظننت أنني أتذكره » .

قلت لهما لا بد أنهما كانا طفلين عنيفين .

(١٥)

١٧ من بولية ١٩٣٩ .

كان آل هوابتهد يقيمون مع مستر ومسر إدوارد بكان في مزارع ددلى بيدفورد هربا من قيط الصيف في كبردج . وبكان هذا من أمرة المؤرخ موتلى ، درس القانون ، ثم اشتغل ضابطا بحريا أثناء الحرب ، واتجه نحو كتابة التاريخ ، وأخرج كتابا تحت عنوان « عقلية العالم المسيحى اللاتينى » نشر منذ عامين .

وكانت مزارع ددلى ملكا للأمرة من قبل الثورة . وبالمزرعة بيت ريفى من الطوب ذو سقف مستدير ، به المداخل الطويلة الأربع المألوفة ، اثنتان منهما فى كل جدار متطرف ، ويرجع تاريخ البيت إلى عام ١٧٩٥ ، وبقيت للبناء بساطته رغم إضافة أجنحة جديدة إليه ومنازل للضيوف . والطريق إليه يتفرع من الطريق العام ويتخلل غابات ومراع تكاد لا تنتهى ، تنوسطها أشجار الصنوبر هنا ، وبركة هناك ، وما يسميه أهل كينكورد « حديقة مستنقعة » ، وكل ذلك يشبه حديقة طبيعية مما تراه فى إنجلترا الجديدة . وعلى طول الطريق إلى كينكورد ضياع شبيهة بهذه ، تمتد بحذاء الشاطئ متلاصقة . ويعرف هؤلاء الجيران « بمائلة النهر » .

وكان هناك تيودور سينسر . وهذا العالم الفارع الطول ، الأشقر اللون ، لطيف المعشر ، ظهر من عهد قريب في قصة مغامرة تمثل العصر الذي نعيش فيه ، حينما يحدث أى أمر لأى إنسان . وقد أحيط علما على حين غرة مع كثيرين غيره من أعضاء هيئة التدريس بهارفارد عن طريق الرئيس كونانت بأن وظيفته كأستاذ مساعد للغة الإنجليزية التي كان يشغلها بعقد لمدة ثلاث سنوات ، لن تتجدد . وثار الشهور عامة . وقال رأس من الرؤوس العملية القديرة في البلاد « إننى قد لاأعرف كثيرا في الإدارة ، ولكنى أشك - إذا قضيتم على عيش عشرة رجال ذات صباح - أشك أنكم تستطيعون بعد هذا أن يسير معهدكم كما كان من قبل . وهو شك أيدته الحوادث في السنوات الثلاث المتتالية . وكانت النتيجة مذهلة ، فقد عين الأستاذ سينسر أستاذا زائرا في اللغة الإنجليزية بجامعة كبرج لعام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . ولما اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية كان على هذه الجامعة أن أعلاُ وظيفة أستاذ زائر بهارفارد ، فأعادت تعيين سينسر ليشغلها . فعاد إلى أحضان جامعتة الأولى . وكان ذلك صورة من صور الحياة . غير أن هذه المهزلة التي عرفها أصدقاء سينسر كإحدى سخريات الحياة الصغرى - لم يتم منها غير الفصل الأول . في ذلك الحين . وكانت روحه الفكاهية كفتا لها ، وإن كان في بعض الأحيان يجدها كتيبة إلى حد ما .

وكفا اثني عشر على مائدة العشاء . وحجرة الطعام عبارة عن مطبخ من مطابخ القرن الثامن عشر ، مزود بموقد كفى وأفران من الطوب . وتفتح الحجرة من جانبها الخارجى على أرض خضراء ، هي الحديقة ، وبها بركة مستديرة تحت أشجار الدردار ، وتمصل الحديقة بمراع فسيحة هادئة تنحدر صوب تيار النهر الساكن ، ويقول هوايتهد إنه لا يعمل التأمل فيها .

ونشط الحديث ، ولكن لما كان المتحدثون كثيرين ، والكلام ينتقل في سرعة

خاطفة ، لا يمكن في بدايته الا أن نلخصه . قيل إنه في أى اجتماع له صفة بارزة معترف بها في هذه الجهة يرجح أن تجد أكثر الأفراد مدينين بمكانتهم لا لكونهم خلاقين من تلقاء أنفسهم ولكن كمديرين لمأهده ثقافية — في كلية ، أو جامعة ، أو دار من دور النشر ، أو متحف ، أو معهد للموسيقى ، أو حكومة الولاية ، أو مكتبة ، أو مستشفى ، أو جماعة دينية — وتساءل الحاضرون عما إذا كانت المدنية في أمريكا قد بلغت حدا يمكنها من تطبيق انقدرة الإدارية والاستفادة منها ، ولكنهما ، لاتزال بعيدة عن أن تكون « قوة ابتكارية » حقيقية — على حد تعبير هوابتهد .

ومن هنا ، ولما كان آل البيت موسيقيين ، وكان على مائدة الطعام موسيقيون ، انتقل الحديث إلى حقيقة فريدة لم يتنبه إليها إلا قليلون ، وهى أن كثيرا ، إن لم يكن أكثر المؤلفين الموسيقيين المتمازين في أوروبا ، ومنذ حدائة باخ إلى وفاة براهمز ، وهى فترة تمتد لاثني عام ، كانوا رجالا يعملون في أكثر الأحيان خارج المأهده ، وليس ذلك فحسب ، ولكنهم — كذلك — لا يدينون الا بالقليل للتعليم الرسمى المهدى . وهذا ادعى للمعجب الشديد؛ لأن الموسيقى هى الصورة الفنية الوحيدة التى تتفوق فيها عالنامذ عام ١٧٠٠ على كل فترة أخرى . وماذا كانت النتيجة ؟ إن الينبوع — فيما يبدو — قد ينحدر لى يتدفق خلال الحوض المرمرى الذى أعد له ، وإن ربح الروح الخلاقة تهب حيث شاءت .

وهنا أشار أحد الحاضرين إلى أن عام ١٨٥٩ كان قمة القرن التاسع عشر . وبدأ حديث المائدة يتجه نحو تأييد هذا الرأى؛ وذكر الحاضرون عددا لا بأس به من جلائل الأعمال : أصل الأنواع لداروين ، ومقال في الاقتصاد السياسى لسكرال ماركس ، وقصة المدينيتين لدكنز ، وآدم بيد لجورج إليوت ، ومحنة رتشارد فوغل لمريدث ، وآل فرجينيا لثاكرى ، وأناشيد الملك لثنسن ، ورباعيات فتزجيرالد ، ورستان أوندا اسولدا لثاجر . . .

(ثم كانت فترة توقف حتى شرع القرن العشرون يحاول مجاراة هذا للنجاح) .

ثم تبع ذلك نقاش حول موضوع يبدو أنه يهز أنظار القوم في هذا البلد - وهو تفوق الأشخاص غير المتعلمين . وقد لفتت هذه الفكرة نظر بكمان بشدة خلال خبرته أثناء العمل بالأسطول ، ولكنه قال ان نقط الضعف الثلاث فيهم هي عادة عدم القدرة على بعد النظر ، واتخاذ طريق معين وملازمته عدة سنوات ، والميل إلى خلط الأمور العامة بالأمور الشخصية .

فقال هوايتهد : « إن جمهور الناس هو الذي يحدد الاتجاه العام للمجتمع على الأرجح . ولكن عظماء الرجال في المجتمع هم الذين يكسبون هذا الاتجاه هدفه الصحيح . فإذا استمرنا السفينة للتشبيبه ، قلت إن الجماهير هي الركب والبحارة والنايفة هو القائد . . . إن عدد المواليد في أى سنة في بلد باتساع الولايات المتحدة لابد أن يسد الحاجة إلى المواهب الكامنة الضرورية لأى لون من ألوان التقدم الثقافى » .

فسألت مسز بكمان متلطفة : « هل لابد من ذلك في كل عام على حدة ؟ » فقال هوايتهد مبتسما : « أقول خمس سنوات . وذلك يمزج وجهة نظرى ... ولكن من الواضح أن الظروف قد تحول دون ازدهار ألوان معينة من المواهب مثل موهبة المؤلف الموسيقى في الولايات الغربية خلال القرن الماضى . ومن الواضح أن الفرصة لا تسنح لظهور قائد عسكري أيام السلم » .

فقال سينسر : « كان جرانت فاشلا ، مدمنا على الشراب ، يعيش في كوخ خشبي خارج سنت لويس حتى عام ١٨٥٩ ، وهي تلك السنة الحرجة في القرن التاسع عشر . وبعد أربع سنوات أصبح بطل فوكسبرج ، وبعد تسع سنوات رئيسا للولايات المتحدة » .

تقال بكمكان مخاطبا هوابتهد : « صادقه في ذلك الحظ ، بل وأكثر من الحظ . وكثيرا ما حدثتنا يا ألفرد عن عنصر الحظ في حياة الناس ... كان « لى » يحمل درجات الشرف في وست بوينت ، ودرس نفس الكتب المقررة التي درسها قواد الشمال ، وعرف أى التحركات كان يحتمل أن يقوموا بها ، وكان يهزم . أما جرات فلم يتوقع ظهوره أحد » .

واشغلت جلسة مائدة الطعام إلى حجرة الجلوس . وقد أعدت لتؤدى ثلاثة أغراض ، لأنها كذلك حجرة الموسيقى والمكتبة . وهى حجرة فسيحة مرتفعة ، سقفها من المصيص يستند إلى دعائم مفتوحة . والفارش في الحجرة قليلة حتى لا تطفى روعة الألوان . وبالحجرة بيانو ضخمة . ورفوف الكتب مكتظة بها ، يبلغ عددها نحو من أربعة آلاف مجلد . وفي الطرف الداخلى موقد ضخمة ، حوله مجموعة من المقاعد كالمعتاد ، وعدد من الكراسى ، والموائد الصغيرة - على الجانبين المتقابلين من المدفأة . والجدران الشرقية والجنوبية تطل على الحقول من نوافذ ضخمة على الطراز الفرنسى .

وانتقل الحديث إلى السبب في أن إنجلترا في القرن التاسع عشر كانت في عهد يلائم كتاب الروايات النثرية خاصة ، والأثر القوى الذى كان لهؤلاء الكتّاب في نقل القانون العرفى إلى الشعب .

وقال سبنسر : « كانت (مدلارش) أولى الروايات التي قرأتها في شبابه ، والتي جعلتني أحس أنني أعامل معاملة الرجل ، وأتلعجت صدرى لأنى شعرت أن الحديث يوجه إلى دون خداع عاطفى » .

وسألت مسز هوابتهد قائلة : « أى أجزاء الرواية تعنى ؟ » .

« موضوع لدجيت وقنسى ، ذلك الزواج القاتل » .

قالت : « عرفناهما في كبردج » .

« عرفتموها ؟ » (وأثار هذا الموضوع عجبى) « لم أسمع قط أنها استمرت (١) شخصياتها من الحياة ! » .

« كيف لم تعرف ذلك ، وقد عرفه كل إنسان » ثم عدت مسز هوايتهد الأسماء ..

وأثار سينسر السؤال عما إذا كانت شهرة جورج مرديث فى وقت من الأوقات قد كتب لها الدوام .

فقال هوايتهد : « لا أظن ذلك » .

« ما الذى سيقضى عليه ؟ » .

« كان يعيش فى وسط أدبى مرتفع ، يعتمد على الحوادث الجارية . ويخلق شخصياته من تأملاته . وحينما يفشل الكاتب المجيد ، فالراجح أن ذلك مرده إلى زيادة انشغاله بالأفكار الأدبية الباردة ، وابتعاده عن الموضوعات الإنسانية العامة الشائعة . خذ شكسبير مثلاً . إنك قلما تجد عنده فكرة - أو موقفاً - من غير المؤلف . غير أن اللغة والخيال تجعل هذه الفكرة أو ذلك الموقف شيئاً رائعاً . يجب أن تكون هناك موضوعات عامة إنسانية ما يهتم به كل إنسان ، وأن تعالج معالجة حية » .

قالت مسز بكان : « إننا نقرأ جهرًا فى أسرتنا ، وقد تبين لى أن الشباب عندنا لا يهتمون بمرديث ، ولكنهم يهتمون بهنرى جيمس ، إنهم لا يجدون عباراته الملقوفة عسيرة على أفهامهم ، وهم يستطيعون متابعة دخائل فكره . إنه كان ولا شك أشد غوصًا فى حدود الرقعة الضيقة التى كان يبتش فيها . إنه يكشف عن مميزات الفرد » .

(١) يشير هنا إلى الكاتبة الإنجليزية جورج اليوت .

وسأل سائل : « متى بدأ في التاريخ لأول مرة تقدير الشخص لذاته ؟ » .
قال هوايتهد : « كنت أحسب أن ذلك بدأ بأصدقائنا القدامى : الرسل .
بيد أن ذلك لا يشق ، فقد كانوا خاضعين للمقائد الدينية » .

« هل نجيب عن هذا السؤال ، إذا قلنا إن تقدير الفرد قد بدأ بالإغريق ؛
كما يدل على ذلك قول بركليز في رثائه : « إننا لا نقسو باللفظ ولا نحقد بالنظر
على أوائك الذين يستمتعون بحياتهم على طريقةهم الخاصة » . متى بدأ ظهور
فكرة الحرية ؟ » .

وكان ذلك مبعضاً لنقاش عام ، ولكن دون أن نجتمع على رأى ، وربما كان
ذلك راجعاً إلى كثرة المشتركين في الجدل . وكان مما قاله هوايتهد إن من بين
مفكرى القرن الثامن عشر من تنبأ في جلاء بأن ظم الأغلبية قد يكون أشد عسفاً
من ظم الحاكم المستبد .

وواصل حديثه قائلاً : « إن المؤرخين لم يقدروا قط الرجل الذى يتفادى
الكارثة حتى قدره . ويحضرنى الآن فى ذهنى أغسطس قيصر . إن عجبى لم ينقطع
من أن روما قد استطاعت أن تخرج رجلين عبقرين كيوليس وأغسطس ، والبلاد
فى أشد الحاجة إليهما . لا بد أن الشعب كان يريد النظام والمدنية من صميم قلبه ،
لأن كتيائب الجيش كان أكرها على الحدود . ولم تكن الثورات داخل البلاد
فى حاجة إلى جند كثير لقمعها » .

قلت : « لقد عانى الرومان من أمثال هذه الثورات خلال الحرب الأهلية التى
دامت مائة عام بأكثر مما فيه الكفاية . وكان الناس فى حالة من جالات اليأس
قد كابدوا من تلك المنازعات الثنائية المريعة ، بين ماريوس وسلا فى أول الأمر ،
ثم بين قيصر وبمبي ، وأخيراً بين أنطونى وأغسطس ، ولم يكن البتة من المؤكد
أن هذه المنازعات ستنتهى فى يوم من الأيام » .

ووجه بكنان الحديث إلى هوايتهد قائلا : « إنهم كانوا أكفاء لهذا الجهد ،
وانتهت المنازعات في آخر الأمر ، وسمعتك تقول إن ذلك يرجع إلى أن الرومان
لم يسأموا بعد من حضارتهم » .

وأجاب هوايتهد بقوله : « وما زلت عند رأي . إن جلوسنا هنا ، في الأزياء
التي ترتديها ، وبوحنا بيمض أفكارنا ، يرجع إلى حد ما — فيما أظن — إلى
أغسطس . لقد وجد السبيل إلى الاحتفاظ بكيان الإمبراطورية باتباع نظام
الإمارات . كان بكل إلى الرجال من جميع الأحزاب أعمالا ذات تبعات ، وكانوا
يحملون هذه التبعات . وكانت بلاد الغال هادئة . أما ألمانيا (وهنا ارتسمت على
شفته ابتسامة) فكانت بالأمس — كما هي اليوم — مشكلة المشكلات » .

قلت : « إنهم لم يعرفوا السلام قط . ولا عجب في ذلك . فإن الغابة الألمانية
كانت تستغرق مسير تسعة أيام من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر — في ظلام ،
ورطوبة ، حيث لا توجد طرق أو مدن ، ورجال القبائل دائما على أهبة للهجوم .
وكانت بلاد الغال تسبق التيونون ثقافيا بمدة قرون ... »

وسأل هوايتهد : « وهل كان للغال أدب في ذلك الحين ؟ » .

« لست أذكر لهم أدبا قط . اللهم إلا إذا نسبت إلى الغال الفضل في « مذكرات »
قيصر . والفارق هو أن قيصر كان يجد في الغال طرقا يقطعها مسافرا ، ومحصولات
يميش عليها ، ومدائن وممتلكات يرغم السكان على الاحتفاظ بها والدفاع من
أجلها . أما في ألمانيا فقد كان على كتائب الجيش أن تشق طرقاتها ، وتحمل
معهما مؤونتها » .

فقال هوايتهد : « ثم حلت كذلك تلك الكارثة الروعة بألمانيا . فقد هلك
تشاروس ، وهلكت معه ثلاث كتائب هي خير ما في الجيش الروماني » .

وردد بكمكان تلك الصبيحة اليائسة التي صرخ بها أغسطس ، وهي : « رد إلى كتابي يا توتيليوس فاروس » ثم أضاف إلى ذلك وهو يتسم قوله : « إننا مازلنا نمانى من فقدان تلك السكتائب الرومانية في ألمانيا على أيدي فاروس » .
وأجاب هوابتهد حاداً بقوله : « يحتمل كثيراً أن يكون الأمر كذلك » .

(١٦)

١٨ من يولييه ١٩٣٩

في الساعة العاشرة من هذا الصباح بمود آل هوابتهد إلى مسكنهم بفندق إمباسادور في كمبردج يقضون به ليلة حتى يأتيهم نورث لينقلهم إلى « جزيرة باتلشب » في بحيرة سباجو بالمين .

وقبل الرحيل ، أراد هوابتهد - وقد لبس سترته وقبمته - أن يخرج إلى الحقل النحدر فوق النهر ليلقى نظرة أخرى على المنظر الذي أحبه حباً جماً . ورافقه أنا وبكمكان . وإذا نحن واقفون بالحقل نسرح الطرف في الطبيعة ، ونرسله إلى تيار كينسكورد الساكن النائم ، عاد الحديث إلى موضوع ما يحققه الشاعر لنفسه من قائدة .

قال هوابتهد : « قائدته في تدوين فكرته . كان عنده موضوع ليس له صيغة ، يصوغه في أبيات من الشعر ، ثم يصبح فرحاً ويقول « هاأنذا قد وجدتُها ! » .
« وهل للثناء قيمة كبرى عند الشاعر ؟ » .

قال : « لا بد لهم منه فيما اعتقد ، وإلا نكسف يرفون أنهم أصحاب نفوذ ؟ ومن السخف أن نزع أن الرجل يحسن المحاضرة إذا كان نصف مستمعيه نياماً . إن الاستجابة ضرورة لا بد منها » .

« إنها قد تكون مخدراً كذلك » .

فاستدرك هوايتهد قائلاً : « إنها ضرورة للفنانين الثانويين ، والممثلين والمخرجين . أما الشاعر فيجد ثناءه في الأداء ذاته . وهو يعرف متى يكون مجيداً ... ويعرف متى يبلغ حد الإعجاز ! حتى في الحديث العادي . ولست أقصد به الآراء التي صنفناها في أذهاننا أولاً صياغة دقيقة . ثم أكسبناها لفظاً . وإنما أقصد الآراء اللاشعورية التي تنبعث تلقائياً من اللاشعور في ألفاظ دون إقحام أية عملية من العمليات ذات الأثر التي نعرفها . وذلك أشد ما يدعو إلى الدهشة . ولم يفسره لنا أحد قط . ولا يعرف أحد العلاقة بين هذه التأملات اللاشعورية وترجمتها الباغثة إلى كلام » .

ثم أبحه الحديث نحو جيته .

فقال هوايتهد : « طرأ لي أخيراً أن تفكير جيته خاص جداً ، وأن العالم يكون أكثر تقدماً بالمواطن الثانوية السليمة الصحيحة المعقولة التي عبر عنها شلر . إن هذه المواطن لا ترتفع قط فوق مستوى معين ، ولكنها آمنة مفيدة » .

وعلقت بقولي : « قال لي صديقنا لفنجستون ذات مرة إنه لم يحفل بجيته لأنه » لم يكن رجلاً مهبذباً » . وبعد ثلاث سنوات ذكرته بقوله هذا ، فأنفجر ضاحكاً وصاح : « هل قلت ذلك ؟ إنني لأعجب ما ذا كنت أعني » .

فقال هوايتهد : « كان جيته يوغل في المواطن الخيالية بدرجة غير مألوفة . وإنني لأشك خاصة إن كان العالم يتقدم بهذه المواطن الخيالية » .

وكانت رحلتنا إلى كبردج ذات صباح مشرق في يوم من أيام الصيف . وتحدث هوايتهد وزوجه عن أسفهما لاضطرارهما إلى التخلي عن أمسيات أيام الآحاد التي كانا يخصصانها للطلبة .

وقالت مسز هوابتهد في هذا الصدد : « حينما قدمنا إلى هارقارد لأول مرة ، قال زملاء أولتى في القسم : لا تمكن الطالبة من التدخل في عملك ! إن عشر دقائق أو خمس عشرة تسكني لأى نقاش معهم ... » .

وزاد على ذلك هوابتهد وهو يبتسم مبتهجا : « تذكرى أن أكثرهم كان من الخريجين ، مشكلاتهم التى يعرضونها للنقاش نفسية معقدة » .

« وكيف كنت تغلب عليها ؟ » .

فأجابت بقولها : « كان أولتى يرد عابها بصوته المذب ، الذى يصدر عنه دائما حينما يصمم بصفة خاصة أن يعالج الموضوع بطريقة ، وكان يقول : (إن عادائى قد تجمدت . وأخشى أن يكون الكبر قد بالغ حدا لا يمكننى من تغيير أسلوبى . وعليكم أن تصبروا معى) » .

« سمعت عن اجتماعات أمسيات الأحاد عندكم قبل أن أتعرف إليكم بسنوات عدة وكنت أتوق دائما إلى حضورها » .

قالت : « ولماذا لم تفعل ؟ لقد قيل لنا إن أحدا لن يرغب فى الحضور . ولم يحضر أحد بالفعل فى أول أمسية - إذا استثنينا رجلا صينيا بقى معنا إلى ما بعد منتصف الليل . وكدنا نقش فشا تاما ! ثم بدأوا بقدون هلينا ستة ، ستة ، كى يحتمى كل منهم بالآخر فيما أظن . وأخيرا ذات مساء استموا إلى وأنا أجادل الحكيم - فى نقطة كنت أعرف أن أولتى قد أخطأ فيها . وتبادنا أطراف الجدل وأخيرا أقر أولتى بخطئه . ولسبب لا ندرية انتشر نبا هذا الجدل . فبدأ الضيوف يتوافدون . ولم يزد عدد الزائرين فى أية ليلة عن بضعة وتسعين . ثم نعى الخبر إلى اليهود فجاءوا أسرابا . وتباعد من عدام . واستمرت الحال على ذلك عامين ، تقضى مع اليهود وقتا طيبا دون من هم على غير دينهم . ثم عاد هؤلاء إلى زيارتنا وعادت الأمور كما كانت . وكان فلكس عوننا كبيرا فى هذه المجتمعات .

إنه لم يتكلم ، ولكنه حث الآخرين جميعا على الكلام . ولم يستطع أحدنا أن يصدقوا أنني لا أرضى بإلغاء أمسيات الأحد هذه في سبيل حفلات المشاء التي كانوا يقيمونها للمشهورين من الأجانب ، بيد أنا لم تتخل مرة واحدة عن طلابنا » .

وبلغنا فندق أمباسادور .

فقالا : « ألا ترغبون في الدخول معنا ؟ »

وكانت أرجاء المسكن منقطعة بالورق لحلول فصل الصيف . وقد حدث ذلك فعلا ، لأن جون وماري اللذين عاشراهما - ماري لمدة تسعة عشر عاما ، وهو لما يقرب من عشر سنوات ، قد قاما - أثناء غيابهما - بتنظيف جميع الكتب وإعادتها إلى رفوفها منقطعة بأوراق الصحف . وكل شيء بالمسكن كان يفوح بالجدة والنظافة . وطافا بأرجاء المسكن يستنشقان جوه ويمبران عن ابهاتهما .

ثم قالت لي : « البث معنا لتتناول عشاء من اللحم » .

وكانت هودتنا من الريف إلى مسكن في عمارة في يوم من أيام يولية الذي اشتد قيظه مناسبة للاحتفال . وبينما كانت ماري تعد عشاء اللحم الموعود ، جلستا في مكتب هوايتهد ، يهب علينا نسيم عليل .

وكانت حمى السياسة في أوروبا تزداد سوءاً يوما بعد يوم ، وشرعنا نقارن بين منسلك الدكتاتوريين الفاشيين والحكام المستبدين المجانين في المأساة الإغريقية .

قلت : « إن هتلر لم يسمع قط بآلهة المثوبة والمقاب في العقائد الإغريقية . ولو قد عرف شيئا من هذا لما كان له لديه معنى . أما الرجل الآخر فقد قرأ في هذا الباب » .

فقال هوايتهد : « لقد قرأ مكياثلي . وقد كتب مكياثلي قواعد بلبلوخ نباح قصير الأجل ، يمتد من خمسة أعوام إلى خمسة عشر » .

وأدى بنا ذلك إلى نقاش حول طول حياة النظم فقال :

« إن الجامعات في أوج مجدها الآن ، بيد أن الجامعات قد تصبح سببا من أسباب القلاقل ، كما كانت الأديرة ، ولنفس الأسباب » .

وقالت زوجته : « لقد بلغت الآن بالفعل مفترق الطرق » .

وتحدثنا عن إساءة استعمال « البحث » ، وذكرت خطاب جون برنت في ١٢ من مارس عام ١٩٠٤ بسنت أندروز ، وقلنا إن الناس الذين يسكنون من الحديث في « البحث » ليسوا أولئك الذين قاموا به . لقد ابتدأت الكلمة ، وأصبحت مما يسيء إلى كثير من الناس .

وإنا لنسب عن « بيئة البحث » وعن « المنهج التي تقدم للبحوث » وما إلى ذلك ، كأن الأمر كله يتعلق بالمال ، ولكن صاحب الخطاب لم يفترض أن أي كشف من الكشوف العظيمة . قد استمان بالمال ، ومن المؤكد أن جميع الكشوف قد قام بها رجال لم يفكروا بقانا في المعونة المالية .

فقال هوابتهد : « لقد سمعتموني أقنع جين العلماء . وأعتقد أن ما لنقد اليون من قيمة قد انتهى - ذلك العمل الضخم الذي استمر منذ النهضة لتتقى الأصول الكلاسيكية . ذلك عمل قد تم وانتهى . ونحن اليوم نعلم عم كان يتحدث المؤلف ولكن العلماء ما زالوا يعمدون ثم يمدون هذه التنقية ، بعد أن لم تعد لها قيمة » .

« لماذا يستطيع العلم أن يقفز كل هذه القفزات التي وثبها في القرن الماضي ، بل في الأربعين السنة الماضية ، في حين أن الدراسات الإنسانية تتقدم تقدما وثيدا ؟ هل نحن حقا قد سبقنا أفلاطون وأرسطو في هذا المضمار بخطوات شاسعة ؟ »

فأجبنى بقوله : « في القرن الثامن عشر (وأنا أتحدث من إنجلترا حيث أعرف ما أحدث عنه) كان بالإمكان مسيرة روما واليونان في أزهي عصورها » .

فإن البناء الاجتماعي كان شبيها بهما إلى حد يجعل السوابق التاريخية ذات قيمة عملية ، ولو إلى حد ما . فما زال هناك الجماهير والأرستقراط . ولو كان الأمر مما يتعلق بحكم مستعمرة إمبراطورية — كالهند مثلا — استطعت أن تحذو حذو الرومان . ولو أن حاكما استثماريا قُدم إلى الحاكمة لسوء إدارته — مثل وارن هيستنجز — كانت أمامك خطب شيشرون ضد فريز الذي اتهم بحكمه الجشع في صقلية .. وحتى في القرن التاسع عشر كان بالامكان إحتذاء المثال الاغريقي الروماني إلى حد كبير . أما الآن ، في القرن العشرين ، فإن التكنولوجيا الحديثة قد عدلت من القيم الخلقية ، أو من الملاحظات الاجتماعية ، حتى بات الأمر يتطلب مزيدا من البحث ومن الدقة في تطبيق النظم التقليدية الكلاسيكية على احتياجات العصر الحديث .

« وما ذا يحتمل أن يكون أثر هؤلاء الرجال الذين تعلموا تلميذا علميا على حكم الإمبراطورية البريطانية ؟ » .

« إنا نبعث إلى الخارج إداريين استثماريين من الرجال الذين لم يُشربوا بروح التقاليد الإنسانية القديمة ، وأما من خريجى المدارس العلمية . إنهم لا يقلون عن نظرائهم ذكاء . ولكن هل نالوا ما لقيه هؤلاء من تدريب ملائم ؟ إنى أشك في أنهم يدركون بمثل دقتهم التكوين العاطفي للشعوب التي لا بد لهم أن يحكموها . قلت : « إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مثال لنظام له خبرة واسعة في الحكم ، أفاد من علم العالم القديم » .

« أنه نظام قد تعلم كيف يدير الأمور إدارة ناجحة في مجتمع ملكي تحكمه الأرستقراطية ، وعندما يفكر أحد أن في تعديل هذا المجتمع ، أو في تحريره بتحويله إلى النظام الجمهوري أو الديمقراطي ، تقف الكنيسة عادة موقف المعارضة لهذا التعديل . والآن ، في الوقت الذي قد جن فيه جثثون بعض الحكومات الإوربية ترى الكنيسة — أو هي تظن أنها ترى — ميزة في جانب الدكتاتوريات الفاشستية التي تعارض نوع الدكتاتورية التي يمثلها ستالين . وأعتقد أنهم مخطئون » .

« قال لي عالم اجتماعي ممن أعرف (وهو يميل إلى جانب الاشتراكية بصورة واضحة) إنه يعتقد أن الكاثوليكية ستتغلب على الشيوعية إما بمسايرتها أو بالقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أن الماركسيين يفضون الطرف في عناد عن الاحتياجات الماطفية لمتوسط الناس ، في حين أن الكنيسة تشبع هذه الحاجات . »

قال هوابتهد : « لقد نجحت الكاثوليكية في إخراج نوع مذهب نوعا من النساء . ولكنهن لم تباغ مثل هذا النجاح مع الرجال . بالرجال حاجة إلى أن ينفصوا عن كواهلهم عبثا تلقية عليهم الكنيسة ، وما لم يفعلوا ذلك، لن يكونوا مفكرين لهم أثر . إنهم إذا لزموا حدود العقائد الكنسية الجامدة ظلوا دائما على خشية من أن يفكروا في رأى يتعارض معها . وأعتقد أن الكنيسة كان باستطاعتها أن تكون أشد جرأة مما هي عليه — وهي مطمئنة — في قائمة الكتب التي تصرح بقراءتها . إن أمر سن لا يصيب شعب الكنيسة في الحقيقة بأى لون من ألوان الأذى . »

- ١٧ -

١٥ من ديسمبر ١٩٣٩

بدأت الحرب العالمية الثانية منذ وقت قصير . وكان هذا أول مساء لي مع آل هوابتهد منذ اشتعال الحرب في سبتمبر . وكان كل أمضى في هذا الوقت لا يزال يتمتع عن مس موضوع الحرب مع غيره إلا بالخطر الشديد ، لأن الشهور كان ملتهبا ، ولم يستطع أحد أن يتنبأ بالمستقبل .

ولم يكن الأمر كذلك هنا على أية حال . فقد لسنا الموضوع لسا مباشرا .

قال : « إننى على يقين جازم بأن أمريكا يجب أن تبتعد . أنتم بحاجة إلى نحو حسين عامالسى تستقروا وتقرؤا بعض المشكلات المحلية التى يبدو أنكم الآن فى طريقكم إلى حلها . فاذا أنتم دخلتم واشتبكتكم اشتبا كاشديدا فربما أدى ذلك إلى ضرر دائم لمستقبل العالم . ولو أنا فزنا بعمومتكم - كما حدث فى المرة السابقة - فإن التسوية التى نصل إليها بحضوركم قد تفقد التوازن بعد انسحابكم . من الخير لأوروبا أن تحقق أزمائها بنفسها » .

وقالت : « أما إذا انهزمتنا ، فقد أصبح لزاما عليكم أن تدخلوا ، وإلا وجدتم النازيين فى كندا وفى أمريكا الجنوبية » .

قال : « أشك فى أن العالم قد مرت به من قبل محنة على نطاق واسع كهذه . المحنة » .

« إنك تدهشنى بهذا القول . ألم تكن محنة روما تحت حكم الأباطرة الفاسدين أوسع نطاقا ؟ » .

« كانت الآلام وأسباب الجزع فى روما محصورة فى الطبقات العليا إلى حد كبير . ولا بد أيضا أن تكون آلام المدد الضخم من الرقيق ، الذى كان يقوم عليه هذا المجتمع ، شديدة كذلك » .

« يروى المؤرخ پرسكس قصة زيارته لمعسكر المهون التابعين لآتلا ، وكيف اخترق أراضى انتحرت فيها عند اقترابهم جماعات بأسرها ، فلما بلغ معسكرهم . أتى هؤلاء المحاربين أنفسهم ممتلئين بالحساسة وينشدون الأناشيد التى تمنى بفضائلهم ... » وقد رأت أن أربط هذه الظاهرة بمقدار انتشار الآلام البشرية ، ثم شرد ذهنى وذكرت لهم ذلك . وقالت إنه كثيرا ما حدث لى مثل هذا الشرود فى الأيام الأخيرة .

قال « يسرنى أن أسمع منك ذلك ، لأن ذهنى كذلك يشرد ، وكنت أعزو ذلك إلى سنى » .

« أعتقد أنه التعب . إن وهينا للحرب مائل دائماً في أذهاننا . ونحن مضطرون إلى معاودة التفكير فى الأمور المادية بالإشارة إليها . وكثيراً ما نفعل ذلك على غير وعى منا ، ولكن الجهد يرهقنا بعد حين . وكأن شيئاً فى اللاشعور يجذبنا » .

قال : « لقد فقدت القدرة على أداء أى عمل لفترة ما بعد نشوب الحرب . فقد كانت دائماً فى خاطرى . أما الآن فقد تشبعت بها عملياتى الفكرية أخيراً ، وبدأت أعود إلى العمل » .

« يقول سكوت بيرنج ، الذى تناول معى طعام الإفطار هذا الصباح (وهو أحد زعماء التحرير الأمريكى) إن المشكلة فى عصرنا الحاضر هى كيف يعيش المرء عيشة حسنة فى مجتمع منحل . ولست على ثقة مما يقول . وليس من شك فى أنا يعيش فى ضائقة اقتصادية ، ولكن أليس من الجائز أن يكون من أثر التكنولوجيا العلمية ، وما يترتب عليها من عنف واضطراب ، إعادة تماسك المجتمع ؟ من الخير لنا ألا نتمتع باليأس — ولست أقصد أنه من المحتمل لأى منا أن ييأس . ولكن كل عصر عظيم — أينما فى القرن الخامس ، وروما لعهد أغسطس ، والنهضة ، والإصلاح الدينى ، والثورة الفرنسية ، سبقه أو صاحبه عنف واضطراب . الحرب الفارسية فى اليونان والحروب الأهلية الرومانية قبل أغسطس ، وغير ذلك ألا ترى معى أن الوقت لم يحن بعد للحكم ؟ وهل تذهبى لما حدث إذا تذكرنا الانقلابات الآلية والعقلية التى وقعت منذ بداية هذا القرن ؟ » .

وقال هوبز : « لقد عشت ثلاث حيوات متميزة مدى عمرى : الأولى من الطفولة إلى الحرب العالمية الأولى . والثانية من عام ١٩١٤ حتى إقامتى فى أمريكا

في عام ١٩٢٤ . والثالثة هنا منذ عام ١٩٢٤ . ويبدو أن الحياة الأولى أكثرها غرابة . في تلك الأعوام من سنة ١٨٨٠ وما بعدها حتى الحرب الأولى ، من ذا الذي كان يحلم أن الآراء والنظم — التي كان يظهر عليها الثبات وتثنت — لم تكن دائمة ؟ » .

« بالرغم من حداثة سني حينما كنت أنت رجلا كامل النمو ، فإن الدنيا في عام ١٨٩٠ وما بعدها تبدو لكأنها كانت تسبح في ضباب ذهبي من الأناشيد الأسطورية » .

قال : « كانت كذلك منذ سبعة وخسين عاما حينما كنت شابا في جامعة كبردج . وقد تملت الرياضة والعلوم على رجال أفذاذ ، وبرزت فيها . ومنذ بداية هذا القرن قدر لي أن أرى كل فرض أساسي في هذه العلوم والرياضيات وقد انقلب رأسا على عقب . ولا أقول أنه قد نبذ ، ولكنه بات في الحل الثاني بعد ما كان في المكانة الأولى . حدث كل هذا في مدى حياة واحدة — انقلبت أهم الفروض الأساسية في العلوم التي كانت تنسب إليها الدقة البالغة . ورغم هذا نجد أن مستكشف الفروض الجديدة في العلوم يصرحون بقولهم : وأخيرا بلغنا اليقين — في حين أن بعض الفروض التي شهدنا انقلابها قد ثبتت لأكثر من عشرين قرنا » .

« وهل هذا من أسباب الصعوبات التي تلاقيها في استخدام مصطلحات جديدة لآرائك الخاصة ؟ » .

« هل لاحظت ذلك ؟ » .

« لاحظت أني أستطيع أن أفهم الثلث الأول والثالث الأخير من كتابك (منامرات الأنكار) ومن مقالك (الذكري الثوية الثالثة لهارفارد) . أما في الثلث الأوسط فأجدني أتمتع . فهل الثلث الأوسط فوق مستوى الرجل العادي .

الذى يود أن يقرأه ثم يعيد قراءته ؟ » .

« كلا . لا أظن ذلك . فأننا أكتب للرجل المادى . وفى سبيل ذلك نحاشى الألفاظ الفنية التى يالفها الفلاسفة » .

فقلت زوجته : « ومن أجل هذا لا يحبه الفلاسفة ، وإن كانوا فى منتهى العذوبة فى تقديم » .

وواصل حديثه قائلا : ولكنى أعتقد أن من واجب الفلاسفة أن يربطوا أفكارهم باحتياجات الحياة العامة . وهناك أمر آخر لابد لهم منه . عند ما تفكر فى الشاق التى يلاقيها رجال العلم لكى يقيموا نظرياتهم على فروض تتعرض للنقد الدقيق — وكيف يضمنون الاختبارات التى يسيطرون بها على التجارب — عندما تفكر فى ذلك أذكر كيف كانت الأفكار الأساسية حتى لأكبر الفلاسفة فى الماضى تخضع إلى حد كبير للعلاقات البيئية الوقتية بحكم الضرورة . تلك العلاقات التى كانوا يعيشون فيها . أما المييب فيقع على عاتق المفكرين التأخرين الذين لم يترددوا فى قبول أحكامهم دون التوقف لإعادة البحث فيها فى حدود الظروف الاجتماعية المتغيرة » .

قلت : « إن (علوم السياسة) لأرسطو مثال قوى لما تقول . لا شك فى أنها كانت تقوم على فرض أساسى ، وهو أن المدينة الحكومية هى الشكل السياسى السائد ، وذلك أيضا فى عصر بدأ فيه هذا النظام فى التخلف عن مسيرة الزمن . وأوشك أن يتبدل لتحل محله ملكيات عسكرية على صورة مستمدة من فتوح الاسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو » .

« هذا مثال طيب لما قصدت إليه . الفلسفات بحاجة شديدة إلى إعادة التفكير فيها فى ضوء ظروف البشرية المتغيرة » .

« وإلى أى حد يستطيع العقل وحده أن يقوم بذلك ؟ »

« أشك في أنا نتقدم كثيرا بالعقل وحده . أشك في أن العقل يستطيع أن يسير بنا شوطا بعيدا . لقد تحدثت عن البداهة المباشرة . وكما تقدمت في السن زاد تقديري لمعقريّة فذة لا تبارى تميز بها أحد الفلاسفة ، وذلك هو أفلاطون (وعندما تفوه بكلمة فذة أكدها بطريقة نطقها وأغمض جفنيه قليلا) . قلما تجد بداهة لم تكن لديه أو لم بقدرها ، وحتى بعد ما تضع في الحسبان التمديد الذى يترتب على الظروف الاجتماعية المتغيرة منذ ما فكر وكتب ، كما ذكرت منذ برهة ، والتغيرات التى لا بد من القيام بها بناء على ذلك ، حتى بعد ذلك فإن الجانب الأكبر من فلسفته لا يزال قائما . لقد جابهه الوقائع ، أو تلك الحقائق التى لا يفهمها الرجل المادى فهما مباشرا ، وبقدرة عجيبة على الدقة والجدل وضعها في صيغة يمكن للآثنيى المتعلم في عهده أن يدركها . »

وبلغت الساعة الآن المائره والنصف . وجيء بالشكلاته الساخنة . وانتقلنا إلى الحديث في موضوع « النظامية الإنجليزية » وهل قامت على ضرورات اقتصادية .

فقال هو ابتهد : « كلا ، لم يحدث ذلك البتة فيما أظن . وإنك لتلمس في جون وزلى ذلك المزيج غير المألوف ، فقد كان رجلا يجمع بين البداهة الروحية والقدرة التنظيمية العظمى . كان التنظيم عنده طبيعة كالتنفس . وإنى لمدين لصديقى إلى هاتى بملاحظة من أشد الملاحظات التى سمعت في حياتى نفاذا عن التاريخ الإنجليزى ، وهى أن الأفكار الثورية الفرنسية ، وبخاصة مذهب اليمقوبيين ، قد جالت دون عبورها القناة الإنجليزية فكرة اتباع وزلى الدينية ، الذين كانوا ينظرون إلى اليمقوبيين كأنهم بغير إله . وقد كان الثائرون — كما تذكر — يؤمنون بالله ، أذكر منهم روبرتسبير وسنت چست وغيرهما من زمريتهما . ولكن النظامى ، كان لا يقيم لذلك البتة وزنا . ثم لما تطور المصراع الصناعى ، حينما بدأت الأسرات الغلبة

من الطبقة المتوسطة تتزاوج مع الأرستقراطية ، كان لذلك أثر فريد — وهو أن هذا الزواج قد أعطى الأرستقراطية — لأول مرة في التاريخ تقريبا — مسحة دنيئة لونت الحياة السياسية الإنجليزية بأسرها في القرن التاسع عشر .

« إن رومان رولان في (جين كرسstof) (١) يذكر على لسان إحدى الشخصيات أن ما جعل الإنجليز شعبا مفضرا أنهم أمة ظلت تقرأ الإنجيل عدة قرون . »

وفكر فيما قلت متشككا فيه ، ثم قال : « إن هذا الرأي أقرب إلى الفكرة الأدبية منه إلى القوة التاريخية . إن الإنجيل يتميز بإشارته إلى الأبدية » ثم وقف بفتية وتحدث في حماسة شديدة قائلا : « ها نحن أولاء بشخصنا المحدودة الأجل وحواسنا المادية أمام عالم إمكانياته لا تحد ، وبالرغم من أننا قد لانفهم هذه الإمكانيات اللانهائية ، فإنها وقائع ثابتة » . ولبت واقفا لحظة مستغرقا في تفكير ، ثم عاد إلى جلسته ، وواصل حديثه قائلا : « إن عيب الإنجيل فيمن تصدوا لتفسيره ، أولئك الذين سخطوا ذلك الإحساس بالالنهائية وحولوه إلى آراء نهائية معدودة ، وقد كان أول مفسر للعهد الجديد أسوأهم ، وهو بولس . »

« هل قرأت (الكافر بالمسيح) لنيتشه ؟ »

« كلا » .

(١) « إن بدني يقسم عندما أذكر أن الشعب الإنجليزي قد تفذى بالإنجيل عدة قرون ... وأنه ليسعدني أن أرى الفتاة الإنجليزية حاجزا بيني وبينهم . ولن أعتقد قط أن الأمة تمد كاملة التمدن مادام الإنجيل هو غذاءها الرئيسي » .

قال كرسstof (وهو ألماني) « إنك في هذه الحالة تخشائي كما تخشاهم ؛ لأن الإنجيل يسكنني . إنه قوام شعب من الأسود . والقلوب الجريئة هي التي تفذى بلباته . إن العهد الجديد — بغير تزيان العهد القديم — غذاء غير صحي ولا طعم له . الإنجيل هو عظام الأمم التي تريد أن تعيش وهو مصعبها » — من جين كرسstof في « البيت » لرومان رولان . ص ٣٧٦ من طبعة اخوان هنري هولت سنة ١٩١١ .

« إن عنوان الكتاب أعنف من محتواه ، وإن كان المحتوى فيه شيء من العنف .
ويدهشني أن نيتشه كان رفيقا بيسوع ، وهو يقول بأنه لم يوجد غير مسيحي واحد ،
وقد مات مصلوبا . بيد أن القديس بولس قد أدرك ذلك من غير شك » .

قال : « إننا نتكلم عن نهاية المسيحية في حدود ألف عام . بيد أن المسيحية
اتخذت أشكالا عدة في تاريخها حتى إنى كثيرا ما أتصور أنها قد اتخذت شكلا
جديدا - وربما كان نهائيا - هنا في أمريكا ، بعدما تألفت مع فكرتك الديمقراطية
عن الحياة . إن الحياة في أمريكا - رغم كل ما فيها من قيود - أفضل وأرق منها
في أى مكان آخر على وجه الأرض سمعت عنه خلال المصور التاريخية كلها . غير أن
رجال الدين قد فقدوا نفوذهم . فإن الرجل اذا اشتدت به الأزمة في أمريكا يتجه
الآن إلى الطبيب ، ولا يفكر في إخطار قسيسه . اللهم الا هنا وهناك حينما يكون
القسيس فردا غير عادى . أما في إنجلترا فإن الرجل الذى يقصده الناس في أزماتهم
هو محامى الأسرة ، وإنك لتلمس ذلك في القصص الإنجليزية ، فهو فيها شخصية
مألوفة . إن المشكلة في الدين هي أن تربط النهائى باللانهاي . ومما له دلالة أن
الناس لم يعودوا يعتقدون في السماء » .

« وماذا أنت واحد في مباء المسيح مما تستطيع أن تؤديه ؟ »

« إنى أوتر أن أذهب إلى حافة جهنم حيث أستطيع أن أقابل الفلاسفة اليونان
ورجال السياسة من الرومان وأبادلهم الرأي » .

فسألت مسز هوايتهد : « وكيف يستطيع الفرد أن يتغلب على الملل الميت
في الجنة ؟ على الأقل كما يصورونها عادة - نعمما رتبيا »

قال : « لا بد من إيجاد ما يحمل عملها »

« ربما كان المطلوب صورة من صورة القدرة على الابداع »

وناقشنا هذا الرأي فقال :

« كتب إلى سر رنشارد لثنجستون يقول إن أقوى المبارات دلالة عنده في كتابي (أهداف التربية) هي تلك المبارات التي تقول إن الرجل المادى بحاجة إلى الاقتناع بأهمية العمل الذى يؤديه . »

فقلت مسز هوابتهد : « أهمية وظيفته ، لا أهمية شخصه » .

وواصل حديثه قائلاً : « وكذلك المشكلة الأساسية في الفلسفة الحديثة هي كيف نربط الواحد بالمتعدد . وقد تحدث في ذلك أفلاطون ، وأسباب في الكثير من المواضيع ، ولكنه كذلك أخطأ خطأ فاحشاً في مواضع كثيرة أخرى . والاتجاه الحديث هو أن تقول : أنا سميد (الآن) ، والمستقبل لا يهمنى . وليكن (الآن) لا معنى لها يغير دلالة المستقبل . والمطلوب هو أن نربط كل (الآونات) بالمستقبل . »

فسألت مسز هوابتهد : « وما الفارق بين الذكاء والقدرة ؟ أعتقد أننا جميعاً نبتهج حينما نلص الذكاء في الطفل أو المراهق . أما إذا كنا لا نزال نمتجب به عند الراشد فنحن من الخاطئين » .

« أليس هناك شخص في إحدى روايات دكنز يقال عنه — حتى أواخر أيامه — إنه شاب يرجى منه ؟ أعتقد أن الذكاء هو سرعة الفهم ، وهو يتميز عن القدرة ، وهي القدرة على التصرف بحكمة في الأمر المفهوم . ولكننى أتوق إلى السؤال عما نمى حينما نقول عن شخص ما إن عنده عمقا ؟ إننا نمرف ما نمى ، ولكننا لا نستطيع أن نصوغه في الفاظ . »

فقال هوابتهد : « إننا لا نستطيع ذلك على وجه دقيق ، لأن المنق هو القدرة

على أن يأخذ المرء في اعتباره في موقف من المواقف كل تلك العوامل التي لا يمكن أن تصاغ في اللفظ صياغة شافية .

فقلت : « إن هذه العوامل تقترحنا تصاغ في اللفظ . العمق عندي هو القدرة على أن يرى المرء ما يحيط بالأمور ، وأن يرى هذه الأمور في كل علاقاتها » .

« وهل هي موروثية أو مكتسبة ؟ »

قلت : « ليست مكتسبة ، إنما هي موروثية ، ولكنها تتطور بعد ذلك » .

فقال هو ابتعد : « إننا نحصل من الأطفال على أقصى قدراتهم إذا نشأوا في ظروف اقتصادية بعيدة عن الترف ، ظروف تقحمهم في سن باكورة في زمرة أولئك الذين يتحملون التبعات في المجتمع . وقد يكون هذا المجتمع كبيراً ، ولكنه لا يتحتم أن يكون كذلك ، ويمكن أن يكونوا أشخاصاً مسؤولين يؤدون عملاً عاماً . هذه فئة . أما الفئة الأخرى فلا يلزم حتى أن تكون في حالة اقتصادية مريحة ، ولكن الطفل ينبغي أن يولد - أو ينشأ - وسط أفكار خلقية جداً أو دينية » .

« إن ما نفعلك يا أولتي هو إحساسك الخلقى والدينى . ولقد أخذت هذا الإحساس عن أبيك القسيس » .

قال : « لقد أسس أمريكا أناس من هاتين الفئتين : من أصحاب المسؤولية الاجتماعية ، وأصحاب الحس الخلقى . وكثيراً ما بدا لي أن ذلك هو الذى جعل القرن الثامن عشر في إنجلترا قاتراً . لأن الناس الذين توافرت فيهم الحيوية قد أتوا إلى هنا في القرن السابع عشر . وكانت فرنسا أفضل من إنجلترا في القرن الثامن عشر ، وأهم نتائج الثورة الفرنسية هي الثورة الأمريكية . وقد أخفقت الثورة في فرنسا ، ولكنها نجحت في أمريكا » .

وأدى بنا ذلك إلى ملاحظة انعدام الحماسة في هارفارد ، على تقيض ما يشاهد في الترب الأوسط ، وبخاصة بين طلاب الجامعة في هارفارد حيث كانت الحماسة تعد أمراً غير مستحب من الناحية الاجتماعية . وقال إن الحماسة تنعدم عند أبناء الأسر الغنية في بوسطن ونيويورك ، وهم ثلث الطلاب ، أما الثلث الأوسط فهو محايد كالمادة ، ولكن الثلث الأخير يتصف بها ، وهم فتيمة أكثرهم من المدن الصغرى . ومن المناطق النائية . أما هيئة التدريس فقد أقر بأن ميل الكثيرين منهم يتأثر بأبناء الطبقة العليا ، وفي اعتقاده أن صوته غير مسموع في إدارة الجامعات الأمريكية ، ولم يكن لهم من قبل هذا الصوت ، على تقيض الحال في إنجلترا ، حيث تكون الإدارة في أيديهم . هنا يختص كل أستاذ بقسم ، أما في ترنتي فهناك هذا الاتجاه أيضاً ، ولكنك لو تعمقت ألفتهم جميعاً على رأى واحد ، إذ يريدون أن تكون ترنتي مكاناً له قيمة تربوية حية . لما تألفت جامعة لندن من مدارس متباعدة أشد التباعد ، اشترط أن يكون هيئة التدريس صوت في إدارة المؤسسة الجديدة .

« لقد طورت إنجلترا نظامها الجامعى . وكثيراً ما أتساءل عن المدة التي نستغرقها لكي نطور هنا نظاماً يلائم احتياجاتنا الخاصة بنا . »

قال : « لقد تغير النظام الجامعى في إنجلترا كثيراً منذ عام ١٩٠٠ . كانت هناك قبل ذلك أكسفورد وكبريدج وأدنبره وجلاسجو وسنت أندروز . ومنذ ذلك الحين نشأت كل الجامعات الجديدة - وعددها ستا منها .

وخلال المناقشة عرضنا لموضوع الطريقة التي نحمل بها الفكر من التجمد في أفكار ثابتة ، وكيف أنه من السهل أن تنكمش الدراسة الدقيقة إلى علم لاهيات فيه . وقال إنه عند ما كان زملاء القداى ينتخبون زملاء لهم جدد من بين المرشحين للزمالة ، قرأ على اللجنة عالم أرى شاب بحثاً علمياً عن عمود أرى معين

تعرض فيه لتأريخه ، وهل أخطأ الباحثون في تحديده لمدة ثلاثة أعوام بالنقص أو بالزيادة !

» (وجلس فرجيوسن - وخده على يسراه - يستمع إليه راغماً

(وجلس تئيس - وخده على يمناه - يستمع إليه راغماً

(وجلس لوب - وخده على راحتيه - يستمع إليه راغماً

(في حين أن النقص أو الزيادة لا تتم أحداً منهم في شيء ما) . ولكن شاباً اسمه تشارلز مور ^(١) قدم بحثاً عن سوفوكليز بلغ من الجودة أنه إذا لم يصدق عن سوفوكليز ، ينبغي أن يصدق » .

» وكم كان يبلغ من العمر ؟

» زهاء اثنين وعشرين عاماً فيما أعتقد » .

» إنه أصغر من أن يعلم الكثير عن سوفوكليز » .

» ربما كان ذلك صحيحاً ، ولكن اثنين منا أصرنا على قبوله حتى لو كان ذلك على جثث الأعضاء » .

وهنا نقل هوايتهد الموضوع إلى الحديث عن صحف بوسطن .

قال : « إن صحيفة هيرالد - لو اتفقت شرارتها قليلاً - تعبر عن رأى أصحاب الأعمال الناجحين تعبيراً يدعو إلى الإعجاب - بل وإلى أكثر من الإعجاب - بيد أنك لو أردت أن تعرف ما تفكر فيه إنجلترا الجديدة بجميع طبقاتها - وأنا شخصياً أريد أن أعرف - فلا مناص لك من أن تقرأ صحيفة جلوب . ونحن نحاطر

(١) كان تشارلز مور يعرف أموراً عجيبة عن سوفوكليز .

بالظن أن كثيراً من المقالات الرئيسية في العلاقات الخارجية - وبخاصة ما كان منها متعلقاً بالسياسة البريطانية الخارجية - من تحرير كاتب أرلندي غاضب .

« هي كذلك » .

« إنه يمارس حقوقه ، غير أنه يضمن على نفوذ المحافظين - الذي لا يرضيه - أهمية لا يستحقها » .

« إن الجنود البريطانيين هزموا جده وقضوا عليه في أرلنده . وكانت ذكرى الحادث حية في ذهن جدته حينما زوته له . إنه رجل قد في مقدرة ، له مبادئ - شائنة - يراعيها في عمله اليومي » .

ثم تحدثوا عن المقال الرئيسي عن الموسيقى الذي نشر في ٢٤ من نوفمبر دون أن يسأل أحد منهم عن كاتبه . وفي هذا المقال قلت إن الموسيقى العظيمة يدركها الأطفال - حتى أكثر من إدراكهم للأدب العظيم - لأنها تخاطب العواطف والخيال والبداهة مخاطبة مباشرة ، وهي قدرات كثيراً ما تكون عند الأطفال أحدها منها عندهم بعد ما يكبرون . ومن الخطأ الفاحش الذي يدل على الغباء أن نزع أن الأطفال لا يستشعرون عظمة الفنون . وقد وافق هوابنهد على ما جاء بالمقال جملة ، غير أنه قال :

« لا يستجيب للموسيقى جميع الأطفال . إنما يستجيب لها خمسون في المائة منهم فيما أعتقد . وكان الأجدر بك أن تبحر هذا الرأي شيئاً ما . وأرجو أن تعتقد أني أوافقك على رأيك إجمالاً ، وأرى أن لجميع الأطفال الحق في أن يتعرفوا هذه الخبرات العظيمة في الأدب ، والفنون ، والطبيعة . ويستطيعون بعدئذ أن ينتقوا منها ما يفهم . وقد أعجبني بصفة خاصة رأيك في أن سحر الموسيقى الجيدة يرجع إلى أنها تفاجئ الأذن بمقاطعها التي لا تتوقعها ، وإلى أن عنصر المفاجأة دائم مهما أصبحت الموسيقى شائعة . وهذا مبدأ يسري أيضاً في شئون الحياة الأخرى .

فإن ما نتلطف عليه هو عنصر الجدة ، وبعض التجارب الحية بنطوى على عنصر الجدة الذى لا ينقطع ، وهو يسرى أيضاً على العلاقة بين مجالات الخبرة المتنوعة . فإذا تجددت خبرتنا فى مجال ما ، امتد التجديد إلى خبرتنا فى غيره من المجالات .

قلت : « إن بيئة موطني - وهى مدينة صغيرة - كانت قاحلة من الناحية الجمالية ، حتى لقد اضطررنا إلى الانكباب على الكتب والموسيقى (بالإضافة إلى الأصدقاء ، وما قد يكون فى الطبيعة من جمال) لكي نحفظ بحياة أرواحنا » .

وقالت مسز عوايتهد : « وبيئته كذلك - وهى أبرشية ريفية - كانت وسطاً لا ينعم فيه الجمال فحسب ، بل ينظر إليه بعين الازدراء » .

« إن ما قلت من أن تجديد الطبيعة كلها عن طريق الخبرة الجديدة - التى تعد الموسيقى مثالا لها - ينطبق أيضا على شئون الحياة الأخرى - هذا القول يبعث الطمأنينة إلى نفسى بعد ذلك الذى زعم بلس برى^(١) فى هذا الصدد حينما قال : (إننى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن تحويل التقسيم الصوتى من الموسيقى إلى الآراء الخلقية) » .

قال : ولكن ذلك هو بعينه ما تفعله الموسيقى . إنها تجدد الحياة فى الطبيعة كلها » .

« كيف يمكن لأى إنسان أن يسكون هو بعينه بعد معرفة وثيقة برباعيات بيتروفن الأخيرة كما كان من قبلها ؟ »

(١) بلس برى أستاذ جامعى ، ومؤلف . ولد فى وليامز تاون ، ماساشوسيت فى عام ١٨٦٠ . حصل على درجة البكالوريوس من كلية وليامز فى عام ١٨٨١ ، وعلى درجة الأستاذية فى عام ١٨٨٣ . واشتغل أستاذا للغة الإنجليزية فى وليامز من عام ١٨٨٦ حتى عام ١٨٩٣ ، وفى برانستون من عام ١٨٩٣ حتى عام ١٩٠٠ ، وكان محررا بجمريدة الاطلنطيق الشهرية فى عام ١٨٩٩ .

وأدى ذلك بهوابتهد إلى الحديث عن الفارق العظيم بين شعراء القرن السابع عشر في إنجلترا وشعراء القرن الثامن عشر . « إنك لن تجد قط عند رجال القرن الثامن عشر شيئاً في شعرهم لا تقصود أنه كان بوسمك أن تكتب مثله . ولكن سحر الشعر الإنجليزي في القرن السابع عشر هو أنك تقابل شيئاً لم تتوقعه كلية ثم تقول : « عجباً ! إننى لا أتحيل أنه كان بوسمى أن أفكر مثل هذا التفكير »

وتقدم المساء ، ومرت فترة أجمت فيها ضائرتنا على نقل الحديث إلى موضوع آخر .

وقد نفذت في أمريكا طبعة كتابه (أهداف التربية) . وقلت له إن الناس الذين أعرفهم لا يفتأون يشكون لى من أنهم لا يستطيعون الحصول على هذا الكتاب . قال إن الكتاب لم تنفذ طبعته فى إنجلترا « ولكن مكملان أحرق ما عنده من نسخ لم يتم بيعها دون أن يهيبى لى فرصة لتسلمها ، وهو عمل اساء إلى كثير » .

« إن شركة مكملان لها طابها الخاص ، وهى تقوم من غير شك بأعمال عجيبة - من ذلك تجليدم كتاب (التاريخ القديم من إخراج كبردج) ، فى حين أن طبعته الإنجليزية مجلدة تجليدا يليق بالكتاب . وإنى آسف أشد الأسف لأنى لم أشتري نسخة فى الطبعة الإنجليزية » .

« إننى أفكر فى إعادة نشر كتاب (أهداف التربية) ، فما رأيك فى حذف الفصلين الأخيرين ؟ » .

« إذا عرفت أننى لم أستطع فهمهما ، أدركت أننى لست الرجل الذى يوجه إليه هذا السؤال » .

« بل على العكس من ذلك ، أنت الرجل بعينه الذى يسأل » .

« إن الفصول الثمانية الأولى تهز القارىء بتيار كهربى . وكم من صديق ذكر
نلى هذا ، ومنهم لثمنجستون . فلماذا لا تحذف الفصلين الأخيرين وتحمل عليهما
مقالك عن الذكرى المثوية الثالثة لهارفارد ؟ » .

« لقد فكرت فى ذلك أيضا . ولكن هل يكون طول الكتاب بذلك مناسباً ؟ »
« أليس لديك شىء آخر يتفق ومادة الكتاب ؟ »

« عندى قدر كبير من المؤلفات التى لم تنشر ... »

واقترحت مسز هوايتهد مباحث مختلفة يصلح ضمها إلى الكتاب .

قال : « أفكر أيضا فى إخراج كتاب عن ذكرياتى » .

وتباحثنا فى حجم الكتاب ، وإنه من الحكمة أن نزاقب الناشرين فيما
يختارون من رسوم للغلاف ، بالنظر إلى ما مر بنا من تجارب أليمة .

وقالت مسز هوايتهد : « لشد ما كان ذهولى حينما وقعت عيني على الغلاف

الذى اختاره مكلان لكتابه (مغامرات الأفكار) » .

« كيف كان شكله ؟ » .

« رسم للقمر والنجوم وأشعة ضوئية » .

« وماذا كانت الفكرة من وراء ذلك ؟ » .

« مغامرات ، فيما أعتقد ، وفضاء كونى » .

قلت : « إنهم بذلك يهبطون بهوايتهد إلى مستوى موسيقى الجاز ! هل تظنين

أن مصمم الغلاف قد قرأ الكتاب ؟ » .

قالت : « ربما لم يزد على سماه بالمعنوان » .

ولما أشرف المساء على نهايته عاد إلى أثر الإنجيل ، وإلى مفسره فقال :

« يسرى في التفكير العبرى تياران فيما يبدو : أما أولهما فرقيق رقيق ، جليل ، عطوف ، كله إلهام ، أشعيا ، وعاموس ، ويسوع . وأما الآخر فعنيف منتقم ، متخادع ، تنعدم فيه روح الفكاهة . وهى صفات الحاكم الشرقى المستبد بيمينها . والتياران عند بولس ، ولكن التيار الثانى أغلب . إن الساميين أجلاف . وكثيرا ما شككت في تسرب الدم الهلبنى في الجلبيلين . مما يفسر ما اتصف به يسوع والفلاحون من رافة . لأنك لو تابعت تفسير الأناجيل في قرونها الأربعة أو الخمسة الأولى ، وجدت أن المفكرين المسيحيين على الشواطىء الإفريقية للبحر المتوسط وفي إسبانيا - الذين كانوا تحت التأثير السامى إلى حد كبير - كانوا غلاظا أجلافا . في حين أن المفسرين الإيطاليين والغالين - من أمثال جريجورى الأعظم ونارت التورى - كانوا متسامحين إلى درجة كبرى . ولما أنير موضوع اضطهاد أتباع مذاهبهم لأول مرة ، رأى هؤلاء الناس - وعبروا عن رأيهم - أن الاضطهاد أشد ضررا من الزندقة . إن هذين التيارين في العبرية يتمثلان في الجشع في الكسب المادى ، وفي رقة الروح . وإنك لتلمس أحيانا عند عظماء اليهود هذين التيارين في طبيعة واحدة . إن مفسرى المسيحية هم سبب نكبتها » .

(١٨)

٢٢ من إبريل ١٩٤٠

دعانى هوابتهد الى حفل المشاء الذى يقيمه بانتظام كل يوم من أيام الإثنين . زملاء الحديثون في إليوت هاوس . وفي طريقنا الى هناك بسيارة الأجرة من فندق إمباسادور ، سألته : هل قرأ مارواه البحار البريطانى عن المدمرة التى غرقت في بارفك ؟

فقال : « كلا . إن الأنباء التى ينقضى عليها أسبوع - في مثل هذا الوقت -

بتقادم عهدها وكأنها أنباء عن سرقة ماراثون « قال ذلك في رفق ، يبد أن
الملاحظة تبين عمق إدراكه للمواقف التي تتأثر بالتغيرات التي يحدثها الزمن .

ولما بلغنا إليوت هاوس عبرنا فنا ، ودخلنا من باب جانبي تحت مصباح مستور
معلق بفانوس من الحديد . وكان ليل الربيع لطيفا ، والضباب الخفيف يتساقط ،
على متن رياح شرقية تهب من البحر ، وأشجار الربيع يانعة بزهر ذهبي اللون .

وقد سبقنا الى حجرة الجلوس الرئيس المتقاعد لول ولورنس هندرسن^(١) ، ومعهما
سام موريسون^(٢) ، الذي تفضل فسمح لي بقراءة قائمة بالملاء الحديثين الأربعة
والعشرين ، وموضوعات دراساتهم . ولا أستطيع أن أذكر من نظرة عاجلة أربعة
وعشرين اسما وأربعة وعشرين موضوعا للبحث ، ولكني ربما استعدت بعضها
بإعانت الذاكرة .

(١) لورنس جوزيف هندرسن كيموي بيولوجي . ولد في إن^١ بماساشوست في عام ١٨٧٨ ،
وحصل على درجة البكالوريوس من هارفارد في عام ١٨٩٨ ، وعلى الدكتوراه في عام ١٩٠٢ ،
والدكتوراه في العلوم من كبرديج في عام ١٩٣٤ ، معيد في الكيمياء البيولوجية بهارفارد في
عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ، ومدرس من ١٩٠٥ — ١٩١٠ ، ومساعد أستاذ من ١٩١٠ — ١٩١٩ ،
وأستاذ منذ عام ١٩١٩ . وزميل من الكبار في جماعة الزملاء بهارفارد منذ عام ١٩٣٣ ، وتوفي
في عام ١٩٤٢ .

(٢) صمويل اليوت موريسون ، مؤرخ ، ولد في بوسطن بماساشوست في عام ١٨٨٧ .
وحصل على البكالوريوس من هارفارد في عام ١٩٠٨ ، وعلى الدكتوراه في الفلسفة في عام ١٩١٢ ،
والدكتوراه في الآداب في عام ١٩٣٦ ، وعلى الأستاذية من أكسفورد في عام ١٩٢٢ .
واشتغل مدرسا وأستاذا للتاريخ الأمريكي بهارفارد منذ عام ١٩١٥ ، وهو مؤلف (تاريخ
ماساشوست البحري) في عام ١٩٢١ وتاريخ أكسفورد للولايات المتحدة في عام ١٩٢٧ ، والدكتور
الثوية الثالثة لهارفارد من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٦ . وتاريخ عمليات الأسطول الأمريكي في الحرب
العالمية الثانية في عام ١٩٤٧ — ثم تقاعد عن العمل .

وحذرنى موريسون بصوت منخففى قائلاً : « لا تكثر من شراب الشرى
قبل العشاء ، فهو ليس جيداً . وأكثر من شراب برجاندى أثناء العشاء ، فقد
أختره هندرسن وهو خير بالنبيذ . ونحاش مايقدم اليك من خمر بعد العشاء .
فهو من تقديم لول ، وهو لا يعرف شيئاً عن النبيذ . وهو ليس إلا نوعاً من خمر
كاليفورنيا المعتقة ، ولكن الزملاء لابد لهم من احتسائه بأكله . وهناك رأيان
بشأنه : أولهما احتساؤه كله ، والآخر انتهاء منه ، والآخر الثانى فى تناوله ، لأن
لول قد يقدم لنا مزيداً منه » .

والستر لول أصم تماماً بالطبع . ولما كان يجد أن الحديث من جانبهِ أسهل من
حديث الناس إليه ، فإن التحدث معه - إن شاء - كان كلاماً من ظرف واحد فقط .
وكان يتحدث فى الطريقة التى يعالج بها الإنجليز المعارضة السياسية ، قال :

« إن حدود الحزبية هناك أدق منها هنا ، وإذا كنت فى الحكومة وجب
عليك أن تصوت معها . وقد قال لى المؤرخ لى (إننى فى حرية تامة من إعطاء
صوتى ضد الحكومة التى كنت عضواً فيها لمدة ثمانية عشر عاماً) فسألته : ولم
مرة صوت ضدها ؟ فقال : مرتين »

وواصل ستر لول حديثه فى موضوع المعارضة السياسية ، وقدم دليلاً على
رأيه فى التقرير الخاص بالنظام الألمانية فى بلجيكا الذى قدم له لوردبرايس ، والذى
تشرته الحكومة البريطانية مصادفة فى ١٢ من مايو عام ١٩١٥ ، بعد إغراق
الباخرة لوزيتانيا بغواصة أمريكية بخمسة أيام ، حينما كان الرأى العام فى الولايات
المتحدة ملتهباً بحمارة شديدة . وقال إن التقرير مثال للضرر الذى ينجم من عدم
تعيين « محام للشيطان ... فأنت لا تدرك الحقيقة دون مساءلة الشهود » وبذلك
أختم حديثه .

(وتذكرت ساكو وفترتي قفقت : « بل قد لا تدرك الحقيقة أحيانا برغم هذه المسألة ») .

ثم انتقل إلى الحديث عن فضل التريث قبل إطلاق أسماء اللامعين على الشوارع والمحلات العامة . فقال أحد الشبان :

« أليست هناك قاعدة عند الفرنسيين ألا يطلقوا اسم شخص ما على أحد الشوارع إلا بعد وفاته بمشر سنوات ؟ »

فقال مستر لول : « بل إن الكنيسة الكاثوليكية أشد من ذلك أناة : فقد ينقضى مائة عام قبل تقديسها ... »

ودق الناقوس ، إشارة إلى التوجه إلى غرفة الطعام .

وكانت الحجرات فاخرة . وكنت قد شهدتها عند بداية تشييدها في عام ١٩٣٠ ، غير أنه لم يسمح لنا في ذلك الوقت أن نعرف مصير استخدامها . لأن المال اللازم لتأسيس الجماعة لم يكن متيسراً بعد . (ولما توفي لول في عام ١٩٤٣ تكشف لنا أنه قد تبرع بالمال : « ... لا ألبم يكن أمام أعيننا مصدر للمال الضروري ، قدمته بنفسى ، في شيء من اليأس ، بالرغم من أن ذلك قد قضى تقريباً على كل ما أملك » . ووفقاً للتنظيم الذى تم في ٨ من ديسمبر عام ١٩٣٢ كان هناك أربعة وعشرون من الزملاء الجدد ، وتسعة من القدامى . والجديد من الشبان الذين تراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، اختارهم القدامى من بين الخريجين المحدثين في الجامعات الأمريكية لما توهموا فيهم من مقدرة نادرة على تنمية المعرفة والفكر . وكان انتخابهم لمدة ثلاثة أعوام مع إمكان تجديد المدة ثلاثة أعوام أخرى . وكان يقدم لهم الطعام والسكن بغير مقابل ، وتدفع لهم مكافأة معينة ، على أن تترك لهم الحرية لتأبئة أية مناصرة فكرية لها عندهم أهمية

أولادة . وقد تولدت الفكرة^(١) من نوع من الاحتكاك المباشر بلورنس هندرسن ،
والفرد هوايتهد ، والرئيس لول ، وهي تستمد شيئاً من نظام زملاء كلية ترنيتي
في جامعة كبرديج الذين يتقاضون مكافآت معينة ، ومن نظام كلية الأرواح
بأكسفورد ، ومؤسسة تيير بياريس .

والحجرتان مبطنتان بأخشاب البلوط من الأرض إلى السقف ، ونوافذهما
المستطيلة تتخللها أعمدة مربعة قصيرة أيونية من جوانبهما ، وتكسوها ستائر
ثقيلة يتفق لونها ولون الحجرة . ومداخل المواقد تحوطها كذلك هذه الأعمدة
المربعة القصيرة وتملأها الصور في إطاراتها والنقوش المزخرفة . والمائدة
البيضاوية الشكل التي أودع فوقها شراب الشرى هي مائدة طعام الإفطار التي كان
يرأسها الأوتوقراط ، وعلقت فوق الجدران صور زيتية من نفائس القرن الثامن
عشر ، وإحداها من رسم جون سنجلتن كوهلي .

ومائدة العشاء على شكل حرف U . ولما كان في ذهن مصممها تيسير المناقشة ،
فقد تقارب جانبها بدرجة تسمح بتبادل الحديث عبر سطحها الذي تضيئه الشموع
والشمعدانات القضية من الطراز الذي وجده لورنس هندرسن في فيقاش بفرنسا
في الوقت الذي بدأ يفكر فيه في إنشاء هذه الجمعية . وكان مستر لول باعتباره
رئيس الاجتماع يجلس عند رأس المائدة فوق مقعد من البلوط المنقوش ، ظهره
مرتفع . أما باقي المدعوين فكانت لهم مقاعد منخفضة وثيرة من طراز هارفارد
التقليدي . وقد أعدت الخمر فوق المائدة في قنيتين وضعتا في وعاء فضي صغير ،
وربما كان هذا الوضع منقولا عن الوعاء الفضي الذي يدور محملاً بالخمر فوق مائدة
من خشب الماهوجاني في كلية الأرواح بأكسفورد .

(١) هذا النظام مشروح شرحاً وافياً في كتاب « جمعية الزملاء » من تأليف جورج بن
هومانز واورثل ت . بيل الذي نشرته جامعة هارفارد بكمبرديج في ماساشوسيتس .

ومن القواعد غير المكتوبة ألا يجلس الضيوف والملاء القدامى جنباً إلى جنب . فيتيح ذلك للملاء الجدد أن يختلطوا بالقدامى ، ومن ثم فقد كان من بين الجماعة المجاورة لهوايتهد هارى لقين (١) ، وجورج هوماتز (٢) ، وكوزراد آرتربرج (٣) ، وجورج هانفمان (٤) ، وهو شاب ألماني مر بثورتين ، وقد قال إنه لم يصدق أنه آمن حقاً في التعبير عن رأيه إلا بعد ما أقام في هذا البلد عامين .

وقد تحدث خمستنا — الذين كانوا على مسمع من هوايتهد — فيما إذا كان بالإمكان مرة أخرى لذهن واحد أن يلم بمجموع المعارف البشرية ، على الأقل إلى المدى الذى يلائمه أرسطو أو دافنشى أو حيتته ، كل فى المهد الذى عاش فيه .

فقال هوايتهد إن من رأيه أن مثل هذا الإلزام يتطلب اعتماداً فوق الطاقة على معرفة الآخرين ويهبط بها إلى مستوى بسيط :

« لقد أخطأ أرسطو حينما سمح للناس أن يظنوا أنهم يعرفون ويدركون كل ما يتعلق بالموضوعات التى كان يناقشها ، ومن المؤكد أنه لم يعاون أفلاطون » .

وذكرت بهذا الصدد « أن جلبرت مرى قد قال شيئاً شبيهاً بذلك كل الشبه عن أرسطو — وبخاصة حينما كان أرسطو يتحدث فى الدراما ، وكان يتكلم عن عنصر (القشوة) فى مسرحية (باكي) اميوربيديز ، وعنصر (الخضوع الطالق) فى أسطورة دينوبسيس ، وقد قال : « أليس المبدأ الذى يقول لا تغفل ، هو مبدأ الأميين ؟ » .

فقال هوايتهد : « هذا صحيح . إنك لست تغفل فى الموضوع حقاً بحاجة إلى

(١) أستاذ اللغة الإنجليزية ، ومشرف على قسم اللغة الإنجليزية ، وزميل قديم لى جامعة الزملاء بجامعة هارفارد .

(٢) أستاذ زميل لى الاجتماع بجامعة هارفارد .

(٣) أستاذ زميل لى الاجتماع بجامعة كولومبيا .

(٤) أستاذ زميل للفنون الجميلة بجامعة هارفارد .

طاقة أكثر مما يحتويه هذا المبدأ الذي يقول (لا توغل) . ولا بد للمرء من أن ينكر الكثير لكي يتقدم في موضوع ما .

ويدوان عنصر المبالغة ضروري إلى حد ما في كل ميدان من ميادين المنظمة . وضرب لنا مثالا لنقيض ذلك ما قيل عن رجل « عرف إحدى وأربعين لغة ولم يكن عنده ما يقوله في لغة من هذه اللغات » .

ثم انهمك مع اثنين من علماء الطبيعة في جسد حول اليقظة والإلهام الضروريين في كل تجربة جيدة - وكيف أنها تقوم على الكفاءة في العمل بالإضافة إلى (المصادقة السعيدة) ، بل على إدراك نوع من أنواع الخطأ في النتيجة ، فيأتي الاستكشاف من سؤال صاحب التجربة : « وما ذا عسى أن يكون هذا الخطأ ؟ » .

وواصل حديثه قائلاً : « لقد كان الهيدروجين الثقيل تحت أعين أشخاص هديدين قبل أن يكتشفه شخص آخر غيرهم . إن الخطأ نفسه قد يكون هو المصادقة السعيدة » .

وقيل إننا هنا في هذه المشكلة : كيف نجعل التفكير نشطاً حياً ، كما جاء في مقاله عن الذكرى الثوية الثالثة لهارفارد بمدد سبتمبر من عام ١٩٣٦ . فقال :

« لقد قدمتُ الموضوعات للبسطاء في البداية ، وكررتها في النهاية ، أما المادة الجديدة فقد وضعتها في الوسط . وجاء خير ما فيها مصادفة ، وقد رد الناشر إلى المقال قائلاً إنه قصير نوعاً ما بالنسبة للصفحة المخصصة له ، وطلب إلى أن أضيف إليه نحواً من مائة وخمسين كلمة . وبجملة انتقالية وجدت أنني قد أضفت مائة وثمانيا وستين كلمة ، أي ما يقرب من طول أنشودة ، وكانت خير ما في المقال . فهل تستطيع أن تستخرج هذه العبارة ؟ » .

«هل تتفقدانى؟»
وأوماً برأسه وابشيم قائلاً :

«بشيم»
«حتى تتوافرنى فرصة قراءة المقال مرة أخرى، بما رأيتك في رد روبرت هنشتر عليه في عدد نوفمبر التالى؟»

«لقد عاملنى هنشتر - وأرجو أن تذكر أنى أجله - معاملة الحماى برغم هذا، إذ فصل بعض ملاحظائى عن ملاساتها، ثم أخذ بها جنى. ولما كنت قد اغترفت بأننا نعلم غيرنا كثيراً من الآراء النافذة، فقد أهملت النقد».

ثم ثارت مناقشة حية عن مدى ما يستطيع الرء أن يحتمل بثبات من ضروب الجهد العقلى المختلفة. وجاء البرهان حينما تعرضنا للعمل الأصيل والمثل الذى يعتمد على النقل. ودلت القصص الطويلة التى رويت عن العلماء الدارسين الذين يعملون كل ساعات النهار على أن علمهم ليس إلا مجرد تحصيل. فى حين أن أكثر الفنانين البتكرين يجدون أنفسهم مرغمين قطعاً على الاكتفاء بعمل متواصل فى ثلاث ساعات أو أربع.

وجه أحد الزملاء الجدد (وأظنه جورج هومانز) الموضوع إلى كتابة التاريخ. فقال هوايته: «لقد نال جِبْنُ أحسن تربية تلقاها أى مؤرخ آخر إذا استثنينا ثيوسيديد. فقد كان ينتمى إلى كتيبة حربية، وكان قائداً الحرس هامبشير، ومدارس ما يكثنف هذا العمل من مشاعر، وتعرف إلى الأوساط الأدبية فى لندن، فعرف جونسن وزمرته، وتنقل فى القارة الأوروبية وعرفها. وكان فى البرلمان واستم إلى أحداث الحكم».

قال هوابعء: « ولكنهم لم يحسنوا الحكم . فقد كان رؤيس الحكومة هوؤورء نورث الذى ضيع المستعمراء الأمريكية . »

وابتسم هوابعء وقال : « ابنى أعرؤ بأن الرجل الذى انهزم فى الحرب كان أعز صءىق للرجل الذى اعترم أن يككئب (انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها) »

وأبئر نقاش حول الفارق بين التفكير الفعالم والتعكير الجامء .

فقال هوابعء : « التفكير الجامء هوأن تعرف على وجه الدقة من أين اسئقى شيكسبير موضوعات مسرحياته ، وأن رء كل مقتبسائه إلى مصادرءا من فلاطارخس إلى هولنشد . »

وأبجئت الأنظار القلقة صوب الأستاذ لئنجسئن لويس ، خبث شاء هوابعء لها — وء دءابة — أن ءءجه . وكان لويس قد انسحب . ثم عقب على ذلك هوابعء فى كياسة قائلا :

« لقد خرج كئردئج » . وضحك الجميع .

وكئردج هو — بطبيعة الحال — صاحب الكلمة الطولى على مائءة الإنطار الذى ءء كر بعءء شيكسبير .

وقء سمء بلس برى^(١) — الذى عرفه وأحبه عءة سنواء — سمءه بقول : « لم أعرؤ أءءا قط مثله يشءء اهئامنه باللفظ ، وبقل بالمعنى . »

ومن موضوع الأفكار الجامءة انئقل الحوار إلى ءلك المشكلة العويسة ، وهى : هل العالم الءءبئ ئء رءة مخئراؤه التكنولوجية الءءبءة كلية ؟

فقال هوابتهد: « أعتقد أن أوروبا كان يمكن أن تتقدم بعمرائها المائية الداخلية وقنواتها كما تقدمت بسككها الحديدية ، ولكن السكة الحديدية في أمريكا سبغت في اللحظة الملائمة بالضبط لتمكنكم من إخضاع القارة » .

قال هومانز : « إننا لم نتقدم كثيرا من قبل » .

« كانت السكة الحديدية هي العامل الحاسم عندهم » .

« وما رأيك في الطائرة ؟ »

« إنها سوف تطور الحياة في المناطق التخلفة ، كداخل آسيا ، وشرقي أفريقيا ، وما شابه ذلك ، وكذلك شمالكم الأقصى في أمريكا . إن كل فن تكنولوجي جديد يحطم أولا نصف أي مجتمع قديم ، ثم يساعد على إعانة بنائه في صورة جديدة . إن أثره الأول - على أية حال - هدام بشكل عنيف . » وصمت قليلا ثم قال : « ولكن ماذا يقصد الناس بقولهم إن المستقبل مضطر إلى أن يدفع عن الحروب في الحاضر ؟ » وجر إلى هذا السؤال شابا وسيا أشقر اللون اسمه بول سامولسن (١) . كان به نخورا ومغرما بدرجة واضحة . ودخلا في حوار على جذاب في هذا الشأن ، ولكنه جرى أسرع مما تستطيع الذاكرة تسجيله .

واختتم هوابتهد قائلا : « إن الأمر لا يمدو أن يكون تشبيها . وإذا نظم المرء قصيدة في الاقتصاد ، كما فعل ليوكرييتس في (دي ريرم نانورا) كان التشبيه رائعا . أما في المعمان الاقتصادي فإن كل ما تمنى حينما تشير إلى أن المستقبل يدفع عن الحروب الراهنة هو أنك تورث الأجيال القادمة صورة متغيرة من المجتمع »

(١) أستاذ الاقتصاد ، بالمعهد التكنولوجي بماساشوست .

وتلكأت الجماعة إلى ما يقرب من الحادية عشرة . ثم نقلني مع هوابتهد إلى فندق إمباسادور أحد الملاء الجدد ، الذي يقوم بمرافقة مستر لول إلى بيته بنوسطن حيث عاد إلى منزله بالمدينة بشارع مارلبرو . ونزل لول من العربة وعاون هوابتهد على النزول في شيء من التكلفة كما بدا لي ، وكما بدا لغيري كذلك جليا ؛ إذ أننا حيناً عدنا إلى الطابق العلوى واستقر كل منا في مقعده ، وشرعنا بحسب أقداح الشوكولاته الساخنة ، قال هوابتهد لزوجته ، وعلى شفته ابتسامة رقيقة ، وفي صوت هادىء رصين :

« لقد عاونني لول على النزول من العربة »

« حقا ؟ »

« هل تظنين أنه كان يحسب أنى بحاجة الى ذلك ؟ »

قالت في حديثها المألوفة : « كلا . إنما كان يحاول أن يبرهن على أنه إنسان أفضل منك . ولكن هبات له ! »

(١٩)

٢ من نوفمبر ١٩٤٠

فضبت المساء مع آل هوابتهد في فندق إمباسادور . وكنت ضيفهم الوحيد . وكان وقع الحرب ثقيلا عليهم . ولما وصلت في منتصف التاسعة كان هوابتهد في إغفاء بسيطة في مكتبة . وذكرت لى مسز هوابتهد أنهما يتلقيان أحيانا برقيات مسز نورث ، الذى يعمل في وزارة الخارجية في هوابتهول ، وهو المبنى الذى أقيمت فوقه القنابل مرتين .

وقالت : « إننا نحيا حياة مزدوجة . حينما نستقبل الضيوف نميش في هذا البلد . وبعد انصرافهم نميش في الحرب » .

وبعد لحظات خرج هوايتهد . وبدأ عليه شيء من الاكتئاب بادىء الأمر ،
لوقد اشتد احديدا به وضعفه . ولكن بعدما قضينا في الحديث نصف ساعة ، عادت
إليه حرارته الموهودة . وقلت له :

« إن قراء بوسطن جلوس منذ سبتمبر الماضى يطلعون - على غير وهمي -
على (العلم والعالم الحديث) صباحا ، وظهرا ، ومساء » .

« قل له كيف ألفت الكتاب يا أولتى » .

« كنت محاضرا في علوم الرياضة طوال حياتى ، منذ شبابى الباكر في كبرج
ثم في لندن . وفي سن الثالثة والستين في عام ١٩٢٤ أتيت إلى هارفارد لكي
أحاضر في الفلسفة لأول مرة . وكنت بطبيعة الحال - فيما تحلل ذلك من سنوات -
أستمع إلى المناقشات الفلسفية في كبرج وفي لندن وأسهم فيها ، كما كنت أقرأ بين
الحين والحين بحثا في الجمعية الملكية . ومن ثم فقد كانت الفلسفة مائلة في ذهني بدرجة
عظيمة . وفي خريف عام ١٩٢٤ طلب إلى أن ألقى محاضرات لول ، بالإضافة إلى جميع
محاضراتى النظامية التي كانت جديدة بمعنى من المعاني . وثلاثة أرباع الكتاب كما
هو عبارة عن محاضرات لول التي ألقيتها . وقد كتبت كل محاضرة منها في أسبوع
كما كان يتطلب ذلك الإلقاء ... »

وقاطعته مسر هوايتهد بقولها : « وكانت في حرارة التهايبا » .

« ولم أسبق في كتابتها إلقاءها بأكثر من أسبوع » .

« هل تميد الكتابة كثيرا ؟ »

« كلا . ولكنى أكتب فى بطء شديد وأحذف كثيراً » .

« هل أكون على صواب إذا قلت إن أمثال هذه العبارات لا يكتبها إلا رياضى ؟ إن نترك يختلف كل الاختلاف من كل نثر آخر » .

« أنا لا أفكر فى ألفاظ . إنما أبدأ بالتصور ، ثم أكسبه اللفظ ، وكثيراً ما يشق على الأمر » .

« إن القارئ ينطبع بأثر مماثل . فبعض يدرك معنى اللفظ ، يبدو بعد ذلك كأن فحواه يؤدى إلى وجود مستقل عن الصفحة المطبوعة ، وهو وجود يكاد يكون محسوساً . ولكن كيف حوى عقلك هذه المادة التى تتمثل فى ذلك الرتل المجيب من عظماء الرجال فى أوائل القرن السابع عشر - والتى نلسمها فى مؤلفك (قرن من المباشرة) ؟ »

وضحك ثم قال : « كنت منذ شبابى - ومازلت كما تلاحظ - كما ذكر أمامى اسم عظيم لم أعده ، أبحث عنه ، وأحفظ تواريخه عن ظهر قلب كما أحفظ نوع نشاطه ، ومن ثم فإن أسكل عصر من عصور التاريخ فى ذهنى صورة عن لون النشاط الذى كان يسوده فى ذلك الوقت وذلك المكان . وأؤكد لك ضرورة هذه الدقة ، ومن الأفضل أن تعرف على وجه الدقة أكان مارلو أكبر من شكسبير سناً ؟ وبكم سنة كان يكبره ؟ وقد عرفت على سبيل المثال أن خمسة من ذوى الشخصيات الرئيسية فى التاريخ الإنجليزى ، تتداخل أطوال أعمارهم ، وهم إليزابث ، وكرمويل ، وبث ، وولنجتون ، وفكتوريا . . . »

وسارعت مسرّ هوأتهد إلى قولها : « أره كتابك الصغير يا أولتى » .

ودخل مكتبه وعاد بكتاب صغير مجلد بلون بى من جلد المجل ، وينقصه الغلاف الخلقى . وقدمه إلى وعلى وجه سبى المعجب .

قال : « وجدت هذا الكتاب في مكتبة كبرديج أيام الشباب . وتقدي الوحيد له أنه يحوى أسماء لرجال من الإنجليز من الطبقة الثانية ، أكثر مما ينبغي » .

وقرات العنوان : (معجم مختصر للسيرة) من تأليف القس شارلز هول ، طبعة مكملان وشركاه سنة ١٨٦٦ . وليس في صفحاته سوى الأسماء كاملة ، والعناوين وتواريخ الميلاد والوفاة . واستل من داخل الكتاب صحفا من الورق الأصفر دون علمها الفلاسفة من أبونيا إلى العهد الحديث والأباطرة الرومان ، ثم قال : « وإليك فاعة بالملوك الإنجليز »

« هل تشترون الكتب من قوائم أعدت بأسمائها أو بعد مشاهدتها ؟ »

قالت مسر هوايتهد : « يدخل الواحد منا المكتبة ويخرج منها بكتاب » .

وروى لنا قصة وقعت لهما في بداية حياتهما الزوجية حينما كانا يقرآن عددا كبيرا من الكتب في اللاهوت . وقد دامت هذه الدراسة عدة سنوات ، أذكر أنه حددنا بثمانية أعوام . وبمدا انتهى من الموضوع - وقد انتهى منه فعلا - استدمى صاحب مكتبة في كبرديج وسأله بكم يشتري المجموعة كلها . فقدم مبلغا طيبا حتى لقد أحسا بالثراء ، حتى بلغ الباب وقال : « سأضرم هذا المبلغ بطبيعة الحال لحسابكما » . ولذا فقد استرسلا في شراء الكتب وأدركا بعد برهة أنهما أتقيا نحو ضعف ما قيده بائع الكتب لحسابهما !

وهذا البائع واحد من أولئك الأفذاذ الذين ما تزال المدن العلمية تؤويهم . كان رجلا قديرا ، ولكنه مغرور إلى درجة تثير الضحك ، وقد قال لهما مرة :

« لقد زرت أ كسفورد حديثا ، ولا أعتقد أن مكتباتهم تبلغ ما بلغت مكتباتنا . وقد ظفت بها ، وتفقدتها جميعا - متخفيا بطبيعة الحال ! »

وتناول هوايتهد الحديث وقال : « إذا كان بين الناس في هذه الأيام منحرف ، أبدوهم وأطلقوا عليه أسماء شبيهة بالعلمية ، وليكننا اعتدنا أن يكون بيننا أفراد من ذوى الأطوار العجيبة ، وكنا نسميهم « شخصيات » وكنا نفخر بهم . خذ مثالا لذلك فلانا الذى اعتاد دائما أن يسير على أحد جانبي الطريق ويقفز ، ثم يلتقط ورقة من أوراق الشجر ، ويشرع في قرضها « ثم نهض وأخذ يقلد هذا الشخص ويفعل مثلما كان يفعل ، ثم قال : « لو أنا أبدناه لفقدنا كتابا من خير ما لدينا من كتب دراسية في علم الفلك » .

وأدى بنا هذا إلى موضوع القوى الخارقة لدى بعض العامة من الناس .

قال : « إنك تعلم أنني أعجب بديمقراطيتكم الأمريكية ، وأعتقد أن فوارق الطبقات في إنجلترا من الشرور العظيمة . بيد أن التطبيق يسير على عكس ما يتوقع الإنسان . فأنا أعتقد أن بين الأشخاص من الطبقات المختلفة في إنجلترا (إذا استثنينا الطبقة الوسطى التجارية الطموح ، والأفراد الذين يثبون فوق سلم المجتمع) من الاحترام الصادق أكثر مما في أمريكا ، لأنك هناك تعلم أن البستاني — أو خادمة البيت — ليست لديه فرصة في الدنيا للارتفاع . أما هنا فقد ألغى الرأى القائل بأن لكل فرد فرصة متساوية ، سواء أكانت لديه الفرصة أم لم تكن (وغالباً لا تكون) حتى إنكم تفترضون قطعاً — ما لم تكونوا حذرين في تصوركم — عند ما تزنون رجلاً تصفونه بالنقص « أنه إذا كان فيه خير لأجاد كما أجدت » وهو ما يخالف الواقع كل المخالفة . إن ما يرفع المرء إلى ما يعرف بين الناس (بالقامة) كثيراً ما يكون قدراً ضئيلاً من القدرة يكون بالمصادفة مطلوباً في وقت معين أو زمان معين ، فيلقى صاحبه طبقاً لذلك ما يجزيه . غير أن ذلك قد يكون قليل الصلة — أو عديم الصلة — بالكفايات العليا للإنسان ، أو حتى بما عند هذا الفرد المرتفع من قدرات أفضل وقل من الناس من يبرز روزاً كافياً — وبعضهم لا يبرز ألبتة ، ويبقى متخلفاً من جميع الوجوه ، بالرغم

من أن لهم قدرات كامنة لا يعلم بها أحد . وبعض الناس يبرز إلى منتصف الطريق تقريباً ، يصادفهم لقاء سميد ، أو ظرف ملائم يستخرج ما عندهم من كفايات خاصة ، غير أن الكفايات المضيئة التي لم تستغل لا بد أن تكون هائلة . لأن قدرات الفرد قد لا يمكن التنبؤ بها . وقد كان ذلك أحد مكتشفات الجنس البشرى العظيمة ، ولا يزال هذا الكشف يسير في بطاء شديد . كان غامضاً في ذهن أفلاطون ، ثم قام به اليهود القدامى ، وغبرت عنه المسيحية . بيد أن المسيحيين لم يفيدوا منه كثيراً لمدة ألف عام ، لأنهم حسبوا أن عدداً كبيراً من الناس نصيرهم جهنم نتيجة لسير الأمور الطبيعي ، فأصبح الأمر لا يهمهم كثيراً . ومن ثم أخفقوا في إدراك كل ما تنطوي عليه الفكرة . . .

قلت : « إن الفكرة العظيمة تذكرنا بسرعتها وقوتها بالجبال الثلجية » .
قال : « إن متوسط الزمن الذي يستغرقه أي كشف عظيم في عالم الأفكار لكي يضم استخدامه ، أو لكي يكون له أي أثر عملي ، هو ألف عام . وإن فكرة القيمة الفذة للفرد لم يكن لها — إلى حد كبير — أي مظهر سياسي حتى القرن الثامن عشر . وعندئذ أعطاه هذا المظهر واضع دستوركم الأمريكي ، وأمت — فيما أعتقد — الفكرة الأساسية التي توحد صفوف أمتكم . وقد كانت الكتابة اختراعاً استغرق ألفي عام تقريباً حتى أصبح أثرها عسوساً . ألا تذكر أن المناقشات — حتى في محاورات أفلاطون — قلما تكون حول ما قرأه أصحاب الحوار ، بل هي لا تكون حول ذلك إطلاقاً ، ولكنها تكاذ تدور دائماً بنير إخلال حول ما (يتذكرون) ؟ لا بد أن مقدار التذكر كان عظيماً ، وأن أحد أسباب شيوع النظم هو أن نعمة الموسيقى معين على التذكر . ولكن إلى ما بعد اختراع الكتابة بزمن طويل ، لم تستخدم الكتابة إلا في القليل سوى في تدوين الحسابات ؛ فقد كانت من شئون الملاك وأصحاب المصارف ، تستخدم في إصدار الأوامر وحساب المال . ولم يبدأ الإحساس بأثر الكلمة

الكتابة في التقدم العقلي للبشر إلا بعدما شرع الإنسان يسجل آراءه وأفكاره». «إن الظلام الذي ساد بعد سقوط روما يدل على أننا أصبحنا نتمتع على الألفاظ المكتوبة إلى حد كبير. وقد استغرقت استعادة بعضها ما يقرب من ألف عام».

قال هوبارد: «كان لا بد من نقد نصوص التراث الكلاسيكي منذ بداية النهضة وما بعدها لكي يسترد العالم الحديث امتلاكه لثقافة العالم القديم. وقد تم ذلك في الخمائة العام التي تلت عام ١٢٠٠ ... بنقض النظر عن استعمال سوفوكليس للضائر. أما عن نقل هذا التراث، فقد اعتدت في لندن بين الحين والحين أن أحضر اجتماعات الجمعية الملكية، وأستطيع يقيناً أن أقول إنى حسبها، معادلة في العصر الحديث لبحوث العلماء الدراسين في المنصور الوسطى».

ولما تقدم المساء شيئاً ما، وحينما كنا نتحدث عن الجمهورية الرومانية إبان الحروب الأهلية، قال هوبارد: «لا جدال في أن ذلك المجتمع كان يسير في طريق الانحلال. ولو أن إنساناً لا يعرف مجريات الحوادث، كان يسبيل البحث عن عصر للدراسة تكون فيه المدنية متصدعة، لبداله أن هذا العصر يمثل كل الأعراض. وبالرغم من هذا فقد ظهر أغسطس الذي استطاع أن يلم شمله. عرف أن الطبقة الوحيدة التي ما برحت تحتفظ بقدرتها على إدارة الأمور، هي طبقة صغار الأعيان. ولم يكن من اليسير تجنيدهم، أو أن يرضى عنهم النبلاء القدامى، ولكنه استطاع أن يحقق الأمرين».

قلت: «أليس من العجيب أن القرون التي تلت ذلك كانت أكثر هدوءاً، ولكنها برغم هذا كانت ضميعة من الناحية الثقافية. ألم يكن تأسس على التقريب هو آخر اسم عظيم؟

ربما كان العالم تحت حكم أمرة أنطوني أفضل في إدارته من أى عهد سبق
أو لحق ، غير أنه كان فقيرا فيما أداه من عمل مبتكر . اعتقد أن الحرية لم تكن
متوافرة . »

قال هوايتهد : « إن عصور الهدوء فلما تولد الأعمال المبتكرة . فإن إثارة
الإنسانية أمر لا بد منه . »

وفي الحادية عشرة أو ما يقرب منها تناولنا الشوكولاتة . وعندما هممت
بالانصراف قالوا لنا : « أكثروا من زيارتنا . »

وقضينا مساء بأكله في متعة شائقة دون أن نفكر في الحرب .

(٢٠)

١٧ من يونيو ١٩٤١

كان صباحا مشرقا في أواخر الربيع . وكانت نوافذ مسكنهما بفندق إمباسادور
مفتحة على مصاريهما ، يهب خلالها عطر الروج الخضراء من الحقول الفسيحة
وأوراق الشجر ، يحمله إلينا نسيم عليل . وكنا نجلس في مكتب هوايتهد ، حيث
تفمرنا أشعة الشمس في بهجة وسرور . وكان بيننا اتفاقا خفيا إجماعيا على أن
تتحاشى موضوع الحرب . وفيما عدا ذلك كان هذا الموضوع يشغلنا أكثر
ساعات النهار .

وقال إن أبناء فرانكفورت كانوا عنده في اليوم السابق .

فسألت : « من تظن صاحب فسكرة منح الرئيس روزفلت درجة علمية من
جامعة أكسفورد ؟ »

وقال بعد ما فكر في الأمر : « أعتقد أنها كانت نتيجة الصلاة التي نشأت بين هالفا كس وأبناء فرانكفورت . »

واقترحت مسز هوايتهد عليه « أن يروى له النسكة الشائمة في واشنطن عن هاليفا كس . »

قال : « إن هالفا كس رجل تقي ، ويقولون إنه يقضى مع ربه ثلاثة أيام كل أسبوع ، ولكنه يمود من لدنه بأفكار بعيدة عن الصواب . »

وأدى بنا سجون الحديث إلى موضوع الأساس الثين الذي تبنى عليه فكرتنا عن المساواة بين الناس . إننا نعرف أن الأحياء لا يتشابهون ولا يتساوون ، ومع ذلك فنحن نشهى فكرة المساواة .

قال : « إنها تقوم على القدرات الكامنة عند البشر التي لا تقف عند حد . إن هذه القدرات لا تظهر عند الكثيرين ، أو لا يظهر عندهم إلا بعضها . ولكن هذه القدرات موجودة ، وليس باستطاعتنا قط أن نعرف ماهيتها . وإليك مثالا : زوج خادمتنا إنه من سلاله مرتفعات سكوت ، عامل بارع في (الشركة الكهربائية العامة) ، عنده المهارة التي تتطلب تناول الآلات في رفق شديد ، ولما كان كذلك ، فقد كان أعلى العمال اليدويين أجراً في أمريكا . وعلى حين غرة يظهر اختراع يمكن أن يؤدي نفس العمل ، فأنحط إلى الحضيض . فقصدنا ، وكشفنا أن لديه أيضاً إحساساً بالجمال يدعو إلى المعجب الشديد . »

وقالت مسز هوايتهد : « لما كنا نقيم في بيتنا بكانتون كنت أرسله إلى المدينة لينتقى لي الفارش والأقصة . وكان يعمل في حديقة أزهارنا حتى العاشرة مساءً ، وكنت لا أستطيع أن أقفه عن العمل إلا إذا هدته بالفصل . وكان دائماً يرب الزهر عندي في أواني » ثم تناول هوايتهد الحديث فقال :

« إن هذه الصفات تكن حتى تظهرها الظروف ، وأرجو ألا تفهم من ذلك أني لا أقول بأن هناك قدراً كبيراً من النباء - ولكن أصحاح الخيال من الناس إزاء هذه الإمكانيات التي لا حد لها يؤثرون أن يتحفظوا في أحكامهم . ولم نعرف بمدى امتزاج ما عند الإنسان من قدرة بما لديه من عجز »

« إنني أعبر لنفسي عن ذلك بقولي أن الأشياء التي لا نشترك فيها - بوصفنا بشراً - لا تقاس إلى الأشياء التي نشترك فيها »

قال : « إنك تتحد معي في وجهة النظر »

« جئت من مدينة صغيرة إلى عاصمة كبرى ، وبعد ما زالت على الدهشة الأولى لاحظت حقيقتين رئيسيتين : أولاً أن البرزين من الرجال ينشون في كل طبقات المجتمع ، في أسفله ووسطه وأعلى ، وبنفس النظر عن التعليم ، والأخرى أنه لولا ما في قلوبهم من حب للسلام ، لما استطاعت الشرطة في الولايات المتحدة مهما قويت شوكتها أن تحول دون أن يبيد كل منهم الآخر . ألا يدل ذلك على أن أكثر الناس حسنو النية ولا يحتاجون إلا إلى مجموعة من القواعد يسيرون وفقاً لها ؟ »

قال : « إنه من قبيل التلطف أن تصف الناس بحسن النية ، فهناك عنصر الشر قائم في نفوس الأفراد والمجتمعات على السواء . ومن المسير أن نمالج هذا العنصر عند الأفراد ، وأشد منه عسراً حينما يصاب المجتمع بأسره بالشر ويفعل السبيل . إننا جميعاً نعيش في حماية الشرطة حتى في الدولة المسالمة ، ونستخدم القوة نقمع بها صانعي الشر . ولكنك تلاحظ أننا حينما نريد أن نمالج الأمر لا نتجه إلا صوب الحالات الاستثنائية : كالقتاة المسكينة التي يحتطفها وغد ذو . ويمتدئ عليها . ولكن من ذا يستطيع أن يقول في الحالات التي لا تبلغ حد الشذوذ متى

على وجه التحديد نستخدم القوة ، وفي أى الحالات على وجه التحديد نستخدم الشرطة ، ومتى على وجه التحديد نلجأ إلى القانون ؟»

« لقد رأيت أسرى — وهى فى الطبقة الوسطى — تخطئ خطأ شديماً فى هذا . »

« إننا نجد أفضل الأخلاق ، وأحسن المعايير — فى مختلف الطبقات فى إنجلترا — عند المستويات العليا من المال ، وعند الأفراد الأرستقراط من أصحاب الضامير والمواهب . أما فيما بين ذلك — فإن كثيرين جداً من طبقات أصحاب المهن والتجارة قساء ، ظالمون ، جشعون ، أجلاف ، وأحط من هؤلاء خلقاً ، بأى معنى من معانى الخلق الصحيح . وإنى لجد فخور بالطريقة التى تقابل بها إنجلترا هذه المحنة . وقد كتب إلى نورث أنه عندما ظهرت فى لندن لافتات الأنبياء معلنة أن خطاب روزفلت الذى ألقاه منذ ثلاثة أسابيع سوف يرفع من الروح المعنوية فى بريطانيا ، اكتفى المارة فى الطرقات بتبادل النظرات وعبسوا ... وذلك كل ما كان لخطاب الرئيس الأمريكى من الأثر . إنهم يخوضون معركة ترموبيل أو مارانون ، ولا يستطيعون أن يميزوا أى هذه أم تلك ، ولكنهم على أى حالين لا يفكرون فى الاستسلام . وأظن أنك سوف تجد — بعد ما تنتهى المعركة — أن أخلاق الطبقة الوسطى ستخلى السبيل لمزيج من الطرازين الآخرين من الأخلاق ، وأن النتيجة سوف تملأ علواً كبيراً . »

« لو سألتني من أين تأتى أخلاقنا الأمريكية ، لشق على الجواب . فنحن من أجناس مختلفة وأصحاب ضروب متنوعة من التقاليد . »

قال : إن الشفقة إحدى صفاتكم هنا . إنكم تفترضون أن يعامل الناس جميعاً بعضهم بعضاً فى رفق . ولم أزر قط فى حياتى مكاناً رأيت فيه الشفقة بمثل هذا

«الشمول ، ولست أعرف مجتمعا - قديما أو حديثا - قامت فيه حالة شبيهة بهذه الحال . ولا أتردد في القول بأن الولايات المتحدة أرفع مجتمع - على مستوى عال - شهده العالم في تاريخه » .

« دعني أرد عليك في هذا : لقد ذكر لي مثل هذا القول جلبت مرى على ضفاف تشارلز في خريف عام ١٩٢٦ ، كما ذكره لي لفتنجستون في نيويورك في عام ١٩٣٤ . وأجبتها بقولي : إننا لم نمان بعند ضغط السكان ، ومن ثم لم نمان بعد الضغط الاقتصادي الذي تمانونه في أوروبا . فالشفقة هنا لا تكافئنا مثلما تكلفكم . ومن ثم فهي ليست حسنة من الحسنات التي تتميز بها » .

وأجاب هو ابتهد باسم :

« لقد ذكرت ذلك كحقيقة من الحقائق فحسب » .

وواصل حديثه قائلا : « أعتقد أن طوائفكم البروتستانتية قد وقعت في هذا الخطأ : وهو أنهم حرصوا أشد الحرص على ألا يُعلم الناس شيئا يخالف هذه الطوائف . إنك في بضعة وثلاثين مذهبا تحدرت إلينا في شكل أديان من أصول يونانية سامية ، تجد عناصر مشتركة فيها جميعا إذا استثنينا بعضا منها مما يخالف مخالفة صارخة . إنها جميعا - مهما يكن من أمر - تركّز على قواعد ثابتة ، أو هي - إن شئت - تصب في تيارات مشتركة ، وتمزج في قانون خلقى عام ، فتصبح ذات قيمة لا تقدر في تربية النشء . وأعتقد أن الوحدة الخلقية في إنجلترا اليوم تستند إلى عقائد بسيطة قليلة ، يقبلها كل فرد . إن المدرسة تحسن صنعا إذا هي بثت في نفوس النشء مبادئ خلقية تصود البيت كذلك ويعلمها فيه . ولا يلزم أن تكون هذه المبادئ كثيرة أو شديدة التعقيد . إنها لا تمدو أن تكون المبادئ العملية في الحياة ، ومن ثم يكون أساس صحها . وذلك - فيما أظن - ما تقتفرون إليه هنا في الوقت الحاضر » .

قلت : « ما في ذلك شك . وإن المرء يرى ذلك من ناحيتين : فهناك الجليل
المساعد الذي لا يعرف الاقتباس من الإنجيل أو الإشارة إليه ، كما أن التقاليد
القديمة كذلك آخذة في الزوال » .

وقالت مسز هوانيد : « إن هؤلاء النساكين لا يعرفون إلا قليلاً عما يحدث
في العالم من قبلهم ، وعما احتمل الناس وكابدوا وتقبلوا عليه ، وفهرده ، حتى إنه
إذا ما اختل وجه من أوجه حياتهم الخاصة الصغيرة ، ظنوا أن الدنيا قد تحطمت
والأسييل إلى العلاج سوى الانتحار ، مهما أدى ذلك إلى البؤس والشقاء .
في كل ما يحيط بهم . . . إنكم حينما كنتم منذ لحظة تيجتان في أساس استهائنا
للساواة الإنسانية ، أردت أن أصبح : غفر الله لكم ، فأننا آئمان مسكينان -
ارتكب كل منكم ذلك الإثم الذي يرتكبه الرجال عادة في حق الروح القدس ،
ثم محاولة الهبوط باللا محدود إلى قانون محدود يقبله العقل . ما أشد عجبى منكم ،
هلا عرفنا أن شدة رغبتنا في المساواة تنشأ من حنان الطبيعة البشرية ، من
غرابتها ، مما فيها من فكاكة ، ومأساة ، من عجزنا عن تفسيرها ؟ إنها لا يمكن
أن تصاغ في قانون . هي كذلك كما خلقت . لا نستطيع أن نفعل بها شيئاً . نحن
خياليون ، ونحن عاطفيون ، ونحن في حال تدعو إلى السخرية ، وإلى الأسى ،
نحن إنسانيون ، وكل ما نستطيع عمله - إن كانت لدينا ذرة من عقل - أن ندرك
الحقيقة وهي أن ليست المساواة إلا شعوراً وعاطفة »

« ذلك بالضبط ما كنت أقول يا أفلى » .

« نعم في منطقك الدقيق - في حين أنه أبدي ما يكون من المنطق . » ثم هزت
رأسها نحونا بشدة وقالت : « تلك هي المساواة التي بيننا جميعاً في أعماق نفوسنا » .

(٢١)

٢٨ من يونيو ١٩٤١

أقبل السيف ، وقصدت كبرج ، وأخلفت معي مسز هوانيد صندوقين من

الورد من حديقة أحد جيراني في ماريلند ، وأخذت له كتاب (المستقبل في التربة)
الذى نشر أخيراً لسر رتشارد لفتنجستون ، والذي ذكر فيه كتاب (أهداف التربة)
لهوايتهد بالإعجاب الشديد .

وكان الرجل جالساً في مكتبه ، بعد عودتهما من ميدان هارفارد ليشتريا
بدلة شتوية في أشد أيام شهر يونية حرارة ، « ولم يستطع أن يحصل عليها » .

وقلت إنى حصلت على واحدة في الشهر الماضي « ولم أبكر بشرائها دقيقة
واحدة » كما أكد لي الخائض ، فقال هوايتهد متلففا :

« لقد تأخرنا لحظة واحدة » .

إنهم يرحلون في شهر يولية مع آل بكان إلى بدفورد . وفي هذا الصدد
قالت مسز هوايتهد :

« إن جو المكان يلاعننى تماماً ، بيت كاثوليكي تراعى فيه شامراً الدين ، وإن
كنت لا أؤديها . إنه جو شبيه بذلك الجو الذى نشأت فيه في بريتانى ، بين
الكاثوليك ، وإن لم أكن كاثوليكية .

« إن ذلك يشبه إلى حد ما ارتياد الكنائس بالراديو »

قال : « لا بد أن يكون هناك في العالم الآخر مكان وسط لأمثال هؤلاء
الناس . لا هو شديد الحرارة ولا هو شديد البرودة . ولا يبلغ في كآبته حافة
الجحيم . »

« لا بد أنك تمنى لاوديسيا ، الذى ينفقه المتحمسون لأنه مكان لا بالبارد
ولا بالجار » .

ثم عدنا إلى الحديث عن زيارة الكنائس بالراديو ، وقال إن من رأيه أن الأصوات الرائنة هي خير الأصوات ، برغم خلوها من كل الأنغام الدينية التي تكسبها قوة التأثير .

قال : « إن أشد الصلوات الدينية أثرا فيما أذكر اثنتان : أولاهما قداس صغير في كندرائية في إحدى المدن — ومن المؤلم جدا أن ينسى المرء الأساء ! — على حافة النابة السوداء بألمانيا . كان هناك حشد كبير من الأنقياء . ولم يكن يوسع المرء أن يسمع شيئا مما قيل ، ولكن القديس بلغ مرتبة الكمال . كان المرء يحس أن الواجب الديني يؤدي ، وأنه يشارك فيه كل أولئك القوم الأنقياء ، أما الصلاة الأخرى فصاحبية ، غير أن الصلاة لم تدم طويلا . وقد أقيمت في مدرسة ببرمنجهام ، بعد ما توجه الكثيرون من الإلقاء المحاضرات ، التي كانت تبدأ في التاسعة ، وكان ناظر المدرسة كل صباح قبل التاسعة بربع ساعة يجمعنا في مكتبه الرحب ، حيث كنا نقضي بعض الوقت في التأمل الهادئ ، ثم يتحدث إلينا في النهاية حديثا موجزا ، كان له الأثر الصحيح تماما » .

« إنك لا تضمن في هذا الإنجلكان »

« إن صلاتهم تؤدي الغرض منها بشكل يدعو إلى العجب ؛ الطقوس الجميلة ، والموسيقى ، وفن العمارة ، والأصوات الرائنة — فيها كل شيء إلا الدين . إنها ليست دينية ، إنما هي اجتماعية » .

« كان رالف أمرسن — يسخط عليها أشد السخط . وقد بين السبب في مقاله عن الصفات الإنجليزية » .

« ولكني أعتقد أن المذاهب البروتستانتية تفتقر حتى إلى ذلك . إن الصلاة الإنجليكانية رمز لمسئولية الأرستقراط عن حكم الأمة . وهي لم تكن في المسيحية

«أصلاً . فالفلاحون اليهود ، الذين صدرت المسيحية عن بدايتهم الخلقية العميقة ، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن إدارة المجتمع المعقد . وحتى المسيح نفسه لم يقل شيئاً عنها ابتداءً ، اللهم إلا قوله : بمجرد بكم أن تدفعوا ضرائبكم ، بيد أن ذلك ليس دستوراً مدنياً دقيقاً .»

« هل تعنى أن ما خلا ذلك — من تيمة تنظيم المجتمع — أضيف فيما بعد ؟ »

« نعم ومن التناقض أن هذه الفكرة ، التي كانت حديثة في العالم عند بدايته — أقصد قيمة الفرد — التي مازلت تراها على صورة أكيدة قوية في أية كنيسة كاثوليكية ، حينما تشهد متمبداً فريداً جاثياً في معبد قديس من القديسين — هذه الفكرة قد تبناها نظام اقترف الكثير في سبيل قمع الفردية — وأقصد به الكنيسة الكاثوليكية . إن في الدين دائماً عنصراً همجياً ، وإن محاولة الاحتفاظ بكيان المجتمع هي دائماً من عمل الرجال المخلصين . ولم تبلغ هذه الهمجية — فيما أظن — ما بلغت في محاكم التفتيش في إسبانيا أو في اضطهاد الهوجونوت في فرنسا . وما يدعو إلى الدهشة أن انفصال الكنيسة الإنجليزية في القرن السادس عشر تحت حكم التيودور لم يصاحبه إلا قدر ضئيل من الوحشية نسبياً . كانت هناك بطبيعة الحال حرائق وإطاحة للرؤوس ، ولكنها لا تذكر إلى ما كان يحدث في القارة الأوروبية في مثل هذا الظرف . إن الإصلاح لم يكن دينياً مهماً يمكن من أمره . واست أدري ما كان شأن هنرى الثامن أو إليزابيث بالدين . »

قلت : « إن ما دونه ترقيليان في صفحاته عن انحلال الأديرة يؤيد ما نقول . غير أن مشكلات هذه الأديرة لم تكن واضحة كما نحسب اليوم . »

قال هراينهد : « إن اغتصاب الأملاك كان عملاً عنيفاً ، ولكنه لم يبلغ في

عنفه ما بلغت الحروب الدينية التي اجتاحت القارة الأوروبية . ولست أعرف في التاريخ سوى مناسبتين قام فيهما أصحاب النفوذ بما ينبغي أن يقوموا به بصورة حسنة على قدر ما يستطيع المرء أن يتصور من إمكان . وإحدى هاتين المناسبتين هي وضع دستوركم الأمريكي . كان واضعوه ساسة قديرين ، وصلوا إلى مجموعة من الآراء الطيبة . وضمنوا هذه المبادئ العامة أداتهم دون أن يحاولوا أن يفصلوا بوضوح زائد كيف يمكن تطبيقها . وكانوا رجالا ذوي خبرة عملية واسعة . وكانت المناسبة الأخرى في روما ، ومما لا جدال فيه أنها أنقذت المدينة لمدة تقرب من أربعمئة عام . وكان ذلك من عمل أغسطس وزمرته . لقد أنقذ روما من الرومان - أقصد الرومان سكان المدن - أنقذها من إفلاس شكل الحكومة الجمهوري ، ومن الآراء البائدة التي كانت تمتنعها طبقة النبلاء القديمة . فقد استطاع بطريقة ما أن يستدعى أولا أعيان الريف الإيطاليين ، وهم (الرجال المحدثون) أصحاب الآراء الجديدة . وكما تقدمت القرون ظهر الريفيون من أمثال القياصرة الإسبان . فامتدت بذلك حياة روما حتى منتصف القرن الثالث بعد الميلاد . وذلك حينما بدأت تنهار فيه على وجه التقريب . لقد ترك لمجلس الشيوخ نفوذا يسكني لاحتفاظهم بكرامتهم ، وكانت الحكومة - فيما خلا ذلك - في أيدي السلطات المدنية والقوات العسكرية . لقد كان ذلك عملا من الأعمال العظيمة في تاريخ الإنسان ، وإني لأشك - مهما كان ما تقوم به من تحليل شرعي - في أن أي امرئ يستطيع أن يفهم كيف حدث ذلك » .

ثم بادر إلى القول بأن الظاهر أن أحسن المدينيات هو مع مانشا عن الامتزاج العنصري : النورمان مع الفرنسيين ، والنورمان الفرنسيون مع الانجلو ساكسون ، والفزاة الدوربيون في انسكا مع أبناء البلاد .

« إذا كان العنصر (نقي) الدماء فالأرجح أن يكون الشعب غيبيا ، حتى تختلط دماؤه بدماء أخرى أشد حيوية . واعتقد أن الدماء السامية قد اختلطت

بدرجة كبيرة بالماء الأيونية ، فكان من هذا الاختلاط تلك الثقافة المستنيرة الأصيلة .

وواصل حديثه قائلاً : « ووراء ذلك كله هذه المشكلة : كيف نحى المجتمع من الركود . إن ذلك أشق أمر في الوجود . فقد ينشأ نظام اجتماعي ويعيش في سر عدة قرون . ولكنه إذا افتقد عنصر التجديد ، عنصر التقدم ، فهو شيء لا حياة فيه . وأستطيع أن أقول إن النمل والنحل لها نظم تسير في سر ، ولكنها لا تتغير . وعنصر التجديد هذا هو الذى يحدد الفارق بين الإنسان والحيوان . فالإنسان يرى المستقبل في الحاضر ، ويصير ما يمكن أدائه بما عنده من مادة موجودة . أن السكب يرى الحاضر حاضراً ، ليس غير . ولكنى لا أقول إنه يستحيل على الإنسان أن يبلغ نهاية قوته الابتكارية . وليس معنى هذا أن هذه القوة قد تنفذ ، ولكنه ربما يبلغ في دنياه حالة يكون المجتمع فيها ساكناً ، فلا تجد هذه القوة الابتكارية عنده مجالاً . وحينئذ ، تكون نهاية الإنسان . ولا تكون لمجتمع قيمة أكبر من قيمة النمل ، إذا قارنا بينهما كمخلوقين . »

وعن لي أثناء حديثه : « أن الفنانين — فيما يبدو — يرون أن هذه القوة الابتكارية شيء لا يتحكمون فيه ، وإنما يتحكم فيهم . حقاً إنهم يطورون وسائل خفية عملية نستطيع هذه القوة أن تفعل بها فعلها ، ولكن الوسائل العملية — كالألة الميكانيكية — لا تخلق ، وحسبها أنها تعين على الخلق . وقد كان جيتيه واضعاً في ذلك خلال حديثه مع اكرمان . فهو يكاد يقول إن الآلة الفنية هدية من السماء في يوم من الأيام الطيبة ، التى تمر بالفنان . ولكن القوة المؤثرة تأتيه من خارج نفسه . »

وأخذ هوانتهد بطرف الحديث فقال : « إن المجتمع الذى يستطيع أن يهبى المظروف التى لا بد منها للفنانين لكي يبدوا بحالا حراً لقدرةهم على التجديد ،

ولا أقول الخروج على المؤلف أو الشذوذ — وإنما أعني الابتكار في تطوير التقاليد الفنية، والسير قدما بأحدث ما استجد فيها — هذا المجتمع يبلغ أعلى درجات التقدم » .

« ألم يكن أفلاطون في (القوانين) — وهو من آثار شيخوخته — قاسيا في حكمه على عنصر التجديد في الفنون ؟ أو على الأقل في حكمه على فن المأساة ؟ » .
فهض ، وتطلع إلى رفوف مكتبته ، واختار أخيرا مجلدا من طبعة لُوب ،
وفتح الفصل الواحد والخمسين في تيمائوس ، وقال : « أنصت ، وسأطلعك على مقال لأفلاطون . . . » وكانت الترجمة معدلة في مواضع مختلفة بقلمه . وقال عنها مشيرا إلى كلمة يونانية : « إن المترجم قد ترجمها خطأ بالسادة » .

قلت : « ولكنها تعني [الطبيعية] أليس كذلك ؟ أو على وجه أدق تعني [النمو] أو [عملية النمو] » .

« نعم : إن أفلاطون هنا يتحدث عن [الوعاء] والفكرة بميدة لدى ، وبها شيء من النمو » وطالع صفحتين أو ثلاثا ، وأخذ يلخص ما يطالعه ، حتى بلغ الفصل الرابع والخمسين .

فقال : « وهنا — كآرى — يهبط بالفكرة إلى [الأمر المؤلف] — إلى الهندسة »

« ولكن ألم تكن هذه هي طريقته ، يتناول اللاحدود — الذي لا يستطيع أحد سواه أن يعالجه — ويهبط به إلى الصورة المحدودة ، التي يستطيع أن يفهمها متوسط الأفراد — أو المتعلمون في أئتنا القديمة — كما قلت ذات مرة ؟ »

« هذه الملاقة بين اللاحدود والمحدود هي ما كنت أستهدفه . إن عقولنا محدودة ، ولكننا برغم تحديدها نحاطون بإمكانيات غير محدودة ، والنرض من

الحياة الإنسانية أن نستوعب من اللاحدود بقدر ما نستطيع . وكما أود لو استطعت أن أثقل إليكم هذا الإحساس الذى أحس بالإنهاية الإمكانات التى تجابه الإنسانية — باحتمالات الاختيار التى لا تنهى ، بإمكان الاستحداث والتجديد فى الجمع بين شئ وآخر ، بالنتائج السارة للتجارب ، بالآفاق المتفتحة التى ليس لها نهاية ما دمنا نجرب ، وما دمنا نحفظ بإمكانية التقدم هذه ، فنحن ومجتمعاتنا أحياء فإذا فقدنا ذلك صرنا نحن ومجتمعاتنا إلى الموت ، مهما قمنا وقامت مجتمعاتنا بنشاط خارجي ، ومهما ظهرنا أو ظهرت مجتمعاتنا بظهور الرفاهية المادية . وليس هناك أيسر من فقدان عنصر التجديد هذا الذى أشير إليه . إن مبدأ الحياة فى الفكر هو الذى يحفظ علينا جريماً حياتنا . »

« وما مقدار صحة هذا الإحساس بالوحدة الذى نحسه أحياناً — هذا الإحساس باندماج فرديتنا فى الكل — ما مقدار صحة هذا الإحساس فى ظنك ؟ إننى لا أحب أن أتحدث فى هذا حديثاً خيالياً ، وخاصة لأنى لست ميتافيزيقياً ، ولا عالماً نفسانياً . ولكنى — برغم هذا — أعلم أن هذه اللحظات لا تنسى ، والإحساس بها قوى ، حتى إن المرء ليستطيع استعادتها بعد عدة سنوات ، قد تبلغ العشر ، كأنها كانت بالأمس فقط ، أو اليوم ، ويخلق منها شيئاً جديداً . »

فقال هوaitهد : « إن الصوفية تحملنا على أن نحاول أن نخلق من الخبرة الصوفية شيئاً يُبقى عليها . أو على الأقل يُبقى على ذكرها . إن الألفاظ لا تمير عنها إلا تميراً ضميماً . إننا نعلم أننا كنا على صلة بالإنهائى ، ونعرف أننا لا نستطيع أن نمير عنها بأية صورة من الصور النهائية المحدودة . . . »

وجاهرت « بأن الموسيقى قد تكون أقرب إلها من الألفاظ . فالمرء أحياناً أثناء أداء قطعة من روائع الموسيقى أداء جيداً — يحس إزاء اللاحدود بإحساس شبيه بما لا بد أن يكون الملحن قد أحس به حينما كان عليه أن يختار لحناً من

الألحان لكى يعبر عنه . إن الألحان المحدودة موجودة ، فى النغم أو فى التوقيع . ولكن الإمكانيات التى لا نهاية لها - أعنى الطرق التى يمكن أن يعبر بها عن هذا المجال الفسيح - هذه الإمكانيات تحف بهذه الألحان من كل جانب » .

قال هوايتهد : « من هذا الجهد الذى يبذل فى سبيل إنقاذ الخبرة الصوفية ، أملا فى ابتداء صيغة تحفظ هذه الخبرة لأنفسنا وربما لغيرنا أيضا - أقول من هذا الجهد يأتى الإيضاح - فى فكرة أوروبما فى صيغة فنية ، وهذا الإيضاح يتحول بعدئذ إلى صورة من صور العمل ... صوفية ، وإيضاح ، وعمل . إننى لم أستطع من قبل أن أعبر عن هذا الموضوع بهذه الصورة . ولكن هذا هو الترتيب الذى أراه » .

وقال : « إن سفة الركون قد ظهرت فى الديانة البوذية كما يدل على ذلك تاريخ الهند والصين ، وإن التقدم فىهما كان يسير إلى الوراء أو يتوقف . وإنه لم يطرأ على الصين منذ عام ١٨٠٠ ق . م . حتى العصر الحديث سوى تغيير طفيف ، إذا استثنينا هذه التغيرات اليسيرة فى بعض نظم الحياة الصغرى » . ثم وضع لنا كيف أن الفكر الديناميكى المتحرك من الصفات الدقيقة التى يمتاز بإحرازها الإنسان ، وكيف أنه من اليسير أن يفقدها .

وأدى بنا ذلك إلى الحديث عن حيوية التفكير فى مهنة الطب فى مصرنا ، وكيف تتقدم علوم الطب بسرعة ، ويحدثك أصحاب المهن برغم ذلك أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . قال :

« إن الطبيب الأمريكى الممتاز هو من أكثر النماذج البشرية تقدما على الأرض فى الوقت الحاضر » .

« لأن العلم عنده يُكرس لتخفيف الآلام » .

« بل إنى لأرد ذلك إلى أسباب أعم . إنه متشكك في وقائع مهنته ، ويرحب بالمستكشفات التي تقلب فروضه السابقة رأساً على عقب ، ولا يزال العطف الإنساني والإدراك يبعثان فيه الحياة » .

قلت : « لولا تقدمهم لت بالزائدة الدودية منذ عشرين عاماً . كان المصابون بها يموتون في عام ١٨٩٢ . أما اليوم فهي تعد من العمليات الجراحية الصغرى » .

فقال هوايتهد : « ولولا كشف في عالم الطب منذ ثلاثة أعوام فقط لت منذ ستة أسابيع » وكان يشكو التهاب الرئة ، وقد شفى منه بالدواء الجديد .

ودخلت علينا مسز هوايتهد ومعها بعض الأزهار المودعة بنظام في آنية زجاجية . ثم أخرجت (مستقبل التربية) من تأليف لفنيجستون .

فقال هوايتهد : « إنى أقدره قدراً كبيراً . وقد عملت معه مرة في لجنة ملكية للدراسة مكانة الأدب الإغريقي الروماني القديم في التربية الإنجليزية . وقد شغفت به حباً » .

وفتحت صفحة ٣٠ ، وأشارت إلى هذا الاقتباس التالي . وقرأه هوايتهد :

(إن الأستاذ هوايتهد — في أحد الكتب القيمة حقاً عن التربية — قد تحدث عن خطر الآراء الجامدة ، أى الآراء التي يسكتني العقل باستقبالها دون أن ينتفع بها ، أو يحتجها ، أو يضمها إلى مركبات جديدة ... إن التربية بالآراء الجامدة ليست عديمة الفائدة فحسب ، إنها ضارة فوق كل شيء آخر ... وقد كانت التربية في الماضي مصابة إصابة شديدة بالآراء الجامدة إذا استثنينا فترات نادرة من التخمر العقلي ...)

وَدَفَعَنِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَقُولَ بِأَنْ لَتُنَجِّسْتُونِ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى مَنْذُ بَضْعَةِ شَهْرٍ بِذِكْرٍ
لِي أَنَّ (أَهْدَافَ التَّرْبِيَةِ) هُوَ مِنْ الْكُتُبِ الْقَلَائِلِ الَّتِي قَرَأَهَا فِي الْمَوْضُوعِ، وَحَمَلَهُ
عَلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّهُ كَتَابٌ مِنْ وَضَعِ رَجُلٍ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْمَوْضُوعِ .

وَفِي الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي بَقِيَتْ مِنَ السَّهْرَةِ تَحَدَّثُوا عَنْ سِيرَةِ (كَاتَرِينَ أَرَايُونِ)،
مِنْ تَأْلِيفِ جَارَتِ مَا تَنْجَلِي ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي نُشِرَ أَخِيرًا ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ
هُوَ اِيَهْدُ ثَنَاءً عَظِيمًا .

قَالَ : « إِنَّهُ يَجْمَلُ الْأَشْخَاصَ التَّارِيخِيَّةَ إِنْسَانِيَّةَ حَيَاةٍ . وَالْأَوْصَافَ مُسْتَقْبَاةً
مِنْ الْخَطَابَاتِ الْعَائِلِيَّةِ الْخَاصَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَسْمَعُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ : كَيْفَ كَانَ
هَنْرِي الثَّامِنُ يَبْدُو فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . . . وَأَيُّ أَلْوَانِ الْعَذَابِ كَانَ طَبِ الْمَعْصُورِ
الْوَسْطَى يَلْحَقُ بِالْمُلُوكِ الَّذِينَ يَمَانُونُ الْمَوْتَ ! كَانَ كُلُّ امْرِئٍ يَمْتَقِدُ أَنَّهُ يَبْذُلُ قِصَارَى
جَهْدِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدُهُمْ كَثِيرًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ . وَكَانَتْ بِالطَّبْعِ عَذَابَاتُ عَامَةِ النَّاسِ
فِي مِثْلِ هَذِهِ الشَّدَةِ ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَحْفَلِ بِتَسْجِيلِهَا . وَبِمِطْيَكِ هَذَا الْكِتَابِ
أَيْضًا فِكْرَةٌ عَنْ كِرَاغَمَرٍ تَحْتَفِلُ عَنْ فِكْرَةِ الْإِسْتِشْهَادِ لِلْمَأْلُوفَةِ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ .
كَانَ يَمِيلُ أَشَدَّ الْمِيلِ إِلَى الْإِنْكَارِ لِسِي بِنَقْذِ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا وَجَدَ أَنَّهُ سَيَحْرَقُ بِسَبَبِ
هَذَا الْإِنْكَارِ ، أَنْكَرَ إِنْكَارَهُ . »

« اعْتَدْنَا أَنْ نَنْظُرَ أَنَّ الْحَيَاةَ فِي تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ كَانَتْ مَعْرُضَةً لِلْمَخَاطِرِ الْجَسِيمَةِ .
وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَيْنَا الْآنَ ! » .

« أَعْرِفُ ذَلِكَ . وَبِكَادِ الْمَرءِ يَخْجَلُ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْيَوْمَ حَارٌّ ، أَوْ أَنَّ
الْحَسَاءَ بَارِدٌ ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّوَافِقِ الَّتِي تَحْتَمِلُ . لَقَدْ بَلَغَ الْعَالَمُ حَدًّا مِنْ
الْاضْطِرَابِ يَحْتَمِلُ عَلَيْنَا أَنْ نَمِيدَ النَّظَرَ حَتَّى فِي أَكْثَرِ الْآرَاءِ شِيعُوا ، الْآرَاءُ الَّتِي كَانَ
يَقْبِلُهَا كُلُّ امْرِئٍ مِنْ قَبْلِ » .

(٢٢)

٣٠ من أغسطس ١٩٤١

صباح صائف ذهبي . وقد حددت بموعد سابق مع آل هوايتهد ساعة وصولي إليهم بالحادية عشرة والنصف . وقد تم الآن شفاء الأستاذ هوايتهد تماما من وطأة التهاب الرئة ، وكان بادی الصحة بشكل غير مألوف . وذكرت له ذلك .

فقال : « إن الناس يقولون لى هذا ، ولكن آثار المرض ما زالت متخلفة فى جسمى » .

« املكك تعلم من ذلك ألا تصاب بعد اليوم بالالتهاب الرئوى » .

وأمن على هذا المزاج قائلا : « أجل ، لابد أن يكون لسكل أمر درس »
« إن نيتشة - الذى اختص بالملاحظات المنفرة - له ملاحظة مؤداها أن الأمم

قد يجعل من الرجل إنسانا أعحق ، ولكنه لا يجعل منه إنسانا أفضل » .

فقال هوايتهد : « إن الهم قد يكسب المرء لونا من ألوان الإشراف ، لأنه يشحن المواهب ، ليس غير . إنه يجعل جميع انطباعات الإنسان أشد غزارة ... وقد كنت أفكر أخيرا فى المادة الشعبية : كيف تتلون بلون الزمان والمكان ، ولكنها فى النهاية - تبلغ غايات متشابهة . ففى إنجلترا إذا حدث خطأ من الأخطاء - كأن يجد المرء نارا فى حديقة - تراه يكتب إلى محامى الأسرة كي يتخذ الإجراء القانونى . فإن حدث هذا فى أمريكا اتصل تليفونيا بقسم المطافىء . وهذا التصرف وذاك كلاهما يشبع حاجة من خصائص الشعب . هى فى إنجلترا حب النظام وتطبيق القانون ، أما هنا فى أمريكا فإنكم تحبون التصرف الحى ، الحصار ، السريع »

« والذى بصحبته الضجيج ! شهدت ذات يوم فى شارع الدولة جهاز المطافىء »

يتحرك ، وهو يتألف من ست قطع . فأخليت الطرقات ، ولزم شرطى المرور مكانه لا يتحرك من شدة التنبه ، ووقفت الجماهير ترقب مايجرى . وكانت سرعة السيارات وأزرها هائلة — وكل امرئ فى غاية السعادة — وأخيراً تبين أنه لم يكن هناك حريق . »

وواصل هوايتهد حديثه قائلاً : « هذا مارميت إليه . فإن كل وسيلة تؤدى ما يؤدى غيرها ، ويرجع ذلك إلى أن تسمين فى المائة من المشقة سيكولوجى . فم عندما يتأكد المرء أن العملاء المكلفين بالعمل قد شرعوا فى اتخاذ الإجراء الضرورى إزاء حرائق الحدائق ، انصرف إلى عمله رضى النفس . »

قلت : « منذ عام ١٩١٠ — فى هذا البلد على الأقل — بات لزاماً علينا أن نعتزف بمامل جديد ، هو الطبيب النفسانى . ولكن مامدى الجدة الحقيقية فى علم الطبيب النفسانى ؟ »

وقال هوايتهد : « كان لدى الكاثوليكين بمضنه خلال تاريخهم فى فكرة الاعتراف . كنت منذ عهد قريب أقرأ — أو قل أعيد قراءة — كتاب (لنز الجزويت) من تأليف ا . ج . بويدبارت . وهو ينتقد مذهبهم فيما يسميه « علمهم النفسانى الزائف » . وبحث عنه فى الدليل ، ووجدت أنه قام بأعمال يستحق عليها التقدير ، ولكنه لا يقر لمذهب الجزويت إلا بالفضل القليل . ورأى أن هذا المذهب لابد أن ينطوى على فضل أكثر مما نسب إليه ، وإلا لما ازدهر كما عرفنا . »

« أليس هذا مثالا لأن لكل شئ تقريباً وجهين ، سواء فى ذلك الحقيقة المجردة والنظام المتبع فهو من ناحية لا يمتثل ، ومن ناحية أخرى مُرضٍ مقبول . »

« اليقين الصارم هو الذى يقضى على الحقيقة . وأرجو أن تلاحظ أننى لا أعيب اليقين ولكنى أعيب صرامته . حينما يقول الناس عن أمر من الأمور : هذا كل ما هنالك مما يُعرف أو يقال عن موضوع ما ، وعند ذلك ينتهى البحث ، حينما يقول الناس ذلك كان فيه الموت بمينه . وربما لا يصدر الشر عن المفكر نفسه ، وإنما

يصدر عن استخدام تابعيه لتفكيره . فقد أعطانا أرسطو — مثلاً — المنهج العلمى (كما قدم كذلك فى علم الأخلاق بحوثاً لها قيمتها) ولكنه — أساساً — كان الرجل الذى ابتكر طرائقنا فى البحث العلمى (وفى الملاحظة كذلك) ، ولكن فروضه المنطقية ، وتعاليمه فى التعليل الصحيح — التى ورثتها أوربا — لاتصلح إلا فى حدود إطار النطق الرمضى ؛ فلما استخدمت فى أوربا ببلدت المقول أجيالاً بأمرها من الدارسين فى المصور الوسطى . لقد اخترع أرسطو العلم ، ولكنه هدم الفلسفة » .

« هل نرى أن أهم ما يميز أضافه أفلاطون إلى طرائق التفكير هو الرغبة الملحة فى متابعة الجدل إلى حيث يؤدى — كما جاء على لسان سقراط فى المحاورات ؟ وقد يبدو ذلك غاية فى البساطة ، ولكن قل من الناس من يفهم كيف يسير وفقاً لعناه . إن المشكلة الواحدة — مثلاً — فى « محاوراته » تُقلب على كل وجه ، وبدل فيها الكثير من الناس كل رأى » .

فقال هوائيند . « إن العلماء الألمان الذين درسوا أفلاطون فى مستهل القرن التاسع عشر ضلوا السبيل فى رأى . والظاهر أنهم كانوا يرون أن عدداً من الجهال قد قدموا لنا آراء لا معنى لها حتى جاء سقراط أخيراً ووضع الأمور فى نصابها . ولست أعتقد أن هذه هى الحقيقة بقاتا . حينما يشترك فى النقاش عدد من المحترفين المختلفين ، كانت خبراتهم متنوعة تنوعاً يؤدى قطعاً إلى إضافات جديدة إلى الفسكرة التى يضمونها موضع الجدل . وربما لم يكن أحد منهم صاحب الكلمة النهائية ، وربما جانب بعضهم الصواب ، ولكنهم — مجتمعين — يلقون ضوءاً على الموضوع . وقد لانقبل آراءهم ، ولكنهم يستحقون الدرس . وأعتقد أن فى مكتب صحيفتكم الكثير من أمثال هذه المناقشات » .

« إن اجتماعات المحررين اليومية ليست إلا كما ذكرت . وقد نما تداول الرأى .

على شكل المحاورات الأفلاطونية بدرجة لم نألفها من قبل ، خلال سنوات عديدة وأعتقد أنى ربما بهذا بدأت أن أفهم الطريقة الأفلاطونية فى الجدل .

« بهذه الطريقة يتكشف الموضوع ، وتُعطى الآراء المختلفة حقها ، كما يشعر المشتركون فى الحوار أنهم بذلوا جهدهم فى سبيل غاية طيبة ، حتى وإن لم يبلغوا نتيجة محددة » .

« هل تعتقد أن هذه الطريقة قد وجدت فى أثينا قبل أفلاطون ؟ »

« أرجح ذلك إن عز أثينا قد سبق أفلاطون بقليل ، فى عهد كتاب المأساة الثلاثة العظيم — وقد كان أرسطوفان واحداً منهم . وأعتقد أن الثقافة تبلغ غاية ازدهارها قبل أن تبدأ فى تحلل نفسها . وقد كان عصر پر كليز — كما كان كتاب المسرحية — تلقائياً ، لا يشفر بوجوده » .

« إن الروح التحليلية صرت فى يورديز ، وهو آخر الثلاثة . كما تلمس فيه كذلك قدراً أكبر من طريقة الحوار ، إذ كان هذا الجانب المسرحى يقدم هذه الفكرة أو تلك ، لا باعتبارها رأياً نهائياً ، ولكن لى نجد طريقها إلى التعبير » .

« كم من الناس شهد هذه المسرحيات ؟ »

« ما يقرب من عشرين ألفا فى أثينا ، بالرغم من أن المواطنين كانوا أكثر من ذلك عدداً ، وربما بلغوا مائة وخمسين ألفا . وإنى لأنصوهم جالسين من مطلع الفجر حتى الظلام فى يوم من أيام مارس التى تنسب إلى ديونيسيا الأعظم يشهدون ثلاث مآس تتبعها مسرحية هزلية ، لثلاثة من الشعراء المتنافسين ، ولا بد أن تكون (أورستيا) لايسكلس إحدى هذه المآسى الثلاث . أين فى عالمنا الحديث الشاهدون الذين يستطيعون أن يستسيغوا كل هذا ؟ »

قال هوايتهد : « لقد كان للطباعة أثر هدام . فقبل أن تكون الصحيفة للمقل عونا كان عليه أن يقوم بعمل أشق . وإذا تذكرت أن الأمرى الأثينيين من بعثة سرقة قد نالوا حربهم لأنهم استطاعوا أن يتلوا من الذاكرة أناشيد مختارة من يوربيديز ، عرفت أنه من الجلى أنهم لم يذكروا مقطوعات قصيرة من النص الأصلي » .

« هل ترى أن منظر الكداس الكتب فى المكتبة مما يثبط الهمم ؟ وهل لو عرف المرء كل ما فى هذه الكتب أصبح أفضل مما كان ، أو أسوأ مما كان ؟ أو لعلنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال : هل يمكن للمبالغة فى القراءة أن تضعف فعلا جهاز التفكير عند الإنسان ؟ »

فقال هوايتهد : « إني أقرأ ببطء شديد . واحد أنهم يشيرون إلى أحيانا بالرجل (المطلع) . والواقع أنى لم أقرأ عددا كبيرا من الكتب ، ولكنى أفسكر فيها أقرأ ، فيثبت فى ذهنى » .

(وإذا تذكرنا حجم مكتبته فى بيت كاثون ، وفى مسكنه براندور هول ، بل وهنا فى فندق إمباسادور ، حيث تفيض الكتب من حجرة الدرس إلى حجرة الطعام ، بل حتى لو حصرننا العدد فيما كان بين أيدينا ، إذا تذكرنا ذلك عرفنا أن ملاحظته عن قلة ما قرأ من كتب ليس إلا أمرا نسبيا)

« وما رأيك فى هذا الاهتمام الحديث (بالسرعة) فى القراءة ؟ » .

« ليست السرعة ديدنى . ثم إني فى بعض قراءاتى أغفل بمض الصفحات . فأمس مساء - مثلا - كنت أقرأ هذا الكتاب الذى أراه فى حجرك عن الجزويت . ولما وجدت فى بدايات الفصول المتتالية أن المؤلف لا يغير وجه الموضوع الذى أدركت من قبل منغزاه ، لم أتردد فى الإغفال » .

ثم انتقلنا إلى الحديث في نوع الكتاب الذي يحتم على قارئه أن يقوم (بمعلم) ما إن كان يرى إلى الإفادة مما يقرأ . إن (تأملات) ماركس أوريليس يمكن أن تقرأ كلها في بضعة ساعات ، غير أن نقل ما في هذه التأملات إلى فكر وعمل قد يكون شغل الحياة كلها . ثم سألت :

« هل طرأ لك - بعد الحياة التي عشت والعمل الذي أدبت في المجتمعات العملية - أن المرء قد يبالغ في تحصيله الدراسي ؟ »

قال : « إن الجامعات تشبه كل أداة ضرورية أخرى - مثلها مثل السلاح ، لا بد لنا منها ، وإنه ليعذر علينا أن نتابع ثمرة الحضارة بغيرها . ولكنها - برغم قيمتها القصوى - قد تكون كذلك شديدة الخطر . إن هارفارد لم تحتفظ بمكانتها العاليه كقلمة من قلاع الفكر إلا بسبب مدارس الخريجين ، حيث تقترن المعرفة بالعمل . »

« شغلتنى أخيراً فكرة أود أن أعرضها للنقد ، وهي أن تأثير التفكير الديني في أمريكا في القرن التاسع عشر كان لا يزال قوياً . فلما أقبل القرن العشرون ، وظهرت العلوم ، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى ، ضعف هذا التأثير ، وانتقلت القيادة إلى علماء التربية حوالى عام ١٩٢٠ . أما الآن فإن دلائل كثيرة تشير إلى أن القوة الدافعة في المدنية الأمريكية - بعد نحو جيل - قد يتولاها رجال الفن - وأنا أستخدم الكلمة هنا بأوسع معانيها : البدعون . »

فقال : « إن توارىخك تحيرنى بعض الشيء . ومن رأي أنى أنه قد مرت بكم من قبل فترتان سميدتان من الانتعاش في هذا البلد : إحداها في إنجلترا الجديدة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حينما نعمت حقاً بمصر من أعظم ما مر بالدنيا من عصور ، وإن يكن لم يبلغ بعد من الشهرة ما يستحق ؛ والأخرى في أعقاب القرن الثامن عشر ، عند تشكيل دستوركم الأمريكى . ولست أعنى

أن واضعى الدستور كانوا يقومون بعمل مبتكر من جميع نواحيه ، فإن بعض آرائهم قد انقضت عليه من قبل مائة عام - وربما يعود إلى لوك - أو إلى ما قبل ذلك . ولكنها كانت آراء فريدة ، لا لأنها فصلت ما يتبع من إجراء ، ولكن لأنها وضعت مبادئ عامة تدير عليها دولة ديمقراطية عظمى . ولست أعرف سوى مثالين اثنين تم فيهما بطريقة واعية عمل بمثل هذه الضخامة . هذا أحدهما ، أما الآخر فقد تم طبقاً لمبادئ لا تحقق لك ، ولا تحقق لى ، مُثلنا فى الحرية . ولكنه - بالرغم من هذا - أنقذ المدينة ، وورث الأجيال القادمة رأياً جديداً حتى للمصور الوسطى ، التى مكنت مؤسسات الأديرة من نقل الميراث القديم . وأقصد حينما كان أغسطس قيصر لا يتوجه بالخطاب إلى طبقة النبلاء الصغيرة ، أو الرعاى الذين لا يعتمد عليهم وإنما يتوجه به إلى الطبقة الوسطى المتناسكة ، أولاً فى روما وإيطاليا ، ثم فى الإمبراطورية بأسرها فيما بعد . إن أحداً لا يجب بنظام الحكم الإنجليزى من كل قلبه مثل إعجابى ، وكذلك لا يستطيع أحد أن يقول على وجه الدقة فى أى وقت ظهرت فكرة الملكية المقيدة . فان الفكرة قد نمت بغير وعى . ولم تكن فكرة من ابتداء شخص بعينه أو زمن بذاته . غير أن نظام أغسطس ودستوركم الفدرالى كانا ثمرة لجهد واع . والنظام الإنجليزى - فوق هذا - يصعب نقله ، ولم يستطع أحد أن ينقله بصورة ناجحة إلا الشعوب التى هى من أصل إنجليزى ، والتى أنشأت مجتمعات استعمارية ، فى أما كن مثل استراليا ، وأفريقيا وأمريكا الشمالية . »

« من الواضح أنك تستعمل لفظة ، [الفنان] بمعنى خالقى الدول العظمى » . فواصل هو أبعد حديثه قائلاً : « وأنت تستعمل كلمة الخلق بالمعنى الذى أعطيه لكلمة [الجدة] . منذ مائة ألف عام - أو ما يقرب من ذلك - فلا يعرف أحد متى كان ذلك - خطأ الانسان خطوة فى تطوره عنخفضت عن تقدم سريع . تلك هى قدرة الإنسان على الابتداء ، قدرته على التجديد ، حبه للمعرفة ، وميله إلى

البحث . وأخشى على الإنسانية من فقدان هذه القدرة . ومن الأماكن القليلة التي لا تزال فيها هذه القدرة مطلقة هنا في الولايات المتحدة . ولست أقول إنه ليست هناك وسائل تستطيعون أن تبرزوا فيها تحسنا . فأنا أعتقد أن هناك مناطق تحسّنون لو خفّضتم نسبة القتل فيها . ولكننا حتى مع اعتبار شيكاغو في أسوأ ظروفها ، في العقد الثالث من القرن العشرين ، قبل أن تتدخل السلطات عندهم وتوقف الحوادث عند حد ، ولكننا - مع ذلك - نستطيع أن نقول إن الحياة عامة ، حياتك وحياتي ، أقل تضرراً للتدخل وأقل تضرراً للخطر هنا منها في أي مكان آخر فوق الأرض إن الظروف لا تلائم تقدم المواهب إلا في عصور سعيدة معينة ؛ وفي بلاد معينة - كبلاد اليونان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وروما في القرن الأول بعد الميلاد . وحتى حينئذ كان مقدار المواهب التي استتبطتها الظروف الملائمة المؤقتة محدوداً ، فإن المواهب الكامنة كلها ، أو الأفراد الموهوبين جميعاً ، لا يجدون التشجيع المطلوب . وحينما نحل هذه الأوقات السعيدة ، لا نعرف كيف نطيل أمدها .

فعلقت بقولي : « إن الدراما لمهد إليزابيث لم تقدم طويلاً ، وقد بلغ ازدهارها ذروته فيما بين عامي ١٥٩٠ و ١٦١٢ ، وما إن هل عام ١٦٢٠ حتى بدأت في الذبول » .

قال : « كانت بذهني هذه الفترة بأكملها . إن الفن يزدهر حينما يكون هناك إحساس بالمغامرة ، إحساس بأن شيئاً لم يتم عمله فيما سبق ، إحساس بالحرية التامة للتجريب . أما حينما يدخل عنصر الحذر ، فعندئذ يحدث التكرار ، وفي التكرار ، موت الفن . كانت عندهم هنا في أمريكا فترة طيبة حتى حوالي عام ١٨٦٠ . وبعدئذ ساد الاعتقاد بأن الشيء لا يكون حسناً إلا إن كان مستورداً من أوروبا » .

« أجل ، وإنك لتعس أن الرجال من أمثال أمرسن وثورو كانوا ينحونهم عن هذه العقيدة . أما بعد منتصف القرن فقد انتشرت الفكرة كما ينتشر الوباء » .

قال : « إن الحريين العالميتين قد حطمتا أوربا وحزرتا أمريكا » .

« إلا إذا انحرفنا من جراء افتقارنا للتجانس المنصرى ؟ »

« بل إن الأمر على تقيض ذلك ؛ فقد كان هذا الافتقار لكم كسبا . ولست أعرف حالة في التاريخ شبيهة بجاتكم، التي جمعت النفوس الحية المفاخرة من مختلف الأجناس في بيئة ملائمة لخلق ثقافة كبرى . اللهم إلا في حوض البحر المتوسط في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد (وهو المصوره) ، حينما كان الإغريق والفينيقيون والإيطاليون وغيرهم ممن لا أعرف يشقون البحر في الزوارق يخلطون الأجناس ويؤسسون المجتمعات الجديدة . وإن الأمر ليدعو إلى العجب إذا لم تفيدوا من موقفكم هذا » .

« لا أعتقد أني أدرك تمام الإدراك ما تعنى من قولك : إن في التكرار

موت الفن » .

« إذن فخذ في البناء مثالا ، لقد نشأت في بقعة في إنجلترا هبط فيها كل من جاء إلى بلادنا ، من قيصر إلى إرساليات التبشير ، إلى الدماريين ، والنورمان ، وغيرهم . وكانت كنيسة أبي مثالا ، وكتدراية كانتبري مثالا آخر (وأستطيع أن أتصور الآن السكان الذي قتل فيه توماس أبكت ، ، وسلاح الأمير الأسود في الجناح الجنوبي من المذبح) . وقد اطلعت على الموضوع ، ولا أومن البتة مع س الیوت براهيه فيما حدث في كاتدرائية كانتبري . وأؤكد لك أني لا أزعج أني أعرف كثيرا عن الموضوع ، ولكني أحس أن الأمر لم يكن كما قال الیوت — إن كل المصور التالية راسخة في تلك الباني : جدران الكنائس القديمة ، ثم الأقواس النورماندية الثقيلة ، ثم الأقواس الفوطية الأخف والأشد زخرفة التي انحدرت من العهد الوسيط ، وأخيرا الأقواس الفوطية البالغة في الزخرفة التي جاءت من العهد الأخير . ولكنك لا تجد تكرارا . ولم يكن هناك سوى اعتماد طفيف جداً على ما سبق ، وفي كل عمل بداية جديدة » .

قلت : « كنت منذ برهة نتحدث عن موت الحقيقة الذى ينشأ حينما يحاول الناس أن يقننوها فى عقيدة ثابتة أو فى نظام قائم يأملون أن يحتفظوا به للأجيال القادمة . وحتى أفلاطون ، فى شيخوخته على الأقل ، كان فيما يبدو - لا يود أن يجد مجتمعه التالى فرصته (وربما كان ذلك فى الواقع لأنه شهد الكارثة فى أثينا) . ولكن أليست الصعوبة فى كل أمثال هذه المحاولات أن تشبب الوجود أفسح مجالاً من أى نظام مهما اتسمت رفقته ؟ » .

قال : « إن الرغبة فى نموذج من نماذج الوجود ميل طبيعى شائع جداً ، وهو ميل إلى أن يكون لتجربتنا معنى ، وتطبيق ، وأن يكون لها مغزى . إن فروض العلم لا تتغير . وقد لا يمثل النموذج شيئاً أكثر من فكرتنا عن حياتنا ، كما نود أن تكون ، وقد لا يمثل شيئاً أكثر مما نفترضه فى عملية علمية ، ولكنه يثبت أقدامنا . فإذا تحدثنا عن السذاجة ، فالعلماء هم السذج ، فقد رحبوا عدة سنوات بفروض تهدم مزاعمهم السابقة ، وقد رحبوا بها كشرط من شروط التقدم ؛ فى حين أن علماء الدين - وأنا أعتبر علوم الدين المسيحى كارثة من أعظم الكوارث التى حلت بالبشر - هؤلاء العلماء لو اعترفوا بأن مزاعمهم قد انقلبت ، عدوا ذلك هزيمة كبرى لهم . (فى حين أن موقفهم كان يترزع ويتبدل دائماً ، حتى إن عقائد اليسوم - فى بعض المستويات العقلية - لا تكاد تتفق فى شىء مع عقائد الشعب نفسه - أو غيره من الشعوب المائلة - التى سادت منذ سبعين عاماً) . ولكن الأمر كذلك فى العلم إلى حد كبير . وقد انقلب « تقدم » العلماء ، سواء أدرك العلماء ذلك أم لم يدركوه » .

« ذكر كرسب ليك^(١) فى حضرته ذات مرة أن أباه - وكان طبيباً باطنياً -

(١) كرسب ليك عالم من علماء الدين ، ولد فى سوتها بيتن بأнгلترا عام ١٨٧٢ . وتعلم فى كلية لنسكان بكسford . واشتغل أستاذاً لعلوم الدين المسيحى القديمة بهارفارد بين عامى ١٩١٤ و١٩١٩ ، ثم أستاذاً لتاريخ الكنيسة من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٣٢ ، فأستاذاً للتاريخ من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٨ .

سئل في شيخوخته عما كان له أكبر الأثر أثناء حياته في تخفيف آلام البشرية ، فأجاب بقوله « التخذير » وتدهور علوم الدين المسيحي ، وكان ذلك في عام ١٩٢٢ وقد كان اهتمامه - كما كان اهتمامك - [بعلوم الدين] .

فأجاب هو ابتداءً بقوله : « ليست بنا حاجة إلى الخوض في هذا الموضوع : وهو هل كان المسيح شخصية تاريخية مؤكدة من جميع الوجوه ، أم هل كان من أولئك الأشخاص الذين تتعلق بهم حاجات عصر من العصور وأقواله وآماله ، ويحسن - فيما أظن - أن نبدأ بطبقة وسطى زراعية في فلسطين ، سليمة جداً ، على درجة عالية من الثقافة بالنسبة لزمانهم ومكانهم (كما نقرأ في الكتب المقدسة في الكنائس القديمة ، كإنجيل الملك جيمز في الكنائس) ونبدأ كذلك بمستوى عال جداً من الأخلاق . ثم إلى جانب هؤلاء كانت الزمرة الأخرى في بيت المقدس ، التي أستطيع أن أسميها « زمرة الأسانذة » . وقد ظهر في نفس الوقت تقريباً خطيبان دينيان قويان شميان ، وهما يوحنا المعمدان ويسوع . وكان كلاهما مكروها من الأسانذة في بيت المقدس ، لأن تعاليمهما انتشرت ، وأشاعت قواعد خلقية جديدة أشد نقاء . ولذا فقد أعدم أحدهما على يد هيرود ، وهو حاكم وطني ، كما أعدم الآخر على يد حاكم روماني . وفي الحق أنه لم يفعل ذلك بنفسه ، ولكنه سمح لغيره أن يفعله . إن تعاليمهما التي ذاعت لم يكن فيها شيء جديد حقاً ، فقد عبر عن أكثر أفكارها من قبل الأنبياء القدامى ، الذين جرى في عروقهم الدم النبيل - أشعيا وعاموس وأرميا - ولكنهما عبرا عنها تعبيراً مباشراً قوياً غير معهود .

« وقد قلت من قبل - وربما كان الحديث موجهاً إليك - إن الاضطراب يبدأ بفسري المسيحية . كان الحواريون قوماً ثابتين إلى درجة تدعو إلى الإعجاب . وكان هناك في مبدأ الأمر أمل بأن تخرج خصائص الأنظار الإغريقية القوية التي كانت تنتشر في العالم في ذلك الوقت - آراؤهم في الحرية ، والديمقراطية ، واستنكار

الوحشية ، وما إلى ذلك - كان هناك أمل في أن تخرج هذه الخصائص بخير .
 ما في الفكر اليهودي - الذي لم يكن كل ما فيه بطبيعة الحال بهذا السوء -
 ولكنه لا يخلو من ومضات الفطرة السليمة التي تنطوي على الخير والرحمة ،
 ثم تبدأ الكارثة بعد ذلك . وتجدها عند كل من تلا من مفسري المسيحية من
 أغسطين ، وحتى عند فرانسيس الأسيسي ؛ الرقة والرأفة في جانب من جوانب
 المسيحية ، ولكنها تقوم منطقياً على مجموعة من الآراء المفزعة . فقد عاد الإله
 الجبار القديم ، والحاكم الشرق المستبد ، وفرعون ، وهتلر ، وكل ما في العقيدة
 عندهم رغم المرء على الطاعة من آلام الطفولة إلى عذاب الجحيم . وإنك لتجد
 عند أغسطين آراء تدعو إلى الإعجاب ، فهو يشع الضوء إشعاعاً . ثم إذا أنت
 بحثت في الأسس العميقة لمبادئه ألفت هذه الهوة المفزعة . كانت قلوبهم على
 صواب ورؤوسهم على خطأ . ولم تنبعث من رؤوسهم دعوة طيبة . وتسكاد
 لا تصدق أن المالمين - عند سنت فرانسيس مثلاً - عالم الخير والرحمة ، وعالم الجحيم
 الأبدي ، أمكن أن يستقرا في صدر واحد . هذه الكارثة الدينية هي ما أعنى .
 عندما أتحدث عن الشر الذي يترتب على اختفاء روح التجديد ، وعلى محاولة
 وضع الحقيقة في صيغ جامدة ، وعلى التصدي للقول بأن (ذلك هو كل ما هنالك
 مما يمكن معرفته في الموضوع ، وبه ينتهي الجدل) .

« وربما تحدث إليك من قبل عن الدينية الجامدة في الصين . فقد أتى وقت
 كنت فيه الأمور عن التنير . وإن أردت أن تعرف السبب فاقراً كنفوشس .
 وإن أردت أن تفهم كنفوشس فاقراً جون ديوى . وإن أردت أن تفهم جون ديوى
 فاقراً كنفوشس . أراد كنفوشس أن يتخلص من الآراء السخيفة . إن الحقائق
 البسيطة ينبغي أن تسفك ، ولا تضيع الوقت في السؤال عن النيات النهائية من
 وراء هذه الحقائق ، (واعلم أني أعجب أشد المعجب بما جعله جون ديوى ممكناً
 في تطور جامعاتكم الغربية ، وإنما أتحدث هنا عن نتائج مبادئ البراجماتية -

أو المذهب العملي) . وهكذا عرف الصينيون الإبرة المغناطيسية . إن الحديد إذا وضع في أوضاع معينة يجعل المشر يتجه نحو الشمال . ويقول كنفيوخس « وينبغي لك أن تسكتني بهذا » ولكن حينما دخلت البوصلة المغناطيسية غربي أوروبا ، ماذا حدث ؟ شرع الناس في الحال يوجهون الأسئلة السخيفة : لماذا ؟ ما الذي يجعل الإبرة تتجه نحو الشمال ؟ ، ثم تبعت ذلك في الحال نتائج مشمرة من كل الأنواع ، فعلوم الرياضيات التي كانت تكون عديمة الفائدة لمدة ألنى طم تحولت إلى أداء الخدمات . . . وما إلى ذلك . وهذه هي الأسئلة « الزائدة بيمينها التي تتجاهلها البراجماتية » ثم ابتسم وقال : « إنك بالطبع إذا ذكرت كتابة أن الفرد ينبغي أن يُصنى إليه ، وأن هذه الأسئلة السخيفة ينبغي أن تُسأل ، تنبه في الحال ثلاثة آلاف معتموه وضايقوك بخطابات نحوى أسئلة سخيفة فعلا ! »

قلت : « هذا حق . لأنني ذكرت ذلك كتابة وضايقني ثلاثة آلاف معتموه بخطاباتهم » .

وواصل حديثه قائلا : « ولكن المهم هو أن [السؤال السخيف] هو أول إشارة إلى تطور جديد كل الجدة . هب أننا أخذنا بهذا البدأ في مجال الأخلاق . وما هي الأخلاق في أى وقت معين أو مكان معين ؟ إنها ما تميل إليه الأغلبية في ذلك الوقت وذلك المكان ، وسوء الأخلاق هو ما يمتقونه . بيد أن [السؤال السخيف] إذا طبق على الأخلاق يفتح الطريق إلى استكشاف غايات قليلة تكمن وراء كل المذاهب الخلقية ، وهو مجال لم يتم فيه حتى الآن إلا القليل » .

(٢٣)

١٠ من سبتمبر ١٩٤١

كنت قد ذكرت ، للأستاذ هوايتهد في أوائل الصيف أني دونت معاداته

فى منذ كراتى منذ عام ١٩٣٣ . وكان يعلم أنى قد استخدمت أجزاء منها بين حين وآخر منقولة بحرفها تقريباً فى افتتاحيات صحيفة جلوب ، لأننى كلما فمات ذلك أرسلت له عددا من الصحيفة . وبرجم السبب المباشر فى ذكر ما قلت له أن نورت ومارجوت وأريك ، ابنه ، وزوجة ابنه ، وحفيده ، كانوا فى إنجلترا ، واثنان منهما - ها نورت ومارجوت - فى لندن تحت وابل القنابل . وفوق هذا ألهم الشخصى ، كان قلقه على إنجلترا ، وعلى أوروبا ، وعلى مستقبل الحضارة . وقد طانى من الحرب عناء شديداً فريداً ؛ لأنه كان يدرك - أكثر من غيره - ما يهدد مستقبل البشرية من خطر .

ولم يدرك بخلاى نشر هذه الأحاديث . وإنما كنت أرى إلى أن أقدم له لونا جديداً من الترفيه - مهما يكن وجزأ - من هذا الجهد اليومى ، الذى بدأت تظهر آثاره بصورة واضحة ، وقد بدأت فى طبع هذه المحادثات على الآلة الكاتبة فى منتصف الصيف وكنت أرسلها إليه كلما تم طبعها ، وسرت على ذلك فى الصفحات المائة الأولى تقريباً ، واستنفدت الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ، وفى نيتى أن أتابعها فى الخريف حتى الأحق بها تاريخ اليوم .

وكان اليوم الأربعاء ، الماشر من سبتمبر من عام ١٩٤١ ، وتوجهت إلى كبردج لسكى أراه فى الأصيل . وقد بدأت أشجار الدردار فى فناء السكينة تزدهر قبل الألوان المستاد ، وإن يكن اليوم ما يزال صائفاً حاراً رطباً .

وكان مسكنه فى فندق إمباسادور فى الطابق الخامس ، فكان بارداً يتخلله الهواء ، والستائر الفينيسية ترد وهيج الشمس . وكان اليوم مما يقضيه هوايتهد فى الفراتس ، فاستقبلنى فى حجرة النوم ، وهى حجرة بهيجة ، تضيئها الشمس ، وجدرانها ملونة باللون الأزرق الفاتح . وقد جلس مستنداً إلى الوسادات ، وإلى جواره مكتبة صغيرة ، تبدو رطبة مريحة .

وكان يطالع ما نتم طبعه من المحاورات ، وقد ألقى في مادتها مضمون أقواله
غرضي عنها ، ثم سأل :

« كيف تستطيع التذكر بكل هذه الدقة ؟ »

فذكرت له خبرتي السابقة . إذ كنت في شباني مراسلاً يكتب بالاختزال ،
وقضيت ثلاثين عاماً أتدرب على تسجيل أحاديث الآخرين .

وتصفح المحاورات المطبوعة ، وكان يتوقف هنا وهناك .

ثم قال : « إن آمالك في نشر هذه المحاورات لا تبشر بالخير في الوقت
الحاضر . لقد انحدرت من طائفة طويلة العمر . ولما مات جدى في السابعة والثلاثين
نهد صديقه القديم سر موزيس منتفيور صائحاً : « مسكين هو أبته ، فقد اقتطف
في زهرة العمر ! »

قلت : « لو استطعت أن أسقبدل بك كتاباً عنك كانت صفقة خاسرة . »

« لقد اقتضيت ملاحظاتك الخاصة أكثر مما أحب »

« إن هدفي من الكتابة هو أن أذكر ملاحظاتك أنت »

واقترح على ، إذا واصلت تسجيل الأحاديث في المستقبل ، أن أروى ملاحظات
المحدثين الآخرين بدرجة أكثر إسهاباً . وتفاهمنا دون أن نطيل الكلام ، وكان
ما تفاهمنا عليه هو هذا : إن الآراء التي يقدمها المتكلمون الآخرون ضرورية
لتنفق الفكر ، حتى إن لم تكن ذات أهمية خاصة في حد ذاتها . المحاورات
تبادل في الرأي ، ولست أنه لا يجب أن يظهر بمظهر المستغرق في الحديث التردى
أو المحتكر للكلام . وهو براء من هذا وذاك . ولما كانت محاورات ، فهي تسير
على المبادئ التي أشار إليها في محاورات أفلاطون ، حيث تجد متكلمين
متعدين يقدمون آراء مختلفة ، دون أن يحاول أحد منهم أن يكون
يقينياً حاسماً .

وقلت معتذراً : « لنعد إلى الحديث في الهلينية والمعبرية ، وقد نعتقد أنى أكثر من إثارة هذا الموضوع . ولكن عذرى - إن صح أن يكون هذا عذراً - هو أنى أنفقت السنوات أدرس العلاقة بين هاتين القوتين الأساسيتين في المدنية التربية ، وأنت أحد الأشخاص القلائل الذين يمكن أن يكونوا ذوى فائدة لى . فقد قرأت الكتب وقت بالتفكير . وربما كان لتكرار البحث هذه الميزة : وهى أن يعود الموضوع نامياً متطوراً ، كما يحدث فى النعمة المتكررة فى القطمة الموسيقية » .

قال : « إن اليهود - كجنس - ربما كانوا أقدر الأجناس فى الوجود . وإذا كان الشخص الموهوب ساحراً ، ويستخدم قدرته الخارقة فى مصلحة الآخرين ، قلنا إنه نموذج السكال ، وعنده الناس . وعلى نفس القياس ، إذا كان الشخص صاحب القدرة الخارقة منفراً غير محبوب ، فإن قدرته تزيد من نفور منه ومن كراهيته . ومن ثم فإن الأفراد المنفرين فى هذا الجنس هم الأكثر بروزاً » .

فقلت مسز هوايتهد : « إن نفور الناس منهم لا يزيد قيد أعلة عن نفورهم من الأنجلوساكسون . وقد نشأت فى ريتانى ، ثم رحلت إلى إنجلترا ، فبكت حديثه التعرف بالجنسين ، ، فأنا إذن على علم . »

قال : « من الإنجليز طائفة على يسار ، ترتكز على عماد من الملك والأمره ، يمتد تاريخها إلى جيلين أو ثلاثة مضت ، وهؤلاء ثمرة تجربة ضيقة ، وتماطف محدود ، عرفوا فى العالم كله بأنهم قوم ينفرد منهم الناس » .

قلت : « هذه شخصية يصورها الأدب » .

قلت مسز هوايتهد : « أجل ، بل وبصورها أدب بلاده » .

فقال الأستاذ : « وإلى جانب هؤلاء هناك آخرون على شىء من الضيق المالى .

هم الأبناء الثوانى أو الثواك فى الأمر التيسرة ، حرموا من الميراث طبقا للقانون .
الإنجليزى الذى يورث الابن الأكبر وحده . إنهم يذهبون إلى المستعمرات ،
ويحسنون السلوك ، ويلقون احتراماً كبيراً ، ويستخدمون مواهبهم فى الإنشاء
والتمير .

وعدت إلى الحديث فى أمريكا والفن فى القرن الحالى ، وهو موضوع لم يتجه
وجهته الصحيحة فى حديثنا السابق .

قال : « إننى لم أقصد أن أقنعك بأن الفنان ليس شخصية غاية فى الأهمية
فى أمريكا اليوم . الواقع أنكم هنا الآن فى موقف يشبه فى كثير من الوجوه
الموقف فى بلاد البحر المتوسط التى تقع حول بحر إيجه فيما بين عام ١٠٠٠ ق . م .
وعام ١٠٠ بعد الميلاد على وجه التقريب . كان هناك يسر شديد فى النقل المائى ،
تسهيله مجموعة من الجزر ذات موقع مناسب . وقد ساعد ذلك على نقل الأفكار
وامتزاج الأجناس الموهوبة . إن الجنس [النقى] يرجح أن يكون غيباً — مثل
أهل لاسديميون — ولسكنك إن مزجت عنصر آتسكامم الفزاة الدوريين أو أهل
أبونيا بالآسيويين ، وصلت إلى نتأج باهرة . وأعتقد أن السكان الوحيد الذى زرنه
ووجدته شديد الشبه بأثينا القديمة هو جامعة شيكاغو . ومن ثم ترى أننى أبحث
عما يضارع عندكم فى أمريكا ما كان فى البلاد التى تقع حول بحر إيجه ، وأعتقد
أن ذلك يتحقق فى الغرب الأوسط . »

قلت : « من الناحية الجغرافية قد يكون الغرب الأوسط عندنا كبلاد بحر
إيجه . ولكن وسيلة النقل هنا هى السيارة . »

قال : « إن الحوادث الكبرى ، وهى النقاط التى ينتقل منها تاريخ البشر
انتقالاً جديداً ، هذه الحوادث ، قلما تكون — بل هى لا تكون قط — ثمرة
لسبب واحد ، إنما هى تنشأ حينما يجتمع سببان أو ثلاثة . وأضف إلى سيارتكم

انهيار أوروبا . (ولم يعد من الضروري لملائكم أن يذهبوا إلى برلين أو لندن لكي يتمتعوا بما يجري . بل إن ذلك في الواقع أمر مستحيل) . ولهذا السبب : انهيار أربا والسيارة ، أضف عاملاً ثالثاً ، وهو امتزاج عناصر من أجناس عديدة ممتازة هنا ، وقد بدأ الأفراد الموهوبون - نتيجة لهذا الامتزاج - في الظهور . وينبغي ألا ننسى وسائل الاتصال والنقل السريع ، الطائرة واللاسلكي ، التي وحدث الحياة في هذا الكوكب . ووضعت أمريكا في قمة المدينة الحديثة »

وعاد إلى الحديث في مكانة الفنان في تطورنا القومي ، فقال : « وفي الفنون أيضاً ، تنتقلون انتقالاتاً عظيمة حينما يعالج البسطاء عندكم - لأنهم شديدو الاهتمام بجمام الأمور - موضوعاً قديماً من زاوية جديدة . لقد كان أهل البحر المتوسط يمتازون بالبساطة . أما في نيويورك - مثلاً - فإن طراز الرجل الأمريكي يميل إلى التعقيد ، إذ أنهم قد سمعوا بكل شيء ، ويرون أن الموضوعات الساذجة قد باتت مطروقة . هذا هو حالهم . ولكن الفن العظيم هو معالجة الموضوعات البسيطة بمعالجة جديدة . أي شيء أكثر ترداده من قبل كموضوعات مسرحيات شكسبير ؟ حقاً لقد كان يضع حوادثه هنا أو هناك في الزمان والمكان . ولكن شخصياته كلها إنجليزية من عهد إليزابيث ينظرون إلى هذه المشكلات القديمة البسيطة في ضوء الحياة المعاصرة . إن موضوع [هاملت] قصة قديمة انقضى عليها ثلاثة آلاف عام قبل أن يتناولها شكسبير . ولكن القوم البسطاء ينظرون إلى كل موضوع نظرة جديدة . ولذا فهم يتناولون الموضوعات القديمة ويخلقون منها شيئاً جديداً » .

« هل تذكر جيئة ، في أواخر القرن الثامن عشر حينما بدأ الناس يهرعون إلى أمريكا ، إذ جعل أحدهم يعود من أمريكا إلى أوروبا ويقول : « هنا - وليس في أي مكان آخر - تكون أمريكا » .

فقال هوينهد : « لقد انقلب الوضع ، انهارت أوروبا ؛ والمدنية بين أيديكم ،
والآن هنا - وليس في أى مكان آخر - تكون أمريكا » .

وتحدث عن الدور الذى قد يلعبه الكاثوليك في مستقبلنا .

قال : « تكاد الولايات المتحدة أن تكون الميدان الوحيد الذى يبشر بالخير
ولم بطرقه . إنجلترا في القرن السابع عشر ، وفرنسا في الثامن عشر ، أما ألمانيا
وإيطاليا فهما في أبهى الفاشيين ، وإسبانيا في ثورة ، والميكسيك شيوعية ،
وأمریکا الجنوبية لا تجدى كثيراً . وإنى لأعجب لنفوذ الأساقفة الأمريكان في
روما . إن الماركسية تعتبر اليوم عدوهم الأول ، أقصد قوة الدافع الاقتصادى .
إنهم لم يتخلوا عن مكانهم خلال القرون إلا بالتدريج البطيء . كان البابا من
عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الى عام ١٥٠٠ - فيما أحسب - أقوى شخصية في أوروبا .
ثم تحدها ملوك التيودور في إنجلترا . ومنذ ذلك الحين فقدت البابوية تأييد
البوربون وهوهنزولن وهابسبرج . واخذت الكنيسة المحل الثانى بعد الدولة
الوطنية . ولكن رجال الدين الكاثوليك يكيّفون أنفسهم للظروف الخارجية
المتغيرة » .

وقبل أن أغادره كنا نتناقش في طرق الإنشاء ، وهل ستسعى الآلة الكاتبة
إسائة دأمة إلى كتابة النثر الإنجليزى .

قال : « إن الناس ينشئون بإحدى طريقتين . وقد لاحظت ذلك أولاً حينما
كنت أضع كتاباً بالاشتراك مع برتراند رسل . كان يجب الكلمات ، وكانت
الكلمات في الواقع تسد حاجته الشديدة إلى التعبير . وقد اعترف بذلك . ولكن
الناس ينشئون إما بالكلمات مباشرة ، والكلمات تعبر عن أفكارهم عن الأشياء .
أو ينشئون بالصور العقلية ثم يحاولون أن يجدوا الكلمات التى يمكن أن تُترجم
إليها هذه الصور ، وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أن طريقتى الخاصة هى الثانية » .

(٢٤)

١٩ من نوفمبر ١٩٤١

في ليلة عيد الشكر تناولت العشاء مع آل هوابتهد في كبردج . ولما تقدم
العشاء بحثنا فيما إذا كان بالإنجيل عون كبير لقوم مثلنا خلال الاضطرابات المالية
الراهنة . وقال إنه لم يعد فيه له شيء كثير في أية ناحية من النواحي . وذكرت
له الكلمات المباركة في إنجيل متى ، وبعض أقوال يسوع ، وقصة اليشم فوق
جبل كرمل .

قال : « إنها قصة عظيمة ، ولا شيء غير ذلك »

قلت : « إن الرجلين اللذين لم يخفيا ظني قط ، هما بيتهوثن وأفلاطون . »

فأجاب في هدوء : « إن أفلاطون هو الرجل العظيم »

وسألته ماذا كان يقرأ ؟

فأجاب في شيء من التعب : « إنني في حالة إجهاد عجيبة . ومن ثم فإنه
من العسير أن أقول لك ماذا أقرأ . فأنا أحاول موضوعا حيناً ، وموضوعاً آخر
حيناً آخر . »

وقالت : « وقد يصيب أو يخطئ . »

وتحدثنا عن رجال الدين البروتستانت ، وذكر أن جماعة من التفسيرين جاءوا
إليه فبهرتهم الفائقة وألقاهم « أحراراً ، واسعى الأفق ، مستعدين لمجابهة
المواقف . واعتقدت أنهم - كجموعة - أرقى من هيئة التدريس بهارفارد . »

وكان الجدل بين ثلاثتنا :

(ونسألني : من ذا الذي يؤيد رأبي في هذه الأيام السيئة ؟)
لقد تخلى عن الإنجيل . وقلت إن جمال الطبيعة يهينني بين الحين والآخر
لحظات من الطمأنينة . إن الحضرة المتألثة لأمواج البحر المتكسرة التي تومض
قبل أن ترعى بلحظة — سيظل هذا المنظر جميلاً بعد اليوم بمائة ألف عام .
إنه الخير والحق ، ولا يقتضي شيئاً . ويباح لي دون قيد أن أغترف من
صفته الأبدية .

قال : « إن بعض ما يستندني بقوة أستمدّه من الشعراء الإنجليز . ولا أذكر منهم
شعراء القرن الثامن عشر ، وبوب خاصة ، وإن كنت أحب الرجل الذي سود
المقبرة — ما اسمه ؟ جراي — والسكنى أقصد رجال القرن التاسع عشر أو السابع
عشر » ثم تحدث وهو في حالة من الإجهاد قائلاً : « ومهما يكن من أمر فإن
خبراتي منذ الحرب العالمية الأولى جعلتني أجدر قراءة الشعر اليوم أمراً شائعاً .
فإذا كانت لديك الشاعر التي يحاولون تصويرها ، وإذا أحسست بالفعل إحساساً
عميقاً ، وجدت أن الشعر لا يترجم عنها » .

(٢٥)

١٠ من ديسمبر ١٩٤١

كان ذلك بعد هجوم اليابانيين المفاجيء على أسطولنا في بيرل هاربر بيومين .
وبعد المشاء في نادى الأساتذة حيث كنت برفقة لويس ليونز الذي عاد لتوه من
واشنطن وفي جمعبته أبناء لانسر (وهو وكيل مؤسسة نيمان بهارفارد) سألت
آل هوينهد بالتليفون أستطيع أن أزورهم نصف ساعة .

ولحسن حظي لم يكن عندهم غيري . ولما كان لا يشغل أذهاننا سوى

يرل هاربر خلال اليومين السابقين ، كان بيننا اتفاق مكتوم على أن نتحاشى الخوض في هذا الموضوع .

وجلس هوابتهد ومعه ظرف يحتوى على مجموعة الصحائف التى طبعتها على الآلة الكاتبة حتى ذلك الحين . وارتدى نظارته واستغرق فى الأوراق يصححها هنا وهناك .

قال : « من غير المألوف أن نجد سجلا معتمدا للأحداث فى وقت من أوقات الماضى » .

وأجبت بقولى : لا أذكر فى الوقت الحاضر إلا (جونسن) ليزول وأحداث أكرمان مع جيتة . وأحداث أكرمان قلما تكون محاورات عامة بمقدار ما هى أحداث فردية يلقبها جيتة ، وإن تكن لها قيمتها » .

قال : « إن الروائيين لا يضربون بسهم وافر فى هذا السبيل ، لأنهم يهتمون دائما بتطور القصة . وإن كنا بين الحين والآخر نجد روائيا متوسطا مثل أنتونى ترولوب يميز بدقة نوع الكلام الذى كفت أسمه من أصدقاء أبى حينما كفت صيبيا ، قميس القرية ومعه فى بعض الأحيان القمص والأسقف . »

قالت : « وبعد ذلك ، استمرت هذه الأحداث حينما جئت إلى بيتكم . وإنى لأذكر ذلك جيدا » .

قال : « إن رسائل المؤلفين قلما تقدمها إليك ، لأنهم يعرفون دائما — سواء أقرأوا بذلك أم لم يقرأوا — أن رسائلهم ستطبع . وما تريد الأجيال القادمة أن تعرفه حقاً هو ما كان يتحدث فيه الناس عند اجتماعهم ، وهم لا يجدون من ذلك إلا القليل . وأعتقد أن صحائفك هذه ستكون أعلى قيمة بعد مائة عام منها اليوم » .

وقالت مسز هواينهد وهي تبسم : « ولا بد قبل طبعها من انتقالها بالورثة من يد إلى يد بضع مرات ، وستكون المرة الأولى من لدنا . إننا نتحدث معك دون أى تحفظ » .

« أنا أعلم ذلك ، ومن ثم لم بطلع على هذه الأحاديث أحد سوى أختي ، التي قامت بطبعها على الآلة الكاتبة . وقالت إنها تصلح « مقدمة لهواينهد » - وإن الأفكار المجردة التي قد يشق على القارىء المتوسط أن يدركها من كتبك للنشورة ، تظهر هنا في حديث طارىء ، سهلة المثال . إن كثيراً من مادته - فيما يبدو لي - جديد ، ولست أذكر كثيراً - بل لعل لا أذكر شيئاً منه - في كتبك » .

« كلا . إنك لا تجده في أى كتاب من كتبى كنت أحاول أن أذكر اسم ذلك السالى الرومانى الذى كان شيشرون يرأسه - هو أتيكس . إنك تجد فيما بينهما مثالا من الحديث في العالم القديم - تجد على الأقل الموضوعات التي كانت تهم التملين . كما تجد بعضها عند أفلاطون ، وإن الرجل المتملم نفسه في أئينا لم يبلغ بطبيعة الحال ما بلغ أفلاطون خلال محاوراته كلها أو حتى أكثرها » .

قلت : « يحدث ذلك أحيانا ، وإن كنت تجد أن بعض ما ذكر أفلاطون يصدر عن الحياة مباشرة . وتحضرني الآن تلك الحكاية الهزلية التي وردت في (لا كيز) عن معركة بحرية كان يحارب فيها أحد الملاحين بحرية مسنونة ، سددها في حبال سفينة أخرى ولم يستطع انتزاعها . ولكي تسير السفينتان كل منهما بجذاء الأخرى ، انطلق على ظهر سفينته متملقا بطرف مقبض الخربة حتى اضطر إلى تركها في النهاية . وقد كف بحارة السفينتين عن القتال كي يضحكوا ويظهروا إعجابهم بهذا العمل . وكانت تجربته تهتز في الهواء معلقة بالسفينة لأخرى . وليس من شك في أن هذه القصة قد انتشرت في كل أنحاء أئينا » .

فقال هوابتهند : « إنك تجد هذه اللمسات الحية في « المحاوَرَات الأولى » وقد استَعمَد إلى ذِمنه تلك المحاوَرَات وهو سعيد بذكرها ، وأخذ يروى لنا قصة أو قصتين أخريين من هذا الطراز » ثم واصل حديثه قائلا :

« إن الكتابة لا تبرز إلا الخبرات السطحية نسبيا . كما أن الإنسان لم يستخدمها إلا وقتاً قصيراً نسبيا — نحو ما من أربعة آلاف عام تقريباً — أولاً في صورة قطع حجرية منحوتة يملن فيها الملوك قراراتهم وأمجادهم ، ثم على أوراق البردى . إن الناس لم يدونوا أفكارهم إلا منذ نحو ثلاثة آلاف عام أو أقل من ذلك ، من عهد هوور على وجه التقريب . أما قبل ذلك بأجيال عديدة فقد كان هناك مقدار ضخم من التجارب البشرية متجسدة في أجسام الناس . فقد كان الجسم — ولا يزال — تجربة كبرى . إن مجرد الانسجام بين أعضائه التي تؤدي وظائفها أداء صحيحاً يمدنا بفيض من اللذة اللاشعورية . إنها متعة لا يمكن التعبير عنها ، وليست بها حاجة إلى التعبير عنها . ولكنها في مقدارها — بل وفي دلالتها — تشمل أفقا أكثر اتساعاً بدرجة كبيرة من أفق الكلام المكتوب . فهذا الأخير — بالقياس — ناه في أكثر الأحيان . »

فملت على ذلك بقولي : « حتى مع أعظم كتاب الكلام المكتوب ، من أمثال دانتي وجيته وأيسكس رى المرء أن عباراتهم قارة إذا قورنت بالخبرة نفسها . إن جيته لم يستطع إلا أن يشير إلى التماسه والفرع في مأساة جرتشن . ولا يمكن أن يكون « جيجيم دانتي » إلا صورة ضعيفة لما كان في خياله ؛ أو مقتل أجايمدون ، وما سبقه وما لحقه من آلام : أين هو في الصورة منه في الواقع ! ربما كان ما نستطيعه الكلمة المكتوبة أن نعيد إلينا خبراتنا الخاصة ، أو نعطينا لمحات عن خبرات يحتمل أن نمارسها . وما دمت تقول إن الكلمة المكتوبة سطحية نسبيا ، فما الذي يأتي أولاً كخبرة واعية عميقة ، يمد هذا الفيض من مجرد المتعة الذاتية بالبدنية ؟ »

فأجاب قائلاً بعد فترة طويلة من التفكير : «الماير الخلقية فيما أظن . وحتى الكلاب عندها هذه الماير ، في شكل نغبة ساذجة وولاء .»

قلت : « حتى ذلك العالم النفساني رقيق الحاشية ولهم جيمس كان شديد الاهتمام بسلوك الكلاب ، عظيم التأثير بحببتها . وكان أحياناً يستخدمها أمثلة توضيحية أثناء محاضراته .»

ولاحظت مسز هوايتهد « أن الكلاب في هذا خير من القطط . هل لاحظتم كيف ينقسم الناس في ميولهم ، ففريق يميل إلى القطط ، وفريق آخر يميل إلى الكلاب ؟ إن القطط محبة لذاتها ، لا تفكر إلا في نفسها .»

قالت ذلك ، وقد تركت السامع أن يستنبط الحكم على الكلام ، بيد أن هوايتهد انطق به ، فقال باسمًا :

« إذا وثب الكلب في حجبك فذلك لأنه مغرم بك ، وإذا فعل القط ذلك فلأن حجبك أشد دفئاً .»

وسألت : « هل عرفت فيما مضى أن من الناس من تغلب فيهم صفات القطط ومنهم من تغلب فيهم صفات الكلاب — فهناك شخصيات كامية تتميز عن الشخصيات القطية . ومن الشخصيات القطية أولئك الذين (لا يحبون الناس) . وماذا تعني بالضبط هذه العبارة ؟ .»

ورأت مسز هوايتهد « أن معناها تركيز اهتمام المرء في نفسه . تلك الطبيعة التي ترى دائماً [أنها لم تنل قط ما تستحق] . والصفة الأولى فيما اعتقد تولد الصفة الثانية .»

ثم وجهت هذا السؤال : « بعد ما تطورت القيم الخلقية عند الإنسان الأول (ما دمتا تفكر في الأصول الأولى) ما الذي جاء بعد ذلك في ظنك ؟ .»

قال هوايهد : « القيم الجمالية . حينما يسهر الليل طوال الليل يغنى لأثناء — ويمجد الفناء — لا يمكن لأحد أن يقنعني أن القيم الجمالية من الطراز الأول معدومة » .

وسارعت مسز هوايهد تقول : « أذكر له قصة بلبلنا المسكين في سري » .
ولما بدا عليه أنه لا يعرف ماذا يقول في هذه القصة ، شرعت تتحدث فقالت :

« كان لنا كوخ في أوائل الربيع . وفي أول مايو بعد وصول البلبل ، تساقط الثلج ، صدقت ذلك أم لا تصدق . وأصيب البلبل المسكين بالبرد ، ولكنه واصل الفناء . ولم يستطع أن يعود إلى النعمة الصحيحة طوال الصيف » .

وقال هوايهد باسمًا . « نعم ، لقد كان من خبرتنا الاستماع إلى بلبل يغنى غناء لا ينسجم مع النغم » .

قلت : « إن لأوثر أن أستمع إلى أداء يضع فيه صاحبه قلبه ، على أداء تراعى فيه الأصول ويتزهد عن الأخطاء » .

فقال هوايهد : « والأمر صحيح بالنسبة إلى الأشخاص . فهم أقوى أثرًا إذا كانوا على طبائهم منهم بما يرد على ألسنتهم مهما يكن . وحتى حينما تستخدم الكلمات للتأثير بها ، فإنها تكتسب الكثير من الوجود المادى للمتكلم ؛ فالحرارة ، والنبوة ، والتأكيد ، إنما تصدر عن الجسم والروح » .

« إن أحسن الكتابة بطبيعة الحال هي محاولة نقل بعض تلك النغمات التي يرن فيها الصوت وتصدر عن الشخصية المادية — محاولة نقلها إلى كلمات مكتوبة » .

فقال : « نعم ، ويتم ذلك أحيانًا بنجاح يدعو إلى الدهشة . وهذه خصيصة من خصائص الكتابة الممتازة » .

قلت : « إنك فيما ذكرت الآن تؤيد صورة في خاطري عن الغريب أذكرتها منذ سنوات . وهي ليست دائماً صورة عما عندهم من خير أو جمال ، وإن كانت كثيراً ما تتأثر بالخير والجمال . إنما هي أشبه بإشعاع ينبعث لا شعورياً عن وجه الغريب ويبدنه وروحه ، ذلك الغريب الذي لم يُعرف من قبل قط . وكأن حاسة لاسلكية عند الرائي تلتقط هذا الإشعاع ، فتشير بطريقة ما إلى أن لدى هذا الشخص الغريب ما يثير الاهتمام ويدل على الحيوية » .

فقلت مسرّ هوايتهد : « ليس في هذا ما يدهشني ، وقد كذا منذ برهة تقرا سيرة مسز مارجریت دلاند قبلها (وإنك لتجد الكتاب على النضد الصغير عند مرققك) . هل تعرف هذه السيدة ؟ »

« كلا . لم يسمدني الحظ بمعرفتها . كانت إحدى المؤلفات الباصرات لأي والمحبات إلى نفسها . ألم تبتعد هي وزوجها قايلاً عن الحياة الاجتماعية في بوسطن ؟ » .

قالت : « ذلك ما قصدت إليه . . . إياؤهما في بيتهما للأهات اللاتي لم يتزوجن ، وإنقاذها لمن من الانتحار والسقوط ، وحلها لمن على الاستقامة ، وذلك بإناحة الفرصة لمن لكي يمدن تنظيم حياتهن حول محبة الطفل حتى يستطعن أن يقفن على أقدامهن . وفي مثل هذا العمل تجد معنى قيمة الغريب وما يثيره من اهتمام حتى في ظل السحب القائمة » . واسترسلت في حديثها عن خبرة لها في إنقاذ فتاة جميلة : « . . . تبدو عليها أعراض السل . فسقتها إلى أحد عشر مكاناً في لندن قبل أن أجد مكاناً يقبل إيواها . ذهبت أولاً إلى بيت من بيوت الكنيسة الإنجليزية ، فقيل لي : [إننا لا نؤوى الطبقة الثانية من مرتكبي الآثام] . . . وهكذا حتى بلغنا — إلى أين نطلق ؟ » .

« إلى جيش الخلاص » .

« أجل . وهناك استقبلونا كأننا أصدقاء طال انتظارهم أيام ، وآوونا كأننا ضيوف حللنا بهم في نهاية الأسبوع . وسألت كم يكاف بقاؤها هناك . فأجابوني : « لاشئ » ، ثم قالوا : « إذا استطعت الدفع فتحن بالطبع نتوقع منك ذلك ، ولكننا لا نتقبل ما تدفعين إلا السكى نستطيع أن نؤوى شخصاً آخر » . ولبت الفتاة هناك خمسة عشر شهراً باختيارها وكانت في منتهى السعادة » .

« وماذا حدث لها في النهاية » .

« تزوجت من بائع خضراوات . ولما كانت مصابة بالسل فقد لبث نداء ربها في شبابها » .

وسألت هواتهد : « في أية مرتبة تضع جيش الخلاص باعتبارهم مسيحيين ؟ » .
قال : « في مرتبة ممتازة . إنهم يأخذون دينهم المسيحي في بساطة » .
« في بساطة سر فرانسيس الأسيسى ؟ » .

« بل أبسط منه بكثير . فإن علوم الدين السيئة لا تمرقل سلوكهم كما كانت تفعل معه » .

وأثرته بقولى : « أنت إذن ترى علوم الدين أمراً سيئاً ؟ » .

فقال : « إن المشكلة تنشأ عن التفكير في الدين بالنقل . لم يكن المسيح عميقاً في تفكيره العقلى . إنما كانت لديه البصيرة النافذة . وقد بدأت الإنسانية في شرق البحر المتوسط فيما بين عامى ٥٠٠ ق م و ٢٠٠ بعد الميلاد تكتب ما يتردد في صدرها من أفكار . فنجم عن ذلك عصر عظيم . وإننى أشير هنا بطبيعة الحال إلى الرجال اللوهوبين بدرجة استثنائية الذين دونوا أفكارهم .. إن بولس يهبط - هبوطاً شديداً عن مستوى يسوع - ، وبالرغم من أن من

بين تلاميذه أشخاصاً لهم قدرهم ، إلا أنهم يصورون الله — فيما أرى —
كما يصورون الشيطان .

« وما رأيك في البوذية ؟ » .

« إنها دين الهاربين . ينطوى المرء على نفسه ويدع الأمور الخارجية تسير
على مشيئتها . وليس فيها تصميم على مقاومة الشر . إن البوذية لا ترتبط
بالمدينة المتقدمة » .

(٢٦)

٥ من إبريل ١٩٤٢

وأخيراً حل الربيع . وكان المساء من ليالى الربيع اللطيفة الأولى ، التى تهب
فيها نسائم منمشة لا تعرف من أين مأتاها ، ويفرد فيها الهزار ، حيث تزدهر
في فناء الكلية أزهار الربيع الصفراء الياضمة ، وأزهار شجر اللوز القرقلية .
وبعد ما تناولت المشاء في نادى هيئة التدريس ، اتصلت تليفونيا بمسز هوايتهد ،
وسألتها : أستطيع أن أؤدى لها زيارة ؟ .

فجالت : « تعال فوراً . ولن تقابل لدينا أحداً سوى جريس دى فريز » .

ولا يبعد فندق أمباسادور عن النادى سوى مسيرة خمس دقائق . وكانت
السما ناحية الغرب تتلألاً بلون أحمر داكن ملتهب يبدو من فوق قمم أشجار
الدردار . ولم أكن قد رأيت آل هوايتهد منذ شهر فبراير ، وهكذا تسير المدينة
في الشتاء : بغير قلب . وكان يبدو على مسز هوايتهد التعب ، ولكنها متأقنة
كمادتها . وكان باب مكتب الأستاذ مغلقاً ، فجلسنا برهة نتحدث في غرفة
الجلوس ، حيث كانت تحتفظ بآنية ملئت بزهر البنفسج الإنجليزي ووضعت

على التصد المجاور لمقعدھا . والزهر ينشر أريجھ في أنحاء الغرفة . وتحدثت من تعرف من النساء اللاتي يستطعن أن يبعدن عن أذهانهن ألبتة كل ماثير الحرب من أفكار . قالت :

« لا يجب أن يحدث ما تنقبض له نفوسهن . فالسعادة ضرورية لصحتهن ... ويجب أن يحصلن على ثياب جديد كل الجدة ، وإلا كن مشمئات ! كيف تفكر هذه العقول ؟ إنها فوق مستواي . إنني - من الوجهة النظرية - أعبط هذا الانعدام في الإحساس . ولكنني في الحقيقة أوتر أن أموت على أن أتجاهل ما يدور حول من حوادث إلى كل هذا الحد » .

« ما دمت قد قدمت الاعتراف ، فسوف أقدمه كذلك .. وأنا أعرف واحدا من هؤلاء الذين يثيرون الحسد - من الوجهة النظرية : إنه نموذج لصاحب مزرعة ، رجل غاية في الرقة - الدنيا كما هي تلامحه كل اللامعة ويلائمها كل اللامعة . وأشك في أنه شعر ذات يوم بحاجة إلى غير ما يملك : بيت كبير ، وملعب للتنس ، وزوجة ، وأسرة ، ودخل طيب . وفي لحظات يأسى أقول لنفسى : « لماذا لم نستطع أن تكون على غرارہ ؟ » .

« ولكنك لا تمنى ما تقول لحظة واحدة في حياتك » .

« كلا ولا شك . كيف حال الفرد في طقس هذا الفصل من العام ؟ » .

« إنه دائب على العمل . وهو في بعض الأيام أصح منه في بعضها الآخر . ولكنه لا يمانى أمراً خطيراً » .

ثم نهضت وفتحت باب المكتب ، وقالت في صوت منخفض :

« إن لوشيان هنا » .

ونم ضوته في الداخل عن ترحيب قلبي .

وولجت النرفة . وكان يجلس على أحد القاعد الكبيرة ، وتحت قدميه
ما يسندهما إليه ، يقرأ مكتوبا بحروف مطبوعة كبيرة في ضوء مصباح للمطالعة .

وقال وهو ينهض من مكانه : « هذا المکتوب يدلنا على الطريقة التي نحقق
بها نظاما عالميا في خلال ثلثمائة عام ، إذا أدرك ما يتحدث عنه الكاتب عدد كاف
من الناس » .

فملقت بقول : « إن أكثر أمثال هذه المشروعات تفترض أن جميع سكان العالم
بعقلية أساتذة الجامعات » .

فقال : « أجل ، ويتطلب ذلك مدة أطول من ثلاثمائة عام بكثير ، وهذا فوق أن
المشروع ذاته يحاط بالشك في الرغبة في تنفيذه » .

ودق جرس الباب . وفتحه ، وكانت القادمة جريس دي فريز .

فقال مبتهجا : « سنقضى وقتا طيبا » .

وذكر أحدهما بهذه المناسبة أنشودة من أناشيد الأطفال ، وأثير سؤال عن
تاريخ هذه الأناشيد .

فقال : « أعتقد أن بعضها يرجع إلى مصر . ويطرأ على هذه الأناشيد شيء
من التهذيب كلما انحدرت في عصور التاريخ المتقدمة ، ولكنها لا تتغير في صميمها » .

قلت : « الأطفال عندكم هم المحافظون الناضلون . أناشيدهم تنتقل خلال
الأغاني الشعبية - بما فيها من كلمات بذبئة - من جيل إلى جيل دون أن تحيد ،
ويتمض الألفاظ إقليمياً بحت . وهناك لفظة ألفت الاستماع إليها وأنا صبي في
الغرب الأوسط لم أسمع بها شرقى اليجنيز ، حتى استعملها صبي من مقتانكا في

زيارتي . واللفظة تحريف محلي على الأرجح لكلمة [جهنمي] .

فقلت جريس : « إن أطفالي يعودون إلى بيتهم بنفس القصص والفكاهات التي كنت أسمعها وأردها حينما كنت في مثل سنهم ، ولم تطرا على ذهني منذ سنوات » .

وقال هوايتهد : « إن المكان الوحيد الذي يميز فيه تأمركي هو النكات التي ترويها صحيفة نيويورك . وأستطيع بوجه عام أن أدرك الفكاهة في الصور ، ولكن التمليق كثيرا ما يخرج عن دائرة إدراكي » .

وقالت جريس : « لا ينبغي أن تأسف لذلك ، فإن أطفالي كثيرا ما يفسرون النكات لي . وبمحلمي ذلك على إدراك مقدار بعدي عن لون الفكر المعاصر » .

وأردت أن أعزبهما فقلت : « ولا ينبغي أن يأسف المرء لهذا البعد أيضا . لأن كثيرا من النكات إقليمية بحت - وقد يتصل بنيويورك وحدها » .

وقالت مسز هوايتهد : « أستطيع أن أنهم النكات التي تدور حول السيدات البدينات » .

« نكات هلم هوركنسن ؟ » .

« نعم . ولكني لا أعتقد أن السيدات البدينات يثرن الضحك . إنني أشفق عليهن ، هؤلاء السكينات » .

« ما أشبهك بروبرت ، ابن سر رتشارد لفتنجستون ، ذلك الصبي الطيب ، الذي اعتاد أن تقع عيناه على صحيفة نيويورك فوق أحد مكاتب المطالمة في اكسفورد ، فيقول : « إنني أضحك على النكات ، ولكني أحس أنه لا ينبغي لي أن أفعل ذلك » .

وقالت مسز هوايتهد : « إننى أحس أن هذا اللحم الزائد قد يكون نتيجة لخلل فى إحدى الغدد ولا ينبغي لنا أن نضحك منه » .

« إننى أستطيع أن أريح ضميرك . تعالىّ معى إلى محل هايلر بشارع ترمينت . ذات يوم بعد الظهر فى الساعة الثالثة وسأريك عشرات من النساء يلتهمن الفطائر الحلوة المسكوة بالسكر والمحشوة بالقشدة المحفوقة » .

فقالت وقد قطبت جبينها : « أف لما تقول ! لا تتوقع منى أن أرافك ! »

وبعدما تحدثنا فيما إذا كان وزن المرء — كميوله وزواجه — مقدراه ، انتقل الحديث إلى موضوع حرية الإرادة . وقالت مسز هوايتهد إن من رآها أننا لسنا أحراراً فى إرادتنا إلا إلى حد ضئيل جداً . وليس لدينا إلا فرص وقتية نتحرف فيها عن المصير المحتوم ، وإن كنا نستطيع — فى حدود هذه الفرص — أن نسيطر على أنفسنا إلى حد كبير .

وقال هوايتهد : « إن التفكير السابق اللاشمورى بكيف تصرفنا النهائى حتى يبدو لنا كأنه تلقائى ؛ ولكنى أعتقد — بالرغم من ذلك — أننا كنا فى الواقع نحدد هذا التصرف بقدر كبير من الانتقاء والاختيار . ويتوقف الأمر كله على أى الآراء نقبل ، وكيف نقبلها ، بعضها يُنبذ فوراً لأنه متفر مزعج ، وبعضها يُستبقى لأنه سار بهيج . وبعدما تستمر عملية الانتقاء والاختيار رديحاً كاذباً من الزمن ، يصبح التصرف النهائى مشروطاً ، ولكن بعدما كان لنا فى تحديد نوعه نصيب موفور » .

وتقدمت بهذا الاقتراح : « هل تسمح لى أن أتابع أسلوب تفكيرك قليلاً ، وأدفعه إلى الأمام ؟ أليس وراء ما ننتقى أو ننبذ ظروفنا الاقتصادية ، التى قد تحد للمرء سهولة الوصول إلى المايير العليا أو ضعوبته ، ثم أليس هناك الميل للوروث الذى قد يتلازم وبعض ألوان الاختيار وقد يتناقى وبعضها الآخر ؟ »

فوافق على قولى ، ثم أردف قائلاً : « الظاهر ، أن نطاق الاختيار يقع بين هذه المقدّرات السابقة والتصرف النهائى الذى يبدو تافئاً . ولكنك تستطيع أن تشهد نفسك وأنت ترحب بحكم المادة بأعماط معينة من الفكر وتنفيذ أعماط أخرى . وهنا — فيما أعتقد — تنقرر الى حد كبير مصائرنا الشخصية » .

قلت : « اذا استطعنا أننا الاثنين أن نخرجاً لتشهدا فلم (ميجرباربرا) لبرناردشو لاجذبسكا الى هناك . لقد شهدته جريس ، وتناقشنا فيه من قبل نقاشاً طويلاً . ولب الموضوع أن شو قد أعاد كتابة ذلك النظر الأخير الضعيف ، فى مصنع الأسلحة ، وكأنه يقول الآن إن قوى الطبيعة هذه ليست فى حد ذاتها جليية أو سيئة . إنما يتوقف الأمر على طريقة استخدامها . ووظيفة الإنسان التى يفرد بها هى أن يتعلم كيف يستخدمها استخداماً صحيحاً ، وإن تسكن القيم الخلقية التى نسبها عليها هى بأسرها من وضعنا . فإذا كانت مما يوفر الراحة والانسجام نعمتها « بالخير » ، وإذا كانت على عكس ذلك نعمتها « بالشر » . ولا يزال اللغز العظيم قائماً ، وهو : كيف ظهرت إلى الوجود على هذا الكوكب أوبة حياة تستطيع أن تفكر فى أمثال هذه القيم على الإطلاق ؟ »

فقال هوابتهيد : « من ذا الذى كان يحلم — حينما كانت هذه الأرض مجرد كتلة منصهرة — بأوبة صورة من صور الحياة التى ظهرت ؟ الظاهر أن طريقة الطبيعة على إنتاج الجديد — هى نتيجة اتجاهات مبتكرة لا يتوقعها ألبتة أحد . وبعمر الزمن بردت الأرض ، وظهرت البحار ، وبعد دهور طويلة ظهرت الحياة النباتية ثم الحيوانات » .

وقالت مسز هوابتهيد : « ويالها من حيوانات عجيبة مفرغة ! »

وواصل حديثه قائلاً : « وأخيراً ظهر الإنسان بعد نحو مليون عام . ومن ذا الذى يشك ممن يرقبون السموات أن صوراً من الحياة لا تقل عن هذه دهشة

توجد فوق السكواكب الأخرى ؟ وللسديم كذلك دورته الحيوية . فهو يظهر في الوجود ، ثم يمحي ، ويتلاشى في صورة أخرى . أين تظهر الأفكار الخلقية أولاً ؟ إنها في الواقع تظهر (قبل) الإنسان . فللحيوانات أفكارها الخلقية . والطيور تعرف متى تفعل الخطأ .

وقالت مسز هوايتهد : « إن السكلاب أعلى من الإنسان في المستوى الخلقى بكثير . إنها أشد منه عموماً لذاتها وتضحية بنفسها . راقب كلباً وهو يحاول أن يساعد فرداً يحبه . إنه ينجحنا . »

وقال هوايتهد : « أعتقد أن قدرتنا على الابتكار الواعى هي مجال حريّة الإرادة . إننا نختار دائماً بين ما هو خير وما هو أقل خيراً ، سواء أدركنا ذلك أم لم ندرك . حتى الأطفال يكادون يفعلون ذلك قبل أن يتكلموا . حينما كان أحد أولادنا صغيراً كان له ناموسه الخاص بكل تأكيد وكان يخرق هذا الناموس أحياناً (ولم نكن في ذلك الوقت نناقشه ، لأنه لم يفعل شيئاً مما يعاقب عليه) . والطريقة الوحيدة التي كنا نعرف بها أنه يخالف ناموسه هي حينما نراه زاحقاً تحت السرير . ولما كنا نشهد خذاه الصغير مطلاً من تحت السرير ، كنا نعرف دائماً أنه مذنب ، وإن كنا لاندري قط أى ذنب اقترف ، ولم نسأله ؛ لأنه لم يكن بوسه أن يجيب . وما كان يخرج إلا إذا سحبناه من عقبيه . فإن فعلنا ذلك غفر لنفسه . ولا شك أنه كان يعتبر سحبه من عقبيه تكفيراً تاماً . »

وقالت جريس إنها تود لو عرفت طريقة تجذب بها من عقبيها من تحت السرير . فإن ذلك يبسط كثيراً من المشكلات الخلقية المعقدة .

وواصل هوايتهد حديثه قائلاً : « ولا حظوا أنه لا بد أن يكون لدى الأطفال أمثال هذه الأفكار قبل أن يستطيعوا الكلام بوقت طويل . وكان هذا الطفل يسمى

نفسه (جو) وقد سمعته ذات يوم وهو يمر تحت النافذة المفتوحة بمكتبي يتمم لنفسه قائلاً : إن جو يستطيع الآن أن يعيش ، وهو يستطيع الآن أن يتكلم .

وقالت جريس : « حدث ما يشبه ذلك حينما كان أيفنز صغيراً . كان مقلداً ثقيلًا ، ولم يكن خفيف الحركة على قدميه كما كان بولى . كان أشبه بعربة الثلج الصغيرة . وعرف بفتة ذات يوم أنه يستطيع الوقوف . فاضطرب اضطراباً شديداً وصاح : (تان ! تان !) . وظل يتعثر ، ثم يقف على قدميه ثانية . واعتقد أنهم يرون من يكبرونهم وهم يقومون بهذه الأعمال المدهشة ، وقبل أن يستطيعوا الكلام بوقت طويل ، يصممون على أن يقوموا هم بها أيضاً . »

قال هوابتهد : « إن جانباً كبيراً من تجاربنا الناضجة أيضاً لا يمكن التعبير عنها بالكلام . »

قلت : (لقد قال الدكتور ماك في كامبل ، أستاذ العلاج النفساني في مدرسة هارفارد الطبية ، شيئاً شبيهاً بهذا منذ بضع ليال - قال : إن الكلمات قاصرة ، أو هي لا تفي ألبتة بالتعبير عن بعض التجارب أو المواقف . »

وقال هوابتهد : « ذلك ما يفعله الشعر حينما يبلغ قمة الإجابة - إنه يكاد يتصيد في شبكة من الألفاظ لحظة من تلك اللحظات القوية الزائلة من لحظات السعادة أو الألم . إن الكلمة - مهما تكن - ليست سوى صوت ، والعلاقة بين هذا الصوت والتجربة علاقة مصطنعة تحكمية . اكشف عن كلمات الشاعر في المعجم ، وستجد أن المعنى الذي يقدمه المعجم لا يحيط بما يحول في نفس الشاعر فلقد (أضاف) إلى المعنى بالنعيمات الماطفية ، حتى إنك تستطيع في بعض الحالات أن تتابع درجات النمو في معنى الكلمة التي أضافها إليها الشعراء بالتتابع . ولكن في الشعر ذاته دائماً عمير التجربة الذي استطاع الشاعر وحده أن يستنشق ، وإن

كنا نحسه كذلك كأنه من تجاربنا الشخصية .»

وسألت : « ألا تمر بنا جميعاً أمثال هذه اللحظات من الوجود القوي ، حينما نحيا بصورة فريدة خاصة ؟ وتستقر هذه اللحظات في نفوسنا ، يناهض دأعنا ، نفترق منها حيناً بعد حين ، وبعد سنوات ، دون أن يفقد المميز » .

وقالت مسر هو اينهد مصححة قولي : « أجل ، ولكن ليس ذلك هو الخبرة ، إنما هو (ذكرى) اللحظة التي عشناها عيشة غزيرة . هل ترى تلك المرأة فوق الجدار الداخلي ؟ لقد أعطتني إياها برناردين . وأصاها من فلورنسة . ولم يقدر لي أن أرى غيرها . إنها امرأة «سوداء» . لو كانت بيضاء لكانت الصور والأشخاص الذين يتمكسون فيها مجرد أوجه جديدة لنفوسهم في ضوء النهار . ولكننا حين نراهم في هذا الوسط الأسود العجيب ، يبدوون لنا كأنهم بغير أجساد ، إنهم ذكريات . إن مرآتي السوداء هي عالم الذكرى . وما يستطيع الشعراء عمله بالأنظار لكي ينقذوا من هوة النسيان هذه اللحظات الغزيرة من المهجة أو الألم هو كالمراة السوداء » .

وقالت جريس . « حينما أتيت أول الأمر لرؤيتكم عندما كنتم تقيمون على شاطئ النهر ، كانت هذه المرأة أول شيء وقمت عليه عيني في حجرة جلوسكم » . وقال هو اينهد : « إنها تختلف في كل ساعة من ساعات النهار ، وفي موضعها المعلقة به تمكس غروب الشمس . ولذلك أثر عجيب . ثم إن هذا الغروب — كما تقول أفلن يبدو كأنه ذكرى الغروب — أو ذكرى فسكرة مبهجة هربت من الذهن . إنني كلما سمعت — وأنا أسمع أحياناً — أحد زملائي يقول إنه ليست هناك آراء لا يمكن التعبير عنها بوضوح في لغة بسيطة ، قلت إنني أنه قد أن آراءك لا بد أن تكون سطحية » .

وذكرته : « أنه قال لي مرة إن بعض الكتاب — ومن بينهم الفلاسفة —

يفكرون بالألفاظ ، ولكنه يفكر بالصور الذهنية ، ثم يحاول أن يجد الكلمات التي يعبر بها عنها . فما الذي يحدث بين الصورة والكلمة ؟ وكيف يترجم إحداها إلى الأخرى ؟ »

وقال في حاشية : « الله يعلم ! إن العبارة تأتي أحيانا ، ولاتأتي أحيانا أخرى . » وأضافت زوجته مترضة قوله : « إنه يمزق صفحات عديدة من الورق المكتوب » .

وقلت : « هل تبصر آراءك ، حتى ما كان منها مجرداً ؟ »

« لست أدري ، هل تبصرها أنت ؟ »

« دعني أولاً أعدّل من ملاحظتي . إنني لا أتناول الأفكار المجردة على المستوى الذي تتناولها به ، ومع ذلك ، فإني بعد اشتغالي بها ربع قرن من الزمان ، أدرك الشقة التي يلاقيها المرء في نقل أبسط الأفكار المجردة نسبياً إلى لغة بسيطة . »

وقال مؤكداً : « إنك تتناول أفكاراً مجردة على كثير من الصعوبة . وقد قرأت مقالاتك » .

« وإذن فأنا أستطيع الإجابة . حينما يكون تركيز الذهن على أشده ، تبدو الفكرة المجردة كأنها مادة بغير جسد تطفو في الفضاء وتحتها مباشرة مشهد منظور لا يمت إليها ألبتة بصلة — وكثيراً ما يكون مستمداً من طفولتي ، كرمي في ضوء الشمس في فصل الصيف مثلاً » .

« هذا أمر عجيب جداً . كلا . لا أعتقد أني أبصر أفكاراً بهذه الصورة » .

وقالت جريس لفيلسوف : « أرجو أن تشرح لي ما تقصد بالصورة الذهنية » .

وقال وقد بدأت عيناه تتلألآن : « سأحدثك بما أعني . هذا لوشيان برايس يجلس مواجهاً لي . إن في ذهني صورة عنه ، عن شخصيته ، ومظهره ، ومن أي ضرب من ضروب الناس هو — كل ذلك محدد في ذهني . ولكنني حينما أحاول

أن أصوره في ألفاظ ، ماذا أجد ؟ أستطيع أن أقول . إنه صديق قديم ، ويسرني دائماً أن أراه ، ومظهره الشخصي من نوع . . . ؛ ولكنني أستطيع أن أقول مثله ذلك تماماً عن لورنس لول .

وضحكت السيدتان أشد مما ضحكيت .

وقالت جريس : « لقد بلغ هذا الحديث القمة يا الفرد . ولما نستطيع أن نبره بمد ذلك » .

قال : « هل فهمت الصورة الذهنية ؟ » .

« فهمتها تماماً ! ولكنني لا أعتقد أن لوشيان قد فعل . إنه يبدو في غير وعيه . هل فهمت ؟ » ووجهت إلى السؤال .

« لست على يقين من أنني أريد أن أفهم » .

وقالت : « تناول قليلاً من شراب الجنجفر ، فإنه يمشك » .

وبعد الحديث الرائع الذي انتهى بمسترلول ، واصل هواينهد حديثه في صوت منخفض ، قال :

« إن بعض الخواطر البديهة الخلقية الرائعة نظراً لقوم غاية في السذاجة . إن هبوط الآراء الشامخة لا يتوقف على التعليم المدرسي النظامي . وأذكر في هذا الصدد الفلاحين الجليليين » .

وقالت مسز هواينهد « إن ماري التي قامت على خدمة بيتنا ما يقرب من عشرين عاماً لها ابنة صغيرة اسمها مارغريت . وفي عيد من أعياد الفصح سألت عن قصة المسيح وصلبه ، وأرادت لها تفسيراً . جلست معها ماري وقصت لها القصة . فسألت الطفلة : وهل مات يسوع على الصليب ؟ وقالت أمها : نعم ، قالت الطفلة : وهل كانت أمه واقفة إلى جواره طوال الوقت ؟ ، قالت الأم : « نعم » : فذهلت الطفلة وقالت : « ولماذا لم تمت أمه في سبيله ؟ » .

وأثير بعد ذلك هذا السؤال . لماذا وكيف تنحط الفكرة النبيلة أو الفكرة الأصيلة - بعد إعلانها - إلى درجة تسكاد تختفي فيها معالمها . إن الاختراع يتحول من البناء إلى الهدم . والمسيحية تتخذ ذريعة للاضطهاد . والموسيقى السيمفونية الكلاسيكية ، تباع رخيصة في النوادي الليلية في أداء مزيف بكاد يكون بديلاً . هل تبلغ مثل هذه الفكرة - في صورتها الأصيلة - مستوى شامخاً غريباً فم تنحط حتماً بتعرضها للشيوع ؟

وتناول هوبز الموضوع فقال :

« قد تكون البدهة ملاكاً ، ولكن الذهن قد يلعب دور الشيطان . ولا بد أن يكون لك ذهن بطيئة الحال لكي تتناول الأفكار التي تأتي بها البدهة ، غير أن الشر يدخل حيناً يبدأ بتحقيق الأفكار وتبويبها وتنظيمها بوصاياها في قواعد صارمة . والمسيحية مثال مريع . كانت لليهود أصلاً قواعد خلقية بربرية ، أخذت تدريجاً تتخذ صفة إنسانية على أيدي أصحاب الأرواح المالية منهم ، وإن كانت هذه القواعد تعود إلى البربرية من حين إلى آخر على أيدي أصحاب النفوس الدينية . ولست أذكر أن الديانة اليهودية قد ارتكبت في أي وقت من الأوقات إثم أمثال هذه الأفكار التي تنحرف عن الأخلاق السليمة انحرافاً شنيعاً كما فعلت علوم الدين اليهودية في صورتها الأولى أو علوم الدين المسيحية في صورتها المتأخرة : إن البشرية إما أن تنجو وإما أن تلاحقها اللعنة ، وبحكم عليها بالمذاب الأبدي . أما البوذية فتقول - على خلاف ذلك - إننا جميعاً ناقضون بحيث ينبغي لنا أن نعود إلى الحياة مرة بعد أخرى لكي نتطهر بالحن حتى نستحق أن نفقد ذاتياتنا في الكل . ولكن اليهود تلفتوا حولهم فلم يجدوا أبداً غير حاكم شرق مستبد ، ومن ثم تفكروا في الدنيا بأسرها فظنوا أنه لا بد أن يكون لها حاكم يستبد بالجميع . وترتب على ذلك أنهم تصوروا إلها أبعد عن الأخلاق من أي إله آخر تصوره من قبل إنسان . »

وقالت مسز هوبز : « تصور أن يهوه يطلب من إبراهيم أن يضحي بولده »

واقتبست هذه العبارة من صمويل بيلر : « إن الإله الأمين أنبل من أعمال الإنسان »

وقالت جريس : « حقاً لقد فعل يهوه أشياء يتردد أى منا فى فعلها »

وقالت مسز هوايتهد : « تقولين ، (يتردد) بل قولى (يقرع) »

وسألت : « هل تذكر تلك الملاحظة التى أبدتها توماس هاردى عن (الإله الفيور) فى قصته (نسي سليله دبرئيل) ؟ »

قال هوايتهد : « كلا وما هى ؟ »

وقالت مسز هوايتهد : « إنى أذكرها . إروها له . »

« وقد يكون حلول خطايا الآباء بالأبناء قاعدة خاقية ترضى عنها الديانات السماوية ، غير أن الطبيعة البشرية المادية تنفر منها . »

وقالت مسز هوايتهد : « إن آلهة الإغريق يبدوون بالمقارنة أقرب إلى النفوس . قد تكون لهم جرائمهم ومخالفاتهم ، وقد لا يكونون أفضل مما ينبغي أن يكونوا ، ولكن إساءاتهم كانت أشد ظرفاً . »

قلت : « نعم حتى إن ذهبوا هم أيضاً إلى الشيطان فى النهاية ، فإنهم يذهبون إليه بعد قضاء وقت مرح . والمهم هو أن الإغريق احتفظوا لأنفسهم دائماً بمحى الضحك من آلهتهم . »

وعلق على ذلك هوايتهد بقوله : « إن انعدام الفكاهة من الإنجيل انعداماً تاماً من أعجب الأمور فى جميع الآداب . »

قالت : « لقد لاحظت ذلك تجيته في مقدمته لفاوست . و ترى ، فستوفيليس .
يمير الله بانعدام الفكاهة لديه ، ويقول :

« كان لابد أن تثير أشجائي في جلالتك الضحك .

لولا أنك أقلمت عن الضحك من زمان بعيد »

وقال هوأيهب : « إن انعدام الفكاهة من كتابات اليهود القديسين قد يكون
مرده إلى أنهم كانوا دائماً شعباً مكتئباً . تعرضوا دائماً للفرز والجزمة ، وتشتتوا
هنا وهناك . أما الإغريق — فهمما يكن ما حدث لهم ، وسواء أكانوا في القمة أم
لم يكونوا — فقد كانوا دائماً يمدون أنفسهم متفوقين »

وشرمنا نوازن بين الإلياذة التي يضحك فيها الآلهة ، والإنجيل . إن واضحى
الإنجيل كانوا يتصورون أن مهمتهم التثقيف — إذا لم تكن تحب كذا من الأمور
فينبغى لك أن تحبه . أما واضحى (أو واضح) الإلياذة فكانوا يمدون أنفسهم
فنانين . إذا أخفقوا في تشويقك ، فليس الخطأ منك ، إنما هو خطؤهم .
وأعترضت جريس بقولها : « ولكن هل كان للإلياذة ما كان للإنجيل من
أثر في نشر الخير ؟ لقد قرأت قصص الإنجيل في السن المناسبة ، ولم ينطق
بريقها قط فيما بعد » .

وقال هوأيهب : « ربما كانت الإلياذة منشأ فكرتنا عن الرجل المثذب .
ولكن الرجل المثذب لا يستطيع أن يجاه جميع اللواقف » .
ولما تقدم المساء أخذنا نقابح في القيمة النسبية لشراب الإسفندان والحلو

المزوج بالدهن :

وقالت مسز هوأيهب : « شراب الإسفندان ! تلك للبادة اللزجة ؟ إن أميته »

وناشدت زميل الأمريكي قائلاً : « إنها تشمئز من أنفس ماتستطيع إيجلترا الجديدة أن تنتجه ؟ »

وقالت جريس : « هوّن على نفسك . إنني لا أميل إلى شراب الإسفندان كثيراً أنا نفسي »

واعترفت مسز هوايتهد على نفسها قائلة : « أما إن أردتم فنلاً أن نحموا نقطة الضعف في نفسي فنجربوا معي الحلو المزوج بالدهن ! »

وصاحت جريس قائلة : « هذا الحلو المزوج بالدهن ! ذلك المزيج المزعج ؟ »
« إنه ليس مزعجاً . إنه طعام سهاوى ، إنني في إشارى له قد أكون في غابة الضلال . »

وقال هوايتهد : « هذا ما بلغناه بمد ماتناقشنا في أسى الماني المجردة ، أنحدونا إلى الحديث في الحلو المزوج بالدهن : لقد تمت الدورة التاريخية . إنه هبوط المدينة إلى مستوى الحلو المزوج بالدهن ! »

(٢٧)

٥ من مايو ١٩٤٣

قضيت المساء عند آل هوايتهد مع إدوارد ويكس . وقد دبرنا هذا الاجتماع منذ شهر ، ولكننا لم نستطع أن نتمكن منه جميعاً إلا هذا المساء . ومنذ ظهور مؤلفات هوايتهد في مجلة « أطلنطى الشهرية » منذ عدة سنوات ، تم بينهما التمارف سواء في المهد الذى كان فيه أرنى سيد جويك رئيساً للتحرير ، أو منذ أسندت رئاسة التحرير إلى مستر ويكس .

بعديا تناولنا المشاء سرنا في شارع برسكت حتى بلغنا فندق امباسادور في شفق مساء من الأمسيات اللطيفة النادرة في هذا الربيع الذي حل بنا متأخراً بعد عناء شديد .

وقد سألني أعند آل هوانيد أحد سوامم ؛ ولم أكن أعرف ولكنني تمسحت ألا يكون . وكنا وحدهما ، مما سرني ومرزيملي . المصاييح مضاءة ، والمظلات والستائر مدلاة لسكيلا بتسرب الضوء من الخارج . وحجرة الجلوس تزدان بالأواني والزهرات التي ملئت بأزهار الربيع .

وكانت مسز هوانيد تمناني من قبل التواء شديداً في عقبها ، يكاد يكون كسرا فيه . ودهشنا عندما وجدناها تشير عليه .

قالت : « انه يؤلني . ولكن لامناص لي من ذلك ... »

وكانت مقدمات الحديث حينئذ أقصر مما يمكن . وكان قد ظهر في عدد مايو لجلة أطلنطيق مقال رئيسي لرئيس هارفارد كونانت ، عنوانه : « مطلوب : راديكاليون أمريكيان » ويقترح المقال اختياراً ثالثاً يقع بين المسكرين القديمين ، راديكالية عملية على مبادئ جيفرسون ، تمجد أندرو جاكسون ، أمرسونية في نزعة أمرسن إلى (العالم الأمريكي) ، شاعرها والت وتمان ، تحترم ماركس وإنجلز ولنين ، ولكنها تبتمد عنهم . وقد نادى المقال بالتخطيط للعالم بعد الحرب : من حيث السياسة الخارجية ، والمشكلات الداخلية كملكية أدوات الإنتاج أو السيطرة عليها ، واللامركزية ، ومهاجمة المجتمع الطبقي ، ومحاولة إعادة تعريف الثقافة في الحدود الديمقراطية والأمريكية .

وولجة هوانيد السؤال إلى رئيس تحرير المجلة . قال : ما هو رد الفعل عندكم

لمقال مستر كونانت ؟

« لم يحن الوقت بعد للحكم . »

« أعتقد أنكم تتسلمون خمسين خطاباً في بريد كل صباح ، بأخذ أصحابها عليه كتابة المقال وعليكم نشره . »

« وما رأيك أنت فيه ؟ »

« إن رأيي في إعادة توزيع الثروة في كل جيل رأى جرى . ولا أقول إنه جديد . ولكنه كما قدمه ليس عملاً . إنك تستطيع ذلك بفرض الضرائب . غير أن معنى ذلك استيلاء الحكومة عليها . إن وجود قدر معين من قانص الثروة في أيدي الأفراد المستقلين يعين على إجراء جميع صفوف التجارب . »

« وما مصير الاستقرائية الإنجليزيرة صاحبة ملكية الأرض . »

وأجاب هواينهد في هدوء : « لقد انتهى مصيرهم ، وآلوا إلى الدمار . إن الحكومة تستولي على أراضيهم ، وتسمح لهم بالبقاء في البيوت كحراس عليها ، واسكن الأرض قد تحولت إلى الزراعة ، ولم تعد الأشجار تزرع للزينة ، وإنما لمصونها . وقد قطعت الأشجار الكبيرة لأغراض الحرب ، وزرعت مكانها أشجار الصنوبر الصغيرة . »

وتنهدت مسز هواينهد قائلة : « إنجلترا ، يا بلادي ! يسرنى ألا أراها ثانية بعد هذا . »

وواصل حديثه قائلاً : « أشك إن كنا سنقوم بعد الحرب بتجارة خارجية واسعة كما كنا من قبل . ومعنى ذلك أنه ينبغي لنا مضاعفة الجهد في الزراعة . »

ثم تحدث فيستر ويكس ، الذي عاد حديثاً من رحلة هز القارة ، عن التصنيع الشامل ، للغرب ، من تنكساس على ساحل المحيط الهادي حتى بوجت ساوند على

حساب الولايات الزراعية الداخلية. وكان الحديث مفصلاً والاستماع إليه في شغف، لأن الموضوع كان أحدث من أن يوصف وصفاً شاملاً في صحائف مطبوعة . وأدى بنا هذا الى مسائل خاصة تتعلق بسير المجلة ، وترجع الى النقص في عمود الورق . وقد أجاب عن هذا الأمر في إيجاز وإن يكن بوضوح . قال إن الناشرين الأمريكيين قد تلقوا التحذير من زملائهم الإنجليز ألا يخلقوا لأنفسهم منافسا قويا في الجهاز الحكومي ، الذي يستطيع أن يحصل على ما شاء من موارد الورق ، كما أن له السلطة التي يوجه بها المطابع .

وفي أحد الأعوام التي تقع بين سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ والمال لا يزال وافراً ، قيل لي في مكتبة (الركن القديم) إن عشرين ألف كتاب جديد قد نشرت في هذا القطر وحده . ذكرت ذلك ، وحددت العام الذي حدث فيه هذا .

وصححتني ويكس قائلا : « لقد أخطأت في ذلك . إن الكتب الجديدة بلغت نحو تسعة آلاف . أما ما عدا ذلك فكان إعادة طبعات » .
« حتى إن كانت تسعة آلاف (وهذا ما قصدت إليه) فإن عدداً كبيراً منها كان حتماً عديم القيمة »

وقال هرايهد وقد التفت وراءه إلى : « إنك تجابه رجلاً نشر اثني عشر كتاباً ، ثم تقول إن الكثير منها ما كان يستحق الطباعة ! »

ثم اتجه الحديث نحو البحث فيما إذا كان الرجال من ذوى العقل المميز ينجحون كرجال سياسيين .

وقال هرايهد : « إنهم قلما تسنح لهم الفرص للتجربة . إن نوع الرجل المطلوب لإدارة الدولة ، ونوع الرجل الذي يديرها في أكثر الأحيان ، هو ذلك

الرجل الذي يحس بقوة مانكون الحاجة ماسة إلى عملة -- وربما لا يكون صاحب عقل ممتاز ، «

« وهل لا نستطيع أن نذكر لذلك استثناء ؟ »

فصاح هوايتهد وويكس في صوت واحد « دزرائيل » وبمديره من التفكير أضاف ويكس إلى ذلك قوله : « وتوماس جيفرسون مثال آخر » .

وواصل هوايتهد الحديث قائلاً : « إن الرجال الذين أسسوا جمهوريتكم كانوا يدركون إدراكاً واضحاً بدرجة غير مألوفة تلك الآراء العامة التي أرادوا أن يطبقوها هنا . ثم تركوا وضع التفصيلات للمفسرين الذين جاءوا أخيراً ، وقد كانت على وجه الجملة -- ناجحة إلى درجة كبرى . ولست أعرف سوى ثلاث مرات في العالم الغربي وجه فيها رجال السياسة مصائر التاريخ ، وهم واعون : اثينا في عهد بركليز ، وروما تحت حكم أغسطس ، وتأسيس جمهوريتكم الأمريكية » .

وقد أثار ذلك البحث في هذا الموضوع ، إلى أي حد يمكن لرجال السياسة الحاكمين أن يكونوا في الأزمات التاريخية الكبرى متنبهين إلى ضخامة المصائر التي يتحكمون فيها . كان العالم القديم في أشد المخاطر عندما تولى أغسطس حكم روما ، ونحن نتساءل هل كان بإمكانه أن يتصور على بعد المخاطر التي كان يتعرض لها مستقبل أوروبا والغرب ؟

قال هوايتهد : « كلا . كان رومانيا ، فأراد أن ينقذ الإمبراطورية الرومانية . وترتب على ذلك أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية عنق الزجاجة التي حمرت خلالها ثقافة العالم القديم إلى شمال أوروبا وإلى نصف الكرة الأرضية الغربي . والآن بعد ما انقضى خمسمائة عام أخذت مدينة النهضة الأوروبية تنهار . إنك في

الحوادث التاريخية المظلمة قلنا تستطيع أن تعين شيئا واحداً . إنما تتضافر عدة أسباب . لقد سُم الروس حكومتهم القيصرية الربعة البذرة ؛ وكانت ملكية هابسبرج على أهبة السقوط ؛ وكانت فرنسا تتدهور أسرع مما قدرنا بكثير ؛ وكان على رأس ألمانيا ذلك الملك التردد ولهم الثاني . ولعب إسمارك دوره جيداً . وإنه ليرتاع لو رأى الأبعاد التي بلغها الدور الذي قام به . إن انهيار مدينة النهضة الأوروبية التي دامت خمسمائة عام لم ينجم عن واحد فقط من هذه الأسباب ، وكل هذه الأسباب مجتمعة ليست إلا جانباً فقط من جملة الأسباب . وأضف إليها الثورة الصناعية والوسائل الفنية العلمية الجديدة . وباتت المشكلة هي هذه : هل تقع هذه الأدوات بين أيدي قوم أشرار أو قوم من الخييار ؟ لقد وقعت الأدوات عند بداية الثورة الصناعية — منذ مائة عام — على وجه الجملة فيما أحسب بين أيدي قوم من خيار الناس نسبياً ؛ لقد استغلوا الفقراء ، ولكنهم — على أقل تقدير — استخدموا الأدوات في الإنتاج . أما في وقتنا هذا فقد وقعت هذه الوسائل الفنية الجديدة بين أيدي قوم أشرار ، رجال عضابات مفترسين — وإنى لأمل ، بل أعتقد ، أن ذلك لن يدوم طويلاً . كانت كل هذه الأسباب قائمة مجتمعة . وكانت الحوادث الفردية تتأجج لها . ولست أقول إن أوروبا قد انتهت إلى الأبد ، بل إنها سوف تسترد حيويتها بعد زمن بطبيعة الحال . ولكنها قد أنهارت لجيل على الأقل ، إن لم يزد عن ذلك . وأتمنى أن تبقى ثلاث من الدول الحديثة ذات المجتمعات الطيبة . وهي الدنمارك والنرويج والسويد .

واستطرد في حديثه عن عنصر المصادفة في التاريخ — كيف أن حملة بريطانية حربية كانت في طريقها إلى الصين ، انحرقت إلى كالكتا في الوقت اللاتئم للنساعية على إخماد ثورة سيهوى ، واختتم حديثه بتفصلاً بقوله :

الظاهر أن العناية الإلهية في « جانبنا » .

وقال ويكس ضاحكا : « ولكن العناية الإلهية لا يجاني . » ثم روى تلك السلسلة المتتامة النادرة من المصادفات التي وقعت على نهر هدسن والتي كشفت عن مؤامرة بندكت آرنولد .

واقترنت مسز هوايتهد هذه العبارة من كتاب أرون (أو المدينة المجهولة) لصمويل بتلر : « شاء الحظ أن تكون العناية الإلهية بجاني . »

ثم عدنا إلى التساؤل عما هي « المصادفة » . إنها تبدو أحيانا من عوامل الخير ، كما تبدو أحيانا أخرى من عوامل الشر ، كما حدث للأثنين قبل مرقسه وانها لتجيء في تتابع يوحى قطعا بالترتيب السابق . ماذا تقول ؟ هل تقع الأسباب في أغوار أعظم من مجرد المصادفات الهمجية ؟

قال هوايتهد : « إنني أميل إلى الاعتقاد بأن الأسباب قاعة في كل ظرف . وليست الحوادث التي نشاهدها ، والتي تبدو كأنها من فلتات المصادفة ، إلا الخطوات النهائية في خطوط طويلة من السببات . »

وحجى بصينية عليها سلة فضية بها فطائر صغيرة . والسلة - كما تدل الكلمات المنقوشة عليها - كانت مهداة لوالد هوايتهد ، القسيس ، في عام ١٨٥٨ .

ولما كنا قد سمعنا للحادثة أن تقف لبضع دقائق ، فقد توافر الوقت للاستمتاع بمشاهدة الحاضرين . وقد جلس ثلاثتهم في ضوء الصباح المظلل . وبدأ ويكس كمادته نحىلا ، أنيقا ، قويا ، وإن يكن على درجة من التنبه أكثر مما عهدنا فيه . أما مسز هوايتهد فقد تمددت على راحتها ، وأشبهت الصباح تستقط

مباشرة على وجهها الذي أكسبته الشيخوخة قوة في التمييز . وقد ألقت على ركبتيها شالا مطرزا ، وإلى جانبها آنية من أزهار الحديقة . وكانت هي أو ويكس يدخان سيجارة بين الحين والحين . كما احتفظت عينا هوايتهد يريهما الأزرق دون أن ينطق . وما زالت بشرته متوردة ، وصوته واضحا قويا رنانا وهو يتلفت أثناء حديثه من واحد إلى آخر منا . وحديثه رزين ، صحيح النطق يزن كل أمر من الأمور ، والعبارة التوضيحية تذكر في وقتها الملائم . لفته محدة ، وتكاد تبلغ حد الدقة الرياضية . أما الشباب البادي على وجهه فيدعو إلى العجب . وكثيراً ما كان موضع ملاحظة الآخرين . إنه ضوء الفكر الذي يكسبه هذا البريق والإشعاع . وهو إشعاع ينتقل منه إلى غيره ، فيقوى تفكير المستمعين إليه .

واستؤنف الجدل حينما قال هوايتهد :

« إن الأمريكيان يهتمون بالمساواة أكثر مما يهتمون بالحرية . إنكم تفهمونها بمعنى غير الذي نفهمها به ، ولكنكم أشد قسوة منا بكثير على من لا يرقون . إنكم تفترضون هنا أن الرجل إذا لم يرق فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إليه . إن شعور الزمالة بين الطبقات العليا والطبقات العاملة أقوى في إنجلترا منه هنا . إن الطبقات عندنا أشد جموداً ، ولكنك إن كنت تجد فوارق الطبقات عندنا تفسير في خطوط أفقية ، إلا أن أواصر الصداقة لدينا تمتد في خطوط رأسية » .

وأدى بنا ذلك إلى القول بأنه من الملاحظ أن الناس هنا يحاولون أن يتعاونوا فيما بينهم ، وخاصة منذ أن أعادت الحرب الحالية توزيع السكان .

فقال هوايتهد في ثماته المأدبة : « إن شفقة الأمريكيان — على قدر على — شيء فريد في تاريخ العالم ، وهي التي تسوغ وجودكم . إن المهاجرين إلى بلادكم — قبل عام ١٨٨٠ وما بعده حينما سارت الهجرة إليكم تجارة تقوم بها

شركات البواخر - جاءوا إلى هنا أساساً لأنهم أحبوا الفكرة الأمريكية ،
والواقع أنه ربما كان من أسباب انهيار أوربا أن كثيراً من القادرين فيها
هجروها وجاءوا إلى هنا ، والألمان الذين رحلوا إليكم في عام ١٨٤٨ من خير
المناسرين بين سكان بلادكم .

وعلق على ذلك ويكس ، وقد نهض ليشمل سيجارة مسز هوايتيد ، قال :
« إننا لم نسيء معاملة أولئك الذين وفدوا بعد المقد التاسع من القرن التاسع
عشر ، بالرغم من أن بعض من أتى بهم إلى هنا لم يتوقعوا لهم خيراً . ومن
المحتمل أن يكون عملهم الرخيص قد أثر على مستوى معيشة عاملنا مدى جيل
بأمرة . بيد أن أطفالهم التحقوا بمدارسنا العامة وتعلموا الإحساس الحق
بمقوقهم الدينية » .

وقالت مسز هوايتيد : « إن إنجلترا كذلك قد وفد إليها بعض ألمان عام
١٨٤٨ ، وإنك لتجدهم بين أصحاب المصانع الأثرياء في أماكن مثل برمنجهام .
ولهم هذه الخاصية ، إن من بينهم وخدم - على حد علمي - نجد في إنجلترا
أعداء السامية » .

وواقفها على رأسها مستر هوايتيد ، وقال : « كانت عداوة السامية نادرة
جداً . وفي قريتي بكنث كان صديق والدي العزيز سرنوزس منثيقبور يهودياً .
ولم يهتم بذلك أحداً ما » .

وقالت مسز هوايتيد : « لقد أحببت هذا المكان حينما قدمت للعيش هنا ،
وإنما أشد ما أحب . غير أني لاحظت قسوة في المعاملة من الزبائن للعاملين
في الملات التجارية . وإنه لمن اليسير أن يكون المرء شقيقاً كذلك حينما لا يجد
لنفسه ما يحتاج إليه : إن الشبان والشيخوخ يعاملون معاملة ملكية في عرباتكم
العامة . ولن يضطر الشيخ قط إلى الوقوف . ولكن فيما بين هؤلاء رأيت نساء

واقفات كان ينبغي أن يجلسن ، وبدأت إحداهن كأنها على وشك أن تضع
في ذلك اليوم عينه ... ومن ناحية أخرى هذا ما يمكن أن يقع : حدث ذات
صيف في قرية بفرمنت أن انهارت سباكة أحد الأكواخ . وقيل لي إن السباك
رجل غريب الأطوار ، مستقل لا يعتمد على أحد ، وربما أصلح السباك وربما
لم يصلحها . وأرسلنا في طلبه على أية حال . ولكنه لم يحضر ، وفي الأسفل عندما
كان الفرد نورت في الخارج في مكان ما ، وكنت أجلس عند عتبة الباب ،
دخل على رجل ، يلبس قيصاً من الطراز الشائع هناك . فقلت له إن زوجي
سوف يعود بعد قليل ، ورجوته أن يصعد وينتظر . وبادلنا الحديث ، فوجدته
مطلماً وشائناً في حديثه . وبعد قليل سألته أهو يرغب في تناول الشاي . فقال
إنه يرغب . فأتيت به . وتناولنا الشاي ، واشتد شغفي بما كان يقول ، حتى قال
أخيراً « يجدر بي أن أخص سباكتكم » .

« ألم تشعري قط من يمكن ؟ »

« ربما أمكن ذلك ، ولكن الواقع أني لم أشعر » .

فقال ويكس : « ينقصنا — مع ذلك — شيء واحد ، وذلك هو ماض
مشهود محسوس . إننا نحاول أن نكشفه ، ونستخرجه من الكتب ، ولكن
ذلك يكلفنا جهداً . وانعدام الماضي هذا تميزه سهولة انتقالنا . إننا لا نموت قط
في البيت الذي نولد فيه . وليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل إننا لهجره ونحن
ما تزال في سن العبا . وعندما يعود أحدنا إلى زيارة عمل ميلاده يجد أن البيت
قد أزيل وأقيمت مكانه عطة من عطات البنزين . ليس في مدينة نيويورك حيث
نشأت ، وحيث امتدت إليها ضواحي نيويورك فيلفت الريف . ليس هناك سوى
(بيت واحد كبير) . ونحن أطفال المدينة لم نُدع إليه قط لتناول الشاي ، وإن
كان يسمح لنا بزيارة جدائقه . ولكنه كان يمثل شيئاً في حياتنا الخيالية » .

وقال هوائيهيد : « إن إحساسنا بالماضي في إنجلترا شامل من جميع النواحي ، حتى بات لا شعوريا عندنا . حينما أتجهنا ، كأن الماضي أماننا في المباني ، والآثار والتاريخ ، والأساطير - وقد يمتد إلى خمسمائة عام ، أو إلى ألف عام . وهو يدخل بطبيعة الحال في كل ما نفكر فيه وفي كل ما نعمل . »

ووجه إلى ويكس هذا السؤال : « كيف كان اندام الماضي ، هذا في المدينة التي نشأت فيها ؟ »

« إن ماضينا أقل من ماضيكم . وفي [خزان أوهايو الغربي] بناء أقدم منذ خمسة وسبعين عاما ، نمده ، قديما ، غير أن ما فقدناه في الماضي ، عوضناه في المساواة . »

وسأل الأستاذ هوائيهيد : « وهل معنى ذلك أن كل من جمع ثروة ترك المدينة ؟ »
« لم يترك المدينة رجل غني . إذ أنه يتحتم على الرء أن يترك المدينة لكي يصبح غنيا . »

وكانت بين الباقيين فوارق طبقية قليلة غير واضحة . وكل منهم في أعماقه يحس أنه لا يقل شأنًا عن سواء ، ما دام يسدد ما عليه من دين .

وقال ويكس : « لقد نسيت فارقا طبقيًا في المدينة الأمريكية الصغيرة كان قائما منذ جيل . »

« وما ذاك ؟ »

« لم يكن إدمان الشراب مما يدعو إلى الاحترام . »

« هذا حق . إن الإستهتار الذي ساد فيما بين عام ١٩٢٠ و ١٩٣٠ قد أنساني ذلك . »

« وجهت مسرّ هوايتهد السؤال إلى مستر ويكس ، قائلة : « هل تظن أن هناك احتمالاً لإعادة تجريم الخمر ؟ »

« إن أمواج حركة التجريم تكاد تفرق مكتب مجلة الأطلنطيق ، وهي تشتد شهراً بعد شهر . وآمل ألا يكون هناك خطر من تكرار الحملة . ولكن الجدل انتهى وأصم بالنسبة إلى أي درس من دروس التجارب . » ثم سألت هوايتهد عن « تهريب الخمر في إنجلترا ، حينما كنت تسكن على ساحل كنت . هل كان هناك جازف للتهريب ، أم هل كان كل ما يهرب يمكن الحصول عليه بنفس السهولة في داخل البلاد ؟ »

وقال هوايتهد : « كانت تقوم وسط المستنقعات القريبة من النهر كنيسة قديمة . وكل ما أعرفه عنها هو أنه متد مائة وخمسين عاماً — أي في عهد نايليون تقريباً — كانت تأتي عبر هذه المستنقعات كيات كبيرة من السكونياك والنبيند الممتاز ، الذي يخزن في سراديب تلك الكنيسة بمواقفة القسيس . وفي أكثر من مرة ، حينما كان يصل النبا أثناء الصلاة بأن الضباط قادمون في الطريق ، كان المصلون جميعاً يؤجلون الصلاة لكي يحصلوا على الشراب قبل أن يصل . وكان يماونهم على ذلك القسيس ! » واختتم حديثه متوجهاً إلينا قائلاً : ويدل ذلك على أن الكنيسة الرسمية كانت تشارك الناس حياتهم في إخلاص شديد . »

(٢٨)

٣ من يونيو ١٩٤٣

عدت وإدوارد ويكس إلى لقاء آل هوايتهد . وكان يوما من أيام الصيف الحار ، نخل بنا بثة عندما نعمنا بربيع بارد النجمات امتد بنا أمدل طويلا . وكان بيت ويكس غير معد للإقامة فيه — وهو يقع في ٥٣ شارع تشنت . واستعدنا

ويكس وأسرته للرحيل لقضاء فصل الصيف في مزارع بقرلى في صبيحة اليوم التالي .

ويبدو تل بيكن في يونيه كأنه في موكب عرس . الأزهار تفتتح في المساحات الصغيرة بين الأسوار الحديدية وجدران المنازل المشيدة من الطوب الأحمر . والمليق والنباتات ذات الأزهار البنفسجية تتسلق واجهات المنازل . وكنت ترى أوراق الأشجار اليانعة والبقع العشوشية في أفنية المنازل وفي ميدان لوزيرج . وما تكاد المدينة ترندى حلة جمالها حتى تتركها وترحل .

وتغير المنظر تغيراً سريعاً من بوسطن إلى كبردج . ولكي نبلغ بيت آل هوايتهد في الموعد الذي ضربناه . ركبنا سيارة أجرة . وكانت الستائر التي تحجب الضوء مسدلة في بينهم . ولما كانت جميع النوافذ في جميع الحجرات مفتحة فقد هبت نسمة لطيفة منمشة . وقد امتلأت أواني الزهر في حجرة الجلوس بأزهار السوسن وعود الصليب والزنبق الأصفر ، التي أمدتها بها حديقة من حدائق يونية . ولم تكن هناك مقدمات .

قال هوايتهد لوبكس : « إن عدد شهر يونية من مجلاتك (الأطلنطيق) عدد ممتاز » .

فقال متواضعاً : « إنه الحظ . ، وإني لأحمد الله عليه . إن الموضوعات المناسبة وصلتني في الوقت المناسب » .

— وكان من بين الموضوعات المناسبة (عودوا إلى الفنون الحرة) الذي كتبه ا.ك. راند و (أمريكا التي لم يتصورها العقل) الذي كتبه ارشبولد ماك ليس و (النجم الغربي) لستيفن فنسان بنيه و (تكوين عقل هوفر) لريكا وست .

والظاهر أن مستر وبكس كان فى واشنطن (حيث تحدثت ساعة مع وبقل .
أو لعله من الأسح أن أقول إن وبقل قد تحدث إلى ساعة من الزمان) .

« وكيف بدأ ؟ »

« كان الحديث عن طريق وكريت والهند . ولم يكن فيه ما يبعث على الابتهاج .
وبدا عليه الانهك والتمب . لم يكن متخاذلاً ، ولسكنه منهوك القوى » (كان
وبكس يخفف وقع النبأ . فقد نعى إلى مكتب الصحيفة أن الأثر الذى تركه وبقل
فى واشنطن هو أنه لم يكن قط منهوكاً) « وكان حديثه شائفاً . وقد تولى القيادة
فى أفريقيا فى وقت دب فيه اليأس فى النفوس . وقد دهشوا — كما دهش كل
إنسان — لسرعة مسيرهم وللمدى الذى بلغوه » .

وانحرف الحديث نحو الموقف فى الهند . وقالوا إن روزفلت حرص على
ألا يتدخل فى الشؤون الاستعمارية البريطانية .

وقالت مسز هوابند : « إنى ممجبة به من أجل هذا . ويعلم الله أننا أخطأنا
كثيراً . وعلينا أن نصحح أخطاءنا بأنفسنا . هل أنت فى جانب روزفلت ؟ ... »
وزردت قليلاً وهمت بالانسحاب .

وقال وبكس : « إبنى أؤيده كل التأييد ، فأننا من الحزب الديمقراطى » .

قالت : « حسناً . إن المرء لا يعرف قط أى سبيل يسلك الناس فى هذا
الموضوع . إننا نعتاد الإحساس بالأرض التى نقف عليها أولاً . يجب أن تكون
هناك شارة نستطيع لباسها كي يعرف أحدنا الآخر » .

واقترح مستر وبكس : « أن تكون شارة من شارات الحملات نضمه فى
العروة . ولكن ربما كان ذلك أسوأ من عدمه »

وقلت إن من الناس من لقي حظاً سعيداً في بعض الأحيان ، لأن مذهبه السياسي لم يكن معروفاً ، وبخاصة في الأوقات المصيبة .

وقال هوابتهد باسمًا : « هذا حق . وقد كان من حسن حظنا أن ملكينا الأولين من أسرة هانوفر لم يستطيعا أن يتكلموا الإنجليزية . فلما تولى علينا ثالث يستطيع الكلام بها ، أوقفنا في هذه المتاعب معكم ، التي لم نتخلص منها كاية حتى الآن . ومما زاد الطين بلة أن جورج الثالث كان رجلاً عائلياً مثالياً . يحبه الناس حبا جما ، يلقبونه (جورج الفلاح) ، والزوج الطيب . والأب الشفيق ، وما إلى ذلك : كانت لديه كل الفضائل العائلية التي رجحت كفة خرقه السياسي المريع » .

وقالت مسز هوابتهد : « وحتى المنشقين على العقائد السائدة كانوا يبحلون » .

وسألته : « ألم تقل إن أسرة هانوفر لم نحتمل إلا الحسن مسلكها ؟ » .

وقال هوابتهد : « لقد أتت بهم زمرة من النبلاء الأحرار . وتألف من هؤلاء النبلاء (المجلس) . ولو أثبت الملك الأولان جورج الأول وجورج الثاني أنهما يتدخلان ، فربما أعيدا إلى وطنهما . وفي رأي أن جورج الثالث هو الذي دعانا إلى أن نقف في الجانب الخاطئ حينما جاءت الثورة الفرنسية . وإلا لأمكننا - في خطي - أن نضع في عام ١٧٨٩ قوانين الإصلاح التي صدرت فيما بين عام ١٨٣٠ و ١٨٤٠ . ولو فعلنا ذلك لحسنت علاقتنا بالفرنسيين ، ولا جئنا عصر التصنيع في القرن التالي دون تلك الأحياء الشعبية المريعة » .

ثم اتجه الحديث إلى فن الأدب ، وسأل ويكس هوابتهد عن الصورة التي يمتد أن الأدب سوف يتخذها بعد انتهاء الحرب .

وعند الإجابة ، تحدث هوابتهد عن الميل نحو السخرية بعد الحروب ، وضرب لذلك مثلاً لن ستراتشى بعد الحرب الماضية . غير أنه قال إن أمثال هؤلاء الرجال - مهما كانوا ممتعين - عقيمون ، والراحح أن يكون إنتاجهم - بناء على ذلك - هزبلاً .

وسأل مستر ويكس : « وهل تعتقد أن أتباع فرويد سيتسلطون على أدبنا مرة أخرى ؟ » .

قال هوابتهد : « إنهم مثال لما أعنى بقبول جانب من الحق على أنه كل الحق فى سداجة . إن آراء فرويد أشاعها قوم لم يفهموه إلا فهماً ناقصاً ، وعجزوا عن بذل الجهود الضخمة اللازم لإدراكها من حيث علاقتها بالحقائق الأكبر ، فنسبوا إليها - من أجل ذلك - أهمية لا تتفق ألبتة وأهميتها الحقيقية » .

وقال ويكس : « أضف إلى ذلك شيوعها بين جيل ما بعد الحرب الذى كان بحاجة الى أن يذكر له على وجه الدقة ما معنى هذه التفسيرات الناقصة لفرويد » .

وقد كتبت فى صدرى هذا السؤال فترة ، ثم وجهته قائلاً : « لقد قلت مرة إن بين الوقت الذى نمارس فيه التجربة ، والوقت الذى نعرف فيه عنها ثانية بالقول أو بالفعل ، فجوة لا نعلم عنها شيئاً . هل تطورت هذه الفكرة لديك بعد هذا ؟ » .

وأجاب هوابتهد قائلاً : « فى الأسبوع الماضى ، فى حفل توزيع الدرجات العلمية ، كان هنا اخصائى فى الذهن . قال إن خبرتنا البدنية تنتقل إلى الذهن عن طريق العمود الفقرى ، وبخاصة إلى ذلك الجزء من الذهن الذى يقع خلف رؤوسنا . وكثيراً ما رأيت أفراداً لهم خلف جماجمهم تنوء ضخمة وقلت : (أليس مما يدعو

إلى الحسرة ألا يكون هذا النتوء في مقدمة الجمجمة حيث يمكن أن يؤدي لهم عملاً نافعاً ، ولكن يظهر أنى كنت على خطأ شديد . وقد قال لى هذا الجراح إنه من الممكن نقل جزء كبير من ذهن الإنسان من هنا إلى هنا » (مشيراً إلى عارضيه الأيمن والأيسر) « ويستمر على حاله كما كان . أما إذا حدث انفصال خطير في خلف الرقبة ، بات المرء معتوهاً . وقد عرف الفلاسفة منذ قرون أن حواسنا ليست دليلاً قاطعاً على وجود العالم الخارجى . ولم يعرف ذلك منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وإنما عرف من عهد اليونان . لم يكن هناك ألته سبب لسمى نستنتج وجود الحقيقة الخارجية من أى دليل يأتينا عن طريق الحواس . إن كل شىء ذاتى . والعالم الخارجى قد لا يكون هناك ألته . ورغم هذا ، فالواقع أن الأفراد الذين لا يفترضون وجود هذا العالم الخارجى حقيقة من الحقائق يزج بهم في مستشفيات المجانين . ولكن علمنا به يأتينا في كل وقت عن طريق العمود الفقري بوساطة خبراتنا البدنية ، وتأدية أعضائنا لوظائفها أداء ساراً . لأن أبداننا جزء من هذا العالم الخارجى ، كهذا المقعد تماماً الذى يستقر فيه جسمى في الوقت الحاضر . ولذا فأنا أنصحك ألا تحدث في خلف رقبتك شيئاً خطيراً . أما مقدمة رأسك ، فلك أن تهملها كما تشاء ، ولا تتأثر فى شىء . أما إذا تخلخلت مؤخرة رأسك ، فأنت في خطر » .

وأدى بنا هذا الحديث إلى التندر على المشتغلين بالتدليك . ولما عاد النقاش إلى رزائنه ذكرنا تلك العبارة التى وردت في صفحة ٣٥٥ من كتاب « مغامرات الأفكار » والتى جاءت فيها جملة تسترعى الانتباه تتعلق بهذا الموضوع الغامض الذى يتصل بما يحدث بين الوقت الذى تقع فيه الخبرة الخارجية على الجسم والعمود الفقري والذهن ، والوقت الذى تخرج فيه ثانية . وهذه الجملة هى :

« إن العملية فى ذاتها هى الواقع » .

ذكرنا هذه الجملة له ، وعلقت عليها بقولي إن (الناس يقولون إنها بمجرد دخولها في رؤوسهم لا تخرج ثانية . وأعتقد أنني أعرف ما تعني ، أو أنا على الأقل أعرف ما تعني بالنسبة إلى . ولكن هلا قلت لنا ما معناها لديك ؟ »

قال: « لقد استغرق الفلاسفة وقتا طويلا ، قرونا في الواقع ، لكي يتجاوزوا فكرة المادة الثابتة . إن بعض المواد — كالماء أو النار — يمكن مشاهدتها وهي تتغير بسرعة . وبعضها الآخر — كالصخر — ثابت لا يتغير ، ونحن نعلم الآن أن قطعة الجرانيت كتلة من الحركة الدائبة ، وأنها تتغير بسرعة مريعة . ولكن إلى أن عرفنا ذلك ، كان الصخر يبدو كأنه قليل الحياة أو بغير حياة ، وإن كان يظهر في ثبات هائل . ولما كان من الواضح فيما مضى أن التمسك بالقديم ضئيل جداً فقد جاء به الفلاسفة القدامى من الخارج . وكانت تبدو هناك فواصل بين جزء من السكون وجزء آخر منه . أما في ضوء ما نعرف الآن ، فليس هناك خط فاصل بين ما لا نهاية لاتساعه وما لا نهاية لضآلته . وعنصر الوقت له أثره كذلك . إن أجسامنا البشرية تتغير من يوم إلى يوم . إن بعض مظاهرها الخارجية لا يتبدل ، ولكن التغير دائم وأحيانا يرى . والمجموعات الكوكبية تبدو كأنها لا تتغير ألبتة ، وإن كنا نعلم أنها تتغير ، كما نعلم أن السدم قد اتخذت شكلها الراهن ولكنها تتحول إلى أشكال أخرى . وسواء أ كان التغير يحدث في لحظة أم في بلايين السنين ، فليس ذلك إلا قياسا إنسانيا . إن حقيقة التغير لا تتأثر باستخدامنا — كبشر — المعايير الوحيدة التي لدينا ، والتي تتأثر حتماً بحدود حياتنا . إننا موجودون هنا في ظروف معينة من المكان والزمان ، علينا أن نؤدى وظائفنا في حدودها ، وهذه الظروف تلون أحكامنا ما لم نراقبها ... إن هذه المائدة الصغيرة القائمة إلى جانبي — وقرعها بأصابعه — في حالة تغير . ولو أنك خزنتها في مكان ما عشرة آلاف عام ثم عدت لمشاهدتها ، فربما بلغ بها التغير مدى يتمذر عليك معه أن تعرف أنها كانت مائدة . ومع

ذلك فإن العملية التي تؤدي إلى هذا التغير اللعوس إلى درجة قصوى مستمرة بها الآن ، وإن تكن - في جميع الأغراض العملية الإنسانية - هي بعينها المائدة التي رأيتموها المرة الماضية عندما كنت هنا ، وهي بعينها المائدة التي رأيتموها بجانبى مدة أربعين عاماً . إن التغير دائم ، سواء قسناه بالدقائق أو بالآلاف السنين . ونحن أنفسنا جزء منه ، لقد جئنا إلى الوجود في ركن معين من الكون نتيجة لعمليات التغير ، وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن أنواعاً أخرى من الحياة لم يوجد مثيل لها في الكون ، وإن كان يشق علينا أن نتصور ذلك . وهذه الحيات الأخرى تختلف عنا فيما نرى أكثر مما نعلم الآن مما بيننا وبين أسلافنا من خلاف . إن بعض أسلافنا المباشرين يبدوون من نفس جنسنا ، ولكن كل ما بعد السلف كان مخلوقات أشك في أننا نشبهها ألبتة .

(وكان يحدثنا في عبارة بسيطة أن أحكامنا تتأثر تأثراً شديداً بالزمان والمكان ، في حين أن الحقائق تخرج عن نطاق الزمان والمكان ، وأن التغير هو العملية المستمرة ، وهو بعينه الحقيقة)

وسألته : « إلى أى حد أدت بك الرياضة إلى هذه الأسرار ؟ »

وأجاب قائلاً : « إن الرياضة بطبيعتها هي دراسة الأنواع في أى نظام من النظم . وكانت في صورتها الأولى تتعلق بالعدد والكم . وهذا هو منشؤها التاريخى : أما فكرة المنطق الرياضى فهي حديثة نسبياً . ولكن قد تكون الرياضة نافعة في ربط أنواع معينة في نظام من النظم بإدراكنا ، إلا أنها لا تمنطينا أية فكرة عن حقيقتها ، كما كان يُظن فيما سبق . وربما درست هندسة إقليدس ، ولكنى أشك في أنها قد حلت لك أى انز من أغاز الحياة . »

واعترفت : « بأنى درست هندسة إقليدس ، ولما كنت غير بارع فى الرياضة فقد زادت ألتاز الحياة تعقيداً » .

« كانت هندسة إقليدس تعد فى وقت من الأوقات وصفاً دقيقاً للعالم الخارجى . ولكن العالم الوحيد الذى يصح أن تكون وصفاً دقيقاً له هو عالم هندسة إقليدس . ولما بدأت ممارستها فى القرن الثامن عشر ، اعتبرت تفاريمها المؤكدة فى أول الأمر - حتى من جانب مستكشفيها أنفسهم - من الأخطاء » .

« لقد قلت مرة إنه فى الوقت الذى بلغ فيه كشف الإبرة المغناطيسية أوروبا (كانت الرياضة عديمة الفائدة تقريباً منذ ألف عام) كيف كانت عديمة الفائدة ؟ »

كان أرشميدس - حينما طمعه الجندى الرومانى - يعرف من علوم الرياضة ما عرف فى أى وقت من الأوقات حتى القرن الرابع عشر تقريباً ، حينما عادت الرياضة إلى مواصلة التقدم » .

« أو ليست عندنا رقابة على الطريقة التى نتقدم بها الفنون والعلوم أو تتأخر فى عصر من العصور ؟ »

وأجاب عن السؤال من خبرته قائلاً : « لنأخذ عصرنا مثلاً . كنت فى كبرج فيما بين عام ١٨٨٠ و ١٨٩٠ أولاً طالباً ثم عضواً فى هيئة التدريس . وقد انقضى زهاء مائتى عام أو مائتين وخمسين عاماً منذ اندفعت الرياضة دفعة جديدة من رجال من أمثال ديسكارت وصبر إسحق نيوتن . وكانت هناك مواضع غامضة كانت قواعد هذا العلم تمد فيها غير محدودة . ولكن الطبيعة الرياضية كانت تبدو فى جلها سليمة قوية ثابتة ولما تصرّم القرن ، لم يبق ألبتة أمر من الأمور لم يتعرض للنقد ، بل لم يهتز من أساسه . ولم تسلم من ذلك

فكرة رئيسية واحدة . وإنى أعد ذلك حقيقة من الحقائق المظلمة التي وقعت في دائرة خبرائى .

قلت : « وهل نستطيع أن نطبق هذا القول على الدين والأخلاق ؟ »
 « نعم ، ، هذا الفارق ، وهو أن الفلسفة والعلم رحبا بهذه النظريات الجديدة التي هدمت النظريات القديمة ، ومن ثم انتفعت بها . في حين أن الدين قاوم الآراء الجديدة ومن ثم كابد كثيرا » .

وسأل ويكس : « وهل ينتظر أن تستمر هذه السرعة في التغير ؟ »

« إن نتائج هذه الآراء الجديدة في العالم ستستمر في التأثير في حياتنا تأثيراً عميقاً ، وبخاصة في مجال الحيل الفنية ، إننا نتكلم عن التغيرات التي حدثت في المجتمع من جراء الثورة الصناعية منذ نحو قرن تقريباً ، التي بدأت حوالى عام ١٧٩٠ وامتدت إلى القرن التاسع عشر . إنها لا تكاد تذكر إذا قيست إلى الثورة العلمية التي استمرت في الخمسين السنة الماضية منذ نحو عام ١٨٩٠ . بيد أن الحيل الفنية الجديدة أيسر في إدراكها وأقل أهمية في نتائجها من المستكشفات الجديدة . وهي فوق ذلك وهمية ، لأنها توهم الناس أن التقدم مستمر ، في حين أن الدافع إليه في الواقع قد استنفد أغراضه من قبل » .

وقال ويكس : « نظرا لعمق المنافع التي تعود علينا من الحيل الفنية الجديدة ربما استطعنا أن نتوقف قليلا ، حتى يتمكن الإنسان من اللحاق بها اجتماعياً » .

وقال هوابهيد : « إنه من طبيعة الأشياء أنما أظن أن تقع هذه الحيل الفنية الجديدة في أيدي الرجال الأشرار ... ثم إن هذه الحيل الفنية — بدورها عاونت على ظهور مستكشفات جديدة . ولكن بعد تجربة واحدة من هذا القبيل في حياة المرء ، تجربة تدل على عدم ثبات أشد الأفكار صلابة في مظهرها ، بعد هذا لا بد أن

يحرص الرء من شدة الثقة . وفي السكلمات الأخيرة التي كتبها (في نهاية ذلك المقال الذى يختتم مجلدا عن فلسفتى) قلت : « إن الدقة أ كذوبة » .

وعلق على ذلك ويكس قائلا : « ذلك حكم سيىء لرئيس تحرير مجلة . مامقدرا الدقة فى صفحاتنا ؟ » وأضفت فى صراحة مماثلة : « إنه أسوأ فى صحيفة يومية » .

واقترح علينا هوبز لى يهدىء من روعنا قائلا : « تستطيعون أن تعلقوا بالهوامش فى أذيال مقالاتكم الافتتاحية ، شارحين للقراء أن ذلك ما يبدو اليوم صدقا ، ولكنه قد يكون شيئا آخر فى الغد » .

« إن ذلك يقرب من الاتجاه العقلى الذى أ كتب به « مقالاتى الافتتاحية » . وقد قال نيتشه إن الرء لا يعرف أى الأنباء هامة إلا بعد مائة عام . »

وفى هذا الصدد قال هوبز : « إن حياة الفكرة تختلف اختلافا شاسعا . بعضها يعيش مائتى عام ، وبعضها يعيش ألفين . وبعضها لا يبقى أكثر من عام أو عامين ، فى حين أن بعضها الآخر ينتظر قرونا قبل أن يستجيب لها أحد ويضمها موضع التنفيذ . وهنا كذلك يكون عنصر الزمن متقلبا . ولكنى لا أظن أن عصرا من العصور قد شهد انقلابا شاملا فى طرائق التفكير السائدة كما شهد نصف القرن الأخير . وهناك فيلسوف واحد ما كان هذا ليدهشه . إننا حينما نقرأ أفلاطون نقول من حين إلى آخر مسكين . لأنه لم يعرف كذا أو كذا .. ولكنه — بوجه هام قد توقع أكثر هذه الاحتمالات . ونحن نلتمس له الماذير — على وجه الجلمة — أقل مما نلتمسها لأى فرد آخر . إن أرسطو لو بعث اليوم لفزع ٠٠٠ لأنه قسم وصنف إلى أجناس وأنواع منفصلة . أما أفلاطون فتماسك . وأجدنى أشد انغماسا فى مؤلفه الأخير ، الذى يشتمل على الآراء الميتافيزيقية — مثل ثييتس — منى فى مؤلفاته الأولى ، التى يشهد فيها اهتمامه بالاجتماع ، الذى نرى أن بعض نظرياته لا يستقيم تماما » .

واشتركتنا في الموازنة بين ذلك وما يحدث غالباً بعد دراسة مستفيضة لأحد الفنانين الكبار — كيف نجد تدريجاً أن مؤلفاته الأخيرة هي مدار إشارتنا . كما يحدث في حكمنا على ألحان بيتهوفن الأخيرة .

وقال هوايتهد : « إن مؤلفات أفلاطون التي أرجع إليها من حين إلى آخر هي تلك التي وضعها بعد « الجمهورية » . وطريقته أن يعلن موضوعه ، ثم يقدمه على عجل من أوجه متعددة ، قل منها ما طرأ لأى إنسان آخر ، وهي تثير نشاطاً حماسياً في عقل القارىء . وتلك الآراء يُلقى بها جزافاً إلى حد كبير . وبعد ما ينتهى من ذلك يشرع في ربطها بأولئك الناس الذين يعيشون في عصره والذين هم أقرب ما يكونون إلى فهم مرماه . وكلما تقدم (أشاع) هذه الأفكار حتى تبدو كأنها تدخل في دائرة إدراك الجمهور . بيد أنى أود أن أنبهك إلى أن كثيراً من مزايا الأفكار يتبدد بإشاعتها » .

« لقد أطلعتنى مرة على مقال في (نيمبوس) يمثل تماماً هذه العملية التي وصفت . »

« إن الأفكار حينما تشيع تميل إلى أن تفقد قوتها . إن ما ربطها بصور الحياة المينة في أى عصر من المصور سريع الزوال . وجانب من هذه السرعة في الزوال نجده في الآراء ذاتها ، حتى في أنقى صورها وأقواها . وقد حاولت أن أضع هذه الحقيقة في اعتبارى كلما عاجلت آراء الفلاسفة في المصور الأخرى . ومن الواضح أن تفكيرهم — مهما يكن مجرداً — كان يتلون إلى حد ما بالمكان والزمان اللذين عاشوا فيهما ، وبالقوى التاريخية الفعالة ، وبالجو العقلى ، وبكل الظروف الخاصة التي كانت تتحكم في الحياة حينما كانوا يفكرون ويكتبون . وقد فانت هذه النقطة — فيما يبدو لى — كل من كتب عن مؤلفانى ، أو أكثرهم . وهي تجعل كثيراً مما قالوا به مبداء عن الصواب . ولقد وضحت رأيى في الكلام وفي الكتابة

فاذا لم يكن مفهوما ، فلا حيلة لى . فالمرء لا يستطيع أن يعيد ويكرر إلى مالا نهاية .
وفى المحاضرتين الأخيرتين فى ختام المجلد الذى ذكرتُ مثال لما أعنى . إن إله أفلاطون
إله لهذا العالم . وقد جمع أغسطين بين إله أفلاطون وإله القديس بولس ، وخرج
بنتيجة مزعجة . ومنذ ذلك الحين اتسمت فكرتنا عن هذا العالم حتى شملت الكون
كله . وقد تصورت اتحادا بين إله أفلاطون وإله الكون » .

ودق جرس الساعة الضخمة فى برج مموريال هول معلنا الساعة ، فكان ذلك
مذكرا لنا ومنبها إلى الوقت وسط هذا التأمل فى الأبدية . وهبت السمات العلية
لمساء شهر يونية الرطب الحار خلال النوافذ المفتحة . وخرجت مع مسز هوابتهد
إلى المطبخ الصغير لى نأنى بطبق من البسكوت والويسكى والماء . أما شراهما
فكان ممتدلا . فهى لا تتناول إلا الماء بغير الثلج ، وهو يتناول الماء القراح بالثلج .
وبينا كنا نكسر قطع الثلج سمعنا ضحكا طاليا منبعا من حجرة الجلوس .
قلت : « لقد فاتتنا هذه » .

وهرولنا قافلين .

وقال ويكس : « كان يتحدث عن الفجوة الحديثة بين السياسة والتخصص
فى العلم . وذكرته بأن مجلة الأطلنطيق قد نشرت بحثه فى هذا الموضوع » .
وقال هوابتهد متلظفا : « وذكرته بأنه حذف الصفحات الأربع الأولى » .
فقلت ، وقد وقفت تجاهه وهزت سبابتها متهمة إياه : « نعم . وقد أخطأت
فما فعلت . إننا أسفنا منذ ذلك الحين على موافقتنا على ذلك » .

وبات تحت رحمتها . وغطى رأسه بالشال الحريرى متظاهرا بالفرع . وضحكنا ،
وأستمس القصص كأنها مسرحية هزلية .

واستطرد هوابتهد قائلا : « كنت أعتبر تلك الصفحات الافتتاحية
ضرورية فى بحثى . فقها ميزت بين الفنون والمعلوم ، وبين الأدب والتاريخ ،

وبين النظام الاجتماعى الجامد والنظام الاجتماعى الناشط . ولكنى كبير النفس ، فأنا أعفو عنك ، حتى إن كنت قد أخفيت فكرى ، لأنى لا أستطيع أن أطبع هذه الآراء الآن فى أى مكان آخر .

قلت : « لقد طبعت كاملة فى (٧٥ - ١) ، من محاضر المجمع العلمى الأمريكى للفنون والعلوم) حيث أقيمت المحاضرة ، وقد طلبت اثنتى عشرة نسخة من السكرتير لىكى أرسلها الى الأصدقاء . »

« وهل بقيت لديك منها واحدة ؟ »

« نعم . »

« هل أستطيع أن أحصل عليها ؟ »

« سوف تكون عندك فى الغد . »

وبقى أمامنا ربع ساعة قبل أن ننصرف . وفى خلاله عدنا بالحديث من الأمور الكونية إلى أمور الساعة ، كإضراب عمال الفحم المحدث بنا ، وماذا يصيب من يحاول أن ينشر وصفا محايداً للقضية . ثم انصرفنا بعد العاشرة بقليل .

وفى سيارة الأجرة شرح لى وبيكس لماذا حذف الصفحات الافتتاحية ، قال : « إنها تبين أنها أقيمت فى محاضرة ، والناس يؤثرون أن يقرأوا ما يظهر لهم . أنه يوجه اليهم مكتوباً لأول مرة . »

وفى اليوم التالى أعدت قراءة الصفحات الافتتاحية للمحاضرة كما نشرها المجمع العلمى . ويبدولى أن هو يشهد قد قال فى الأعمدة الثلاثة الأولى من تلك المجالة أكثر مما يستطيع أكثر الناس أن يقولوا فى ثلاثين .

(٢٩)

١٠ من يونية ١٩٤٣

حفل آخر لتوزيع الدرجات العلمية أثناء الحرب . وقد أزيلت من فناء الكلية - حيث عبرت - أخشاب السقالات ، التي نقلت إلى المكان الذي تقام فيه الحفلات في الهواء . ونحوأت رقعة الحشيش الى أرض صلبة من أثر السير عليها بالأقدام . وبدأت كبردج العلمية - كأية مدينة جامعية أخرى بعد انتهاء موسم الدراسة - وكأنها قد هجرت على حين غرة .

وكان مساء مكفهرًا ، بهطل فيه المطر مدرارا وتهب فيه الرياح عاتية . وكان هوايتهد وزوجه وحيدين وبدت عليهما الطمأنينة أكثر مما عهدنا فيهما . وفي لح البصر تجاوزنا مقدمات الكلام وضربنا في أعماق الحديث . ودار الجدل حول الفجوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، بين الأدب وحديث الناس .

وقال هوايتهد : « يستبعد جدا أن يكون شيشرون قد تحدث إلى أصدقائه بلغة رسائله ، فما بالك بلغة خطبه ؟ »

وأضافت إلى ذلك مسز هوايتهد قولها : « إن المبيد من السكان يمقدون الأمر كذلك فهما تكن لغة الناس حية قوية التصوير ، فإن المتعلمين يتجنبونها إذا استعملتها الطبقة المستذلة » .

وقلت : « إن الفجوة تبدو عميقة في اللغة الإنجليزية بوجه خاص » .

وقال : إنها ليست بالعمق الذي تظن . فإن طبقات لندن الفقيرة - مثلا - تقدر شكسبير تقديرا عجيبا . ولغته لا نعدم عنه ألبنة . وروحهم الفكاهية من روحه تقريبا . فهم يضحكون مما يضحك منه ، وليس في كل هذا ما يدعو إلى الدهشة ، فهم

كأولئك القوم الذين كتبت لهم المسرحيات أصلاً . في شرق لندن مدرسة للتكنولوجيا كنت من لجنة الزائرين بها ، ورأيت فيها الكثير . وذات مساء رأيت معلماً يقرأ صفحة من الأدب في كتاب مقرر مع تلاميذه ، وسأل عن معنى كلمة غير مألوفة من القرن السابع عشر . وأجابه أحد الشبان إجابة صحيحة . وسئل كيف عرف فقال : « شهدت مسرحية اشكسبير (وذكرها بالاسم) في مسرح أولد فوك مساء الخميس الماضي ، وقد استعملت هذه الكلمة فيها بنفس معناها هنا » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن روح الفكاهة الإنجليزية كما تعبر عن نفسها في الحديث الشائع تميل إلى الحشونة . وهي أيضاً تثير الضحك إلى درجة كبيرة . وهي تختلف عن العامية الفرنسية ، التي تخفى وراءها عادة تلميحا قذرا . أما العامية الإنجليزية فمباراة عن خشونة طيبة صادقة نجابهك في صراحة » .

قلت : « لو سمح لي أن أقول كلمة طيبة في العامية الأمريكية ، فهي أنها - فوق كونها جديدة قوية - تكاد تكون دائماً عذبة نقية ، روحها الطبيعية عالية صافية » . ووافق على ذلك قائلاً : « هذا حق . وهو من فضائل شعبكم » .

« العامية آفة حياتي في التحرير . إن وجودي في مكتب صحيفة يومية يجعاني أسمها دائماً . والآراء المقدمة تحتاج إلى عرضها في لغة بسيطة في ظاهرها للجمهور قراء الصحيفة ، مع ضرورة الرجوع إلى اللغة الأدبية عند الحاجة . من أجل هذا تبدو العامية كأنها الطريق المختصر ، في حين إنها ليست كذلك . إنها كالطريق المقل أو الشارع المسدود » .

وعتبت على مسز هوايتهد قائلة : « إن قوة اللغة النامية تثير في نفسك القلق باعتبارك أديباً » .

« ربما . وإنما يثير في نفسي القلق كذلك أن أرى الصيغ الشرطية والأفعال المساعدة تختفي من لغة الحديث الشائعة عندنا » .

وقالت بفتة : « من رأي أن الفارق بين حديثكم وحديثنا - الأمريكى والإنجليزى - فارق فى الأسلوب ، وإذا كان لحديثنا أسلوب - حتى فى لغة الشعب - فذلك بالرغم منا ، ودون أن ندرى . وأعتقد أن التمايز الاصطلاحي والفاظ اللغة - فى الوقت الحاضر على الأقل - أقل انتشارا هنا . وكثيرا ما ألس فقرا فى الألفاظ حتى عند أصدقائى هنا الذين أتيت لهم فرصة الإلمام بها . وإن كنت أسمع فى الحديث أسلوبا ، فهو مكتسب (مهما يكن الاكتساب بطريقة تستحق التقدير) . ومعنى ذلك أنه مستمد من الكتب » .

قلت : « لاحظت لما تقولين مثالا رائعا فى إحدى مدننا الصغيرة بما سوسست . وكان ذلك من فتي إنجليزى فى الرابعة عشرة من عمره جىء به ليعيش هنا . ولم يختلف عن التئمان الكشافاة الأمريكان الذين شاركهم فى اللعب من حيث أبواه ، ومن حيث الطبقة التى ينتمى إليها . بل ربما تميزوا عنه فى ذلك . وبالرغم من هذا فإن هذا الفتى - كما فتح فاه - أخجلنى بحديثه الجليل ، بتمايزه الإنجليزى الطبيعية . وذلك دون وعى منه . إنما كان يتحدث بالطريقة الوحيدة التى كان يعرفها » .

وقال هوابهد : « أنتم أيها الأمريكان لستم مميزة وحيدة كبرى جاءتكم بطريق المصادفة ، أقصد الأمريكان المنحدرين من أصل إنجليزى . إن الأدب الإنجليزى من عهد شارل الثانى حتى نهاية القرن الثامن عشر تأثر بالفرنسية إلى درجة أفقدته صفته المميزة - وذلك أمر لا يدركه الكثيرون . من أجل هذا كان الأدب الإنجليزى فى هذه الفترة غير شائق . فالسرحية الهزلية بمد عودة الملكية - مثلا - فرنسية أكثر منها إنجليزية » .

« إنها - برغم براعتها - كثيرا ما تنتمى الى عالم غير عالمنا » .

واستطرد قائلا : إن شعراء القرن الثامن عشر أيضا متكلفون متحذلقون وينسجون على منوال التقليد الفرنسى . أما أنتم فى أمريكا فقد نجوتم من ذلك . ابتعدتم هنا وأخذتم فى تنمية ما تريدون التعبير عنه ، مهما يكن . وبالرغم من أن بعض شخصياتكم الكبيرة

— مثل جفرسن وفرائكن — كانوا في فرنسا إبان الفوران الثورى ، الذى انتقل إلى الفرنسيين منهم ، ثم انتقل منهم إليكم ، حتى افترض أكثر الناس أن تأثير فرنسا في أمريكا كان بالغا — بالرغم من هذا ، فإنه كان أقل خطورة من أثر فرنسا في الفكر الإنجليزى. وقد كان كولردج ووردزورث والشعراء الرومانسيون الإنجليز : بيرون وشلى وكيثس ، ردا على هذه الحركة . وإذا تكلمنا — من ناحية أخرى — عن استخدامكم للغة نفسها ، بمعزل عن الأفكار التى تعبرون فيها بها ، فإن موقفكم — حقا — شديد التعميد بسبب دخول عناصر غير إنجليزية في بلادكم .

« إن هذا المبع يعق على كواهل المعلمين بالمدارس العامة عندنا ، وهنا في بوسطن — على الأقل — راحم يواجهون الموقف في شجاعة . إننا فى حى الصحافة نسلم الإيطاليين واليونان واليهود وكل من لم نعرف من الأجناس من قبل ! من باعة الصحف الصغار ينادون على صحفهم فى لغة بوسطونية صحيحة ، إلى غيرهم ممن يحرفون النطق فى الألف والراء الأخيرة . »

« إن هذه الحاجة عينها قد دعت إلى الدراسات فى (اللغة الإنجليزية) فى كليائكم . إننا فى المدرسة الإعدادية بشر بورن فى غربى إنجلترا ، حيث كنت أتلغ العلم وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ، وقد تولى أبى القيس تربيتى حتى هذه السن ، إننا هناك لم نسمع عن شىء من هذا ، ولا سمعنا به فى كبردج أيضا إلى ما بعد ذلك بحيل تقريبا . كنا نتعلم اليونانية واللاتينية والرياضة . وكان التاريخ القديم يأتى عرضا أثناء دراسة اللاتينية واليونانية . أما التاريخ الإنجليزى فكنا نقرؤه لأنه كان يشوقنا . وقد يدهشك أن نعرف كيف كنا نقاش الحضارة القديمة فى حاسة بالغة ، وكيف كنا نرى دروس جزر بحرية وماجاورها من البلدان ملائمة لنا — نحن القتيان الإنجليز من أبناء الجزر البريطانية — من حيث علاقتها بالبحار والقارات الكبرى . وكانت « روسيا » فى تلك الأيام تضاهى « فارس » لبلاد

« اليونان » كما عرفناها . وكنا نقرأ الأدب الإنجليزي للمتعة ، وبخاصة ما نظم الشعراء . وقد « علمونا » مسرحيتين لشكسبير — ولست أذكرها — ولكنني « أستطيع » أن أذكر أنني لم أهتم قط بالعودة إلى قراءة هاتين المسرحيتين ، وإن كنت قد قرأت مرارا وتكراراً بقية مسرحيات شكسبير بسرور شديد . ومن اللغات الحديثة درسنا الألمانية دراسة جدية . أما اللغتان اللتان لم نتالا منا اهتماما جديا في المدرسة فهما الفرنسية والطبيعة « وتوقف عن الكلام قليلا ، ثم قال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة » ومن العلوم لم نتعلم إلا قليلا بقدر المستطاع » .

وسألته : « ولماذا لم تدرسوا الفرنسية دراسة جدية ؟ » .

وصاحت مسز هوابتهد قائلة : « ماذا تقول ؟ هل تريدنا أن نأخذ الرجل الفرنسي الذي يشبه الضفدع مأخذا جديا في تلك الأيام ؟ وأذكر أنني نشأت في فرنسا ولم أتكلم سوى الفرنسية حتى ذهبت الى إنجلترا وأنا فتاة في السابعة عشرة من عمري . حينئذ تكلمت الإنجليزية ، إلا أن أحدا لم يستطع فهم ما أقول » .

وتطوع مستر هوابتهد برواية شيء من ذكرياته . قال : « لقد قضيت المساء الأول الذي أمضيته معا في إطلاعها على بعض الصور لأنني لم أستطع فهم ما كانت تقول » .

قالت : « نعم ، بيد أنني سرعان ما أدركت أنني لا أستطيع أن أستمر كما كنت . ومهما يكن ما بذلت من جهد في تعلم الإنجليزية ، فقد بذلت جهدا أكبر في التخلص عن لهجتي الفرنسية . وقد التقى مرة أحد أصدقائنا من كبردج — وهو رجل ظريف ، اسمه تيودور بك ، سافر إلى مكان ما بالشرق — التقى برجل من ترنتي كان يعرفني ، وقال . « هل سمعت أن هوابتهد قد تزوج ؟ كلا . من تكون ؟ وما شكها ؟ فقال صديقنا لبك : « لقد أخطأ هوابتهد خطأ جسيما . إن اقترن عن ليست على شاكلة » .

« إن ما حيرنى فيكما أمدا طويلا ، قبل أن عرفتكما ، هو أنه بالرغم من أنكما قد عشنا إلى حد كبير على الصفة في مجال التبادل العقلى ، فى كبردج وفى لندن فيما بعد ، إلا أنكما لم تترفعا قط . وبالرغم من أنه لم يطرأ لى أبدا فى تلك الأيام أنى أستطيع أن أحضر الاجتماع الذى كنما تعقدانه مساء كل أحد . إلا أنه قد قيل لى إن كل امرئ هنا يستطيع الحضور إن شاء ، وإنكما كنما تستقبلان الزائرين زرافات . »

قالت نفورة : « ستين فى المساء الواحد . ولكنهم كانوا يدخلون المطبخ ويماونوننى . »

« عرفت بعض أسر الأسانذة الذين جاءوا إلى هذا المكان من الجامعات الأخرى ، ممن لقوا مشقة كبرى مدة طويلة قبل أن يألفوا العيش فى كبروج . فلما أتيتما تحولت الحال — فيما يبدو — إلى اجتماع حى . »

قالت « خبرنى . هل بدا علينا فى أول الأمر أننا من [الأجانب] إلى درجة قصوى ؟ »

« أجل فى أول الأمر . وأستطيع أن أذكر متى بدأ التحول . كان ذلك بين حامى ٣٤ و ٣٥ »

« وفيما كان الفارق ؟ »

« لقد أحببتكما »

وقالت إن فى هذا التفسير الكفاية .

وسأل هوايتهد : « منذ كم سنة تمارفنا ؟ »

« منذ أحد عشر عاما »

« إن الصداقة تبدد الزمن . إني أشعر كأنني عرفتك منذ أربعين عاماً »

« هناك روائي إنجليزي تمودت أن أقرأه وأن أعود إلى قراءته . ويرجع السبب في ذلك إلى أن صفحته كانت سبيل الوحيد في ذلك الحين للاتصال بالعالم الذي كنا نتحرك فيه بحركاً طبيعياً ، وهو عالم يفهم فيه الناس الآراء ويتناولونها في يسر . وذلك هو جورج مرديث . »

قال : « حقاً لقد نعمنا بمجتمع زنتي وكفجز ، وهما الكيانتان اللتان عرفنا فيهما الناس معرفة طبيعية جداً . ولست أقصد (بالمجتمع) بطبيعة الحال معنى الترفع السخيف ، وإنما أقصد الاختلاط بأصحاب العقول المتجانسة . ولكننا لم نتخير في كبرج هتا أو هناك . » وذكر أسماء الكثيرين من زملائه ، والتقطت أذني من بينهم اسم جيب .

فصحت قائلاً : « جيب ؟ لقد نشر كتاباً طالعته عن سوفوكليس . وكان جيب دائماً في متناول في نص إنغريبي حينما كنت هنا في الكلية ، وكثيراً ما تساءلت عن شكله . وهذه هي المرة الأولى التي أتابع فيها أثره . »

« كان زميلاً لطيفاً وله زوجة فائنة . لم تكن ضليعة في العلم ، ولكنك لا تريدها أن تكون كذلك . وكان لزوجها مزاج حاد كانت تستطيع أن تخفف مسز جيب من وطأته بفتنتها . »

وصححته مسز هوايتهد قائلة : بل قل ليدي جيب ، ولا تعظم ذكرها . فقد كانت تحب هذا اللقب .

واستطرد هوايتهد قائلاً : « إن المكان الذي اصطدمت معه فيه كان في انتخابات الزملاء لثرتي ، التي كان يحسن إليها حينئذ شديداً . وكما خرجنا من معركة من هذه المارك الانتخابية كان سر رتشارد خصماً لأحد زملائه لا يبادله

الكلام . وكنت اضطر إلى أن أقول لزوجتي [ادع - يا عزيزتي - جب وزوجته للمشاء . إن سر رتشارد لا يكلمني في الوقت الحاضر] ومن الأعمال التي أذكرها جيداً والتي أمتعتني كثيراً ما قام به عندما ركب من النهر على عجلته .

وقالت : « كانت ليدي جب شديدة العطف عليّ حينما وصلت إلى كبردرج وأنا حديثة عهد بالزواج وقالت لي : اتخذي لك ماشئت من إخوة ، ولكن لاتتخذي لك أبناء هم ، وكانت نصيحة طيبة استجبت لها . »

قلت : « بالنسبة إلى كطالاب كان ناشر كتاب سوفوكليس الذي أرجع إليه عملاقا » .

ووافقني مسز هوايتهد ، وقالت جادة : « حتى في مزاجه الحاد ! » .
« وأعطاني كذلك درساً من دروس (اللغة الإنجليزية) ، التي كنفا نتحدثان عنها منذ لحظة . لأنني - مثلكما - تعلمت عن الإنجليزية من اليونانية » .
وحذرتني هوايتهد قائلاً : « لاحظ أن هذه الدراسات في (الإنجليزية) في الكلمات الأمريكية ضرورية جداً . وإذا كانت الدراسات الكلاسيكية في اليونانية القديمة واللاتينية لا تدرس ، فلا بد من دراسة الإنجليزية ، على أحسن صورة ممكنة . وكل ما أرجوه ألا يحملوا دراستها مملّة . إن المعلمين - ما لم يكونوا موهوبين بالطبيعة في مهنتهم - ليسوا خير من يحبب الشباب في الأدب الممتاز » .

وسألت مسز هوايتهد بفتة : « هل تستطيع أن تخبرني لماذا يفضل الرجال النساء كثيراً كعالمين ؟ أقصد على وجه الإجمال . حينما تكون المرأة المعلقة ممتازة . (وقد كنت كذلك من ناحية ، ولم أكن من ناحية أخرى) تجدها رائحة ، غير أن ذلك استثناء . أما في الرجال فهناك ما يحمل المهنة لهم عملاً طبيعياً (إن صح أن نقول ذلك) وهم يحبون القيام بها » .

« دعنا نمحصر ملاحظتنا في أشخاص غير موجودين » (ولحمت بنظري المعلم الجالس إلى يميني) . « يبدو أن هذا الميل يتخذ في الرجال صورة الرغبة في إذاعة العلم والمعرفة . كان هذا الميل عند رتشارد فاجنر ، وكان يعلم أن هذا الميل في نفسه ، وقال في خطاب إلى ماتيلد وزندتك إن هذا الميل قد اتخذ في نفسه صورة الرغبة في إذاعة المعرفة بين الناس . وإن المرء ليلبس هذا الاتجاه عينه لدى أقل الناس شأنًا ، ويمكن أن يكون قوى الأثر . وهو مركب من محبة صادقة للجنس البشري ومن الرغبة في تقديم المون له »

وسألت مسز هوابتيد : « وهل ذلك بالإضافة إلى متعة التحدث إلى الجمهور؟ »
« أقترح أن نحتكم إلى أحد أعضاء هذه المهنة ، الموجود بيننا الآن . ما رأيك فيهم ؟ »

قال وقد نظر إلينا متلطفًا بنا : « لولا أني واحد منهم لقات إنهم قوم يدعون إلى الإعجاب » .

وتشبثت زوجته برأيها وقالت : « إن الرغبة في السيطرة عامل من العوامل في هذا » .

قال : « لا بد من التمييز بين الرغبة في السيطرة وحب العمل المجدى . إن الدنيا مليئة دأما - وهي الآن أشد امتلاء من أى عهد سبق - بالأفراد الذين يريدون أن يسيطروا حبًا في السيطرة فحسب (وهنا هز قبضته القوية في الهواء وكشر عين أسنانه) . ولكن رجال الخير ، من أمثال الطبقات المهنية وأصحاب الخيال الخلاق ، إنما يريدون النشاط المجدى . أنت - مثلاً - حينما تحرر مقالاتك ، لا تدفمك رغبة السيطرة »

« حتى إن دفعتني رغبة السيطرة ، فإن نوم السلطان لا يمكن الإبقاء عليه »
وقال هوابتيد : « أعترف أن الخط الفاصل بين الاثنين رقيق جداً ، إنما المهم

هو الفصل بينهما . ففي أحد الجانبين مجرد حب السيطرة ، وفي الجانب الآخر متعة التأثير بلون من ألوان النشاط النافع . . . خذ مثلاً أوبرات فاجنر التي تحبها ، لا أظن أنها تؤذيكَ بتاتاً . إنها بالنسبة إليك عالم من الخيال الشمري . ولكني على يقين من أنها لمدد كبير من الألمان في الوقت الحاضر تعني (أننا سلبناكم مرة ، وسنسلبكم مرة أخرى !) . »

وبدا في نظرة هوايتهد وفي نعمته وهو يذكر هذه العبارة الأخيرة أنه يقتبس من أقوال غيره .

وسألته : « هل حدث في التاريخ أن نبذ أفراد مسئولون فرضاً قواعد الأخلاق نبذاً تاماً ، كما يحدث في ألمانيا الحديثة ؟ » .

قال : « لقد كان هناك دائماً أفراد في جميع الأمم تأججت في صدورهم إرادة السيطرة دون أن يحذ منهم وازع من ضمير . وقد سادوا فترات تطول أحياناً وتقصّر أحياناً أخرى ، أما ما استجد في هذا الموقف في ألمانيا فهو اتساع مداه ، وطول أمده . فقد دام أطول من أي عهد سبق وبعنّف أشد ، وكانت له آثار أبعد مدى وأقوى هدماً » .

وقالت مسز هوايتهد : « لقد ذكرت مرديث منذ لحظة . كيف استطاع أن يضع طبيعتين لا توافق ألبته بينهما في امرأة واحدة كما وضع في ديانا ؟ إن الطبيعتين لا يمكن أن يمشيا معاً في إهاب واحد ؛ ولو فعلاً لتمزق منهما الإهاب ! » .

وأدى بنا هذا إلى الموازنة بين الروائيين الإنجليز والروس .

وقال هوايتهد : « الظاهر أن الروس قد تميزوا إلى أقصى حد في الرواية على نطاق واسع — فهناك تولستوى ودستوفسكي ورجنييف . إن الرواية تهتم إلى حد كبير بالمعادن الاجتماعية السائدة في وقت معين ومكان معين ؛ إلا إن

تناولتها أمثال هذه الأيدي التي تتعرض لجميع آفاق المجتمع - الأسرة ، والنظم السياسية والمسكرية والاقتصادية ، والصراع بين الشخصيات والآراء . واهتمام الرواية بزمان معين ومكان معين بضمها في المحل الثاني كصورة من صور الفن ، فلا ترتفع إلى مستوى تلك الموضوعات العالمية العظيمة التي تعرضت لها السآسى الإغريقية الكبرى . ولكن ، ألم تلاحظ أن هناك عدداً كبيراً من الأعمال الفنية الثانوية نعيش وتكتب لها حياة طويلة - قد لا تستحقها كما تستحقها الأعمال التي تفضلها - وذلك لأنها تشتمل على موضوع من الموضوعات التي تشيع بين الناس في كل حين ؟ وفي الحق إن الموضوع الواسع الانتشار يرجح أن يكون موضوعاً جيداً . غير أن العمل الفني - لكي يمشي - لا بد أن يكون مستساغاً عند عدد كبير من الناس .

قلت : « كم يود عالمنا أن يعلم إذا كانت السآسى اليونانية الثلاث والثلاثون التي بين أيدينا هي خير السآسى التي بلغ عددها ثلثمائة وتسع عشرة ، والتي عرف عن شعراء المؤسسة الثلاثة الكبار أنهم كتبوها . إن جلبرت مري يزعم أن السآسى التي عاشت ربما كانت أفضلها جميعاً ، أما إذا تحدثنا عن الرواية كدراسة اجتماعية ، فإن الكتاب الخيالي الذي أحب أن أقرأه إن أردت صورة عن الطبقة الوسطى في إنجلترا في منتصف القرن التاسع عشر ، هذا الكتاب من وضع امرأة ، وعنوانه (مدلاش) » .

قال : « سأحدثك عن روائى آخر ، يقترب مثلها - إن لم يكن أكثر منها - من الحقيقة ، وذلك هو أنتوني ترولوپ » .

وقالت زوجته : وقد أشارت إليه بحركة في وجهها تدعو إلى الضحك ، وفي أحلى أنغام صوتها : « لست أنكر أن الصورة لا تمثل غيرك يا عزيزى وغير أضرتك الكهنونية » . وقد أضافت هذه العبارة الأخيرة في خبث شديد .

وسألت : « وما رأيكم في الحوار ؟ كم منه مطبوعاً أو ملق على المسرح مما
عزل تمثيلاً صادقاً الطريقة التي يتحدث الناس بها فعلاً ؟ » .

وصاحت مسز هوايتهد قائلة : « ها نحن أولاء قد عدنا إلى موضوع الفجوة
بين لغة الكتابة ولغة الكلام » .

« الأمر شبيه بالموسيقى - التي يتكرر فيها النغم ... إن الحوار كما يجري
على السنة الناس فعلاً قلما يكتب ويسكون له أثر إلا إذا تناولته يد الكاتب
بالتحوير - ولو قليلاً . لا بد أن يكون جرسه بالطريقة التي يتحدث بها الناس ،
ولكنك إن حاولت أن تدون حديث الناس حرفياً فإنك قد تجد أنه لا ينم عن
الحياة كما ينبغي » .

وتدخل هوايتهد لينقذنا : « الفن هو صياغة خبرة من الخبرات في قالب
معين ، واستمتاعنا الجمالي حين نتعرف إلى هذا القالب . ومن الخطأ أن نظن أن
الكلمات كيانات ذاتية . إنها تعتمد في قوتها - كما تعتمد في معناها - على
ملاساتها العاطفية وعلى نعمها حين النطق بها . وهي تستمد كثيراً من تأثيرها
من أثر المقال كله الذي وردت فيه . إنك إذا استخرجت الكلمات من محيطها
أصبحت زائفة . وكما عانيت من الكتاب الذين اقتبسوا مني عبارة من العبارات ،
إما بمبدأ عن محيطها أو إلى جوار مادة غير ملائمة ، مما حرف معنای كل
التحريف ، أو هدمه هدماً شاملاً » .

« وهل هذا أمر يحتمل أن يقع فيه أساتذة الفلسفة ؟ »

قال : « إنى لا أقدر الفلاسفة - كطبقة - قدرأ كبيراً . إن المقول
الفلسفية الممتازة القليلة بحاجة إلى أن تُفهم من حيث علاقتها بالمصور التي طاشت
وفسدت فيها . وهذا بسببه هرباً لا يحدث إطلاقاً . إن الفيلسوف صاحب الباع الطويل
لا يفكر في فراغ مطلق وحتى أشد أفكاره تجريباً يتكيف إلى حد ما بما هو
معروف أو غير معروف في الوقت الذي يعيش فيه . ما هي الماديات الاجتماعية المحيطة به ،

وما هي الاستجابات العاطفية ، وماذا يمدّه الناس هاماً ، وما هي الآراء الأساسية في الدين والسياسة ؟ إن ديكرت — مثلاً — كان رجلاً بسيطاً نسبياً . وأعتقد أنه نسي القرن السابع عشر .

« وكذلك نسيه أولئك الذين حاضر وا عن ديكرت هنا حينما كنت طالبا . وهكذا كانت حالهم حينما بلغوا سببوزا وليبنتر » .

وقال هوبز : « إن أرسطو يوضح ما أرى إليه توضيحاً حسناً . لقد أسس العلم الحديث . وتقسيمه للظواهر الملاحظة ، الذي حسبته حقائق كاملة ، تبين أنه لا يزيد عن أنصاف حقائق ، بل أقل من ذلك . إن أقسام أرسطو — الأنواع والأجناس — صادقة بمعنى أننا نعرف أن الكلب يختلف عن القرد الأفريقي ، وأن كليهما يختلف عن الإنسان . ولكنك أنت وأنا والكلب والقرد كلنا ننحدر من جزئيات دقيقة من المادة الحية التي نشأت في مكان ما عند حافة البحر والأرض منذ ملايين وبلايين السنين . ومع ذلك فإن أردنا علماً ، فإن ما فعل أرسطو كان عين الصواب . لا بد لك في العلم من النظام ، ومن أجل هذا لا بد من عزل أنواع معينة من هذا النظام وإخضاعها للملاحظة . غير أن الموضوع في العلم — كما هو في الفلسفة — لا يمكن فهمه دون دراسته من حيث علاقته بالحياة المحيطة به . وكان من الممكن أن يأتي العصر الصناعي في عهد أرشميدس . فإن كل ما هو ضروري كان معروفاً ، ولم ينقص المهد سوى الشاي والقهوة . وقد أثرت هذه الحقيقة في عادات الناس حتى إن العصر الصناعي كان لا بد أن يتخلف قروناً حتى يلاحظ الناس في اسكتلندا غلايانهم والماء يقلى فيها ، وهكذا اخترعوا الآلة البخارية » .

واستطرد قائلاً : « هناك فيلسوف واحد يمدنا بتفسيره الخاص لمحيطة الاجتماعى ، وهو صاحب أعظم عقل أنتجته إنسان الغرب ، وذلك هو أفلاطون .

إنه يكتب في صيغة الحوار ، حيث يتناول الحديث أشخاص كثيرون ، فترى وجهات نظرهم المختلفة ، وتتكون لديك فكرة عن أى أنواع الأشخاص هم ، وبأى الماديات الاجتماعية المحيطة والنظم السياسية تأثر تفكيرهم - المدينة الحكومية وصناعاتها ، ونظامها الاقتصادي ، وحياتها العائلية ، وعاداتها التقليدية . وقد قلت منذ لحظة لا يمكن أن نعامل الألفاظ - ونحن مطمئنون - كأنها معان مستقلة بذاتها أو أفكار منتزعة من محيطها . إنها تكتسب معناها الحقيقي من قوة المقال الذى وردت فيه . كما أن جمال النجم لا ينحصر فى لونه وبريقه لحسب ، ولكنه يكتسب كذلك من جلال الكون المحيط » .

وكان ذلك يحتاج إلى بعض الوقت للإغراق فيه ، وحيث إننا كنا مشتركين فى حديث ، ولم نكن نقرأ كتاباً نستطيع أن نلقيه جانباً أو أن نعيد قراءته لى نحصر الفكر فى إحدى فقراته ، فقد قلت لى أتيح لى نفسى راحة عشرين دقيقة :

« لقد قضيت الليالى فى العام الماضى فى الرباعيات الأخيرة لبيتهوفن ومعزوفاته على البيانو ، وهى من أشد القطع الموسيقية إلهاماً . ولست أزعم أنى أفهمها إلا من بعض نواحيها ، ولكنها أيضاً كجمال النجم ، تكتسب من جلال الكون الفكرى المحيط . إنها تفرق المرء ساعات متصلة فى عالم من القيم المجردة ، كالرياضيات العليا ، وإنى أعتقد فعلاً إنها زادت من قدرتى على فهم بعض الرياضيات العليا للفكر المجرد الذى أستمع إليه منك . إن الموسيقى بطبيعتها الحال ممغنطة فى رياضياتها وهى كذلك مجردة . ومن خصائصها العجيبة أيضاً أن لها فى الوقت عينه محتوى عاطفياً وعقلياً . ولست أدعى أنى أعرف الموسيقى ، ولكنى أعتقد أن الموسيقى هى رياضة الجمال . »

قال : « إنى أقبل هذا التعريف ، لأنى أعتقد أنا نستوعب عن طريق حاسة السمع عندنا بمقدار ما نستوعب عن طريق حاسة النظر ، وربما أكثر . وأرجو ألا تظن

أننى أقصد أن أوازن بين اعتمادنا على الحاستين ، لأننا أكثر اعتماداً على النظر بما دامت لدينا القدرة على الانتقال . غير أنى أعتقد أننا أشد استجابة للصوت الرزين ، للموسيقى ، أو للجرس عظيم . إنه ينبه العاطفة فى اللحظة عينها التى بطرق فيها السمع ، ولا نفكر فيه إلا فيما بعد . إن موسيقى الأرغن توجهنا توجيهاً دينياً أبسر مما تفعل الأشياء المرئية بدرجة كبرى . إن سلامكم الوطنى ، الذى كثيراً ما أستمع إليه مذاعاً بالراديو ، لا يوحى — لحسن الحظ — بأن تردده الجماهير جاعة ، ولكنه يؤدى الفرض منه بدرجة تدعو إلى الإعجاب ، وإنى حينما أصنى إليه أكون أشد تأثراً منى وأنا أشهد السلم . ولا أقول شيئاً (وابتسم وهو يقول هذا) عن المزايا النسبية لملكم الوطنى كعلم . إنما الرأى الذى أرى إليه هو أن الفكرة — بحاسة النظر — تبعث العاطفة ، فى حين أن العاطفة — بالصوت — تبعث الفكرة ، وهو اتجاه أكثر مباشرة ، ومن ثم أشد قوة .

فعلقت بقولى : « حضرت مع مستر جِدْ ؛ مدير أركسترا بوسطن السمفونى ، تمثيل مسرحية ابسن (جون جبرائيل يوركمان) . وفى الفصل الثانى ، يعزف أحدهم (دانس ما كابر) لسنت سائين خلف المناظر . إن المسرحية قوية ، ولكن حينما سكنت الموسيقى تبادلنا النظر وابتسمنا . إن الموسيقى — وإن تكن قد خففت حتى لا تطمس الحوار — قد طفت على المنظر . لقد فمات ما قلت تماماً ، تحدثت إلى المواطن مباشرة . »

وأجاب بقوله : « إن نسمين فى المائة من حياتنا تسيرها العاطفة . إن أذهاننا تسجل فقط وتنفذ ما ترسله إليها خبراتنا البدنية . إن العقل بالنسبة للعاطفة كاللباس بالنسبة لأجسادنا . وما كنا لنستطيع أن نمدن الحياة جيداً بغير ملابس ، أما لو كانت لدينا ملابس بغير أجساد فنحن إذن بغير قيمة . »

ودقت ساعة مموريال هول التاسعة ، وجاءت مسز هوابتهد بمائدة الشكلاثة

الساخنة . وفيما تبقى لدينا من وقت تحدثنا عن فترة من فترات التاريخ كانت - فيما يبدو - سعيدة الحظ . وهي فترة عاشت فيها ثلاثتنا مددا متفاوتة .

قال : « إن من أسعد الأوقات التي عرفتُ في تاريخ الإنسان ، فترة الأعوام الثلاثين التي تقع على وجه التقريب بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩١٠ ، ولست أقصد إلى القول أنه لم تكن هناك أشياء عديدة كانت بحاجة إلى التغيير . ولكننا نؤمل أن نغيرها وشرعنا في ذلك ، كانت الظروف مثالية لأمثالنا ، الذين نستمتع بقدر معقول من الراحة - لم يكن لدينا مال كثير ، وأمامنا عمل ضخم لا بد من أدائه ، وإحساس بالهدف والتقدم في العالم » .

وقالت مسز هوايتهد : « وكذا نعمل أيضا لأغراض كثيرا ما كانت تمارض وصالح الطبقة التي ننتهي إليها » .
قال : « كانت زوجتي ، فيما بين سن العشرين والخامسة والعشرين ، تعاني وقتا عصيبا ، كان عليها أن تكسب قوت يومها في لندن » .

« كنت شابة ، لا يحميني أحد ، وعلى أن أتوجه إلى عمل وأعود منه وحدي . وقد عرضتني ملابس المضايقة ، لأنها لم تكن مما يلائم فتاة عاملة ، ولكن كان لا بد لي من ارتداؤها ، لأنها كانت كل ما أملك » .

وعاد إلى الكلام فقال : « أما عن نفسي ، فأني أستطيع أن أقول إن ظروف كانت على خير ما يرام طوال حياتي ، وفي تلك السنوات التي تقع بين عام ١٨٨٠ و ١٩١٠ كثيرا ما كنا نتحدث عن ذلك العالم المجيب الذي لا بد أن يعيش فيه أبناؤنا » .

(٣٠)

١٩ من يونيو ١٩٤٣

تفيب هوايتهد عن الغداء السابق بنادي السبت في شهر مايو . وأرسل يقول

بأن القرار الذى يحرم استخدام الناز فى الذهاب إلى الحفلات الاجتماعية كان ينطبق - فيما يتعلق به - على عربات الأجرة . ولما كان لا يفكر فى ركوب قطار كبرج الذى يسير تحت الأرض ، فقد تحتم عليه عدم الحضور . وأسف الجميع لغيابه ، وقلت :

« لابد أن نفكر فى الإتيان به إلى هنا بأية وسيلة : إن شركة تشكر لعربات الأجرة لديها عربات تجرها الخيل فى الطرقات » .

وقال الرئيس : « لقد ألفنا منك ومن ألفرد كدّر لجنة لترى ما يمكن أن يعمل » .

وقادتني هذه المهمة إلى الطرف الجنوبي من المدينة ، إلى إسطنبول شركة تشكر لعربات الأجرة . وهنا كان القرن التاسع عشر لا يزال فى حيوية شديدة . فهناك خدم للخيول ، وسائسون ، ولا يقل عن ثلاثين حصانا قويا ، وعربات أصبحت الآن مما يصح أن يودع المتاحف ، وعربات من التى لا تتسع إلا لاثنتين ، وحناطير وعربات ركوب ، ومركبات مقفلة ، وعربات تتسع لأربعة أشخاص ، وعربات خفيفة ذات عجلتين ، وعربات تجرها الكلاب ، وعربات يجزها حصان واحد ؛ وسنجات السائسين ، بل إن راحة الإسطنبول نفسها كانت قينة بالمتحف . إنها تذكر بالأيام السعيدة الحالية ! اخترنا عربة يجزها حصان واحد ، أنيقة ، منجدة بالجلد الفاخر ، نوافذها من الزجاج البلورى ، بها بوق للنداء ، ومصباح على الجانبين ، عمرها أربعون عاما ، وكانت ملصقا لأسرة ثرية نسبت اسمها ، وكانت تسير فى الطريق المؤدى إلى واشنطن كل شتاء .

(يبلغ نادى السبت عيده الثوى فى عام ١٩٥٥ . » كثيرا ما كان مسترامرسن يترك مكتبه فى كنفكورد يوم السبت لىكى يتوجه إلى مكتبة أثينم ، ويزور أصدقاءه ، أو يقابل نائبريه بشأن العمل . والأرجح أن يتوقف عند (مكتبة الركن) عند ملتقى شارع واشنطن بشارع المدرسة « وقبل إنشاء النادى بست سنوات كان امرسن يبحث مع أصدقائه مشروع إنشاء ناد حيث يستطيع العلماء المنزليون والشعراء ، والطبيعيون - كأولئك الذين كانوا فى كنفكورد - أن يجدوا صحبة ملائمة حينما يأتون إلى المدينة . وقد انتهى الأمر فى الواقع إلى إنشاء ناديين فى وقت واحد تقريبا : أحدهما نادى المجلة ؛ الذى تولدت عنه فى عام ١٨٤٧ مجلة أطلنطيق الشهرية . ثم نادى السبت الذى حل محله تدريجا أو ابتلعه ابتلاعا . ومن بين أعضائه الأوائل امرسن وهوثورن ولنجلفلو ولول وهولمز وموتلى ودانا وهويتير وبرسكت وجاسز وباركان . وكان يقدم الغداء فيه - ولا يزال - فى السبت الأخير من كل شهر من سبتمبر إلى يونيه ، مع بذل المحاولة فى كل يونيه لحضور حفلات توزيع الدرجات العلمية بهارفارد . وفى تلك الأيام الباسلة من القرن التاسع عشر كان الأعضاء يجلسون من الساعة الثالثة حتى التاسعة ، فى بيت باركر ، فى حجرة أمامية فسيحة حيث تطل النوافذ الطويلة على تال دكتور فرانكلن البرنزي - وكان يصلح أن يكون عضوا له قيمته ! - فى حقول ستن هول الخضراء ويلتقى الأعضاء الآن فى نادى الاتحاد بشارع يارك ، على مرمى حجر تقريبا من ذلكا المعلمين الأولين - أثينم ومكتبة الركن القديم التى انتقلت الآن إلى شارع بربفلد ، وهذه الحقائق والمقتبسات مأخوذة من العدد الأول من مجلد بن ضخمين عن تاريخه ، بعنوان : السنوات الأولى من نادى السبت ، تأليف أدوارد والدو امرسن) .

كان موعد الغداء في الساعة الواحدة والنصف . وطلبت من المربة أن تكون
بفندق أمباسادور في كبرج في الساعة الثانية عشرة والنصف . وكانت هناك
في الموعد المضروب تماما . ولكنها غير المربة التي اخترناها .

وتبين لنا السبب في ذلك فيما بعد . كانت هذه المربة معيبة قليلا . المقبض
مغلوط من الباب من جانب الدخول . وكانت مفجدة بلون أرجو أنى ملكى . وكانت
تفوح بروائح مختلفة ، بما فيها رائحة الخيول ، ولكنى لم أنبين منها أرا رائحة
أكليل الموتى . وركبنا .

لم تكن سيارة ، المقاعد مغطاة بالوسادات ، ولكنها برغم ذلك جامدة .
والمساحة التي تتحرك فيها الراكب ليست فسيحة ، وعجلات الطاط الجامدة التي
تكسو الإطارات الخشبية لا تخفف كثيرا من هزات السكتل المرسوفة (وكان
ذلك كله بعد من أسباب الترف) — ولكن التوافد كانت مفتوحة . وكان
اليوم من أيام يونية الصافية تهب فيه نسائم نقيّة ، وتتوهج فيه أشعة الشمس
وأنصر الطرق إلى شارع يارك كان يمر بكبرج خلال حي المصانع وفوق
قنطرة لنجفلو .

وكان منظرنا يسترعى الانتباه . كان وليام جل — سائق المربة — يلبس قبعة
من الحرير سوداء عالية ، ليست جديدة كما كانت من قبل ، وسترة زرقاء ، ليست
جديدة كذلك ، ذات أزرار نحاسية . وبدت الدهشة على وجوه المشاة . واعتقد
أنهم ظفوا هذا النظر في أول الأمر حركة بهلوانية للإعلان ، وأخذوا يبحثون
عن اللفتة . فلما لم يجدوها طرأت لهم فكرة أخرى ، وهى أننا ربما كنا طالبين
في حالة من حالات المرح ، وتطلعوا داخل المربة ليروا من فيها . فوجدوا أن
راكبيها لا يتفقون وما تصوروا . وفقر الناس أفواههم ، وانفجر بعضهم بالضحك .
ولما انحدرت المربة خلال حي المصانع ، صاح صغار الأطفال الذين يلعبون في

الطرقات بعبارات السخرية - لا تزعج نفوسهم نوازع الضمير . ومن حين إلى آخر كنا نمر بسائق سيارة أجرة ، ففراہ يطل برأسه ويلقى على سائقنا نكتة ، مثل « تقدم ولا نخش شيئا يا جدى ! » .
كل هذا لم يزد على أن يكون صورة لاشعورية لازمت الموضوع الذى طرح للناقشة .

قال هوإيتهد : « نحن فى دور الانحلال من تلك الفترة التاريخية التى أورخها على وجه التقريب من حوالى عام ١٢٥٠ بعد الميلاد ، والتى بدورها تعتبر بداية نهاية المصور الوسطى . وأشك إن كان أحد فى القرن الثالث عشر يدرك ما كان قد بدأ بالفعل يحدث » .

وسألت : « هل من الممكن عادة للناس أن يدركوا حقيقة الانهيار الاجتماعى الكبير ، حتى يحل بهم ؟ »

وأجاب : « إن والدى يوضح ذلك . ولد فى عام ١٨٢٧ وعاش حتى عام ١٨٩٨ ، فامتد عمره واحدا وسبعين عاماً . وقد شاهد الثورة الصناعية الأولى - وعدها أمرا طبيعيا - وهى الثورة التى بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان من مظاهرها الآلة البخارية ، ونظام المصانع وما إلى ذلك . ولكنه لم يتخيل ولو فى صورة باهتة الثورة الثانية ، وهى أعظم من الأولى ، الثورة التى أحدثتها التكنولوجيا . كان قسيسا . وكان العالم الذى يعيش فيه يبدو آمنا ثابتا . بالرغم من أنه كان فى نهايته تقريبا فى سنة وفاته ولما كانت إنجلترا أول ما تصنع فقد أثر ذلك فى تاريخنا بطريقة عجيبة عكسية : فبدلا من أن نتحرر ، فى عهد الثورة الفرنسية ، أصبحت حكومتنا محافظة ، وقاومنا آراء القرن الثامن عشر التقدمية ، بدلا من أن نرحب بها » .

وقلت : إن فى عصور التغير السريع ، يتوقف كثير ، وكثير جدا ، على نوع الشخصيات التى ترتفع إلى مراكز الحكم .

وقال هوابتهد : « من الأسف الشديد أن أرازمس لم يكن شخصية أقوى مما كان . كانت آواؤه صائبة ، كان من الممكن أن تعد العالم بحلول لتقدم العالم المسيحي أوفق من الحل الذي انتهى إليه الأمر . ولكنه كان يفتقر الى القوة . وآلى الأمر الى أيدي لوتر وكالفن ، اللذين وقعا في أخطاء جسيمة . كانت نظرة أرازمس هي نظرة الأفراد العاقلين المستعيرين ، ولو أن من قام بتطبيقها كان زعيما قادرا لما كانت هناك حاجة الى أجنيشس ليولا أو (مجلس الدين) . لقد ارتكب كالفن ولوتر خطأ فاحشا بنبذها كل جاذبية للكنيسة من الناحية الجمالية وهي أحد عناصرها الطيبة . وأنت تعلم مقدار جفاف الصلوات البروتستانتية : قليل فيها ما يغذى الماطفة ، وهي لا تلجأ الى الجمال إلا قليلا . أولا تلجأ ألبتة إليه . »

« وقد يشوقك أن تعرف أن صديقنا لفنجستون ، بعد ما أتم قراءة سيرة لوتر التي كتبت منذ عهد قريب ، كتب الى يقول إن لوتر بدا له وكأنه (هتلر آخر غير عف اللسان) »

قال هوابتهد : « إن لفنجستون رجل أقدر رأيه في مثل هذه الأمور أكثر من أى شخص آخر . إن من كان مطلوبا في عصر الانتقال ذاك رجل يعمم الآراء القديمة ويوجهها توجيها حرا أو يفسرها تفسيرا رمزيا يمكن أن يجعلها مقبولة للناس الذين يتطلعون الى المستقبل . ذلك ما فعله شعراء المأساة المظالم ايسكس وسوفوكايز ويورپديز ، ثم ما فعله فيما بعد الفلاسفة ، وبخاصة أفلاطون - ذلك ما فعله هؤلاء بديانة أولمپ الاغريقة القديمة في القرن الخامس ق . م . استطاعوا أن يتناولوا الآلهة القديمة ، زيوس واپولو وپالاس أثينا وغيرهم ، وأن يخففوا من بربرية العقائد القديمة وينقذوها ويحولوا الأساطير البدائية الى رمزية ، وبينوا قنطرة بين ما كان الناس يمتقدون فيه سابقا ولم يستطعوا بعد الايمان به ، وبين الآراء التي يمكن أن يقبلها القوم المتمدون - استطاعوا أن يبنوا هذه القنطرة بسوقهم الناس معهم في مجتمعات شعبية ضخمة تشهد أداء مسرحياتهم أمام الجمهور . »

وعلقت على ذلك بقولى : « يقال إن الأسطورة هى الصيغة التى ينقل الناس بها الحقائق التى يحسونها إحساسا عميقا ، قبل أن تبلغ مرحلة الآراء العامة . وكانت لكتاب المسرحية الأتنيين هؤلاء - باستخدامهم موضوعات أسطورية لمسرحياتهم - ميزة كبرى ، لأنهم يناشدون فى وقت واحد العقل والماطفة ، يناشدون للوطنين الماديين كما يناشدون المتعلمين . مما أدى إلى أن تتمكن المجموعتان من زيادة الانسجام فى الشهور والعمل » .

وقال هوايتهد : « إن أية طريقة من طرق التفكير تقوم على أرضنا هذه محدودة جدا فى تصوراتها - سواء أكان ذلك فى الدين أم فى الفلسفة - وقد كانت أكثر الطرق كذلك فعلا . إننا نعلم الآن أن أرضنا كوكب تافه يدور حول شمس ثانوية فى جزء من الكون ليس كبير الأهمية . واثرة هذه المعرفة عند خيار الناس وهم يتبادلون الحديث كما أتبادله معك - على فرض أننا من خيار الناس (وقال ذلك وهو يتنسم) - ينبئ أن يكون أعظم من ذلك بدرجة لا تحصى . ولست أرى سببا يدعو إلى الظن بأن الهواء المحيط بنا والسموات التى تعلونا قد لا تكون مسكونة بأصحاب عقول ، أو بذاتيات ، أو صور من الحياة ، لانفهمها كما لا تفهمنا الحشرات .

إن الفارق - حجبا - بين الحشرات وبيننا لا يقاس إلى الفارق بيننا وبين الأجسام السماوية - ومن يدرى ؟ - ربما كانت السدم ذاتيات حساسة ، وما نستطيع رؤيته منها هو أجسامها . وليس ذلك أبعد عن المعقول من أنه ربما كانت هناك حشرات لها عقول حادة ، وإن تكن نظرتها أضيق أفقا من نظرتنا (وهنا ابتسم مرة أخرى) . أقصد أننا جزء من سلسلة لا متناهية . وما دامت السلسلة لا متناهية فيجدد بنا أن نضع هذه الحقيقة فى اعتبارنا ، وأن نقر فى أذهاننا هذه الإمكانات التى لا تنتهى » .

« كانت لديك فى شبابك ميزة الاستماع إلى ما كان يدور الحديث فيه فى حجرة الجلوس العامة فى ترنتي ، والمساهمة فيه - »

قال هوابتهد : « وأضف إلى ذلك كنبز »

« كنبز وترنتى إذن . وقد دام ذلك حلال القدين الثالث والرابع من عمره . وكان أولئك الناس من غير شك من الطراز الأول ، وكان من بينهم كثير من رجال العلم كما كان من بينهم كثير من أساتذة العلوم الانسانية . وقد حدث ذلك كله ما بين عام ١٨٨٠ و ١٩٠٠ ، فى الفترة السابقة مباشرة لتلك التغيرات الاجتماعية والتكنولوجيا الكبرى التى انقضت علينا . ويبدو لى أنه لو كان بالإمكان التنبؤ ، لاستطاع هؤلاء أن يتوقعوا حدوث أمر ما . فإذا كان مقدار توقعهم فيما تظن ؟ »

« كان كبيراً بالتأكيد فى الناحية العملية . ذهبت إلى كبردج فى عام ١٨٨٠ ، وكنت رياضياً ممتازاً بالنسبة إلى فتى فى التاسعة عشرة من عمره . وكان معلمى تلميذا اسكلارك ما كسويل ، الذى مات قبل ذلك بنحو عام ، وهو أيضا كان مبرزاً . وكانت آراء نيوتن لا تزال فى تمام قوتها . وقد عمل كلارك ما كسويل على التوفيق بينها وبين المستكشفات الحديثة آنذاك فى الكهرباء . أما فى الطبيعة الرياضية فيبدو أن الجهد فيها كاد ينهى . واتجهت المحاولة نحو شرح بعض ما تبقى من مفارقات بين ما كان مفهوماً وما لم يكن وذلك بطريق التفسير الرياضى . وفى محاولة ذلك انقلب كل شىء رأساً على عقب . وكان الناس فى ترنتى بين عام ١٨٨٥ وعام ١٨٩٥ تقريباً — وبعضهم من المباشرة — يعرفون على وجه الموم ماسوف يأتى فى سبيل التقدم العلمى . أما ما لم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يتنبأوا به فهو ماسوف يترتب على الحيل الفنية الجديدة من الناحية الاجتماعية . ليست هناك فكرة واحدة فى طبيعيات نيوتن — مما كان يعلم كحقيقة كلية — لم يحل عليها غيرها . إن آراء نيوتن لا تزال نافمة ، كما كانت فى أى وقت سبق . ولكنها لم تعد صادقة بمعنى الصدق الذى تعلمت أنها مثله . وقد أثرت هذه التجربة فى تفكيرى أثراً عميقاً . لقد ظن الناس أنهم على يقين ، بل وعلى يقين من أصلب شىء فى السكون على ما يبدو ، ثم رأوا أن هذا اليقين قد تحول على أيديهم إلى لانهايات لا يتصورها العقل ، فأثر ذلك بالنسبة إلى فى كل شىء آخر فى السكون » .

وقد عبرت العربى قنطرة لنجفلو وأخذت تتجه نحو شارع كبرج بدلا من شارع شارلز .

فأطل هوايهد وسأل : « فى أى طريق تمتقدون أنه يسير ؟ »

قلت . « هذه هى الطرقات شديدة الانحدار التى تقع خلف بيكن هل . إنه لا يستطيع أن يصعد فى أى واحد منها . أعتقد أنه بحث مع رئيسه الطريق الذى يسلكه ، واختار أيسر الطرق للحصان » .

فقال هوايهد . « إن الحصان يترنح كثيراً من جانب إلى آخر . والظاهر أنه لم يمتد جر العربات . وأعتقد أنه يصلح أن يكون مسرجا . إن فكرته فى تيسير الأمور على نفسه هى — فيما يظهر — أن يحاول السير فى كل شارع جانبى » .

(وكانت تلك ملاحظة تم عن ذكاه . فى نهاية الرحلة اعترف لى وليام هل أنه لم يمتلك هذا الحصان إلا منذ يوم الإثنين السابق) .

وانطلق خلال ميدان سكولاى ، وعلى امتداد شارع ترمنت إلى جوار مخزن الحبوب ، ومدافن كنيسة كنجز إلى زاوية شارع بارك ، متجنباً بذلك كل التلال حتى المائة الباردة الأخيرة من الطريق ، حيث أول انحدار بشارع بارك حتى مقر الحكومة . وهنا أيضا اجتذب الانتباه الشديد منظر عربة يجرها حصان تقف عند نادى الاتحاد ، ومما زاد فى اجتذاب الانتباه أن العربى كانت تسير فى الطريق الضيق الذى يقع بين النادى وعمارة تيكسز ، ثم توفقت فجأة بين الرصيفين . وقد اعترضت سيارة نهاية الطريق المسدود من الداخل . وطلب إلى سائق العربى أن يفرل الركاب ليحررها .

وخيراً فعل . ودخلنا النادى فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد الظهر . وسلمت رسالة السائق الى الكاتب فى مكتبه . ونظر إلى فى دهشة وذهول . وأعدت الرسالة .

قلت : « إن الأستاذ هوابتهد قد أتى ليحضر غداء نادى السبت في إحدى العربات ويقول السائق إنه لا يستطيع أن يسير بالعربة فوق التل ، وهو يريد أن يسير في طريقكم هذا ، ولكنه مسدود بإحدى السيارات ؟ ونظر إلى السكاتب وكأنه لم يفهم شيئا . قلت :

« أخرج معي لأريك » .

وخرج معي . ثم ضحك مقهقها ، ولكنه حرك السيارة ، وانطلق سائق العربة الى الداخل ، وقد لزم جانب الطريق ، ملتصقا بالظل للحصان ، ومبتعداً عن حركة المرور . (نهاية النصف الأول — وقد تقدمنا)

وليام فليس ، الذى شغل منصب وكيل وزارة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٣٦ كما كان سفيراً في إيطاليا من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤١ ، أحد أعضاء النادى . وكان حاضراً . وقد عاد من وقت قريب جداً من مهمته في الهند كممثل شخصي للرئيس بلقب سفير . وبعد الغداء تحدث عن هذا الشأن بناء على طلب الحاضرين لمدة نصف ساعة تقريباً ثم دعا إلى سؤاله . ولو استثنينا بعض ماذكره عن لثلاثجو نائب الملك واوكنكك رئيس قوات الجيش وفيلد مارشال ويفل فقد حرص على ألا يزيد في كلامه عما يمكن أن يذاع في مؤتمر صحفي . ولكنه أظهر في جلاء أن الولايات المتحدة تتصل بهذا الجزء من العالم اتصالاً لايسر ، وأن أعمال الحكومة البريطانية التمسفية تكذب في آسيا مزاعمنا كحريدين .

وفي الحديث الذى تلا ذلك وجه اليه السؤال هوابتهد والأستاذ هارلوشابلي ، عالم الفلك بهارفارد ، وبلس پرى وچيروم هنسيكر ، مهندس الملاحة الجوية ، ورئيس القسم بالمعهد التكنولوجى بماساشوست ، وكامرون فوربس ، الذى كان حاكماً عاماً في الفلبين وسفيراً في اليابان ، والذى تحدث كرجل له خبرته الخاصة كسياسى عمل في آسيا .

وكانت الحجرة باردة مريحة ، بالرغم من أن جو الظهيرة في الخارج كان شديد الحرارة . وهي طويلة ، مرتفعة السقف ، لها مدفأة مزخرفة في أحد طرفيها على طراز أوائل القرن التاسع عشر ، لأن البناء كان في الأصل منزل أبوى لورنس لول بالمدينة ، وقد ذكر مرة أن هذه الحجرة كانت حجرة نوم لأمه . ويطل المكان على قمم الأشجار في الحقول العامة التي أبنمت وأورقت واشتدت خضرتها بفعل الربيع المطير . وتملأ هذه الحقول سماء يونيه الزرقاء ، مبيضة من أثر ضوء الشمس القوي . وملئته بالسحب الفضية التي تجرى سرية تدفعها الرياح الجنوبية الغربية . وقبل أن نفصرف طلب إلى ادوار فوريس سكرتير النادى أن ألقى نظرة على دفتر الزيارات . ولم تسكن أمامى سوى لحظة واحدة لأننا كنا قد طلبنا عودة العربة في الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة ، وهي الآن الثالثة والنصف تقريبا . وفي هذه اللحظة التي توافرت لي رأيت توقيعات فرانسس پاركان ووليم جيمس وتوقيع جده وجد أخيه كامرن ، ر . و . امرسن .

وخرج ادوارد پكان والفرد كدَر لسكى يلقيا على العربة نظرة . وتذكرا السنوات التي قضياها في السككية وقالوا إن الرواية لا تتم فصولا إلا إذا تناولوا قليلا من الشراب ، وإن السائق — لسكى يمشى وفقا للتقاليد — ينبغي أن يكون ناعلا . ولكنه لم يكن ، غير أنهما ابتهجا لما عرفا أنه لم يكن من المعتنمين عن الشراب .

ولما كان الوقت مساء السبت ، والجو لطيفا ، فقد كان الناس وزوجته وابنتهما الصغير في المدينة يسرون على الأقدام فوق الأرصفة ، وأكثرهم في شارع ترمنت ، حيث كان علينا أداء رسالة منزلية عند س . س . بيرس : كان لا بد لنا من تسلم ثلاث علب ثقيلة مصنوعة من السكرتون ، طلبناها من قبل بالتليفون ، لأن قلة تموين الغاز لا يمكنهم من توصيل البقالة الى كبردج . ولما اقتربت العربة من الرصيف الذي يقع أمام المحل التجارى ، شق على المشتريين

— وأكثروا من السيدات — أن يلزموا آداب السلوك . دهشن لأول نظرة ، ثم ابتهجن ، ثم تحيرن ، ثم حاولن أن يكتمن ضحكتهن . واستطعن لأول وهلة بطبيعة الحال أن يدركن أننا اضطررنا الى ذلك بسبب قلة تموين الناز ، ولكنهن لم يكن على استعداد لأن يتقبلن التقاليد الملكية كلها التي سادت في القرن التاسع عشر بتغير محور .

وقال هوابتهد بمد ما وضعنا بضاعتنا في العربة ، علبتين الى جوار ركبتى السائق ، وعلبة الى جواره على المقعد : « أظن أننا لو أطللنا برؤوسنا من النوافذ وانحنينا ، استقبلنا الناس بالهتاف » .

ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك كثيرا . فقد لفت الملاحون - وهم في زيهم البحري - رؤوسهم صوبنا ، وابتسموا ساخرين . ووقف الفتيان - وهم في زيهم العسكري - سامتين في طريقهم تبدو عليهن الدهشة ، كما وقف المشترون وأيديهم مليئة بالحزم ، وتطلعوا إلينا في ذهول ، محاولين أن يكيفوا موقفنا من غير شك . ولما كنا نكف عن السير عند علامات المرور ، كنا نستمع في وضوح إلى ما يبديه بعض المارة من ملاحظات . وكنا نستطيع أن نتلقى كثيرا من نكات الجمهور السائر فوق الرصيف لو أردنا ذلك .

وأذكر فوق هذا كله روعة هذا اليوم من أيام شهر يونية . ولا يرى المرء كثيرا من الخضرة - فيما خلا مخزن الحبوب وحقول مدافن كنيسة كنجز - وهو في طريق العودة كما كنا . وقد لزمنا نفس الطريق الذي أتينا به - خلال ميدان سكولاي إلى شارع كبردج عبر قنطرة لنجفلو . ولكن العين تقع هنا وهناك على شجرة أو على رقعة خضراء ، مترعة ، كثيفة . وقم الأشجار كلها تمايل وتهتز من فعل الرياح الجنوبية الغربية . والمدينة في رداء يونيه ، تحت سماء يونية الزرقاء ، بدت جميلة على غير عادتها .

وكنا نشب فوق الكتل الحجرية التي تترص شارع كبردج . وكان هوابتهد

يتحدث عن اختلاف المميزات العامة بين النساء الإنجليزيات والنساء الأمريكيات. قال : « إن التشابه السائد بين تربية البنات والبنين في أمريكا يحمل النساء الأمريكيات جامدات والنظرية هنا هي أن تربية البنات مع البنين ، ولعبهم معهم ، واشتراكه في ألعابهم ، ومرافقتهم لهم إلى المدرسة ، بل وإلى السكينة أيضا في كثير من الأحيان ، ذلك كله يكسبهم قوة في شخصياتهم . والواقع أن هذه التربية لا تنجح النجاح الذي يتوقمه الإنسان . وأعتقد أن أنجح النساء - كنساء - كن في القرن الثامن عشر (وأنا أتحدث بطبيعة الحال عن نساء الطبقات الممتازة) فقد كان لهن مجال أفسح لقدراتهن الفطرية التي يتميزن بها . وزوجتي سيدة من هذا الطراز . فقد نشأت في أسرة على طراز القرن الثامن عشر من الوجهة العملية من الأرستقراط . وخفف من حدة هذا الأثر الأرستقراطي اضطرابها - كشابة لم يكمل استمداها - إلى كسب قوتها ، وقد فعلت ! أما إن أردت أن تعرف كيف كانت المرأة في القرن الثامن عشر فاقض مساء مع زوجتي » .

قلت : « لقد قضيت معها أمسيات كثيرة ، فتسكونت لى نفس هذه الفكرة » .

وواصل حديثه قائلا : « وأرجو ألا تفهم أنى أقول إن نساء كم الأمريكيات لسن على حيوية شديدة وذوات تأثير كبير . إنهن في كثير من الأمور أشد تحمدا من نساينا الإنجليزيات . ولكن من بين النساء العاملات - إذا حكمنا عليهن كطبقة - أولئك اللاتي يقمن بعمل عام إلى جانب إدارة بيوتهن وأسراتهن بجدارة وحسن تدبير - أعتقد أن لنساينا الإنجليزيات مجالا أوسع ... » ونلخص رأيه في اقتضاب قائلا :

« لو أنى ولدت امرأة ، لأردت أن أولد في أمريكا وأعيش هنا الثلاثين السنة الأولى من حياتى ، ثم فى إنجلترا بمدذك . وأعتقد أن المرأة بهذه الطريقة تحصل على خير ما فى العالمين » .

« هل صداقة أسرتكم مع خدمكم ، التي لاحظت أنها عميقة خالصة ، أمر فردى أو أمر شائع »

قال : « بل إنه أمر شائع أكثر منه فرديا . وأستطيع أن أذكر لك السبب . إن العلاقة بين المخدم والخدام بيننا أمر لا نفكر فيه . وإن بدا ذلك عجيبا — بطبيعة نظام الطبقات عندنا ، لما ترسب فيه من نظام الإقطاع . إن الصداقة بين أشخاص من طبقات مختلفة أقرب الى الإمكان ، لأننا لا نخط من شأن المرء الذى لا يرتفع فى طبقته ، حيث إننا ندرك أن الطبقة التى يولد فيها المرء مسألة تتعلق بمحظه » :

وأمنت على هذا القول ثم أضفت (كان المفروض فى هذه البلاد حتى عهد قريب أن المرء إذا لم ينجح فى هذه الدنيا فإنما يرجع ذلك إليه ولا يزال فى هذا شيء من الصدق حتى هذا الجيل الحاضر ، وبخاصة فى الغرب الأوسط حيث نشأت . وهذا أحد الفوارق الكبرى بين الجيل الماضى وهذا الجيل : كان عندنا أمان ، أو نحسب أنه كان عندنا . أما أبناء الجيل الحالى فلم يعرفوا الأمان قط ، ولا يبدو أمامهم لكى يتطلعوا إليه » .

وقال هوابتهد : « كان الخدم دائما أصدقائى ، اعتدت وأنا صبي فى السادسة من عمرى أن أفز هنا وهناك متنقلا مع البستانى وهو يؤدى عمله . وقد علمنى أسماء الأزهار والنباتات . واعتدت كذلك فى صباى أن أقضى الشهور متواصلة فى بيت جدتى لأمى ، الذى يطل على جرين بارك فى لندن . وكانت وصيفتها چين واىكلو تقرأ لى دكنز بصوت مرتفع — وقد قرأت لى (صحائف بكويك) كما قرأت (دافيد كبرئيل) . واكسبتهما عندى حياة قوية ، وكانت أسرة أسمى أرفع مكانة بدرجة ما من أسرة أبى من الناحية الاجتماعية ، بيد أنه لم تكن لها ما لأسرة أبى من امتياز عقلى ، وكان أفرادها شديدى النزاع . فلما كان يذب بينهم خلاف — وكثيرا ما كان يحدث ذلك — كانوا فى أغلب الأحيان يرفعون

أمرهم إلى جين وإبكلو ، وكانت تسوى الأمر . كانت جين السميت (المادة اللاصقة) الذى يضم أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض » .

قلت : « هل وقعت من نفسك شخصيات دكنز موقع الصور الهزلية لأشخاص أطوارهم غريبة ، وأنت نستمتع إلى وصيفة جدتك تقرأه عليك بصوت مرتفع هناك وسط لندن ؟ »

« كلا . إن شخصيات دكنز هي الطبقات الفقيرة في لندن . وليست ألبتة . صوراً هزلية . إن هذه الفكركة تنشأ بطبيعة الحال بين القراء الذين لا يعرفون أهل لندن . أما بالنسبة إلينا فإن متعة دكنز تنحصر في أنه يصف أشخاصاً حقيقيين ، عرفنا أشباههم . وأطوارهم الغريبة من أخص مميزاتهم . واست أعرف مكانا يولد هذه الأطوار مثل لندن » .

« كنا نتحدث منذ بضع ليال عن روائيين استطاعوا ذلك ، وغيرهم ممن لم يستطيعوه . ما رأيك في ثاكرى ؟ »

« إنه يرى أكثر مما ينبغي في طبقة ما . ولا يرى ما يكفي في طبقة أخرى . إن محاولاته طموحة ولكنها ليست ناجحة كل النجاح . وشخصيات ترو لوب أقرب إلى الحقيقة من شخصياته . إلى أعرفهم معرفة دقيقة ، لأنى عشت بين أمثال هؤلاء الناس بعينهم » .

« كنا نتحدث عن الخدم منذ لحظة . وكنت أريد أن أقول إن المرء في الغرب الأوسط - في صباى - إذا لم يصادق (الفتاة المستأجرة) كما كانت تسمى الخادمة ، وإذا لم تجالس هذه الأسرة على مائدة الطعام ، فكأنه لم يحصل على واحدة منهم ! »

واستطرد هوايتهد قائلاً : « إن الإحساس بالمساواة بين الناس ينشأ عن الآراء السائدة عن تهيو الفرص . إن القدرات البشرية تتنوع تنوعاً لا حصر له ، وبعض الناس يتميزون بالنجاح في بيئة معينة ، وبعضهم لا يتميز قط . وصور

التآلف الممكنة للقدرات البشرية سلسلة لاحصر لحقاتها ، وهى فى ذلك كالبينات
الممكنة التى تصلح لإظهار هذه القدرات ، وتلاؤم القدرة مع البيئة أمر يتوقف
على الحظ إلى حد كبير . ومن الخطأ الفاحش أن نحسب - كما يحدث فى كثير
من الأحيان - أن القدرة الحقيقية تنحصر فى صور الاستعداد التى يتفق عرضا
أن تكون مطلوبة فى وقت معين ومكان معين ، وفى الصور التى تؤدى إلى التقدم
الاقتصادى كذلك . إن المواهب التى تتجارب مع مثل هذه الفرصة قليلة جديدة
بالنسبة لمجموع القدرات البشرية .

قلت : « لقد تحدثت أكثر من مرة عن عنصر الحظ ، حتى فى أكثر الحيات
تحديدا فى مصيرها . فما رأيك فى حياتك ؟ » .

كانت هناك فى كبردج فى شبابى وظيفتان شاغرتان . وكان ذلك من حسن
حظى . إحداهما وظيفة الزميل ، والأخرى وظيفة المحاضر . ولولا الوظيفة الثانية ،
لكان من الأرجح أن أشتغل بالتدريس فى مدرسة خاصة ، وألا أقدم أكثر
من ذلك . » .

وذكرت : « أن بعض الناس يتركون فى نفسى انطباعا بأنهم يحملون بين
جوانحهم مغناطيسا يخلق لهم الفرص . ويبدو كأنه الحظ ، ولا أعتقد أنه كذلك
وربما كنت واحداً من هؤلاء » .

وقال مؤكداً : « كلا . إننى لم أخلق فرصى بنفسى قط . ولقد نجحت إلى حد
كبير ، ولكن بعض هذا النجاح يعود إلى عنصر الحظ » .

« لقد قت بجانب كبير من العمل الإدارى فى ترنتى ثم فى جامعة لندن فيما
بعد - مما جعلك تحيا حياة العمل جنباً إلى جنب مع حياة الفسك . . . وقبل أن
أضع سؤالى الرئيسى أسمح لى أن أوجه إليك سؤالاً عارضا : مارأيك فى جامعة لندن ؟
وفى الإجابة عن هذا السؤال وصف فى شيء من التفصيل وظائفها ، وبعض

واجباته في عمل مجلس الجامعة، واختتم حديثه بابتسامة وهو يقول : ولما كنت أحد أعضاء المجلس فإنني أعتقد أننا أدينا عملاً رائعاً ! »

« ويؤدي بي ذلك إلى سؤال الثاني : أي الحيانين عمل على عمرك أكثر من الآخر : حياتك كعالم ، أو حياتك كإداري ؟ »

« تعلمت مهنتي من الكتب بطبيعة الحال ، بيد أن العمل الإداري لم يكن أقل أثراً في تنميتي . بل إنني في الواقع لأميل إلى القول بأنه كَأَن أَشَدَّ أثراً . ولولا مقابلاتي المستمرة ومعاملاتي وحديثي مع الناس لانهضت في زوايا العالم الباحث . إنني قوى الإيمان بالمحادثة . وأعتقد أنني حصلت على الجانب الأكبر من نمو شخصيتي من الحديث الجيد الذي أسمعني الحظ دائماً بالحصول عليه ، وذلك فيما يخرج عن نطاق معرفة الكتاب الضرورية لتدريبنا المهني »

« يصح ذلك في ترتبي ، وفي لندن فيما بعد . ولكن هب أنك قضيت تلك السنوات في مكتب صحيفة من الصحف »

قال : « أنت أيضاً أتيت لك فرصة عظيمة من الأحاديث التي جرت في مكتبك »

« حقا إن الحديث في مجلة « جلوب » يفضل كثيرا ما يتصور أكثر رجال العلم . والواقع أنني أعترف أنه أعلى قدراً مما أستطيع أن أحصل عليه في كثير من المجتمعات العلمية : إن رجال العلم لا يقابلون من صفوف الحياة بقدر ما تقابل . ومن ناحية أخرى ، نجد أن رجال الصحافة يحيون حياة عمل . إنهم لا يعيشون عيشة التأمل ، لأننا حتى بعد أن نمود من الطريق حيث نلتقط الأخبار ، ثم نكتب كما أفعل ، لابد أن نكون قادرين على الأقل أن ندون شيئا عن موضوعات الساعة ، وأن زويه مع تقدير مسؤوليته حتى لا نقذف نوافذ مكانبنا بالطوب في صبيحة اليوم التالي »

وقال هوابتهد « إنني أسمى هذه الحياة حياة عملية كما أسمىها حياة فكرية .

أما عن حياتي - وأنا أستميد ذكرها الآن - فترجع إلى أيام الدراسة . كنت زعيما في الألعاب ، وكنت أجيد لعب كرة القدم ، كما لعب الكركت بدرجة مقبولة ، وإن كنت قد لا تتخيل ذلك الآن . كان بمدرسة شربورن أربع مائة طالب تقريبا ، تسعون منهم داخليون . وكنت رئيس الطلبة وزعيم الفرق الرياضية ، فكان عني من أجل هذا أن أحفظ النظام في الداخلية ، ومن ثم فقد تدرت طوال حياتي كلها على إدارة الأمور أعتقد أننا أوشكنا على الانتهاء من رحلة العودة . وكان يطل من نافذة العربة ، حيث كان المشاة على الجانبين - وقد ازداد عددهم مرة أخرى ونحن ننطلق في الشوارع السكنية في كبردج - كانوا يقطعون إلى إعداد العربة بدهشة ، ثم يثوبون إلى أنفسهم في الوقت الملائم فيكتمون الضحك .

وقطعنا الرحلة عائدين في خمس وأربعين دقيقة . وقد نقلنا وليام هل ذهابا وإيابا دون حادثة ، اللهم إلا إذا حسبت الرحلة حادثة واحدة متصلة . وفي السكن في الطابق العلوي كان إدوارد بكمكان في الانتظار لينقلهما إلى مزارع ددلي في بدفورد . وكانت مسز هوايتهد أنيقة الملبس ، ترتدى القبعة ، وتلبس القفاز ، استعددا للرحلة . وسألتنا كيف كانت رحلتنا في العربة !

وقال هوايتهد . « ذهبنا وجئنا في جو من انتباه الجمهور الشديد » .

قالت . « تقصد سخرية الجمهور » .

وأجاب في شيء من المجاملة . « كلا ، بل أقول (بسات) الجمهور » .

وقلت . « إن الرحلة كانت أقل إنمابا وأكثر سرعة مما توقعت » .

ولم يعلق هوايتهد على جانب التعب . أما عن جانب السرعة فقال في لطف :

« لقد قضيت يوما ممقما بعد الظهر ، ولكني لا أجد بينه وبين .

السرعة صلة ! »

(٣١)

٢٧ من بولية ١٩٤٣

بمسد مافضيت يوما حاراً فى العمل بالمدينة كان من الترفيه أن أتوجه إلى كبرج لانناول المشاء مع آل هوايتهد فى الساعة السادسة والنصف . ولم يكن هناك أحد غيرى . وقد هب النسيم العليل وتخلل نوافذهم المفتوحة فى الطابق الخامس الطالة على الحقول والأشجار .

وتبادلنا النكات عن المشاء . قالت مسز هوايتهد :

« أشك أننا نستطيع أن نقدم إليك ما يكفى لظعامك أما نحن فنتعمشى بخمس لقات ونجد فيها السكفاية » . فقلت لها . يكفينى ثلاث لقات فى الجو الحار .

وكان الأستاذ هوايتهد فى مكتبه ، فدخلنا عليه . وكان يرتدى لباسا أبيض ويخلع سترته (وقد طلب إلى أن أخلع سترتى كذلك ففعلت) فبدأ عليه الارتياح إلى الجو كبادت عليه صحة غير عادية . وكان مسوليتى قد سقط من عهد قريب جدا ، وتذكرت أن هوايتهد منذ صيفين مضيا فى نفس هذه الحجرة قد قال لى : « لقد دون مكيافلى قواعد النجاح قصير الأمد ، الذى يمتد من خمسة عشر إلى عشرين عاما تقريبا . وتذكرت أيضا أنه كان هناك رجل رومانى فى الزمان القديم بُعث سفيرا إلى ألمانيا العليا فى عهد الأمباطورية دومتيان ، وقد هده الألم وأعياء ، وتعلق بزغم ذلك بالحياة « حتى أعيش على الأقل يوما واحدا بعد وفاة هذا القاطع للطريق » . فقلت إنه مما يريح النفس ولو قليلا أن يشهد المرء سقوط مسوليتى .

فقال هوايتهد . « هذا أمر جميل » .

وقالت : « أنسميه قاطم طريق ! إنه مقرب قدر »

وسألت مستر هوابتهد إن كان يكتب شيئاً ما .

فقال . « ولسكنى كنت أقرأ ما كتبت » .

ولم أستطع أول الأمر إدراك ما معنى ، لأننى كتبت مقالات صحفية قصيرة منذ إبريل ، ثم تذكرت أن مجلة الأطلنطيق لشهر أغسطس ، والتي صدرت منذ وقت قريب قد نشرت لى « مركز الاعصار » .

وقد انمقد مؤعر يضم نظاراً عديدين لمدارس إنجلترا الجديدة الإعدادية وأعضاء هيئة التحرير بمجلة (جلوب) لبحث موضوع التربية الحرة فى زمن الحرب وأثرها فى الأولاد ممن هم دون سن التجنيد وهى الثامنة عشرة . وموضع الخطر أن يتركوا تربيتهم هذه ليتجهوا - إن لم يسكن كلية إلى العلوم الحربية - فن المؤكد إلى العلوم على حساب المواد الإنسانية . ولم يعلم أحد إلى أى مدى تدوم الحرب . وإذا حرمت عدة أجيال متعاقبة من المراهقين من سبيلها الوحيد إلى التربية العامة وإلى المعدات المدنية للعقل التى اعتمد عليها مجتمعنا فى نقل تقاليده الحرة ، إذا حدث ذلك فقد تكون حربنا كسباق الزوارق على نهر المسيسيبي ، توقد فيه النار بشحنة الزورق وأثاث الحجرات لسكى ينتهى بنصر يكسبه بعد ما يصبح هيكلاً يفرغ من كل شىء سوى المواقد والآلات الحربية .

فقال هوابتهد . « إنك تثير كل الموضوعات الصحيحة ولسكنى لا أستطيع أن أتفق معك فى كل نتائجك . لو أخذتم على عاتقكم فى أمريكا - على خلاف إنجلترا وبعض بلدان القارة الأوروبية - أن تقدموا تعليمًا ممتازاً لا إلى القلة ولسكنى لكل أفراد الشعب ، فإن الصيغة التى يتخذها هذا التعليم تحتاج إلى تعديل . إننى أميل إلى القول بالحاجة إلى التعليم العام حتى سن السادسة عشرة تقريباً . ثم - فيما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة - أدخل فيه العناصر العملية . وبعد ذلك لا بد من إناحة أكثر الفرص للدراسة ، سواء فى داخل المعاهد وفى خارجها ،

بالمحاضرات العامة الجامعية مثلاً ، حتى يستطيع الناس أن يشبعوا شغفهم بكل أنواع الموضوعات ويجد كل منهم مجالاً لاستمداده الخاص . وأرى أيضاً أن تصبح قراءاتهم حية باتصالهم الشخصي بالمحاضرين . ولو كان بيدي الأمر لجعلت بعض هذا التعليم المتقدم إيجابياً ، وأبقيت على عملية التعلم حتى سن التسعين » . وقد قال هذه العبارة الأخيرة وهو يبتسم ، ولكنه - رغم هذا - كان يقصد ما تعني . واستطرد قائلاً :

« ولاحظ أني أشك في أن هذه الجامعات العظيمة بما فيها من تخصص في العلوم يبلغ غاية التركيز ، وعن فيها من جماعات الأساتذة الذين ينزلون عن الحياة اليومية لأوساط الناس ، أشك في أن مثل هذه الجامعات تكون شيئاً حسناً على إطلاقه » .

قلت : « لقد طرأت لي مثل هذه الفكرة مراراً ووصفي الخاص لها هو أن المتعلمين على هذه الصورة يصبحون متأنقين من الناحية العقلية » .

« هناك جماعات عديدة لأصحاب المهن الرفيعة في هذه المدينة - بل في أي مدينة - تلميهم له بالأساتذة الجامعة من قيمة بالنسبة إلى الجمهور » (وهنا دعينا لتناول المشاء وكنا في طريقنا إلى مائدة الطعام) « وإحدى هذه الجماعات رجال الصحافة وينبغي لهم أن يحاضروا أكثر مما يفعلون » .

« من الألفاظ عذري » (وقد صممت أن أبوح بما في نفسي) « إن هارڤارد ظلت ثلاثة قرون تخدم مدينة بوسطن رجال متعلمين فرضاً ، وحقيقة في كثير من الأحيان ؛ ومع ذلك فالأمائد أقل مما كان ينتظر . ألم يكن من الواجب على المدينة أن تؤدي عملاً أفضل مما فعلت » .

وأجاب مؤكداً : « لقد أحسنت أداء واجبها ، بل لقد أدته بدرجة لم يألّفها أحد من قبل . وهل نستطيع أن نسمي مدينة أمريكية قامت بأفضل مما قامت به ؟

إن أصحاب المهن العالية عندكم يحتفظون - على وجه الجملة - بمستوى رفيع جدا وبخاصة أصحاب المهن الطيبة . ما ذا كنت تتوقع ؟ »

« أعتقد أن مايرضيني هو اشتغال المبقرية على الدوام . ثم إنى ربما كنت أعرف من خفايا المدينة أكثر مما ينبغي » .

وجلسنا إلى مائدة صغيرة جميلة من طراز دنكان فايف ، أعدت لثلاثة أشخاص ، وقد تسرب ضوء شمس الأصيل الأصفر من ناحية الغرب خلال الستائر البندقية التى فتحت شرائحها قليلا ، والتى رفعتها كلها مسز هوايتهد - بمد ما غربت الشمس خلف برج موريال هول - فسمحت لضوء الشفق - الذى ما برح قويا صافيا وإن يكن أشد شجوبا - بالدخول ، وقد سقط بأكله على وجهه الفيلسوف الرزين . ومن المؤكد أن خمس لقمات للعشاء كان تقديراً خاطئاً ، لأننا تناولنا فى العشاء - فيما أظن - طعاماً فاخراً (وإن كانت مسز هوايتهد قد وصفتها بالبساطة) وقد وضعت إلى جوار الأطباق زجاجات الشراب المثلى ، وشرحت لنا كيف طهت الطيور ، والسلطة ، وفطيرة التفاح . وقد جاءت (روعة) الطعام من اللبسات الماهرة فى الطهو . ثم ذكرت لى هذه اللبسات وأضافت إلى ذلك قولها :

« إن الطهو واجب من الواجبات التى لا تحتل إلا إذا كان لقوم يحبهم الطامى . ولولا ذلك لآثرت أنا نفسى أن أعيش على الخبز والجبن وفضلت ذلك كثيراً » .

وقال هوايتهد : « لا يحتل أن يجد المرء طعاماً جيداً ، مهما يكن عنده من طهارة ماهرين ، ومهما يكن ما يدفع لهم من أجور ، إلا إذا كان الطهارة يحبون من يطهرون له . »

وقلت إن أحسن طاهيتين هرقتهما فى حياى ، إحداهما امرأة من يوركشير ،

والأخرى من إيرلنده ، تندر جان تماماً تحت هذا التقسيم ، ويضاف إلى ذلك أنهم كانوا متدينين ، إحداها بروتستانتية والأخرى كاثوليكية .

وأجاب هوايتهد في احتشام : « الطمو أحد تلك الفنون التي تتطلب الأداء من أشخاص لهم طبيعة دينية إلى حد كبير » .

وأضافت إلى ذلك زوجته : « والطاهي الماهر يطهو لمجد الإله »

وتلصقنا على مائدة الطعام في ضوء الشفق الذي أخذني الزوال . وقد أمسى النسيم الذي هب خلال النافذة الكبرى باردا ممتعا منمشا . وفي ذلك الضوء الهادي كان المساء من تلك الأمسيات الصيفية التي تبدو كالخلود البهيج .

وانتقلنا إلى حجرة الجالوس فتغير المنظر . وكان هوايتهد يقول إن تركه كبرديج في سن الخمسين وذهابه إلى لندن كان أحد العوامل التي حددت مصير تطوره : ! فقد زج بي ذلك في المشكلات العملية للتربية . في كبرديج اكتسبت خبرة في العمل السياسي وفي التنظيم . ولكن حقائق الحياة في لندن كانت أوسع من ذلك بكثير . وذكر لنا كثيراً من الأشياء التي كان يتحتم عليه أدائها وكيف ساقته إلى جميع الطبقات . وقال : « إن مدارسنا الفنية مثال لما قصدت إليه حينما كنا في بداية هذا المساء تتناقش في التعليم العام . وأنا أعرف أن نظام التعليم الشعبي في لندن قد وصم بالنقص . ولكنني وجدته رائعا بعدما خبرته عن كشب . إنه ييسر لجميع أنواع الناس الدراسات التي تنفعهم في الحياة العملية وفي الفنون كذلك ، وإنك لتجد الناس من جميع الطبقات وجميع الأعمار باحثين عنها . »

وقالت مسز هوايتهد : « وما يدل على أن هذه الدراسة لا تنتمي إلى طبقة معينة أن شابا ممن نعرف عظيم الثراء تلقى أحسن تعليم في التصوير في القارة الأوروبية مما يمكن أن يحصل عليه بالمال - هذا الشاب وجد عند عودته إلى الوطن

أن أحسن تعلم تلقاء فى أى مكان يمكن الحصول عليه فى إحدى مدارس لندن الفنية هذه .

« إننى أستمتع مرة أخرى إلى تفسير جزئى لشيء حيرنى بشأنكما منذ عرفتكما . فإنكما قد امتزجتما بمجتمع بهتم بالتمييز بين الناس طوال حياتكما تقريباً . ولكنكما - رغم هذا - أقل الممتازين اعتباراً للامتياز . »

وسألت مسز هوابند : « فى أى جانب لاحظت ذلك ؟ »

فهمكما للحياة العامة . ولأحصر كلامى فى عطفكما على الطبقة الماملة . وذلك شيء علمتنى التجربة ألا أجده قطعاً فى أوساط أساتذة الكليات ، فى هارفارد أو فى أى مكان آخر . وقد أجده هنا أو هناك لدى أحد الإخصائيين . أجل . وربما صح ذلك فى علماء الاجتماع . وقد لانوا شيئاً ما فى السنوات القلائل الماضية . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن شعورهم بالأمن قد تمرض للخطر . »

قال هوابند : « إن من الأخطاء الكبرى فى التفكير الأمريكى أن مجموعة معينة من الاستمدادات التى تؤدى إلى التقدم الاقتصادى . هى التى تحدد القيمة الإنسانية . وليس هذا حقاً على الإطلاق . إن ثلثى الناس الذين يستطيعون كسب المال من المتوسطين ، ونصفهم على الأقل فى مستوى منخفض من الناحية الخلقية . إنهم على الجملة أخط بكثير من الأنواع الأخرى التى لا تدفعها العوامل الاقتصادية . وأقصد الفنانين والمعلمين ، وأصحاب المهن الذين يؤدون عملاً لأنهم يحبونه لذاته ويكسبون ما يكتفى ليعموا به أو دهم فحسب . وهذا التقدير السامى الذى اعتدتم أن تسبوه لنوع القدرة الذى يؤدى إلى التقدم الاقتصادى من أفحش الأخطاء فى تفكيركم الأمريكى . وهو بحاجة إلى التصحيح دألاً وبغير انقطاع من الأفراد الذين يخاطبون الجمهور ، كما تفعل أنت . »

قلت إن بعض ذلك متخلف من أيام المهاجرين الأوائل حينما كان إخضاع هذه القارة يحتاج إلى الشجاعة وإلى القدرة العملية .

وقالت مسز هوايتهد : « أجل . ولكن حتى في هذه الحالة ينبغي أن نلاحظ هذا الفارق الدقيق . فإن المهاجرين الأوائل قلما كانوا يجمعون الثروات الطائلة ، إنما كان يجمعها أولئك الذين أتوا من بعدهم » .

وقال هوايتهد : « إن الضرر الذي ينجم عن رفع مكانة تلك الفئة من الناس التي تتميز بالقدرة على التقدم الاقتصادي ، هو إنكار الصور الرفيعة من القدرات التي توجد لدى أفراد غاية في البساطة . من ذا الذي يقول إن المرء إذا عاش عيشة رفيقة نبيلة ولاق مشكلاته بشجاعة من يوم إلى يوم لا يكون ذلك فنا عظيما ، أو أن أولئك الذين يستطيعون ذلك ليسوا فنانيين عظاما ، إنما نقمهم هم الجلال بمعنى ضيق جداً : إن الناس الذين يستطيعون أن يعيشوا عيشاً جيلاً في ظروف متواضعة يفهمون الجلال فهماً عميقاً - فهما إذا قيست إليه القدرة على رسم الصورة على اللوحات » (ومثل هذا العمل تمثيلاً صامتاً) مهما تكن هذه القدرة رائعة ، كانت هذه القدرة الأخيرة صيغة بدائية » .

« إنك تؤيدني في تلك النشوة التي كثيراً ما أشعر بها حينما ألتقي بجيران في طرقات القرية ، النجار ، وساعي البريد ، وصائد السمك . - إن نفوسهم الطيبة ولطف عشرتهم تدفني حتى أعماق قلبي ، وأبتسم في دخيلة نفسي ، ذاكرة أن الحياة تسبق الأدب » .

وقال هوايتهد : « منذ خمسين ألف عام أو خمسمائة ألف عام - لست أدري كم طول الزمن - حينما أتجه الإنسان في تطوره - وربما كان ذلك فجأة - اتجاها نشأت عنه قدرته على الاستمتاع - منذ ذلك التاريخ استحدث الإنسان شيئاً

إمكانياته لا حصر لها . إن الكائن البشرى - أنت ، أو اقلن ، أو أنا - عنده قدرات معينة على الاستمتاع تطورت لديه ، لأنها فطرية من ناحية ، ومن أثر التربية من ناحية أخرى . والحظ يلعب دورا كبيرا في ذلك .

أنت - مثلا - إلى جانب استمتاعك بالأدب ، لديك القدرة والتدريب على الاستمتاع بالموسيقى .

ومن الناس من لديه القدرة على الاستمتاع بالرياضيات ، ولكنها كامنة ، وبحاجة إلى إبرازها بالدراسة . إننا لم « نولد » بالقدرة على الاستمتاع بالرياضيات . وآخرون ، وإن كانوا قد ولدوا بقدرة كامنة على الاستمتاع بالموسيقى ، إما كستمعين أو عازفين ، لم « يولدوا » عازفين أو مستمعين على درجة عالية من التمييز . إنما هذا وذاك بحاجة إلى التطوير . إن مدى قدرتنا على الاستمتاع واسع ولم نستكشف منه بعد سوى الأطراف ، إنها قدرة لا بد أن تكون كذلك لدى الحشرات ، وإن كنت لا أعرف عنها ما يمكننى من تقدير أى أنواع الاستمتاع عندهم والعجيب أن الإنسان - فى نظمه الاجتماعية - لم يهـم حتى الآن إلا فرصة ضئيلة لتطوير قدرتنا على الاستمتاع ، وقد مرث عصور عديدة كانت فى ذلك محظوظة . فبالرغم مما كانت عليه المدن الإيطالية من الاضطراب فى عهد النهضة ، فقد كان يسودها أحيانا حكام ذوو حس دقيق بأنواع المتع البشرية المتعددة المستحدثة . وكذلك كان حكام بعض الامارات الألمانية الصغيرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يشتهرون برهاية صور مختلفة من المتع ، وبخاصة الموسيقى والمسرح . وأعتقد أن الدول الصغرى أنجح فى ذلك من الدول الكبرى . كانت الولايات الألمانية الصغرى قادرة على إنتاج الأوبرات الريفية الرائعة خلال القرن التاسع عشر ، فى حين أن الحكومة الفرنسية مالت إلى الجلود الكلاسيكى ، بالرغم من امتلاكها لمسرح ممتاز .

« هذا : « التخلف الزمني » بين الفرد ونظامه الاجتماعي يعيد إلى ذاكرتي ملاحظتك التي أبديتها في العام الماضي عن العلاقة بين إمكانيات الإنسان التي لا حصر لها ، والقيود ذات الحدود الضيقة . إن الدول تهتم بتنظيم الوجود المادي ، وهو أمر محدود جدا . وقد تذكر كيف تحدثنا مرة - حينما كنت تقطن في « التلال الزرقاء » عن هذه الحقيقة : وهي أنه لم توجد في التاريخ - اللهم إلا إن كان ذلك عرضا - دولة ثقافية ، إنما وجدت دول قوية على هامشها قليل من الابتداء . وقد أبدت شكك في أن الدولة هي أفضل الحالات التي تعين على رعاية الفنون الخلاقه . »

قال : « حينما نحاول ذلك الدول الكبرى ، تميل إلى أن تنصب قدرات الناس على الاستمتاع وعلى الابتكار في قالب معين . ويميل ذلك نحو الجمود . وإنني أشك في أن رقابة الدولة في صالح الفنون في أمريكا . إن حيوية التفكير في المغامرة . وذلك ما بشرت به طوال حياتي ، وقلّ بعد ذلك ما بشرت به . إن الأفكار لا تنوم . ولا بد أن يتناولها التغيير . والفكرة يجب أن تُرى دائما في صورة جديدة . ولا بد أن يمازجها عنصر من عناصر الجدة غضا من حين إلى آخر ، وحينما ينتهي عنصر الجدة ، تنتهي الفكرة . إن معنى الحياة هو المغامرة . »

فقالت مسز هوايتهد جادة : « من المغامرة أن يولد الانسان ، بل هي مغامرة خطيرة جداً . »

ونسكمت وهي واقفة ، وخافها حائطٌ طلي بلون عجيب يكاد يكون سوادا . وكانت تلبس رداء أسود بتطريز أبيض عند الرقبة . وشعرها أبيض . وفي شفق الصيف الهاديء كانت تبدو بصورة رائمة رسمها على لوحة مصور ذائع الصيت . ولم يدم هذا المنظر إلا لحظة ، وذلك حينما تهبأت لتبدى ملاحظتها ثم انصرفت إلى غرفة الطعام . «

وسألت : « وما رأيك فى الممارين الذين يخطئون المامرة وبسببون الأضرار برغم ما عندهم من حسن النية » .

فقال هوابته مؤكدا : « يا لهم من حقى . وهنا يأتى دور المعرفة . لابد للممارين من استخدام عقولهم ، ولابد لهم من معرفة الماضى ، لى لا يستمروا فى تكرار أخطاء التاريخ . إن من بين مخاوفى من هذه الحرب أن يفرض على الإنسان نظام صارم ، وأن تتجمد تلك الصفة الرفيقة ، أعنى قدرته على استحداث الآراء ، وعلى إيجاد الأوجه الجديدة للآراء القديمة ، ثم يطوى السنين قرنا بعد قرن ، وهو يشتد غباء ، وتمسك بالقواعد ، حتى يبلغ هو ومجتمعه مستوى الحشرات الراكدة . وقد عرفت آسيا شيئا من ذلك . وليس من شك فى أن أقوالا جميلة قد قيلت فى الصين منذ ألف عام ، بيد أن كل قرن — لمدة ألى عام على الأقل — كان أقل مما سبقه تشويقا . وإذا أراد الناس أن يذكروا لى ما تدين به المدنية للمهند كان لابد لهم من العودة إلى حوالى عام ٥٠٠ ق . م . وربما تعجبت لشعورى البارد ، لآنحو چون دبوى شخصيا . الذى أجله كرجل ، والذى أعجب بيمض أوجه مؤلفاته ، ولكن أنحو تفكيره . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه يهتم فى تفكيره بالأسان ، فى حين أن حيوية عقل الإنسان فى المامرة . كان المصريين فى عام ٥٠٠ ق . م من غير شك تاريخ جليل وراءهم ، ولكنه يخلو من المامرة . وقارن بالقليل الذى ورتوه للرجل الغربى تلك الوفرة من علوم الجمال وقواعد الأخلاق التى ورثناها عن الإغريق والمبرانيين . »

كنت أفوم بهذه المقارنة وأنت تتحدث . إن ذلك الكاهن المصرى القديم فى قصة أفلاطون كان يدرك لاشعوريا شيئا من هذه الموازنة حينما كان يقول لسولون : أنتم أيها الهلينيون لستم إلا صبيانا إنكم جميعا شباب فى عقولكم والصبي مغامر . »

وأجاب هرايتهد قائلا : « أملى أن تنسلم أمريكا قيادة البشرية بعد هذه الحرب . إن أمريكا -- كما أراها -- هى الأمل الوحيد . هنا مغامرة ، وترحيب بالجدبد وتستطيعون أن تفعلوا لمستقبل البشرية ما فعلت اليونان وأرض الميعاد للعالم الحديث مقابل ما تفعله آسيا وأوربا . لقد كانت لليهود بمض الآراء الخلقية ولكنها ما كانت لتثمر لولا الإغريق » .

« ما هو فضل الإغريق فى رأيك » .

« النظره الجمالية إلى الحياة » .

« لاحظت منذ لحظة وأنت تستخدم هاتين اللفظتين (الجمال) والأخلاق فى معرض الكلام عن الهلنيين والاسرائيليين أنك تقدم الجمال » .

قال : « هذا صحيح » .

« هل ترى أن الجمال فكرة أوسع وأعمق جذورا من الحق ؟ »

« أجل ، فإن الحق - إذا انفصل عن الجمال - لا يكون خيرا ولا شرا . »
 قالت مسز هرايتهد التى عادت أثناء المناقشة : « وهذا ما وقع فيه البيورتان . نبذوا الجمال . وقد بدأوا بداية حسنة ، حينما اعتقدوا أنهم خلقوا فى صورة الله . ولكنهم انهبوا بأن جعلوا الله فى صورة الإنسان . »

« وبأية سرعة يخبث هذا الابن - أو تفسد الأمور : لقد انقضى أقل من عام

مايين مستعمرة بليموث ووليم برادفورد وبين كوتون مائر . »

قال هرايتهد : « كانت الفكرة تفقد حيويتها . لقد كفت عن المغامرة . وورثتها يرثون الفكرة دون وراثه حرراتها . كان السلف لا يمتنعون عن الموت فى سبيلها ، وقد فعل بعضهم . وربما لم يعد أمام الخلف ما يموتون من أجله . لقد عرفوا قوة الإيمان عند أسلافهم ، وشعروا أنه لا بد لهم من الإحساس بالحرارة القديمة ، وحاولوا أو تظاهروا بذلك ، ومن ثم أعطوا عن أنفسهم فكرة المنافقين . »

وذكرته مسز هوابتهد بقولها : « إن أبويك نفسيهما لم يعتقدوا بقوة كما حسبنا » .

. واستطرد قائلاً لقد (حسبنا) أنهما مازالا يعتقدان بقوة وكان (أبواها) من المؤمنين بشدة . ولكن لما جاء أبواي ، كانت الفكرة قد برزت إلى درجة ربما اعتبر معها موقف أبوي اليوم موقف نفاق . وأود أن أنبه إلى أني لم أقل إن موقفهما كان موقف نفاق . بل لقد كانا مخلصين . ولكن الموقف تغير فمرضا علينا ديانتهما باعتبارها أساسا وسيلة لحفظ النظام - في الأسرة وفي المجتمع . ولكن ذلك أمر يختلف كل الاختلاف عن العقيدة الدينية » .

وعلمت بقولي : « إن المرء يلحظ تغيرا شبيها بهذا في كتدرائية ستراسبج . إن أحدا لم يمدني لها من قبل ، وكانت مفاجأة لي . صحن الكنيسة وأجنحتها غوطية من عصر متأخر ، خفيفة لطيفة في كلها المنطقي الرشيق . أما الأجزاء القديمة في ركن المذبح فهي رومانسيكية ، من عصر الإيمان الشديد ، وتأثيرها من العنف بحيث يضعف قوة الصحن ، برغم جماله » .

قال هوابتهد : « إن فن العمارة مثال طيب لدورة الحياة في مغامرات الأفكار . وهومن الصور الفنية التي أهتم بها أشد الاهتمام . ولأضرب مثلا بالفن الغوطي الإنجليزي : إنه يبدأ بالنورماندي الرومانسيكي القديم ، ثم يستمر قرنا بعد قرن مجتازا الأساليب الأربعة المتتالية تقريبا حتى القرن الخامس عشر حيث يبلغ نهايته . إن ما كان يحدث في تلك القرون الأربعة المتتالية هو أن الأوجه الجديدة للفكرة كانت تستكشف وتطور . وكانت عناصر متتابعة من الجودة تظهر وتدخل الفن - مثل كثرة النوافذ ، وارتفاع الأعمدة ، وجمال القطع الحجرية المتشابكة التي تزخر بها النوافذ الغوطية ، وما إلى ذلك - حتى بدا كأنه لم تعد هناك زيادة لمستزيد . إن إمكان ظهور وجه جديد قد نفذ ، وبلغت الفكرة الغوطية نهايتها :

فكّفت عن التطور ، وتوقفت وقوفاً تاماً . فتراهم يمودون إلى فن البناء اليونانى ، والرومانى ، ويطبّقونه على عالم النهضة المتغير ، فترى كنيسة سنت پول مكان الدير الغوطى . بيد أن الأسلوب الكلاسيكى لفن البناء القديم الذى أدخل على العالم الحديث كانت له - فيما أظن - هذه الخاصية المعجبية . بالرغم من أنه يؤدى أغراضاً عدة بدرجّة تدعو إلى الإعجاب ، ويمكّن - على وجه العموم - أن يظهر بمظهر الجلال إن تناولته يد صناع ماهرة ، بالرغم من ذلك فإنه ينقصه ذلك ... ذلك الشيء .
النهائى ماذا أسميه ؟ »

واقترحت مسز هواينهد أن يسميه « التجاوز » .

وقبل هذا التعبير وقال : « أجل هذا التجاوز النهائى . أقصد أنه لا يقيم ذلك البناء الذى أقطع فى سبيل رؤيته رحلة تستغرق أربع ساعات بالقطار . » واستطرد قائلاً : « إن المادة الجديدة ، والزاوية الجديدة للنظر إلى الفكرة ، قد يعطيها المعنى السعيد . كما فعل النازحون الأوائل إلى إنجلترا الجديدة عندكم حينما أدخلوا البيت الإنجليزى إلى هذه السواحل ، ولكنهم اضطروا إلى بنائه من الخشب . لقد كان على نفس الأسلوب ولكن مع تعديل جديد بهيج . وأشك فى أنكم بلغت هذا الإيقان فى بيوتكم الحجرية »

« إننا لم نقمها حتى ما بعد ١٨٤٠ وما بعد ١٨٥٠ . وكان « إحياء غوطيا » .. وأنت تعلم مدى قصر الوقت الذى استغرقه »
« لا أظن أنها تعتبر ناجحة » .

« كانت محاولة للعودة إلى الأسلوب الغوطى دون التقاليد الغوطية » .

وجه هواينهد بفتة فكرته الخاصة وجهة جديدة حين قال : « إن عظمة لورنس لول تضمنت هذا الإدراك لصعوبة الاحتفاظ بالفكرة حية ، ولم تقدر بعد هذه الصورة من صور عظمته بوجه عام . رأى أن المطلوب هو فترة معينة من التعليم

النظم للشباب، ثم يسمح لهم بمد ذاك بأن يكشفوا بأنفسهم - بإرشاد الأستاذة أو بنير إرشادهم - ميادين متنوعة من العلم أو العمل . وإلى جانب ذلك رأى الحاجة إلى إضافة أقدام صورة من صور التسلية والتعليم عرفت للجنس البشرى - وهى: المحادثة . وتلاحظ أن تأسيسه (للزملاء الصغار) يقوم على هذه المبادئ . إنهم يختارون لجدارتهم - بقدر الإمكان - من جميع أنحاء هذه القارة ، ودراساتهم تتنوع بمقدار تنوع الفنون والعلوم . وقد ظفروا بقدر معين من التدريب النظم ومن العمل الذى يعيزهم . وقد نُظمت جميعيتهم بحيث يهتمون على المشاء ، ويقضون سماء على الأقل ليلة كل أسبوع بنفقونها فى تبادل الحديث بعضهم مع بعض ، ومع عدد كبير من مختلف الضيوف البارزين الذين ينتمون إلى مختلف المهن . ولا تقوم بينهم (عصبية علمية) . فالشباب الذى يدرس الأدب يلتقى بالشباب الذى يدرس الأحياء والرياضة . فى حين أنى ألاحظ قدرا كبيرا من العصبية العلمية بين هيئة التدريس فى هارفارد ذاتها . ويخيل إليك أن الشباب فى قسم من الأقسام لا يتعلم شيئا من زملائهم فى قسم آخر ، بل اقد يخيل إليك « (وهنا ظهر الاستياء فى نظره) » إنهم يقون أنفسهم من الفساد . واعتقد أنه من الخطأ الفاحش أن يزعم المحاضرون الجامعيون أنهم قادرون على توجيه الكلام علما بمد عام إلى الشباب ، إلى الطلاب ، مع ابتعادهم عن فرصة التعلم من الشباب المتحمس . وهو من أئمن الأشياء فى هذه الدنيا »

وأبدت مسز هوابتهد هذه الملاحظة « كأن المحاضرين قد رخص لهم بالغرورا »
 « إنك تصف (الشباب المتحمس) بأنه من (أئمن الأشياء فى هذه الدنيا ، وأرجو أن تشرح فى وضوح أشد ما تعنى بذلك ؟ » .

« أعنى - وهنا تردد ، وفسكر فى التعريف - « وميض الشاب . . »
 « وأخشى أننى سأضطر إلى استخدام تعبير ضخم ، واسكنى لا أعنى به الضخامة)
 إنما أعنى وميض الشاب الذى كشف لتوه عملا أدبيا عظيما . ليس المهم هو

الكتاب الذى استكشفه ، إنما هو ما يلقى عليه من ضوء . هنا تجد معنى الغامرة والجدة ، وتجد أن الفكرة القديمة تُرى من جديد من زاوية جديدة . وهذا هو ما ينبغي لمعلم الجامعة أن يرقبوه فى بقطة شديدة ، وما ينبغي لهم احترامه كلما ظهر ، بدلا من أن يحسوا بشيء من السخط على الشبان الذين تشتد بهم - م - حماسهم .

« لا كنت من القادمين من الغرب الأوسط فقد أحسست بأن الحماسة فى إنجلترا الجديدة غير مستحبة . وقد لاحظ ذلك أيضاً هارفى كوشنج الذى قدم كذلك من الغرب الأوسط ، وقال بأن مقاومة العقل الجامد والمادة الجامدة - فيما يختص به - لأى تجديد ، سواء فى الجراحة أو فى غيرها ، هذه المقاومة تشق على امرئ لديه - مثله - أمر جديد عسير لا بد من أدائه ، حتى إنه ليتحتم أن تنوفاً لديه حماسة شديدة تكون له بمثابة المجلة التى تدفع فكرته وسط المشاق وكأنها النشار الذى يشق عقداً من الكتل الخشبية » .

وقالت مسز هوايتهد : « كل من قدم من إنجلترا إلى إنجلترا الجديدة - مثلنا - لا يحسن هبوطاً فى درجة الحرارة كما أحسست لقدومك من الغرب الأوسط ، بل يحس بارتفاع فيها . بعد الجو الاجتماعى الذى لسناء فى إنجلترا أحسنا كأن الجو فى إنجلترا الجديدة لهيباً بندلع من نار » .

قلت : « إن العقل فى إنجلترا الجديدة (كما لاحظ ذلك كثير من الأجانب) كثيراً ما يترك فى أول الأمر أثراً أطيب مما يتركه القلب فى إنجلترا الجديدة » .

وسألت مسز هوايتهد : « هل طرأ لك أن سكان إنجلترا الجديدة قد يكونون من الجبناء ؟ » .

« كلا . لم يطرأ لى ذلك . ولكنهم كثيراً ما يكونون كذلك ، حتى خيارهم وإذا كنت لم أحبهم فلماذا لبثت بينهم ؟ إننى أعجب بالناس وبالنظر ، وبالتقافة

الناضجة ، وبالمكتبات ، والأركسترا . وأكاد لا أذكر أنى استمعت إلى عادية طيبة بين الشباب من قبل حتى أتيت إلى هنا .

وقال هوايتهد : « في كبردج ناد كنت أروده في شبابى . وكان تنيسون وصديقه هلام ، الذى مات في ريمان شبابه ، من بين مؤسسيه . وكانا يطلقان على نفسيهما اسم (الرسولين) ، أما الأعضاء فطلاب ؛ وبعد تخرجهم تكون لهم (أجنحة) ويصبحون من الملائكة . وكان الأعضاء الجدد يختارون جميعاً بواسطة هؤلاء الطلاب ، وعلى أساس أنه يحتمل أن يثبتوا أنهم من الأشخاص المتمين . وفي كل اجتماع - وكانت الاجتماعات تعقد مساء السبت دائماً - كان يتقدم أحد الأعضاء يبحث يقدم فيه بعض الأفكار للنقاش ، ويستغرق ذلك ما يقرب من عشرين دقيقة . وقد سبق للأعضاء إجراء الاقتراح لترتيبهم في الكلام بعد التقديم الأولى للفكرة . وينتظر من كل فرد منهم - في دوره - أن يقف عند الموقد ويدلى بما يعن له . والمفهوم بينهم ألا يذاع في الخارج شيء مما يقال هنا على اعتبار صدوره من أى عضو من الأعضاء . والواقع أنه من المفروض ألا يعرف أحد من هم الأعضاء ، وإن كان يصيب الحدس في حقيقة الأمر . وكمن عضو من الرجال البارزين قد مر (بالرسول) ؛ وكانوا يتناولون العشاء في لندن مرة كل عام يحضره (الملائكة) . ويرأس الاجتماع أحد (الملائكة) ويجلس على قمة المائدة . وينوب عنه في الرئاسة آخر من اختيار ليكون (رسولا) ويجلس على الطرف الآخر للمائدة . ولا يسمح لأعضاء كليات كبردج بالدخول في كلية أخرى بعد المباشرة مساء ، ولكننا كنا نتجمع قبيل العاشرة ، ونحدد عدد المجتمعين بأثنى عشر ، ويستمر النقاش بيننا حتى الفجر . وكان مستوى النقاش عالياً إلى درجة مذهلة - على الأقل حتى نشوب الحرب .

وتحول الشفق إلى النسخ ، ثم إلى الظلام . وكانت الحجرة باردة بهيجة

يهب عليها نسيم المساء خلال التوافد ، مما أغرانا باستمرار الجلوس في الظلام ،
الذي دفعنا - إن كان له أثر - إلى رفع مستوى الحديث . وواصلنا الكلام تحت
هذه الظلال المريحة .

وقالت مسز هوايتهد : « لقد ذكرت الصحف بطبيمة الحال تأسيس مستر
لول لجامعة صفار الزملاء ، بيد أن ذكرها لها لا يدنو من مقدار أهميتها المستقبل
التي تستحقها . ما هو الخبر ؟ لو أن مسز لول هربت مع السائق ، أو لو أن مستر
لول أساء الاتصال بالخادمة ، لما خصصت الصحف مثل هذا الحيز الضيق كما فعلت
في موضوع (صفار الزملاء) » .

قلت : « إنك تسألين على من تقع اللامة . إن ذلك يتوقف على من توجهين
إليه السؤال . ولو سألتني قلت إنى أعتقد أن وراء ذلك أن الصحيفة كالمسألة
التجارية لا بد أن تجلب الربح مضافا إلى تكاليف إنتاجها . إن ما نحتاج إليه هو
قسم باقراطى لرجال الصحافة . كيف تكون الجامعة لو عاشت على ما يدفعه
الطلبة من نفقات » .

قال هوايتهد : « إنها لا يمكن أن يكون لها وجود » .

واستطردت مسز هوايتهد قائلة : « في جنوبي إنجلترا قليل جدا من الموسيقى
وكان من المفروض أن السكان هناك غير موسيقيين بفطرتهم . وأخيراً منذ أن
أخذت محطة الإذاعة البريطانية تذيب الموسيقى الجيدة فقط ، بما في الناس هناك
حب الموسيقى وتكونت لديهم الجماعات الموسيقية في القرى ، ولا يريدون إلا أحسن
الموسيقى لأنفسهم . إن كل من يملك جهازاً للراديو في إنجلترا يدفع ضريبة صغيرة
وذلك يسد نفقات محطة الإذاعة البريطانية ، ولا يسمح بالإعلان على أمواج
الأثير . ومن التخريف الشديد أن نظن أن الناس لا يريدون أحسن الأشياء . وعلى
هذا الزعم تقدم إليهم المادة المنحطة التي ينتظر أن تجد في السوق رواحا ، وتميل
هذه المادة إلى الهبوط تدريجياً » .

« بعد مقاومة هذه الخرافة الكبرى داخل مكتب الصحيفة لفترة تربو على نصف العمر ، وبعد ما أثبتنا أنها بالفعل خرافة — ومن الإنصاف أن أقول إن ذلك لم يكن دون بمض المعونة من إدارة الجريدة ومن أصحابها — بعد ذلك ، ما زلت أدهش حينما أرى أفرادا عليهم سببا الاحترام في المرات العامة يقرأون الخط الدقيق في الأسطر التي تُدرج تحت العناوين البتذلة إلى درجة فاضحة . ولا يبدو عليهم أنهم أناس يهتمون بهذا اللون من الأخبار . »

وعلقت مسز هوابهد بقولها « وقد يذعنون في نهاية الأمر ويتملمون استغاغة السم بعد ما يتناولون منه قدراً كافياً »

وقال هوابهد : « ومن الأنصاف أن أذكر أن جانباً كبيراً مما يكتب للمقالات الجدية في صحفكم يضع أمام القراء مسئوليتهم عن الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي . وأوجه ذلك متنوعة ، ولكنها جميعاً تنتهى إلى هذه الغاية : تذكير القراء بأن الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي يتوقف عليهم . والمسئولية عن أى نظام اجتماعى هو أساس الحضارة . فإذا لم يكن هناك مجتمع يأمن فيه المرء على حياته وملكه ، لا يمكن أن تستمر الحياة إلا على أخط المستويات — لا يمكن أن توفر حياة طيبة لأولئك الذين تحبهم ، ولا يمكنك أن تكسر جهودك لنشاط على مستوى أرفع . ومن ثم فإن الاحساس بالمسئولية عن استمرار نظام اجتماعى ما أساس لأى نظام أخلاقى . وهذه الصورة من صور المسئولية تفتقى بثاناً من المسيحية . ويكاد يسوع ألا يذكرها إلا في عبارة واحدة أو عبارتين . »

وقالت مسز هوابهد : « وإحدى هاتين العبارتين (أعط ما لقيصر) فيها مراوغة » .

واستطرد قائلاً : « أود أن أذكر أنه كانت هناك أسباب تاريخية لهذا النقص . فلم يكن لليهود دولة مستقلة يحكمونها ، ولا يمكن أن تلقى اللوم على امرئ . لأنه قصر في اعتبار ما لم يكن هناك في عصره فرصة لاعتباره . لقد قال ما كان

ينتظر من مفكر قدير أن بقوله . إن ظروفه التاريخية لم تستببط قانوناً أخلاقياً يمتلق بالمسئولية عن النظام الاجتماعى . بيد أن انتفاء مثل هذه المسئولية كان خاصة من خواص اليهود لعدة قرون . وهذا سبب من أسباب عدم محبة الناس لهم . وقد تقول إن الطريقة التى عوملوا بها فى كثير من البلدان التى ترحو إليها لم تسمح لهم بالإسهام فى هذه المسئولية ، وأنا أوافقك على ذلك كل الموافقة . ولكن هذا الانتفاء قد أوقع المسيحية فى تناقض يسكاد أن يسكون دائماً . إنها تقول بأن مظاهر الحياة الخارجية لا تستحق الاهتمام ، وهى تصرّ فى الوقت عينه على ضروب من السلوك الخلقى التى لا يمكن مراعاتها - بغير هلاك - إلا إذا نظمت مظاهر الحياة الخارجية تنظيمًا حسنًا كافياً . إن مجتمعاً يسير على مبادئ مسيحية بحث لا يمكن له ألبتة أن يعيش .

وعلفت بقولى : « لقد ظهر ذلك فى أحيان كثيرة فى النقد الاجتماعى للقرن التاسع عشر ، وبخاصة بين الروس ، أمثال تولستوى وكروپتكن : فوضوى مسيحي وفوضوى فلسفى . أما بين النقاد الاجتماعيين فى البلدان الأوربية (والأمريكية) الأخرى ، فإن المرء لا يقتأ يقابل هذا الإحساس بالسخط والحيرة : إنكم تسمون أنفسكم مسيحيين ومجتمعكم مجتمعاً مسيحياً ، إذن فلماذا لا . . . ؟ وما ظهر لنا اليوم - مما لم يظهر فى ذلك الحين - هو أن الاستقرار الاجتماعى النسبى فى القرن الذى يقع بين عام ١٨١٥ وعام ١٩١٤ قد خدع حتى الكثيرين من أقدر المفكرين فظنوا أن النظام الاجتماعى المستقر أمر مؤكد . »

فأجاب بقوله : « لم يدرك الناس أن الاستقرار الاجتماعى من متطلبات السلوك الخلقى إلا بعد توحيد العالم الحديث بالوسائل الفنية العملية . وقد أرغمنا على ذلك أنماط الرجال الذين يتولون قيادة الأداة الحكومية فى بعض البلدان ، وهم الذين أجبرونا على مقاومتهم حتى نستطيع أن تحتفظ بأى نوع من أنواع حسن المعاملة الاجتماعية . »

وأثرت هذا السؤال : « وإذا ما اعترفنا بذلك ، فأى نوع من أنواع الأخلاق تريد أن يحفظ به النظام الاجتماعى المستقر ؟ منذ بضع ليال راعنى أن أستمع إلى أحد المؤلفين - وهو رجل أحترمة كثيرا - استتمت إليه وهو يشير إلى شخص ما ، فى كتاب أو فى خطاب عام ، (يشيد بالفضائل البرجوازية) . والآن أراى أستمع إلى نقد البرجوازية نقداً مرا ، وأعرف بمض الأسباب التى يقوم عليها هذا النقد . ولكن هل لا يستطيع طالما أن يفيد من بعض الفضائل البرجوازية ؟ »

قال هوابتهد : « إن إحدى فضائلهم أنهم يدفعون ديونهم . وهى فضيلة كبرى . ولن يستقر المجتمع بدونها . »

وقد دقت ساعة مموريال هول العاشرة . ولما كانت مسز هوابتهد تعلم أن على أن ألحق بالقطار ، فقد نهضت فى أدب جم وأشعلت أحد الأنوار . وكنا قد جلسنا فى الظلام قراءة الساعة .

وخرج منى مستر هوابتهد إلى المصعد ، وقال : « أشعر دائماً أن على واجبين لا بد من أدائهما للضيف الراحل ، أحدهما أن أتأكد من أنه لم ينس شيئاً مما يملك ، والآخر أن أتأكد من أنه لم يحمل معه شيئاً مما يملك . »

(٣٢)

١٣ من يناير ١٩٤٤

ظهر من وقت قريب المجلد الأول من سيرة سنتايانا بقلمه تحت عنوان (اشخاص وأما كن) وقد أثار جدلاً حول موضوع التهم -كم عند آل هوابتهد حيث كنت أقضى الساء .

وذكرت هوابتهد قائلاً : « إنك عرفت التهم من همد ليس ببعيد . وأذكر الألفاظ ولكنى است على ثقة من أنى أفهم ما تعنى . قلت : « إن التهم حالة عقلية مقبضة » .

قال هوايتهد : « لا أذكر المناسبة التي قلت فيها ذلك ، ولذا فيجدر بي أن أبدأ من جديد » . وفكر قليلا ، وقد تغضن جبينه ، وتشابكت أصابعه ، وأسند مرقبيه إلى ذراعى مقعده . ثم تحدث بعد لحظة قائلا : « أعتقد أن التهمك ينم عن الحالة العقلية للشعب أو للعصر الذى فقد الإيمان . إنهم يخفون ما فقدوا ، أو يتفاخرون به عن طريق الضحك . إنك قلما تجد التهمك إلا عند النبوذيين على صورة من الصور ، وإلى حد ما » .

« مثل لبن سترانشى ؟ »

قال هوايتهد : « كان اسمه على شفتى » .

قالت مسز هوايتهد : « كان إنسانا ممتعا ، ولكنه عانى كثيرا » .

« بدنيا أو عقليا ؟ »

« لم يمان كثيرا من الناحية الجسمانية ، وإن كان دائما على ضعف وكثيرا . ما كان يتألم (وكان ابنا لأب مسن) . بل كان عناؤه أشد من الناحية العقلية . كان مظهره الخارجى مثيرا للضحك وكان بذلك عليما . وتلك الصورة التي رسمها له أغسطس جون ، التي كثيرا ما يظن خطأ أنها رسم كاريكاتورى ، ليست كذلك ، بل إنها - على العكس - صورة صادقة له . وكان صوته مرتفعا كالصير . لقد كان يعانى من شدة الخلاف بينه وبين الآخرين » .

وقال هوايتهد : « إن تهمك سترانشى هو تهمك تلك المجموعة العالمية الثقافة التي نبذت مسؤوليتها عن النظام الاجتماعى . وقد عانت إنجلترا كثيرا من أمثال هؤلاء بعد الحرب الماضية وأستطيع - من قبيل التيسير - أن أسميهم (مجموعة بلومبرى) . وأؤكد لك أن بعضا منهم كانوا أفرادا قادرين » ثم واصل حديثه قائلا : « ولكننا لو حصرنا حديثنا فى المهذبين ، قلت إنى عرفت منهم اثنين معرفة جيدة فى شبابهما ، وكثيرا ما أفكر فيهما معا ، مهما كان بينهما

من خلاف . أما أحدهما فهو لوجان پيرسول سمث ، وأما الآخر فهو سترانشى . وكان كلاهما من رجال العلم والثقافة . غير أنه كان بينهما هذا الاختلاف الكبير على الأقل كما عرفتهما . كان پيرسول سمث موهوبا فى إجادة الكتابة — وقد فعل . أما سترانشى فقد كتب لأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً . كانت الكتابة فى نفسه وكان لا بد من ظهورها . وبرغم هذا ، فمن التناقض المعجيب ألا يكون لپيرسول سمث أتباع ، لأنه كان يفتقر إلى الابتكار الذى تلمسه عند غيره . أما سترانشى الذى كان له أتباع ، فقد كان السبب فى ارتكابهم أضرارا جمة . وأضافت إلى ذلك قولها : « ثم إن بعضهم كان فاسدا حقا » ...

واستطرد هوابتهد قائلا : « ولقد جاء سترانشى فى نهاية عصر قوى .. وأؤكد لك أنه كان قدبرا ذكيا ، ولكن أولئك الذين حاكوه مباشرة كانوا جماعة من الكتاب الذين ينقصهم ذكاءه كما ينقصهم قدرته ، وقد ارتكبوا أضرارا كثيرة . كيف تعرف تهكم سنتايانا ؟ »

وأمرعت زوجته إلى الإجابة قائلة : « شائن هدام » . وروت تكرار مقابلتها له فى حجرات طالب فى أكسفورد . كان شديد القراية به ، وكان معجبا بسنتايانا ، فكان يدعوه دائما لتناول الشاي . « وكان سنتايانا دائما يامل الشاب تهكم . ولم يكن الشاب من أصحاب الفسکر العميق ، ولكنى راقبت ما كان يجرى . وحكمت عليه بالسفالة . إنه تهكم رجل فقد الإيمان فحاول أن يحطمه فى الشباب — وهو عندى عمل شيطانى ! »

وأجبت بقولى : « كثيرا ما يقال عنا نحن الأمريكان إنا سنذج لا يرجى لنا صلاح . ولكنى بعد ما قرأت هذا المجلد من سيرة سنتايانا بقلمه ، وأعجبت بنثره الرائع وبما حوى من ومضات الإلهام ، وبعد ما ضحكمت من نقده لنا ، بعد هذا وجدت نفسى فى شك عما إذا كنا جميعا من الغباء بحيث لا ندرك ما يسخر به غيرنا منا من وراء حجاب من التهكم » .

وقالت مسز هوايتهد : « إن شعبكم يستقبل ذلك بروح طيبة ، كما يستقبلون النكتة التي تقال فيهم . ولكن من الخطأ أن يظن أحد أنكم لا تفهمون ماوارة ذلك . منكم روائى معاصر بيننا يسخر منكم بنفس هذه الطريقة . وأنتم تأخذون سخريته بنية حسنة ، وهو لا يستغل أحداً . وسخريته تصدر عن عدم الايمان ، الذى يبدأ — كما هى الحال فى السخرية دائماً — من عدم إيمانه بنفسه » .

« إن ذلك ينهنا إلى أمر يحير فى سنتايانا . إنه يكتب عن الكاثوليكية نثراً غنائياً . ولكن هل من الممكن ، وهو يلم بكل هذه المعارف — أقصد كل شيء من الفنون الشعبية القديمة إلى علم النفس الحديث — أن يمد نفسه ، رغم هذا ، من بين المؤمنين الصادقين ! »

وقال هوايتهد : « إن الكاثوليكية تسمح بأن تكتب (فيها) كتابة جميلة . إنها قديمة جداً ، وهى متنوعة تنوعاً ضخماً ، رائمة فى مظهرها ، لها أوجهها الشعرية والجمالية ، ويمكن أن تكون ممتعة إلى أبعد الحدود . وليس المره بحاجة إلى إيمان شديد لى يقوم بذلك ، بل إنى لأقول إن الكاثوليكي الذى لا يمارس الكاثوليكية مثل سنتايانا — الذى يعتبر بوصفه كاتباً فناناً كبيراً — يؤدى أداءً ساحراً أما عن فلسفته فإنى أعترف بأنى أحس إزاءها إحساساً مختلفاً . إن ممتعة الفلسفة تتوقف على إخلاص الفيلسوف . لقد نظر إلى العالم بطريقة معينة ورأى الظواهر المختلفة من وجهة جديدة . إنه ملئ برؤياه ، ومشغوف بنقلها إلى غيره . وقيمته عند الآخرين فيما رأى . إن أكثر الفلاسفة يعنون بقوة مايقولون ، وكل المظالم منهم يفعلون ذلك . أما فيما يتعلق بفلسفة سنتايانا ، فإنى أحس أنه يلعب بالافكار فحسب . كل مايقول فائر ، مفكك ، ويكاد لا يهتم منه شيء . لقد فاته المظلمة ، واعتقد أن السبب يرجع إلى افتقاره إلى الإخلاص . »

وسألت : « وما رأيك فى تهكم سقراط ؟ هل ينطبق عليه ما عرفت به التهكم أولاً ؟ وما رأيك فى التهكم المسرحى لشعراء المأساة الإغريق ؟ أقصد الصورة التى ترتعد لها الفرائص التى رسمها سوفوكليس لأوديب - وهو يحكم على نفسه بلسانه فى غباء ، فيلقى خطبا تمنى عنده شيئا وتعنى نقيضه تماما عند المستمعين الذين يصيبهم الذهول . أو التهكم التراجييدى الذى يقدمه لنا ايسكس فى أجاممنون - مناظر كتلك التى يمشى فيها الملك داخل قصره فوق ذلك البساط الأرجوانى ، وهو ما أغرته الملكة بأن يفعله كرمز بأنها سوف تغلح فى قتله . إن المأساة الإغريقية غارقة فى أمثال هذا اللون من التهكم . »

وقالت مسز هوابتهد : « ذلك هو التهكم الذى يوحى به الموقف » .

قال : « إن الانحلال لم يمتد بالتأكيد إلى الإغريق فى القرن الخامس ق . م . ، وهو بطبيعة الحال عصر كبار المسرحيين . وأشك أن يكون الناس قد عاشوا بمثل هذه الحيوية أو وسعوا من آفاق الملوك البشرية أكثر من ذلك فى أى مكان أو زمان آخر . ولكن ما تجده فى هذا القرن هو التساؤل عن الصيغ الدينية القديمة . وقد كفّوا عن الاعتقاد أن الآلهة أشخاص غير عاديين كما كان أسلافهم يعتقدون ، بيد أنهم كانوا يرون أن الآلهة ما زال بوسعها أن تؤدى أغراضا مفيدة باعتبارها رموزا . أما عن تهكم سقراط - سواء اعتبرته شخصية تاريخية ، أو نظرت إليه قليلا فى ضوء شخصيته الأدبية فى (محااورات) أفلاطون - فقد كان هناك بطبيعة الحال نقد حتى فيه تشكك للديانة التقليدية - من السفسطائيين ومن إلههم - ولكنك تجد كذلك فى ذلك المجتمع شيئا شبيها لما نجد ، بصورة أكثر شيوعا فى مجتمعنا اليوم ، أعنى أنك قد نجد فى نفس الوقت والبيئة - كما نجد عندنا فى لندن بين جماعة البلومز برى - حركة عقلية تتميز بالانحلال ، وفى الزاوية الأخرى قد تكون هناك بداية حياة جديدة قوية للعقل والمجتمع ، حتى إنك قلما تستطيع أن تقول إن العصر قطعة واحدة . فى كل عصر من

مصور الانحلال قد تكون هناك بضع بذور للمستقبل ، كما كانت هناك نشأة المسيحية عند انحلال الامبراطورية الرومانية ، ولكن المرء لا يستطيع أن أن يتبين في حينه أى هذه البذور سيموت وأياها سيحيى ليترك ما بقى من شئون روما . ويدعوننا ذلك إلى زيادة التسامح ما دمنا لا ندرى من أى هذه البذور سينبثق المستقبل . وهناك خطاب رائع من الامبراطور تراجان ^(١) حول هذا الموضوع ، عن المسيحيين ، الذين كانوا يعدون من أسباب القلق والضيق . يقول تراجان إنه من الأفضل إن أمكن - مسالمتهم وتهذيبهم ، بدلا من اضطهادهم . »

ثم أثير هذا الموضوع : هل الأسطورة هى الصورة التى تعبّر بها الشعوب البدائية عن آرائها العامة قبل أن تكون لهم لغة من المجردات ، مما يؤدي فى آخر الأمر إلى الظن بأن الأساطير لم تكن سوى أفكار مجردة . وقد أثرت هذا الموضوع من قبل ، بيد أنى أثرته مرة أخرى ظانا أن شيئا مختلفا قد يتمنحض ، وقد حدث .

قال هوايتهد فى وثوق : « إن الأسطورة تآتى قبل ظهور الأفكار العامة . وعند أول ظهورها ، لاتكون هناك -- فيما أعتقد -- فكرة تشخيص أى

(١) « إن الطريقة التى اتبعتها ، يا عزيزى بابى ، فى محاكاة أولئك الذين اتهموا أمامك بالمسيحية ، ملائمة جداً ؛ إذ أنه ليس من الممكن أن توضح خطة مميّنة للعمل طبقاً لها فى جميع الحالات التى من هذا القبيل . بيد أنى لا أنصحك ألا تجرى أية تجربات رسمية بشأنهم إذا هم سيقوا إليك ، وثبتت عليهم الجريمة ، فلا بد من عقابهم ، مع هذا الشرط : إذا أنكروا اتهم أنه مسيحي ، وأثبت ذلك بدعاء آلهتنا فعليك أن تسامحه بعد أن يقرر الندم (برغم كل شك سابق) . أما البيانات التى لا يذكر فيها اسم المتهم فلا ينبغي أن تقدم إلى المحاكمة على أية سرورة من الصور ، لأن فى ذلك إقراراً لمبدأ غاية فى الخطورة ، لا يتفق ألّبتة مع عدالة حكومتى » الفصل العاشر من (الخطابات) لـ جليوس بلتيوس كيسايلوس سكندس (بليني الصغير) . ويعتقد مومسن أن تاريخ هذا الفصل العاشر هو عام ١٠٨ أو ١٠٩ بعد الميلاد .

تصور مجرد على الإطلاق . بل الأرجح أن واضعي الأساطير يرون شخصيات معينة متصارعة ، يؤدي صراعها إلى نتائج معينة ، أو يرون قوة ، ناهضة في العالم المحيط بهم ، تمارسها أو توازرها قوة أخرى . ثم يشخصون هذه العمليات وفيما بعد تميد النظر في هذه الأساطير عقول أكثر فلسفة ، فتري أنها تحتوى على بذور الأفكار المجردة . كما كنا نقول منذ لحظة عن الإغريق حينما كفوا عن الاعتقاد في أن آلهتهم كائنات فوق البشرية ، ولكنهم رأوا فيها بعض أوجه الحق الرمزي .

قلت : « إن أحد الذين أرخوا سيرة شلى ، وهو كلتن بروك — فبا أعتقد — قال إن شلى أحد واضعي الأساطير القلائل الذين عاشوا في العالم الحديث . فقال هوابتهد : « إن شلى شاعر عظيم جداً . وكنت أكثر من قراءته في وقت من الأوقات حينما كنت أقرأ الشعر . ولكنى لا أقرأ الشعر اليوم . »

« إن مادفعنى إلى إثارة السؤال هو أن أكثر الآداب العظمى وراءها أساطير شعبية . ويبدو أنه ليست عندنا نحن . الأمر بكان أساطير — على الأقل بهذا المعنى ، وهو أن أكثر ماضينا في هذه القارة قد حدث في ضوء شديد هو ضوء التسجيل التاريخي القوى . »

قال هوابتهد : « أنتم أيها الأمريكان تخلقون اليوم أساطيركم . »

وأدى ذلك إلى مناقشة حادة عن بعض أساطيرنا .

وأجابته مسز هوابتهد في خبث : « إن إحدى هذه الأساطير هي الديموقراطية . »

وقال هوابتهد : « إن الآراء السياسية التي يقوم عليها مجتمعكم الأمريكي نوع من الأساطير . ولها تاريخ طويل إذا بدأنا بالعصر الحديث نسبياً (أقصد أن نترك الأصول الإغريقية الرومانية والملمينية العبرية) قلنا إنها تنبعث عن لوك في

القرن السابع عشر الإنجليزى ، ثم تنحدر إلى الفرنسيين المظالم فى القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تطبق عمليا قط حتى أنت إلى مؤسسى جمهوريةكم . والهدف من هذه الأسطورة السياسية هو تحسين حياة الرجل العادى وتأمينها . بيد أن هذه الأسطورة فى القرن التاسع عشر فى أمريكا تعرضت لانقلاب جدى . فقد فُتسِر حق الرجل العادى فى الحياة الطيبة بحق بضعة أفراد استثنائيين ، بنسبة واحد لكل ألف تقريبا - أو أقل - أقصد بحقهم فى استغلال موارد قارة جديدة بطريقة يجمعون بها أنفسهم مفرطين فى الثراء ، وحينما أقول « استثنائيين » أرجو ألا تفهم أنى أعنى أنهم ممتازون . بل لقد يكونون فى كل أسرة من أواصر الحياة ماخلا تكوين الثروة على درجة من الانحطاط ، وكثيرا ما يكونون كذلك . ولكن بتقدم القرن التاسع عشر فى هذه القارة ، كان هؤلاء الأفراد هم الذين حلوا هذه الأسطورة السياسية ، وبهم انحطت إلى هذه الفكرة الخاطئة المبتذلة : وهى أن أى فرد فى أمريكا يستطيع أن يصبح ثريا إذا أصر على ذلك . وفى هذا القرن الحاضر عليكم أن تنقذوا المائى الأصيلة لأسطورتكم السياسية من أولئك الأفراد القلائل الذين يسيطرون على ثروات ضخمة ، والذين أساءوا معنى الأسطورة .

قلت : « إنك تحيرنى بشأن الحكم الذى سيصدره المستقبل على العصر الفكتورى » .

قال هوايتهد : « كان جو هذا العصر من الناحية الاجتماعية خائفا ، وقد كان هذا الجو الخائف عقبة فى سبيل جانب كبير من أدب العصر ، لأن الأدب يخضع إلى حد كبير للصور الاجتماعية التى ينشأ فيها . إن الناس فى القرن الثامن عشر - فى إنجلترا وفرنسا على الأقل - كانوا أكثر حيوية وأشد نفاذا من الناس فى القرن التاسع عشر - ولكننا حين نقول بهذا يجب أن نذكر دائما أننا لا نتحدث إلا عن القلة المحظوظة التى تملو قة المجتمع . ولا يتفوق

القرن التاسع عشر إلا فى اهتمامه بمأمة الناس . فهذاشئء جديد . وكان هذا الاهتمام فى أول أمره بتمثّر ولا يستقيم ، ولم يمتد إلى الناس جميعاً بأية حال من الأحوال . ولكنه كان صادقاً ، وهو يميز القرن التاسع عشر عن كل قرن آخر سبقه . وحينما يتلاشى هذا الصراع المالى الحاضر ، فسيكون ذلك هو الجانب فى عصرنا الحاضر الذى يستحق الإنقاذ — إن أمكن إنقاذه .

« وما هى فى رأيك مرتبة العصر الفكتورى من الناحية الثقافية ؟ »

« إنه فى مرتبة عصور المالم القليلة العظيمة ، ولكنه أقلها شأنًا . »

« وهل يمكنك أن تعطينى فكرة عن مكائته وقيمته ؟ »

« أجل ، إنه يشبه إلى حد ما تلك الفترة من الإمبراطورية الرومانية التى جاءت بعد تاستس ، حينما كانت الحياة آمنة سليمة إلى حد كبير ، ولكنها لم تكن براقة جداً — فكان عصرافضيا ، ولم يكن عصرافذهبياً . »

وسألت مسز هواتهد : « ما هى التواريخ التى تحددها العصر الفكتورى ؟ »

فأجاب : « ربما كان القرن التاسع عشر تعبيراففضل . ويبدأ القرن التاسع عشر عندى بعام ١٨٣٠ ، وينتهى بطبيعة الحال بعام ١٩١٤ . فى عام ١٨٣٠ كان معظم عظماء الرجال الذين خلقوا عظمة هذا القرن لا يزالون فى الكليات . »

وسألت مسز هواتهد بفتة : « قل لى أى شاعر أو شعراء من الإنجليز فى القرن التاسع عشر لا زلت تقرأ ، إن كنت تقرأ البتة شعراء ؟ . . هل هو شلى ؟ »

ولما كان سؤالها موحها إلى ، فقد ذكرت قاعة طويلة من الشعراء ، ومن بينهم تنسن .

« أى القصائد تقرأ ؟ »

« (الكأس المقدسة) فى عيد الميلاد ، و (موت آرثر) فى عيد رأس السنة ،

و (للذكرى) فى فترات كثيرة »

قالت : « (للذكرى) ليست قصيدة ناجحة ، وكان لابد لى تنجح أن تكون تدفقا لروح معذبة ، ولسكنها لم تكن كذلك . »

ولما كنت أعلم أن زوجها يقدر القصيدة قدرا أعلى من ذلك بكثير ، وقد تحدث عنها باعتبارها واحدة من تلك القصائد الجديدة الكبرى فى الأدب الإنجليزى . فقد نقلت الموضوع إليه .

قال : « كان تنسن شاعرا عظيما يمالج موضوعات لا أعدها جلية . كان موضوعه إنجلترا فى عهد فكتوريا . »

قالت : « إذا ذكرنا الروائيين الإنجليز فى القرن التاسع عشر ، قلنا إن بعضهم كان مجيدا ، وبعضهم أقل إجابة . ولكن لم يتفوق هذا القرن فى العلوم ؟ فهناك داروين »

ولم يعلق هوايتهد على ذلك ، وأحسب أنى عرفت السبب فى هذا ، وهو أن القرن التاسع عشر - حتى نهايته بالتأكيد - كان ضعيفا فى العلوم إذا قيس إلى القرن السابع عشر ، وهو « قرن المبقرية » كما أطلق عليه فى كتابه (العلم والعالم الحديث) . وهنا حاولت أن أفهم جيته وبيتهوفن ، غير أنى ذكرت أن قرننا التاسع عشر قد حُكم عليه أن يبدأ فى عام ١٨٣٠ ، فى حين أن جيته قد توفى فى عام ١٨٣٢ وبيتهوفن فى عام ١٨٢٧ .

واستطرد هوايتهد قائلا : « ولكن إذا كان هذا الاهتمام بعامة الناس يميز عصرنا وهو صفة من صفاته التى تدعو إلى الإعجاب ، فهناك لى جانب ذلك هذا السؤال : ألا يتبط انتشار الفرص على نطاق واسع من الموهبة والمبقرية ويهبط بهما إلى مستويات أقل ارتفاعا ؟ كانت للقرن الثامن عشر وسائل التى يتعرف بها الموهبة ويتمدها ، بالرغم من أن هذه الوسائل كثيرا ما كانت ناقصة . فكيف

يمكن أن نعرف إلى القدرات الاستثنائية - ولا أعني المواهب العادية ، وإنما أعني القوى الاستثنائية حقا - في مجتمع ديمقراطي تماما ؟

فقلت مسز هوابند جازمة ، ومؤكدة رأيها بهزها في عنف شديد كرة خيط النسيج التي كانت بيدها : « إنني لا أتفق معك في هذا . إن التسوية تطلق المواهب التي لم تكن تنطلق من قبل و (ترفع) المستويات بنشر الفرص . وإليك مثالا من تطبيق هذه النظرية . لم يصل إلينا من روايات القرن التاسع عشر إلا أحسنها . وقد نشرت بين روايات أخرى أكثر عدداً وأقل قيمة أو لا قيمة لها ألبته . وكلما ظهرت رواية جديدة في القرن التاسع عشر عد ذلك حدثا من الأحداث . أما اليوم ، فإن عدد الروايات - السيئة والحسنة والعادية - التي تصدر قد ازداد بدرجة كبيرة ، ومع ذلك فإن نشر الرواية الجيدة لا يمد حدثا ، إذ أن هناك عدداً كبيراً منها » .

قلت : « باعتباري رجلا لا يقرأ من الروايات المعاصرة ما يكفي لأن يكون لي حق إبداء الرأي ، أقول إنه مما يسترعى انتباهي أن نولستوى ودوستوفسكي ، ورجنيف ، وتشيكوف ، وجوركي ، الذين كتبوا الروايات في ظل الأوتقراطية القيصرية - هؤلاء على الأقل لم يتفوق عليهم كاتب ممن عرفنا منذ ثورة سنة ١٩١٧ » .

وسألت مسز هوابند : « ولكن هل تسمى روسيا السوفيتية ديمقراطية ؟ » وأجاب هوابند قائلا : « نحن الإنجليز والأمريكان ضعفاء التصور بدرجة غريبة في تفسيرنا لمعنى (الديمقراطية) . ويبدو أننا لا نستطيع أن ندخل تحت تعريفنا أية صورة من صور المجتمع لا تتفق تمام الاتفاق وصوره المجتمع عندنا ، أنظر إلى الطريقة التي تقاتل بها جيوشهم في هذه الحرب . إن الشعب الروسي كله متجد بالتأكيد في تصميمه على تحرير أرضه من الألمان . ولا جدال في أنهم سيفعلون ذلك . إن اتحادهم في الدفاع كامل ، لأنهم يدافعون عن نظام اجتماعي

يחסون أنه نظامهم ، وأعتقد أن القوتين العظيمتين اللتين ستمتخض منهما هذه الحرب هما روسيا وأمريكا ، على تناقض في المبادئ التي تدفع كلا منهما ، المبادئ الروسية ستدور حول التماسك ، والمبادئ الأمريكية حول الفردية .

« هل ترى في أية ناحية من نواحي الفكر السيامي المعاصر أية فكرة جديدة فيها قوة المستكشفات العلمية وما يترتب عليها من مخترعات في الخمسين سنة الماضية ؟ » .

« هناك ماركس بالطبع ، وإن كنت لا أستطيع التحدث عنه في وثوق » .

« لقد وضعه لنين موضع التطبيق » .

« نعم . ومن الحقائق الفذة أن نبي الثورة المالية قد وجد أول تطبيق عملي لآرائه في مجتمع تسوده الزراعة » .

وقد تطوعت لتصويبه مسز هوايتهد بقولها : « ذلك لأنه بلغ غاية الفساد وأوشك على الانهيار »

وقال هوايتهد : « ألم يمت لنين في الوقت الملائم ؟ ألم ينته من مهمته ، وأصبح المطلوب رجلاً ذا موهبة أقل قدرة على النظر وأكثر قدرة على العمل ؟ »

« ألا ترى أن تروتسكي يفي بالمطلوب ؟ »

وقال هوايتهد إنه يشك في أن يكون تروتسكي ذا فائدة كبرى كرئيس لوطن اشتراكي ، — أو بصراحة أوفى — لروسيا السوفيتية . وعلقت بقولي : « حينما طرد ستالين تروتسكي من روسيا ، قال تروتسكي — فيما أذكر — إن ستالين تدهور شنيع بعد لنين ، وسيحكم روسيا لا كفكر عظيم ولكن كرجل بالعقلية السياسية لرئيس من رؤساء السجون » .

وقال هوايتهد وهو يبتسم متلطفاً : « يبدو أن قدراته الخاصة تجب في الوقت الحاضر مجالاً نافعاً » .

« إنك تذكرنى - وأنا أذكرك - بما قلت لكفستابل فى (فافى السبف)
 ءفما كنا نبحث فىما إذا كان إففن بسطفف - عفف الضرورة - أن فحل فحل
 فشرشل ، بمفما أصفب فشرشل بالالفاب الرئوف . وقال كفسفابل الفف كان على
 مسرفة باففن (إنه لفس رءلا لافما ، ولكفه شءص مفهفب ، فم قلت أنت .. »

وقالت مسز هوائهف وف نفسفا شر : « ماذا قال ؟ »

« قال : « إن فشرشل وهو ملقى على مسرفه فمافى الفالفاب الرئوف أفففل
 كرئفس للوزراء من أى رءل آفر فى إنءلرا ممن ففنون منه . قف فكون إففن
 شءصاف مفهفباف ، ولكن هفا الوقت لفس فوقت الفهفب ! »

(وأثار ذلك فى الفالسفن إلى الماففة عاففة من الفءك) .

فم ءف بالشكولافه فوق الفاولف ، وقف بلغت الآن فموا الفافرة . وكانت
 الشوكلافة أفففل من أى وقت سفق ، أوفما كنا ءفما أشف ءوعاف ما اعففنا . فم
 انفلل الءفف فى الوقت نفسه إلى النظم المدرسى .

وقال هوائهف . « كفف رئفسا للطلاب فى سربورن ، وقف اضفرفر ذاف
 مرة أن اضرب أءف الطلاب عاففة . وكان ذفبه سرفة بعض النقوف . وقال فافر
 المدرسة « إما أن فضرفه على مشفء من المدرسة أو أطرفه . ولم فمف بمفئذ فبال
 للاءففار . وكان لا بفلى من الفففف . ولم فكن الأساففة بالففع فافرفن .
 وفف الضرب بمءور الطلاب فقط » .

« وماذا كان إءساسك فف » .

« لم أءب أن أففل ذلك ، وإفما أرعفت علىه إرفاما . وكان الضرب فى فلك
 الأيام - فى السفواف الفافرة ما بفن عام ١٨٧٠ و١٨٨٠ - ضرورة من ضرورات
 النظم معترفاف بها . وكان فافر المدرسة - وهو رءل طفب القلب بفرفة ففر
 عاففة - فضطر بفن الففن والففن إلى أن فقوم بالضرب بففسه . وكما ضرب

طالباً رابناه يخنى رأسه بين ذراعيه ويبكى . وكنت تستطيع أن نسمع وقع الدبوس ! »

« ألم يصربك أبواك قط في طفولتك » .

« كلا . إذا احتاج الأمر إلى ضربى ، كانا يقدمان إلى جرعة من دواء ويقولان لى إنه يؤسفهما اعتلال صحتى » .

وقالت مسز هوايتهد ثائرة : « لقد ضربنى أبواى . ولم يؤد ذلك قط إلى نتيجة حسنة . إنما كانت التربية فى بريتون حازمة . ونشأنا فى طفولتنا على قصص العصور الوسطى الشعبية التى كانت ما تزال تروى فى الريف . وأذكر مرة أن قيل لى وقد أخطأت — كما قيل للفارس الجريح الذى قال فى حلبة اللب [إننى أحس بالعطش] — قيل لى ما قاله له الملك (اشرب دماءك يا بوما نوار وإن تعطش بعد ذلك) » .

وكنا نتصفح ألبوما من الصور الفوتوغرافية القديمة ، ونبحث عن فريقين من فرق الكركت فى مبرورن عند ما كان هوايتهد شاباً لم يبلغ العشرين من عمره . وقد أخذت الصور أمام ما يشبه أن يكون بوابة غوطية قديمة . وقلت إنها تبدو قديمة جداً .

وقال هوايتهد : « لقد احتفلت المدرسة بعيدها المائتين بحد ألف فى عام ١٩٤١ ، والمعتقد أن تاريخها يرجع إلى عهد الملك ألفرد . وكان أحد مبانيها ديراً ، والظنون أن الحجرة الصغيرة التى شغلناها فى سنتى الأخيرة كانت حجرة الراهب » :
وسألت مسز هوايتهد : « هل نستطيع أن نتبينه من بين هذه الجماعة من الشباب ؟ »

وكانت هناك مجموعتان من الصور الفوتوغرافية فى نفس المكان من عامين متتاليين . وكان التعرف إليه فى المجموعة الثانية — وهو أكبر — أيسر منه فى المجموعة الأولى وهو أصغر .

وقال هابز : « من الأمور التي تسترعى الانتباه في تربيتنا بهذه المدرسة - ولم يكن ذلك خاصاً بشربورن وحدها بأية حال من الأحوال ، وإنما كان من سميات كل تربية مدرسية إنجليزية في ذلك الوقت - أننا درسنا أدب اليونان وتاريخهم ، ولكننا أخذنا منهما تلك الأوجه التي كانت تشبه - فيما يبدو - حياتنا وشؤوننا الإنجليزية ، واكتفينا بذلك . فأتينا - مثلاً - كانت قوة بحرية ، وكان لإنجلترا أسطول بحري . ولما كانت الآفاق الواسعة للقوة البحرية الحديثة لم تعرف بعد ، فقد ظننا أنها تنطبق أساساً على سواحل أوروبا ، كما كانت القوة البحرية الأنينية تمارس نفوذها على السواحل والجزر في شرق البحر المتوسط : مع ملاحظة أن أحداً لم يدرك أن ذلك كان يحدث بالفعل إنما كنا نأخذ من العالم القديم ما كان يمكن تطبيقه علينا وكذلك - فيما يتعلق بروما - - قرأنا كبار المؤلفين في العصر الجمهوري المتأخر وفي عهد أغسطس ، ولكن الجانب من التاريخ الروماني الذي بدا مشابهاً لتاريخنا هو تلك القرون المتأخرة بعدما فقد الأدب أعظم أسمائه - وكان ناستس آخرهم في رأيي - وهي القرون الثلاثة التي تلت عام ٧٠ بعد الميلاد ، حينما كان المهم هو احتفاظ روما بمستواها المرتفع عن طريق السياسية الحكيمة والإدارة المدنية ... وإذا وازنا بين المؤلفين الإغريق والرومان كل في عصره الزاهر ، أي في القرن الخامس في اليونان وفي عصر أغسطس بالنسبة لروما ، وجدنا أن الإغريق يتفوقون على الرومان بدرجة لا يمكن قياسها فالآراء عندهم أشد ابتكاراً وأفوى حيوية بدرجة كبيرة . والواقع أن المؤلف الروماني الوحيد الذي أرى أنه يمكن أن يقاس إلى اليونان في صفات الحيوية والابتكار هو رجل قد بدهشك . هو لوكريشس . »

وأجبت بقول : « إن لوكريشس لديه ما يقوله لشعوب عصرنا . وذلك لا يدهشني . لأنني أذكر كيف أن أرنولد توينبي قد وجد عند لوكريشس في إحدى مقالاته تلك الأسطر التي تجادل في أن الموت يحطم الشخصية . وطرات هذه الأسطر على ذهنه

خلال ربيع عام ١٩١٨ . وقد كتبت بعد مائة وخمسين عاما تقريبا بعدما جلا هانبال عن إيطاليا ، غير أن قرع ذلك الغزو كان لا يزال حيا في أذهان الناس ، إلى حد أن لوكريشس ظن أن مجرد ذكره جمل النسيان يبدو أفضل من الخلود الشخصي ويؤدي بي هذا إلى موضوع أردت أن أفاخك فيه . وهو ليس موضوعا سارا ، وسأجد مشقة في صياغته بدقة ، لأنه لا يصدر عن دليل واحد ، وإنما يصدر عن آلاف الانطباعات المتناثرة ؛ عما أقرأ ، وعما أشاهد ، وما أسمع ، وما أمارس ، وما يترك لي استنتاجه . ثم تتجمع آثار ذلك كله ، والطريقة الوحيدة التي أعرف كيف أعبر بها عنه في آخر الأمر قد تبدو تافهة ، بالرغم من فداحتها . والموضوع هو هذا : إننا نميش وسط انحلال مستمر لما اعتاد الناس أن يسموه (الحياة المتعدنة) .

فقال : « لا أعد ذلك موضوعا تافها . بل إنى أراه صادقا . وأعتقد أن صديقنا العزيز آدم سمث كان له به شأن كبير . لا بمعنى أن كلمات فرد واحد قد يكون لها كل هذه النتائج البعيدة ، ولكن بمعنى أنه عبر عن نصف الحقيقة التي كانت من قبل كمنة في عقول الناس ، وهي الحقيقة التي تكمن في الواقع هناك دائما ، ثم أخذها الناس كحقيقة كاملة ، وشرعوا يعملون طبقا لها . وأقصد بها فكرة سيادة الدافع الاقتصادي عند الإنسان . إننى لا أنكر أن الدافع الاقتصادي موجود ، إلا أن ما يسىء إلى أمور الناس هو أن يأخذوا أنصاف الحقائق على أنها حقائق كاملة . وقد اكتسب ذلك الدافع المادى أهمية قصوى ، وحفز الناس إلى العمل بمقتضاه بما حسبه ضميرا حيا . إلا أنه لم يكن هناك فيما مضى عصر عظيم ، ولا يمكن أن يوجد مثل هذا العصر العظيم ، ما لم يعمل وفقا لدوافع رفيعة مثالية . وقد نبذت المثالية في عصرنا جانبا . وها نحن ندفع الثمن » .

قلت : « إن كلمة (المثالية) نفسها كانت محل السخرية منذ الحرب العالمية الأولى . ولما كنت أكتب لقراء الصحافة اليومية فقد أصبحت شديد الحساسية

لأى نوع من الأفكار يقبله الناس وأى نوع لا يقبلونه ، كما أحس بالطريقة التى لا بد منها لإعادة صياغة الآراء غير المقبولة حتى تستطيع أن تشق طريقها . وفى نفس الوقت تقريباً بدأنا نلاحظ أن هناك تدهوراً ظاهراً فى تأثير الديانة المسيحية . قال هوابتهد : « لقد انجهدت الديانة المسيحية وجهة خاطئة جداً » .

وعلمت على ذلك بقولى : « إن الديانة البوذية ، وإن كانت شديدة التعميد - أشد تعميدياً فى الواقع من أن أستطيع إدراكها - إلا أننى أنخيل - برغم ذلك - أنها تدعو إلى الاحترام من الناحية العقلية » .

وأضاف هوابتهد إلى ذلك قوله : « إن الهنود أدركوا - من بين ما أدر كوه - أوجه الشبه بيننا وبين الحيوانات ، وضمنوا ذلك تفكيرهم الدينى ، ولكنك لا تستطيع أن تسميها فكرة تدعو إلى المساواة ، لأنهم كانوا يرون أن من واجبتنا جميعاً على السواء أن نتخلص من شخصياتنا اللعينة » (قال ذلك وهو يبتسم ، ولكنه سرعان ما عاد إليه جده) « أما عن الديانة المسيحية ، فهل تستطيع أن تتصور شيئاً أشد بلاهة من الفكرة المسيحية عن السماء ؟ أى رب ذلك الذى يريد أن يخلق الملائكة والناس ليتغنوا بحمده ليلاً ونهاراً وإلى الأبد ؟ لاشك أن تلك هى صورة الحاكم الشرقى المستبد ، بفروره الوحشى الفارغ . إن مثل هذه الصورة إساءة إلى الله ولكنى أقول لك برغم هذا إن المسيحية - من ناحيتها العاطفية والجمالية - تلعب دوراً هاماً فى حياة الناس الذين لا يرقون إلى مستوى عقلى رفيع ، فى حياة النساء خاصة ، وهى تشد أزهرهم بدرجة تمس مشاعرهم مساً شديداً . إن من أسوأ ما صادف الأوربيين من حظ ، هو أنه لما حل موعد إصلاح الكنيسة ، وضع مارتن لوتر الصور الجديدة ، التى نبذ فيها الجانب الجمالى والعاطفى ، ولم يبق إلا على العظام الجافة لعلوم الدين مجردة من اللحم » .

وقد أدى الحديث عن الديانة الجرمانية إلى الحديث فى الدراسة الجرمانية ، وصفاتها التى تتميز بها إذا نظرنا إليها بجوار الدراسة فى فرنسا وإنجلترا .

موسرعان ما عزم هوايتهد الحكم في أنواع الدراسة الثلاثة بنير تحيز ، فقال :
 « إن البحث العلمى فى ألمانيا يشترك فى عيب أراه شائماً فى أكثر البحوث .
 فالباحثون يصرون على استعمال كلمات كأن معانيها قائمة فى فراغ . إنهم يقولون :
 « هذا الرجل قال (ذلك) فى (هذا) » كأن الكلمات نفسها هى كل ما فى الأمر ،
 وهم يتجاهلون كل التعاهل ما تظوى عليه هذه الكلمات من الناحية العاطفية
 فى البيئة التاريخية التى نطق بها فيها أولاً . ماذا كان مجموع الدلالات العاطفية
 لتلك الألفاظ حينما نشأت فى أول الأمر ، وكيف غيّرت من فهمنا لها التطورات
 التاريخية التى طرأت عليها من ذلك الحين ؟ » .

« حكم شاب ألماني بعد استماعه إلى محاضرة ألقاها أحد العلماء البارزين فى
 برلين ، ومعه بلس برى حينما كانا طالباً فى شبابه هناك - حكم عليه بقوله : إن
 اطلاعه أوسع مما ينبغى ، وقد استمع بلس إلى مُنمَسِّنْ ، الذى أعجب به ، وإلى
 فون ريتسكى ، الذى يقر بأنه لم يستطع فى حينه أن يسبر كل غوره ، وكذلك
 إلى كثير من عطاء الرجال فى ذلك العهد ، وقد انتهى رأيه إلى أن كثيرين منهم
 كانوا كذلك (أوسع اطلاعا مما ينبغى) . والأرجح لمن يكون اطلاعه أوسع
 مما ينبغى أن يقنع بأنصاف الحقائق » .

قال هوايتهد : « إن أكثر الفروض أنصاف حقائق . والفرض من ناحية
 قد يكون خاطئاً ، ومن ناحية أخرى قد يكون صواباً . وهو - سواء أكان خطأ
 أم صواباً - يعتمد على مطابقته . فعندما يكون مطابقاً نسميه صدقاً ، وحينما
 لا يكون مطابقاً نسميه كاذباً . والواقع أنه لا هذا ولا ذاك ، وهو هذا وذاك ،
 فهو يعتمد على الملابسة التى نراه خلالها . إنه نصف حقيقة . وينشأ الضرر من
 اعتبار أنصاف الحقائق هذه حقائق كاملة » .

« وهل نعتقد أن الاقتصاديين كانوا بأنصاف الحقائق أشد ضرراً من
 المؤرخين ؟ » .

فأجاب : « كلما ازدادت اطلاعا في التاريخ قل تقديري للمؤرخين . أعتقد أنهم رجال يدعون أنهم يكتبون متثبتين عن حوادث ليسوا أهلا لإدراكها . وإن لم يكونوا كذلك فهم يقبلون الوثائق الرسمية لمصر من المصور على أن لها قيمة كاملة ، ناسين أن أهمية المصور الحقيقية هي في الجو الماطن الذي يدفع الناس الذين يعيشون فيه ، والآراء العامة التي يتأثرون بسلطانها . واستثنى من الحكم اثنين : أحدهما جِبْنُ والآخري ثيوسيديد . فقد كانت لجِبْن خبرة عملية حينما رأس كتيبته تلك التي كانت تعرف باسم (متطوعى هامبشير) . وكانت له خبرة كذلك بشئون السياسة . كما عرف مجموعة من الأدباء المتمعين في لندن ، ثم إنه في اللحظة الملائمة تماما هاجر إلى جنيف حيث احتك بآراء أبناء القارة الأوربية المثقفين المتنقلين . وهذه الخبرات بالإضافة إلى المؤهلات الأخرى أعدته لكتابة التاريخ ومميزته بين المؤرخين المحدثين . أما عن المؤرخ القديم ثيوسيديد ؛ فقد كان قائداً يمد جزءاً من الحياة ومن المصور التي بصورها » .

(٣٣)

٩ من مايو ١٩٤٨

من الأمور المعبية التي يتكرر حدوثها في أوقات الحروب ما وقع له في طريقى إلى آل هوايتهد لتناول العشاء . في كل ربيع في الليالى اللطيفة ترتل جوقات هارفارد وراى كايف من عتبات وذر هول ، من مكتبة الجامعة ، تلك الأناشيد التي تعرف عادة باسم رباعيات سقر . وهذه العتبات المشيدة من الحجر النين تصعد إلى واجهة كلاسيكية قوية الأثر في الناظر إليها ، من الطوب الأحمر ، واجهة من الأعمدة الأكاديمية من طراز جورج وكورثيا . والمكان يتسع لبضع مئات من الأشخاص ، وتواجه الأعمدة رواقاً مشابهاً في كنييسة موريل عبر مرج وغابة من شجر الدردار ، فيتكون منها صالة للموسيقى بهيجة

في الهواء الطلق . وقد بنيت الكنيسة تخليداً لذكرى رجال هارفارد الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى .

وكان ستة من الطلاب - ثلاثة منهم في زيهام الجامعي - يدفعون آلة من آلات البيانو فوق حامل ذي عجالات نحو المتبسات . وقد أخذ الناس يتجمعون لكي يستمعوا من غير شك إلى الموسيقى في الهواء الطلق . ولم يكن الفتيان على علم بالبرنامج ، ولكن في تلك اللحظة وصل الأستاذ والاس وودورث ، رئيس الجوقة وقال لى إنهم سينشدون ثلاث فقرات من (نشيد الموتى الألمانى) إبراهيم ، واتفقنا على أنها قطعة فيها سخرية تاريخية ، ويمكن أن تؤدى بإحدى الطرق المديدة للأداء .

وكان المساء من أمسيات شهر مايو ذات اللون الذهبي من أثر أشعة الشمس المتخلفة خلف الحضرة الجديدة لأشجار الدردار المزدهرة . ووقمت عيني على شجرة قرنفلية اللون مترعة بالقرب من الكنيسة ، وكانت طيور المزار قد بدأت بالفعل في الغناء .

وكان هوايتهد وزوجته يجلسان في فندق إمباسادور إلى جوار نوافذها القريبة ، التي كانت مفتحة على مصاريمها . فقد حل الربيع فجأة في أربعة أيام دافئة . وتناولنا العشاء إلى جوار نافذة أخرى تفتح ناحية الغرب ، وما زالت تغمرها أشعة الشمس الغاربة في لحظاتها الأخيرة . وتناولنا عشاء فائراً ، بالرغم من أنه لم يكن على المائدة صنف واحد من المقرر بالتوين ، اللهم إلا قطع يسيرة من الزبد والسكر . وبينما كنا نتناول العشاء ، أخذ هوايتهد يتحدث عن أثر تحقيق الثراء المفاجيء على إسبانيا في القرن السادس عشر .

قال : « إن تدفق الذهب من جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية دمر إسبانيا في مدى جيلين من أجيال الممر تقريباً . فإنا إن استنفدوا ما جمعه الأهالي ، حتى انتهى كل شيء ، ولم يشهد الشعب الإسباني كثيراً منه ، لأن شارل الخامس

استخدم الذهب في تمويل حروبه الأوروبية ومناوراته السياسية . فلم تنشأ صناعات جديدة . ومن ثم فإن السبائك الذهبية المتدفقة من العالم الجديد لم تخلق ثروة دأمة . وكان أكثر الأطعمة والسلع المصنوعة يستورد من الخارج . وقد قيل إن السلع المصدرة كانت تنحصر (في الجنود والقمص) . غير أن رفاهية الأمة الحقيقية تعتمد من نشاطها الصناعي (الداخلي) . ولابد - بطبيعة الحال - من توزيع ثمار هذا النشاط توزيعاً عادلاً بقدر المستطاع . أما إذا جاءت الثروة من الخارج دون أى جهد معين من أكثر أفراد الشعب ، فإنها تؤدي إلى الدمار . إن الأمة تتمتع وتميش بنشاطها الداخلي . إنكم حتى إذا لم تستردوا ديونكم للأمم الأخرى بعد الحرب - ولا أظن أنكم ستستردونها - فسيكون لديكم في هذا البلد إعدادكم الصناعي الضخم ، وإنتاجكم الزراعي ، وشعبكم بما عنده من مهارة فنية ، وبهذا تكفلون لأنفسكم إبلالكم مما أصابكم بدرجة كافية .

وهلقت على ذلك بقولي : « لقد حلت بالإسبان كارثتان أخريان في نفس هذا الوقت تقريباً . في كتاب (التقاليد والتقدم) لجلبرت مري صفحة تسترعى الانتباه ، يقول فيها إن الاضطهاد قد يكون نجاحاً سياسياً كاملاً مهما تكن نتائجه البعيدة وبالا ، ويضرب لذلك مثلاً معاملة البروتستانت واليهود في إسبانيا ، حيث لم تكن بالتأكيد دماء الشهداء بذور الكنيسة كما يقولون » .

وقالت مسز هوبز : « إن التسامح ينتهي دائماً بنتائج طيبة جداً . لقد أدى اليهود خدمات كثيرة لإنجلترا ، وأعتقد أنهم - كيهود - في طريقهم إلى الزوال . أنتم في حاجة إلى اليهود في بلدكم هذا . إنهم يكونون جانباً من السكان يدعو إلى العجب - فهم أدق وأحد ذهناً من سلاتنا الانجلو أمريكانية . أما مشكلة الزواج عندكم - من ناحية أخرى - فهي مشكلة حقيقية . وحينما يرى الإنجليز لإحضارهم إلى هنا ، فإن أسألهم ، ومن الذي بدأ بذلك ؟ إن المزارعين من أهل الجنوب عندكم وأصحاب السفن من أهل الشمال قد وصلوا على نطاق أوسع ما بدأه الإنجليز

ويجدر بنا أن نذكر أننا ألقيناه قانونا بحلول عام ١٨٣٣ ، ولكن رق السود لم يكن قط في جزرنا . إنما كان مشكلة في المستعمرات .

وقال هوايتهد : « كان في إحضارهم من أول الأمر قصر نظر شديد . إن خيالا يسيرا كان من الممكن أن يحذر أى مخلوق من حقيقة ما يحدث . إن الدافع المباشر - دافع الكسب الفردى - أضعف أنرا من أن يصلح أساسا لمجتمع مستقر - وكذلك ، من هذه الناحية ، الفائدة المباشرة لأى أمة بمفردها . كما اعتقد أننا ندرك ذلك جميعا اليوم . »

وسألت مسز هوايتهد « هل تقابل دكتور بروننج ؟ »

« من حين إلى حين فقط ، ولا تنهيا لنا فرصة كبيرة للحديث الشخصى . » وأجابت : « كان هنا ذات مرة ، وخلوت معه في حديث . ومما قاله إنه كان من الممكن أن ينجح رئيسا على ألمانيا لو أن أمريكا وبريطانيا أيدتاه ! وإنى لأعجب أبة حكومة هذه تلك التى تحتاج إلى تعضيد حكومتين أخريين ؟ » .

وقلت : « حدث ذات مرة في بيت دكتور هانز زنسر ، حيث كنا خمسة فقط على مائدة الطعام ، أن تسلم بروننج في حرية تامة - وربما كان ذلك لأن زنسر كان من سلالة جرمانية . وماذ كره بالتفصيل عن ازدياد نفوذ هتلر واستيلائه على الحكم كان أشبه بالسرحة الحزينة . والظاهر أن بروننج كان على علم بما يجرى وما كان يمتز به هتلر ، ومع ذلك فقد كان - فيما يبدو - عاجزا عن صد التيار . »

وهنا لاحظ هوايتهد : « أن بروننج رجل تقى جدا ، ولكن الرجل قد يكون تقيا دون أن يكون طيبا . قد يكون صاحب ضمير ، ولكن هذا الضمير قد يكون سيئا لمينا ، لأن الضمير يفرض أن حوافزه نافمة من الناحية الاجتماعية . »

وانقض المشاء ، ودخلت مع هوايتهد حجرة الجلوس ، حيث جلسنا إلى جوار النافذة المفتوحة في ضوء الشفق الرقيق حتى انتهت مسز هوايتهد من إزالة آثار

الطعام من المائدة . وسألني رأيي في إبعاد الحكومة لسكول آفري من مكاتب حراسة منتجو مري في شيكاغو .

قلت : « أعتقد أن أبلغ تعليق على ذلك تلك الصورة الفوتوغرافية لآفري التي تصوره مطرودا على يدي جنديين صغيرين يتنازعا عنه فيما بينهما . فذلك أسوأ من تصوير الجنديين ضاحكين ، لأنهما كانا مهذبين وحاولا جهدهما أن يرفعا رأسيهما . أما من كان ساخطا على ذلك - في ظني - فهم أصحاب الأعمال الصغيرة وأصحاب الملكيات الصغيرة الذين كانوا يتشبهون بالحياة العزيزة لما يملكون وسط حرب عالمية يموت فيها الشبان الذين لم يعيشوا بعد » .

وقال هوايتهد : « أية فكرة تلك التي تفترض أن الناس - وسط أعظم كارثة في تاريخ البشرية - ينبغي ألا يضطربوا في أعمالهم التي ألفوها وكرروها ! كم كنت أود أن أكون هناك لسكى أركل آفري بقدمي ! »

وأبدت رأيي قائلا : « كان ذلك مهرجانا لمن يكرهون روزفلت »

وقال هوايتهد : « لو سمعتهم يتكلمون تصورت أن مستر روزفلت تولى الرياضة في عهد من الرفاهية لم يسبق له مثيل » .

قلت : « إنني أصبر على جدلهم » .

وقال هوايتهد : « إنه ليس جدلا . إنما هو نثرة » .

وقبل أن نستقر في جلسة المساء طفقنا حول حجرة الجلوس قليلا ، متفقدين ما بها من قطع صغيرة من خشب الماهوجاني الإسباني ، الذي لم يعد بالإمكان الحصول عليه كما ذكرت مسز هوايتهد .

وقال هوايتهد : إن المكتب تحفة من التحف . وأحد هذه القاعد البيقوية . تقليد سيء للطراز الفسكتوري . أما الآخر فيعقوبي صحيح » .

وكان لأحد القطع تاريخ عائلي وراثي يمتد إلى أربعة أجيال ، فقد انتقل من

جدة ثانية في التسمين من عمرها إلى جدة أولى ، عاشت بدورها حتى بلغت التسمين أو أكثر . وقد أخذت مسز هوايتهد أحد مقاعد حجرة الطعام التي كانت تملكها إلى بوسطن لإصلاحه ، وسألت عن قيمته . وسألها المشتري : « كم قطعة لديك من هذا الطراز ؟ » فأجابت : « ست قطع » لأن بعضها محفوظ في بيت ابنائها . فقال المشتري : « مائتان وخمسون ريالاً » — « للقطع الست » ؟ — « بل للقطعة الواحدة » .

واختتمت حديثها بقولها : « ولذا فقد أمنت عليها »

وخلال حديث دار حول تحليل عالمنا مما كان بظنه آراء منيعة ، لا في الدين فحسب ، بل حتى في علوم الطبيعة قال هوايتهد : « كنت أقرأ (خطابات) هكسلي ، وبخاصة المجلد الثانى منها . وقد استرعى نظرى أنه أحد أولئك الرجال الذين لا يبلغون الصف الأول ، فهو قدير جداً ، ولكنه ليس عظيماً . أما دارون — من ناحية أخرى — فعظيم حقاً — ولكنه أغبى عظيم ممن أذكر . لقد أدرك هو وهكسلي مبدأ التطور في الحياة المادية ، غير أنه لم يطرأ لها قط أن بسألاً كيف يمكن أن يؤدي التطور في الحياة المادية إلى رجل كنيوتن — على سبيل المثال » .

« هناك رجل واحد أدرك هذا النقص من زمن مبكر جداً ، وذكر ذلك ، وهو صمويل بتلر » .

وقال هوايتهد : « إنهما لم يميلا إليه » .

« تقول عيلان إليه ؛ لقد حاولا أن يتجاهلاه ، ولكنه كان أقوى من أن يتجاهله أحد » .

« إن نكران دارون لا تنقل الصفات المكتسبة — غلطة أخرى . من ذا الذى يمرض أن تبدأ أجسادنا وأبن تنتهى ، أو كيف تنتقل الصفات بطريقة غير

الوارثة ؟ قد يكون لدى الطفل ألف ميل فطري مردها إلى حَرَف أسلافه المباشرين . وقد يسرى في الأسرة لون معين من ألوان النشاط لعدة أجيال ، فيميل إليها الطفل بفطرته . هل هذه بيئة ، أم هل هي وراثة ؟

وعاقت على ذلك بقولي : « لقد انحدر هارفي كشنج من أربعة أجيال من الأطباء ، في هذه الولاية أولا ، ثم في أوهايو . ولا يستطيع كليفلاندريز أن يتذكر وقتا لم يكن فيه طبيب باسم دكتور كشنج ، كما أنه لا يستطيع أن يتذكر وقتا لم يكن فيه أحد من أسرة كشنج يعالج إنسانا ما . فلا بد أن يكون ذلك قد ضاعف من قوة الدفعة الأولى عنده كثيرا . »

وقال هوابتهد : « كان أبي ، وكان جدي ، وأعمامى ، جميعا مشتغلين بالتربية أو الإدارة المحلية ، أو كاتيهما . وكذلك كنت . »

وقالت مسز هوابتهد تعليقا على ذلك : « ولكنك تغايرهم بالرغم من ذلك ، وتختلف عنهم اختلافا لا يكاد المرء يتصوره . وقد كنت دائما أعزو الحرارة السكتية فيك إلى جدتك تلك الويلزية — ماري وليامز . »

وواصل هوابتهد حديثه قائلا : « إن هذا الركون إلى الوراثة له أثر سيء . فلقد اطمأن الناس إلى إهمال البيئة لأن « الوراثة ستتولى أمر كل ذلك » كما يقولون . لكنك ردت لمذنية أن تتقدم فعليك بأداء أمرين أو ثلاثة . إن القوى التي تؤثر في عقولنا وأجسامنا على الدوام لا يحصرها المد إلى درجة لا تصدق ، كالأشمة النبعثة — مثلا — من نجم يبعد عنا ملايين من السنوات الضوئية — وهي قوى خيالية كهذه . . . كما أن صور الحياة التي يمكن للمخلوقات أن تحياها فوق السكواكب الأخرى التي تبعد عنا ملايين من السنوات الضوئية كما تبعد ملايين السفين من وقتنا الحاضر — هذه الصور لانهاية لها ، وهي تسمح بكل إمكان يمكن للخيال أن يتصوره . إن آلاف الأفكار تمر بقل الإنسان يوما بعد يوم .

ويجب عليه أن يرحب بها ويدبرها في ذهنه ويتدبرها في كل وجه من وجوهها ،
ويعطيها حقها من الاعتبار . إننا بحاجة إلى أن نرحب بكل وجه من أوجه الجدة ،
وبكل فرصة يمكن أن تنتهي بتشكيلات جديدة . ولكننا في الوقت عينه بحاجة
إلى أن نرحب بها بعين الفاحص للتشكك ، وأن نخضعها إلى البحث الدقيق .
المحاذ ، لأن الأرجح أن نسمائه وتسعاً وتسمين منها سيتمخض عن لاشيء ، إما
لأنها عديمة القيمة في حد ذاتها ، أو لأنها لن نعرف كيف نستخرج قيمتها . غير
أنه من الخير لنا أن نرحب بها جميعاً — مهما كنا متشككين — لأن الفكرة
الألفية منها قد تكون هي القدرة التي ستغير وجه الأرض ا .»

قلت : « لقد رأى الناس في زماننا هذا أن المستحيل كثيراً ما يتم ، ومن ثم فهم
مستعدون للاعتراف بإمكان ذلك في عالم الكشف العلمية ، ولكنهم ليسوا
مستعدين لذلك حتى الآن في عالم الأفكار العامة الأوسع » .

قال : « سأعطيك مثالا يبين كيف أن هذه الفرص للابتكار الجديد
لا يمكن التنبؤ بها . إننا ونحن جالسون في هذه الحجرة نستطيع بجهاز ما أن ننقل
أفكارنا إلى شخص آخر يجلس في حجرة أخرى في بوسطن أو أبعد منها .
ولكنك منذ سبعين عاماً لو أردت أن تتصل على عجل مع رجل في طوكيو كان
لا بد لك أن ترسل إليه بقرية . إنك تستطيع اليوم أن تتحدث إلى شخص ما في
آسيا يحمل معه جهازاً في حجم الجهاز الذي في الحجرة الأخرى . لقد فكر
ماركوني أن مثل هذا الاتصال ممكن . إنه لم يكن — بطبيعة الحال —
على ثقة من ذلك في أول الأمر . وكان هناك كثير من رجال العلم الممتازين
ممن يستطيعون أن يقولوا له إن ذلك ليس بالإمكان ، كما يستطيعون أن يبينوا
له السبب في عدم الإمكان . فالذبذبات بدلا من أن تدور حول الأرض ترتفع
إلى الطبقات العليا من الجو ثم تنبذ . وكانت الذبذبات فعلا تصعد إلى طبقات الجو
العليا ، ولكنها بدلا من أن تنثنت انمكست ثانية صوب الأرض ، وهكذا
أمكننا أن نتصل اتصالا لاسلكيا . ولم يتنبأ أحد بهذه الحقيقة التي جملة هذا :

الاتصال ممكننا حتى ماركونى نفسه فى بداية الأمر. ولكن شيئا مجهولا لا يمكن التنبؤ به - مجرد مصادفة إن أردت أن نسميها كذلك - حتمت نجاح هذه الوسيلة من الاتصال البشرى ، التى تسكاد حتى اليوم ألا تصدق . وكذلك قد تغير إحدى الأفكار العامة أسلوب حياتنا فوق هذا الكوكب أكثر مما أثر اللاسلكى فى تبادل الصلات - وهذه الفكرة - كفكرة اللاسلكى - لا يمكن للأحياء اليوم أن يتصوروها .

قلت : « إن أوربا - برغم كل ما انتابها من اضطرابات - لم تقصر فى الابتكار المستحدث - على الأقل منذ النهضة ، ولعدة قرون قبل سقوط روما . أما إذا مات من الشباب فى هذه الحروب الكثير ، وتكرر انحلال المجتمعات المدنية ، فأتى لأعجب - بعد هذا - من أين يأتى الدافع إلى الآراء الجديدة . »

قال : « يمكن أن يأتى من روسيا . »

وقالت مسز هوابتهد : « ولكن يكون مشوبا بالروح الآسيوية . وأرجو ألا يغيب ذلك عن ذهنك . وهذا لا يجعله نفس الدافع بعينه . »

وواصل هوابتهد حديثه قائلا : « ليست هناك أسباب كافية حتى الآن تدعونا إلى أن نقرض أن الدافع سبأتى من أمريكا الجنوبية . إلى أن توقع أن يأتى منكم هنا فى الولايات المتحدة ، بأمريكا الشمالية . فإذا عجزتم عن ذلك فأعتقد أن العالم سيتجه وجهة سيئة . وقد تحتاجون إلى قرن آخر لكى تؤلفوا بين أجناسكم . وأعتقد أنكم ستكسبون من الامتزاج بالعناصر الذكية القادمة من جنوبى أوربا . ولولترك المنصر الأنجلو الأريكاني القديم وحده لبقى على شىء من النبأ . »

قلت : « إن هذا الامتزاج بين الأجناس لم يبدأ إلا من عهد قريب . ويحتمل حتى الآن أن يتخذ صورة الأفراد الموهوبين الذين يرتفعون إلى مستوى يسترعى بالأنظار . إن الأجناس تخرج ، ولكننا لا ندرى حتى الآن ماذا ستكون النتيجة . »

قد تكون النتيجة ارتفاعاً في الذكاء - وقد تكون هبوطاً نحو الفناء »

قال : « إنى لم أكف قط عن الاعتقاد فى إمكان ارتفاع الجنس البشرى إلى حد معين ، يبدأ بـمه فى الانحدار ، ثم لا يستعيد مكانته قط مرة أخرى . وكثير من صور الحياة الأخرى قد فعلت ذلك . والتطور قد يسير صعوداً وقد يسير هبوطاً . ورأينا فى آسيا كيف يمكن أن تركد الحياة قروناً . ويبدو أن جانباً من هذا الركون قد نشأ عن التصوف الدينى - من أمثال هذه العبارات (لا نمياً بهذه الدنيا) أو (إن ما بصيبنامن حظ سىء نتيجة لمرآحل وجودنا التى نحم مصائرنا والتى تعرضنا لها فى تجسيدات سابقة ، ولا بد لنا من التكفير عنه) أو (أن الأهداف التى تتحكم فى السكون لا يمكن أن يسير لها غور ، ومن نكون نحن حتى نتساءل عنها) ؟ »

قلت : « أما الغرب - فعلى نقيض ذلك - فلما تردد فى حمل السلاح يواجه به خضم الشقات »

فقال هوايتهد : « إن فى الأديان الجامدة فناء الفكر »

« وهل ذلك لأنها تزعم أنها تجيب عن كل سؤال قبل أن يسأل ؟ »

« إن أية طريقة من طرق التفكير اليقينية تفعل ذلك . وحينما تسود الكهانة فى مجتمع من المجتمعات ، لا تجد حرية البحث تشجيعاً . وإذا ما طالت سيادة الكهان انحط مستوى الذكاء العام . »

(٣٤)

٢٩ من أغسطس ١٩٤٤

أشرف الصيف على نهايته ، وبدأت أشجار الدردار فى كبردج بالفعل تظهر بمظهرها فى شهر سبتمبر ، وأوراقها الذابلة تتساقط فوق المروج . وكانت الساعة السابعة والدقيقة الأربعون حينما دقت جرس بيت آل هوايتهد . وكان الرجل

وزوجه كلاهما يبدوان في صحة جيدة غير معهودة . وقلت لهما : « لا بد أن تبدوا كذلك ، وقد عدت ما بعد شهر قضيتاه في جزيرتكما بمين ، ثم سمعنا بهذا الفيض من أخبار الحرب السارة . لا بد أنكما تتمجبان — كما تتمجب جميعاً — إذا كنا نعيش في عالم ١٩٤٠ — ١٩٤٢ بعينه » .

وقال هوايتهد : « حقاً ، إن هذه الحوادث تقذذب » .

وسألته : « هل هي حقاً لم يسبق لها مثيل . أم هل هي على نطاق أوسع من الناحية المادية فحسب » .

« لم يحدث ما يشبهها مما أعرف في ألف عام . وإن حدث ما يشبهها فقد استغرق مائة عام ، في حين أن هذه الحوادث لم تستغرق سوى بضعة أشهر . إن ضخامة مثل هذه الحوادث — فيما سبق — لم يمكن إدراكها إلا فيما بعد ، ثم لا يدركها أساساً إلا المؤرخون والباحثون . أما حوادث اليوم فيمكن أن يلمس وقوعها كل إنسان ، من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى ساعة » .

« إنني آتيكم وقد كدت أفقد البصر من قراءة الصحف ، أو إدمان النظر فيما يرد إلى المكتب من أخبار مكتوبة ، وذلك منذ السادس من شهر يونيه . ما الذي يقع — في ظنك — وأنت تقرأ هذه الحوادث ، من حيث المفزى والجوهر ؟ » .

« أمران : أولهما مجرد الاحتفاظ بالنفس ، فقد أرغمنا على الدفاع عن أنفسنا ضد نوعين من الرجال الألمان العسكريين ، بعدما كان نوعاً واحداً (وهؤلاء يمثلون بطبيعة الحال الشعب من ورائهم) النوع الأول ، ضباط الجيش الألماني النظاميون من الطبقة الأرستقراطية القديمة ، والنوع الثاني هؤلاء المغامرون الجدد من الطبقة الوضيعة . وكلاهما يقول لنفسه : أليس من الأمور العظيمة أن نسترق أوروبا بأسرها ! ، وهددونا باستبئاد من نوع جديد مربع . إن أكثر الغزاة السابقين كانوا يرغبون في الإبقاء على الثقافات الإقليمية بغير مساس ! ... » .

قلت : « كان الرومان يؤثرون ذلك ، فإن البلاد المغلوبة أيسر في حكمها بهذه الطريقة » .

قال : « ولكن هؤلاء الألمان شرعوا في استئصال كل ذلك . ولست على يقين من أنهم يرمون إلى (حكم العالم) أو على الأقل أنهم حتى الآن لا يرمون إلى ذلك . بيد أنهم لو كسبوا الحرب لسببوا لكم إزعاجا شديداً عن طريق أمريكا الجنوبية . والأمر الثاني الذي يجري كما أرى هو هذا : أنك لا تستطيع أن تشمل حرباً مثل هذه الضخامة دون أن تفتتح عصراً جديداً . لقد كان حفظنا حسناً في تشرشل ؛ فهو قائد يدعو إلى الإعجاب في إثارة الوطنية في شعبه في حرب يائسة ، ولكنه لا يفكر اجتماعياً في حدود عهد جديد . وأشك إن كان يدعو إلى الإعجاب في إبرام الصلح » .

قالت مسز هوايتهد مؤكدة : « إن تشرشل يفكر في حدود القرن الثامن عشر . ولطبيعمته جانبان : فهو في جانب سيامي بريطاني من الطراز الذي نعرفه ، ونعجب به في كثير من الوجوه . ولكنني عرفت أمه - وهي أخف منه عقلاً . . . وهو من هذا الجانب روبري مازح ، يتغنى بالأنشيد المرحه مع (الصبية) » . واستطرد هوايتهد قائلاً : « وأنتم أحسن منا حظاً في رجلكم . فإن مستر روزفلات يفكر - فيما أعتقد - إلى حد كبير في حدود عهد جديد . وقد ظهر ذلك قبل أن تبدأ هذه الحرب في سياسته الداخلية ، التي أغضبت بعض أصدقائنا الأثرياء . دعنا نأمل أن يعيش حتى تكون له يد طويلة في تشكيل السلام . ثم إنني في العهد الجديد أتطلع إلى روسيا كذلك » .

« حينما أفسكر في الأثر السيئ الذي تركته روسيا في أمريكا لمدة خمسة وعشرين عاماً ، ثم أرانا اليوم متشابهين في عناق أخوي . . . »

ثم تحدث هوايتهد في ببطء شديد ، وهو يزن ما يقول : « يبدو لي أنكم أيها الأمريكان على شيء من ضيق العقل في آرائكم عن تفوق شكل حكومتكم وإمكان

تطبيقه تطبيقاً عاماً . كيف استطاع الروس أن يقوموا بما قاموا به ؟ في القرن السابق ، أو القرن ونصف القرن ، قبل ثورتهم ، كانوا كلما دخلوا في شئون غرب أوروبا يؤيدون مادة الجانب المظلم ، كما فعلوا مع مترنيخ في مؤتمر فيينا . حقا كان هناك أفراد فانون موهوبون ممن عرفناهم في قبة مجتمعاتهم وقد أجادوا في الفنون - في الأدب (تلك الروايات التي كتبها تولستوى ودستوفسكي وترجنيف التي تفضل كثيرا رواياتنا في هذا العصر نفسه) والمسرحية ، والموسيقى ، والتصوير ... »

« ولاتنس الرقص ... »

قال : « وكذلك هم يمتهم لنا بليون كانت إعلانا مقدما لما هوأت - كما نكون عادة أمثال هذه الحوادث المظلمة . ولكن العالم لم ير المظلمة الحقيقية الجديرة بها روسيا حتى هذا القرن انتهى نحن فيه . »

« متى يبدأ هذا التاريخ ؟ هل من نوفمبر عام ١٩١٧ ؟ »

« بل من رحيل تروتسكي وبلوغ ستالين الحكم . »

وقالت مسز هوابهد : « لما كان لنين أرستقراطيا ثائرا لقد احتفظ بالثورة لطبقته ، كما يفعل عادة أمثال هؤلاء الأبناء العصاة . أما ستالين فهو رجل من الشعب وأحسن لهم منه تمثيلا بدرجة كبيرة . »

ووافقها على ذلك هوابهد قائلا : « يرجع السبب في ذلك عندي إلى أن ستالين كان من جورجيا . كان يعتقد أن روسيا . رغم فقرها واتساعها - يمكن أن تتحد في شعب واحد عظيم . ومما يستحق النظر ظهور هذا العدد الضخم من المواهب من صفوف جماهير الشعب الروسى في مثل هذه الفترة الوجيزة . خذ مثالا لذلك قوادهم في هذه الحرب . إن أكثرهم من الشبان . ولا بد أن ينقدهم أحدا . ولست أعتقد أن ستالين قد اختارهم مصادفة . إن من وظائف المجتمع الرئيسية إطلاق المواهب على أوسع نطاق ممكن ، والظاهر أن ذلك هو ما حدث

في روسيا. حينما تنتقل حياة الناس انتقالاتاً عظيمة فإن ذلك يكون عادة نتيجة لاجتماع سببين أو أكثر. وبالرغم من أن رجلاً واحداً لا يستطيع أن يبتدع أمثال هذه الانتقالات الكبرى، إلا أنها ما إن بدأت حتى يمكن لرجل واحد أن يوجهها هذه الوجهة أو تلك. لقد استولى نابليون على الحكم على آراء الثورة الفرنسية، ولكنه لم يهتم قط - في صميمه - بهذه الآراء. ومن أسباب ذلك أنه في قيادة الجيوش أفرع مما ينبغي، وكان تطبيق العلوم الحربية أشد إثارة لاهتمامه. وكان الآراء الثورية قد أوقدت النار في جهازه الحربي.

« هل توافقي على أن نجم نابليون كان يرتفع مادام خاضعاً لآراء الثورة الفرنسية العظيمة، ثم بدأ في الأقول حينما طغى عليها بشخصه الإمبراطوري: « أجل. ونحن الإنجليز كنا في الجانب المخطيء طوال الوقت. كانت طبقتنا الحاكمة وأرستقراطيتنا المالكة للأراضي مرتاعة من عهد الإرهاب ومن إظاحة رأس الملك ».

« كان الإنجليز لم يطيحوا برأس ملك »

قالت مسز هوايتهد: « أجل. ولكن الأمر كان مختلفاً ».

« ألم أسمع أنه كان بالأمر انفعال ديني أيضاً، وأن الإنجليز المنحرفين عن الدين السائد اعتقدوا أن توحيد الفلاسفة الفرنسيين والقيادة الثوريين ضرب من الإلحاد؟ ».

قالت مسز هوايتهد: « كان ذلك يضع شعبنا متماسكاً خلف أرستقراطنا، حيث كانوا بالفعل ».

« وإني لأعجب مع ذلك من أن حرب استقلالنا الأمريكية قد وجدت - من بدايتها إلى نهايتها - كتنة كبيرة من الأصوات تؤيدها في مجلس عمومكم البريطاني ».

قالت مسز هوايتهد : « أعتقد ذلك ؛ واسكنى أودلو استظمت أن أفتع بمض أصدقائى الأمريكان بأن ذلك هو الواقع » .

« هل ترون أن الناس لا يستطيعون أن يفكروا تفكيراً عالمياً كافياً يمكنهم من أن يدركوا حركات التحرير البشرية مهما تكن صبغتها القومية ، إلا بعد أن تمر بهم بمض المحن المخيفة - شخصية كانت أو اجتماعية ؟ » .

قال هوايتهد : « إن ذلك لا يتحتم دائماً ، خذ مثلاً لهذا ذلك الطراز من الفرنسيين الذين غالباً ما تتمخض عنهم المعارضة الكاملة للكنيسة . إن هذا الطراز يسترعى نظرى بسوء حظه . ولقد كانت حركة الإصلاح الدينى من أشد ما عرف التاريخ من أنواع الإخفاق الذريع . فقد نبذت كل ما يحمل الكنيسة محتملة أو رحيمة ، أعنى جاذبيتها الجمالية ، واسكنها أبقت على عقائدها البربرية » .

وقالت مسز هوايتهد جادة : « إن ما يشغلنى هو أنه ما دامت المسيحية تفقد سلطانها ، فأين تجد البشرية مكاناً تستطيع فيه أن تعبر عن نيتها الطيبة مجتمعة . إننى لا أنكر الآلام الريمة التى سببتها العقائد المسيحية للنفوس ذات المحس والخيال البعيد . فاقد كان ذلك - علم الله - أمراً فيه مما يصدم النفس الكفاية ! ولكن كما أن الأسرة هى المورث الوحيد الذى يستطيع الرء أن يقصده حينما يسلك سلوكاً شائناً (ونحن جميعاً قمينون بمنزل هذا السلوك فى فترة من فترات حياتنا ، حتى إن كان ذلك عن غير قصد) فكذلك يجب أن يكون هناك مكان يستطيع الناس فيه أن يتجمعوا ، لا لى يؤدوا هذا العمل أو ذاك بعينه ، ولكن ليد كروا أنفسهم ، ويدكر كل منهم الآخر ، بنواياهم الطيبة ، وبإرادتهم الحسنة العامة . ولو كنت أعتقد أن الكنيسة ، أو أية صورة من صور المنظمات المسيحية ، لا تزال تفعل ذلك ، أو لا يزال فى إمكانها أن تفعله ، ما قلت هذا الذى ذكرت : إن الحاجة لا تزال قائمة ، فكيف نسدها ؟ » .

ولم نثر الاعتراض بأن جماهير زوار الكنيسة قد يقولون بأن الكنائس

لا تزال تسد هذه الحاجة ، لم نثر هذا الاعتراض لأن ما ينادى به صوت واحد من منزل اليوم ، كثيرا ما تنادى به الجماهير في الغد . وإنما أثرنا — بدلا من ذلك — هذا الموضوع : هل لا يمكن أن تكون الخبرة الجمالية صورة من صور العبادة الدينية . « أليس الجمال صورة من الصور الأخلاقية » .

فأجاب هوايتهد : « كلا إن الجمال والأخلاق يتحرران في ميدانين مختلفين » .
« أمهلنى لحظة ، ودعنى أحاول أن أعيد صياغة السؤال : أليس في عمل الفنانين العظام فحوى خلقية عالية » .

« وماذا تعنى بالفحوى الخلقية ؟ »

« أعنى الأثر الذى يتركه فى المشاهد أو المستمع الفنانون الذين عاشوا وعملوا فى مستوى مرتفع تتوافق فيه المباشرة مع العمل . ومن المؤكد أنه ليس من المبالغة فى شيء أن نقول إننا نسمو بالروح حينما نستمع إلى أداء جيد فى الموسيقى يقوم به رجال عباقرة أكثر مما نسمو بها حينما نستمع إلى صاحب النياقة أو صاحب القداسة وإني ألقى الكثيرين ممن يرون رأى . فكيف يمكن أن يكون أثر أمثال هذه الأعمال الفنية غير دينى » .

فقال هوايتهد وهو يسخر منى : « بينما كنت نتكلم كنت موزعا بين فكرتين إحداهما تقول : « أجل هذا يبدو صحيحاً ، والأخرى تقول : يا لله ، ماذا يعنى ؟ ، واستطرد قائلاً : « كلا . إن الأمر الوحيد فى الجمال هو هذا : هل العمل الفنى جيد أو ردىء ؟ فلو كنت أنا وأنت مثلاً نستمع بغروب جميل فأنى لا أهزك بذراعى لأنهمك سائلاً إياك ، ماذا تفكر أن تعمل بهذا الغروب ؟ ، إننا نستمع بالتجارب الجمالية من أجل ذاتها فحسب . وهذا كل حقنا فيما نتوقع منها » .

« ربما كان ما سمعت منى من روايت مذهبين من مذاهب آباءنا المنحرفين : أحدهما مذهب بيوريتان إنجلترا الجديدة ، والآختر مذهب الصحابة فى فيلادلفيا » .

قال هوايتهد : « إن للفنان تياراً دائماً التدفق من التجارب الجمالية الجديدة ولا بد أن يكون له هذا التيار . وهو يترجم هذه التجارب إلى صورة فنية . وعن طريق هذه الأعمال الفنية تنتقل خبرته إلى حياة الآخرين . » وأنهى عند هذا ، ولكنه كان يعرف - كما كنت أعرف - أن ما قاله يعنى أكثر مما بطرق الأذن .

« وإذن فالأخلاق لا شأن لها بانسعر الجيد ؟ »

وتساءل باسم : « وهل كان بيرون (أخلاقياً) ؟ »

وبذلك ضمنى إلى رأيه فى لحظة .

« هذا شيء يؤلم الكثيرين من شعرائنا الأمريكان فى القرن التاسع عشر .. فهم يلتزمون (الاستقامة) على إطلاقها أكثر مما ينبغى - على الأقل فيما يدونون . من مشاعر . وعندما يقرأهم المرء اليوم يجد نفسه مضطراً إلى التشكك : (إنكم لم تعتقدوا فى ذلك حقاً . وليس من الممكن أنكم لم تكونوا أكثر من ذلك معرفة . ولكنكم لم تجربوا على القول بهذا !) والغزى (الخلقى) الضميف الذى يزعج به هورنور فى خاتمة كتابه (الخطاب القرمزى) مثال فى النثر لهذا الجبن ، إذ يقول : (كن صادقاً ! وبتهن للعالم فى حرية أسوأ ما عندك ، أو على الأقل صفة من صفاتك تكشف عن أسوأ ما عندك !) وحينما كنت أقرأ ذلك ، حتى فى طفولتى ، كنت أشعر بما ينطوى عليه من مراوغة . (إذا لم نستطع أن نكون صادقاً ، فكن صادقاً على قدر ما نستطيع !)

وقالت مسز هوايتهد : « إن الشاعر الذى يتجاسى كل ذلك عندكم هو هويتان . ولم يبلغ الشعر الأمريكى فى أى موضع آخر مثل ما بلغ من السمو فى قصيدته التى رثى فيها الرئيس لنسكن . »

ومن هنا انتقل الحديث إلى أثر الحيل الفنية العالمية فى مالنا الحديث .

فقال هوايتهد : « إن هذه الحيل الفنية قد خلقت موقفاً لم يسبق له قطاً

مثيل . لقد سألتني في بداية هذا المساء عما إذا كنت أظن أن هذه الحوادث العالمية — الحركات الحربية وما يترتب عليها من تطورات اجتماعية — أقوى دلالة في حقيقتها عما يشهها من أزمات في الماضي ، أم هل هي أوسع منها نطاقاً من الناحية المادية لحسب ؟ » .

« نعم : هل حوادث اليوم أعظم وأبعد أثراً ؟ أم هل هي أكبر لحسب ؟ » .
 « الأرجح أنها ليست (أكبر) ولا (أعظم) من انهيار أثينا في نهاية حرب بيلونيزيا بالنسبة للإغريق . والأرجح أيضاً أنها ليست أعظم ولا أكبر من سقوط روما عند الرومان في القرن الخامس بعد الميلاد . ولكن هذا هو ما استجد : في تلك الأزمات السابقة في تاريخ البشرية ، وفيما شاهدها ، استغرق التطور الذي لسناء في السنوات الخمس الأخيرة ، بل في الخمسة الأشهر الأخيرة ، مائة عام . هذا أمر جديد ، وهو شيء مريع . ويرجع ذلك إلى سبب واحد ، وهو أن جهاز الاتصال يعمل بسرعة تكاد تكون كالبرق الخاطف . وقد تعودنا جميعاً هذه السرعة حتى أصبح ذكر هذه الحقيقة لغواً من القول . ولكن الحقيقة في حد ذاتها أبعد ما تكون عن اللغو . ثم إن اطراد التقدم في الحيل الفنية الجديدة بلغ من السرعة أن نسبة الزيادة منذ عام ١٩٠٠ في المخترعات التكنولوجية أصبحت ضعف ما كانت عليه فيما بين عام ١٨٠٠ وعام ١٩٠٠ . وقد ولدت في عام ١٨٦١ . وأستطيع أن أقرر أن الوسائل الفنية للعيش قد تطورت بدرجة أسرع وأكبر فيما بين عام ١٨٦١ وعام ١٩٤٤ مما كانت تتطور — لو رجعنا إلى الماضي فيما بين عام ١٨٦١ و ٠٠٠ — وهنا صحت برهة ، ثم ابتسم وقال :
 « كنت أريد أن أقول فيما بين عام ١٨٦١ وعام ٦١ ق . م . ! » .

وواصل حديثه قائلاً : « وآثار هذه الحيل الفنية الجديدة — فوق ذلك — متشابهة . فإن تطورها في طرق حياتنا اليومية يؤثر في آرائنا الخلفية ، كما أن التتطور في طرق تفكيرنا يؤثر بدوره في طرق انتفاعنا بالوسائل الفنية الجديدة ،

فيؤدي إذن إلى مستحدثات جديدة . وكما حدثت لك كثيرا ، أكاد لا أذكر فكرة كانت تعد حقيقة أساسية في شبابي فيما بين عام ١٨٨٠ وعام ١٨٩٠ ، أكاد لا أذكر فكرة من هذا التاريخ لم يتناولها التمدل الشديد ، إن لم تصبح بائدة من أثر التطورات التي كنا نتحدث عنها . ومن ثم فإن آراءنا الخلقية تتأثر بهذا الفيض من التغيرات ، كما أن التطور الذي يطرا على الأفكار يؤثر في طرق انتفاعنا بالحيل الفنية » .

قالت مسز هوابتهد : « منذ لحظة حينما كنا نتحدث عن الدافع إلى العبادة ، سألت نفسي : من أين - في نهاية الأمر - ماأناه ؟ وماهو هذا الحس الخلقى عند الإنسان . إنه لدى الطفل ، بل الرضيع ، وهو يحس بالذنب - وهو ذلك الحبل المسكين - حينما يعتقد أنه خالف صورته الصغيرة عن الخير » .

قلت : « إنني أستطيع أن أرى - وأنت تتحدثين - حذاء اريك الصغير بارزا من تحت السرير » .^(١)

قالت : « إننا لم نعرف قط ما كان يظن أنه ارتكب من إثم . وأول ما كان يدلنا على أن هناك خطأ قد ارتكب هو بروز عقبيه وحدهما . إنني لم أرفعه قط من موضعه . وكان يسر جدا من جذبه من إحدى قدميه وسحبته على بطنه الصغيرة . ولكننا لم ندرك خطأه أبدا » .

وقال هوابتهد وهو مشرد الذهن : « كان أشد الناس الذين عرفت في حياتي جاذبية . وقد جاءنا رائد فرقة فيما بعد وأخبرنا بالكثير مما لم نكن نعرف . وكان مما قاله إن حديث الفسق الذي كان يدور حول مائدة الطعام كان يخف إذا حضر اريك لأنه كان متصلا - لأنه لم يكن كذلك - واسكن احتراماً لصفة فيه . وكان شديد المرح ، وفي أيام التهريج كان يقود إحدى الفرق » .

الإشارة هنا إلى ما ورد عن إنيما اريك فيما سبق من الكتاب .

وقالت مسز هوابتهد : « إنهم لم يصدقوا أنه كان يقضى لياليه الحرة في البيت . (فيم أنت شارد ياهوابتهد ؟) — لا يكاد يصل البيت حتى يذق التليفون ، هل أستطيع أن أتكلم مع أريك ؟ وقد ذق التليفون ذات مساء خمس مرات . فقلت مادهاهم ؟ ألا يستطيعون أن يتركوك وشأنك ليلة واحدة ؟ فأجاب قائلا : إنهم زملاء جذابون . وما يفملونه لا يؤذهم البتة فيما يبدو . بل ينزلق من فوقهم كما تنزلق المياه فوق ظهر البط . ولكني إن فعلت مثلهم ، ما استطعت أن أقابلكم وجها لوجه ، ولست أدرى أى أنواع البيوت نشأوا فيها . ربما كانت أمهاتهم من أولئك النساء اللاتي بلغن من الطهر حدا لا يناقشن فيه أبناءهن أمور الجنس » .

« إن هذه العقدة التي تحلُّ بالأسنة المذبذبة في حضرة صبي حسن التربية أمر يدعو إلى العجب . لقد شهدت ذلك بنفسى ولكني لا أستطيع أن أدرك على وجه الدقة ماذا يحدث . كانت « جماعة سجت » في هارفارد حينما كنت طالبا بمجموعة من الشبان الأذكاء ، وهو أول مكان استمعت فيه إلى الشبان وهم يتحدثون حديثا طيبا . ولكن كان من بين هذه الجماعة شبان أو ثلاثة من الطائفة العليا ، وكانوا منفردين لغيرهم . وقد انضم إلى الصف السابع في الفصل الأول من المرحلة فتي من فلادلفيا له — في حكمي — شخصية كشخصية أريك . وقد لوحظ على الفور أنه إذا ما جلس إلى المائدة خفف الشبان الثلاثة المنفردون عن غلوائهم . ولم يكن ذلك لأنه يقول شيئا بعينه ، أو يفكر في شيء بعينه . ولكنهم كانوا يخشون ما يمكن أن يفكر فيه ؟ والطالب لا يجب أن يسعى سببهم أرغن الظن به » .

قال هوابتهد : « إن هذا الإدراك للقيمة البشرية يظهر في سن مبكرة . وأكثر المحاولات للتعبير عنها باللفظ يفشل » .

« إنني حينما ألتقي بها — هذه القيمة الهادئة — حيث توجد أكثر الأحيان في الحياة العامة . أجد أنها قيمة تفوق كل القيم الأخرى ، وأنها مرتبة تعالج جميع المراتب ، وصاحبها — رغم ذلك — لا يحس البتة بوقارها . وكان هذا أول

ما اكتشفت حينما ذهبت إلى العمل في المدينة ، وكانت بوسطن في تلك الأيام أكثر شراً مما هي اليوم . كانت طابسة حقاً ، وكان بعض أحيائها نمسا وشوفاً ولكن المرء برغم هذا كان يلتقي دائماً بهذه القيمة البشرية الصامتة الفظرية في أبعد الأماكن احتمالاً لوجودها : في أحواض السفن ، وفي أقسام الشرطة ، وفي المساكن الشعبية . لم يكن لها اسم ، ولكنها كانت هناك ، والمرء يعرفها دائماً حينما يلتقي بها . وأستطيع حقاً أن أقول لكم إنها الشيء الوحيد فيما أعرف ماله أهمية . ولا أستطيع أن أنقلها إليكم كارتون . وكل ما أستطيع أن أقوله لكم هو أنني رأيت (شيئاً ما) ولكنه لا يعبر عنه بالألفاظ .

قال هوائيه : « إن الألفاظ لا تعبر عن أعمق ما ندركه بالبداهة . بل إننا لنفقد عند محاولة صياغته في ألفاظ . إن ما نشكو منه هو أننا قد اعتدنا أن نحسب الألفاظ أشياء ثابتة ذات معان معينة . والواقع أن معاني الألفاظ اللغوية في تذبذب شديد ، وجزء كبير مما نحاول أن نعبر عنه باللفظ يقع خارج نطاق اللغة . »

كثيراً ما نكون للموسيقى — فما يبدو — أقرب إلى التعبير عن أعمق مشاعرنا .

قال : « والنحت صورة أخرى من صور التعبير العميق . وأنا أذكر خاصة النحت القديم ، لأنه — فيما أظن — كان الفن الأساسي في العالم القديم . وكانت لهم أيضاً آدابهم ، وهي آداب عظيمة ؛ وموسيقاهم ، وإن كنا لا نعرف عنها إلا القليل . . . »

قالت مسز هوائيه : « لقد حاولت المسيحية أن تعبر عن شيء عن فكرة القيمة البشرية هذه — إذا تقبلنا صورة المسيح التاريخية ، بالرغم من تعقيد الأسانيد التاريخية وتشويهها . »

وقال هوايتهد : « لقد صاغت بعض البادىء المفيدة ، ولسكنها على وجه
الجملة كانت ساذجة التفكير وعلى غير علم » .

« اشد ما صعقت نفسى ، حينما أدركت ذلك لأول مرة ! » .

وسألت مسز هوايتهد : « ومتى كان ذلك ؟ »

« بعد الحرب الأولى . وقد أخذ إدراكى بنمو عدة سنوات قبل أن
أعرف ذلك » .

« وهل اتخذ عندئذ شكلاً معيناً ؟ » .

« اتخذ عشرات الأشكال . وأحسن ما أتذكره منها هو أن المسيحية
لم تبتزع القيمة البشرية » .

وقال هوايتهد : « بينا هذه الحرب تستمر ، وبموت فيها كثير من الشبان
قبل أن يتسع لهم الوقت لى يعيشوا ، لا أفتأ أسأل نفسى : ما هذا الذى يمكن
أن يوحى بمثل هذه البطولة وهذا التفانى . ولو أن جانبنا فشل فى هذه الحرب ،
لما كانت للحياة على أرضنا هذه قيمة كبيرة ، وقد أدركت الجموع أخيراً هذه
الحقيقة . ومن الواضح أن أكثر هؤلاء الشبان العسكريين لم يندفعوا ببواعث
الآراء السياسية المقددة ، واعتقد أن عدداً قليلاً منهم فقط يرون أنفسهم مسيحيين
وهم بذلك واعون . إن آراءهم تتخذ صوراً متمددة ، وهى آراء متعارضة ، لأنهم
يعمدون بالملايين . بيد أن هناك برغم هذا رأياً شائماً بينهم . وهو — وإن لم
يصوغوه فى لفظ ، وبالرغم من أننا قد اعترفنا بأنه لا يعبر عنه بالكلمات —
فكرة القيمة البشرية ، وذلك أقرب ما يمكن أن نصل إليه من تعريف . إنهم
يعتقون من أجل ما فى العالم من قيمة » .

(٣٥)

١٤ من نوفمبر ١٩٤٤

كان مستر هوايتهد نائماً فى مكتبه عندما وصلت . وكانت الساعة الثامنة من

منساء خريف معتدل . الجو رطب ، وشذى الأوراق البتلة المتساقطة تعطر الشوارع السكنية .

(كل شيء في ظلام الموت الصامت والخريف المتساقط)

كنت عابدا لتبوى مباشرة من المكتيب فكان ذهني مليئا بأهوال مذبذبة الألمان لقربة ديستومو الإغريقية ، وقدمت تحقيق تفصيلات المذبذبة ونشرتها في الطبعة الأخيرة . وبعد نصف ساعة وجدني الفيلسوف مع مسز هوابته نبحت في موضوع القسوة الألمانية وذلك حينما خرج من مكتبه . وما قاله في هذا إنه في الحالات الأخرى التي لا تقاس إلى هذه الحالة إلا في بعض المواضع من بعيد « نجد أن القسوة ترتكب لفرض ما ، ولكن الألمان يرتكبونها لذاتها ، حتى حينما لا يكون لها سند من عقل ، ولا يكون من ورائها ربح ، وهم يتقهقرون ، لجرد أن نسوء الأمور » .

« عندى لك نبأ سار » (وقد آثرت أن أنقل الحديث إلى موضوع آخر)
« وهو أكثر تهديبا . لقد أصبح صديقنا لفنجنستون نائبا لمدير اكسفورد ، أو لعله من الأصح أن أقول إنه « عين » .

« أحييخ ما تقول ؟ يسرنى أن أسمع ذلك » .

« إنه يقول إنه سوف يقرأ - (ولكن في تواضع جم كما أتمشم) ملاحظات أفلاطون عن عودة الفلاسفة إلى السكف . ومهما يكن من شيء فقد كان لفلاسفته نفوذاً كبير من نفوذ نواب المدير ، وكانوا من غير شك يمتازون بأنهم فلاسفة أحسن - هل ترى أن هذه الوظيفة ستستنفذ كثيرا من وقته وقوته في الواجبات الإدارية ؟ »
« لن يكون ذلك إلى حد المبالغة فيما أعتقد . فهناك مجلس سوف يرأسه ، ولكن تسمية أعشار العمل الإدارى يقوم به عمداء الكليات » .

« قيل لى إن وظيفة نائب المدير لا ترتفع ارتفاعا مذهلا ، ولكن مما يحط من قيمة المرء ألا يشغلها » .

وقالت مسز هوايتهد باسمه : « ليس الأمر جدنيا إلى هذا الحد . ولكن أصدقاءك يتهايمسون عليك إن لم تشملها (وقد وضعت إصبعها على شفيتها) » .

قال : إن الوظيفة تمر بالدور على عمداء السكليات . وكل منهم يشغلها بدوره إلا إذا كانوا يمدونه عاجزا . كم يبلغ لفتنجستون من العمر ؟

قراءة الواحد والستين فيما أظن .

« ألا يكبر هذه السن ؟ إنى أقدر عمره بالسبعين » .

وصاحت زوجته : « غير معقول ! فقد كانوا شبابا أول ما عرفناهم » .

« دعنا نبحث عنه في (الدليل) » وذهب إلى مكتبته وعاد منها بمجلد .

ووضعه تحت ضوء المصباح ، ووضع تحت عينه نظارة قراءة كبيرة ذات عدسات ثقيلة ، ثم فحص إحدى صفحات الدليل وقال معلنا : « أربعة وستون ولسكنه قام أعمال كثيرة . كان نائبا لمدير جامعة بافاسست من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٣٣ ، ثم رئيسا للجمعية المسيحية باكسفورد ، كما أدى كثيرا من الأعمال العامة . لقد عرفته معرفة جيدة أول الأمر في عام ١٩٢٠ حينما كنا معا في لجنة رئيس الوزراء لبحث دراسة الآداب القديمة وقدرته قدراً كبيراً »

قلت : أضف إلى ذلك كل كتبه . وهي تبدأ بكتاب (العبقرية اليونانية) في

عام ١٩١١ ، وهو كتاب يدعو إلى العجب إذا عرفت أنه كان حينئذ في الحادية والثلاثين من عمره .

وقال هوايتهد : « إننى لا أجادل في قيمة الكتاب . ولكن السن التي كتبه

فيها لا تدعوني إلى الدهشة . فليس من غير المؤلف أن يبدأ المرء في أخراج أحسن مؤلفاته في سن الثلاثين أو ما حولها » .

« لقد غلبتني : فهناك بيتوفن ، وجيته ، وميشيل أنجلو » .

« إن الأفكار الأساسية التي تسرى في أعمال المرء مدى أيام حياته قد تتكون

فى ذهنه عندما يبلغ الثلاثين . وقد يصب هذه الأفكار فى صيغ متنوعة فيما بعد ، وقد يطيل فى شرحها . ولكن خطوطها الرئيسية ترسم فى هذه السن .

« ألا تعد سيرة لفنجستون إحدى السير الإنجليزية القوية المعاصرة ؟ »

« أجل . وحيث إن نشاط مُرى قد فتر ، فأعتقد أن لفنجستون سيخلفه . ما أكثر ما ينتفع الانسان (بالدليل) » وأخذ يقبل صفحات هذا المجلد الضخم ، ذى الغلاف الأحمر ، والطباعة الدقيقة ، بين يديه . ثم تفرس فيها ضاحكا وقال : « لو أنهم قدفوا بى فى تلك الجزيرة المهجورة وسمحوا لى باصطحاب كتاب واحد ، لما ترددت فى مصاحبة (الدليل) »

وترزت عند رأيه وقالت : « إنه يستغرق وقتا طويلا ، ولكن التمتع الذى يستخلصها منه الرء تفترض فيه إعدادا خاصا سابقا » .

وسألت مسز هوابتهد : « ما شكل ليدى لفنجستون ؟ إنى لا أذكرها إلا وهى شابة صغيرة ، شديدة الخجل ، حينما كان طفلها الثانى لا يزال رضيعا » .

« إنها هادئة قوية الأثر . إذا عرفها الرء أعجب بهمّا . وأستطيع أن أطيل الكلام فى هذه الصفات إلى حد ما . وهى كذلك الزوجة الملائمة تماما لمعيد كلية من كليات أ كسفورد » .

وخلال حديثنا عن كتب لفنجستون ، ذكر هوابتهد ما يلى :

« يدعشنى أن البشرية لم تتقدم من الناحية الخلقية إلى درجة تذكر فى أثنى السنة الماضية » .

« بل فى أمد أطول من هذا » .

« إذن فى ثلاثة آلاف عام » .

« فى أثنى سنة وخمسمائة أو ستمائة عام فيما أظن » .

« لا يختلف ذلك عن تقديرى كثيرا »

« إن العصر الذي كنت أفكر فيه هو القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان ، والقرن السادس الذي سبقه والذي كانت تتجمع فيه قواه — وإذا ذكرت أثينا في القرن الخامس ، فليست المشكلة هي أن الإنسان الحديث لم يبرز بعده تقدما ، بل هي الشك في أننا قد احتفظنا بالمستوى الذي بلغته » . ورويت وقائع تاريخية مميّنة لاجتدال فيها أدلة على هذا الرأي .

وفكر فيما قلت قليلا ، ثم قال :

« ليس من المستحيل فيما أرى (وإن كنت أتعلم أن يكون بعيد الاحتمال) أن يبلغ الإنسان قوة قواه العقلية ثم يبدأ في الانهيار الذي يدوم آلاف السنين . بل كثيرا ما ظننت أن هذه الحرب قد تحدد مصيره ارتفاعا أو هبوطا . إن قوة الاندفاع ، والباعث على التفكير المستقل ، من الأمور التي يسهل فقدانها . وقد يستغرق الناس في مجرد التكرار الروتيني للأفوه من أعمال وما اعتادوه من علاقات اجتماعية في مستوى وضع ، وكأنهم بنير عقول . كما تستطبع بعض الحشرات أن تدير مجتمعا مستقرا بالرغم من انعدام التفكير لديها . . . ثم ما أشد ما أساء الإنسان استخدام دياناته ! »

« إن من يعرف تاريخ هذه الديانات يميل إلى التردد حتى في استعمال كلمة الديانات » .

« هل فكرت في عدد كبار مؤسسي الديانات الذين ظهوروا حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ؟ »

« كلا . ومتى جاء بوذا ؟ »

« حول هذا التاريخ فيما أظن . دعنا نتأكد » . ثم عاد إلى مكتبته مرة أخرى . وخرج هذه المرة ومعه مجلد من دائرة المعارف البريطانية . وتأكدت من ظهوره في القرن الخامس .

وسألته : « ومتى ظهر موسى ؟ » ولم يكن أحد منا على ثقة - وكنا على حق في شكنا ، كما ثبت ذلك فيما بعد .
« دعنا نبحت عنه أيضا » .
« لا أريد أن أرهقك بالعمل . دعني أقوم بالبحث » .

« كلا . نأني أريد أن أرى بنفسى » . وجاء بمجلد آخر من دائرة المعارف البريطانية .

« (موسى) أين تواريخه ؟ » وقد أمسك بالمجلد الضخم تحت ضوء المصباح وخصه بنظارة القراءة ، ولم يجد أى تاريخ . وشاركته في البحث . ولم نجد تاريخا . فقال : هذا أمر عجيب ! إنهم لا يعطونك أية فكرة عن تاريخه حتى في مدى قرنين .
« (موسى !) - في فراغ من الزمن . »

« دعنا نبحت في (الخروج) »

وبحثنا في الخروج . وقلبنا الصفحات ، وطالعنا عمودا بعد عمود ، وعنوانا بعد عنوان ، وخصنا الطبع مما ، من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى . فلم نجد تاريخا . وليس من شك في أن المؤلفين الذين اشتركوا في تحرير المقال ووقعوا بالأحرف الأولى من أسمائهم في نهايته ، لاشك أنهم كانوا متحفظين . وربما سمعوا - كما سمعت - بالشك الذى بلى ظله على الفسكرة التى تقول بأن شخصية تاريخية باسم موسى قد عاشت بالفعل ، وإن « الشخصية العظمى في القصة هي يهوه » .

وتتم هوايتهد قائلا : « لا بد أن يكون هؤلاء الكتاب باحثين من الطراز الأول ، فإنهم لا يمدوننا إلا بقليل من العون . دعنا نبحت عما تدل عليه هذه الأحرف الأولى من الأسماء في الفهرست الذى يقع في أول المجلد . لنكتشف من يكون هؤلاء الجحوش » .

وقد صمقنا مما .

قلت : « كوك ! إنه عضو من جامعتك المقدسة كبرج ، وهو مشترك في تأليف (تاريخ كبرج القديم) وهو المؤلف الذى أقدمه » .

وأعاد المجلد إلى مكانه من الرف .

وقال : « حين أقرأ التاريخ ، أريد أن أعرف أين أنا . وينبغى أن يكون الزمن على قمة كل صفحة » .

« إن ترفليان يقوم لك بهذا على الأقل فى مجلده الوحيد (تاريخ إنجلترا) » .

واستطرد قائلاً . « حينما كنت أطلع فرود فى شبابه كنت أنتقل من صفحة إلى أخرى ، ومن فصل إلى آخر ، دون أن ألتقى بزمس للتاريخ » .

قلت : « إن المؤرخين المتحذلقين حقاً يمدون ذكر التواريخ محطاً بقدرهم . كم من مرة فى (تاريخ كبرج القديم) تجد الحادث المذكوراً فى صراحة تامة فى إحدى الصفحات ، ثم تجد أنك مضطر إلى أن تقرأ عدة صفحات قبله وبعده حتى تعرف على السنة التى وقع فيها الحادث تماماً » .

وقال هوايتهد : « إنهم لا يريدون أن يجدوا فى طريقهم حوائل ! فالتواريخ تعترض تدفق الأسلوب الأدبى الجميل المستقيم » .

وسأله : « هل سمعت كثيراً فى أى وقت من الأوقات بالبوزية » .

« لا أستطيع أن أقول إنى سمعت . إذ يبدو أنها كلها تؤدى فى النهاية إلى تأمل سلبي لا يثمر . وربما كان لذلك الجو المثبط الذى نشأت فيه بعض الآثار فى هذا . ففى مثل هذه الحال يجد المرء أن أسهل الأمور أن يجلس ساكناً ولا يؤدى عملاً . ولكن ذلك يؤدى إلى الجود الاجتماعى . كما شهد العالم » .

« يقال إنها لم تنجح كثيراً فى هذا البلد إلا مع الزوجات اللوات . أما فيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٠ ، حينما كنت أدرسها — وأؤكد لك أنى كنت أدرسها

في تقدير شديد لها - فقد كنت أعتقد أن إدراكها بطبائع النفوس يقترب جداً من وقائع الحياة . ولكني لم أنفق العشرين السنة التي سبقت هذا التاريخ في لفظ دين لكي أستوعب مكانه دينا آخر بأمره .

وقال هوايتهد مؤكداً : « تستوعب شيئاً بأمره . إننا نعيش حتماً بأنصاف الحقائق ، ونسير سيراً مرضياً ما دمنا لا نخطئ ، فنحسبها حقائق كاملة . ولكننا حينما نعتقد أنها كذلك ، نجد أنها تسبب لنا مشكلات كثيرة » .

« إن تلك الخبرة التي مرت بك في شبابك ، حينما شهدت طبيعة نيوتن - التي كانت تمتد ثابتة كالدهر - وهي تنهار تحت ناظريك ، إن هذه الخبرة لا بد أن تكون قد تركت في نفسك أثراً عميقاً » .

قال : « لقد علمتني أن أحذر من اليقين . كنا نظن أن كل ما يتملق بالطبيعة معروف ، لو استثنينا بضع نقاط مظلمة قد تستغرق بضعة أعوام حتى تتكشف . وما إن حل عام ١٩٠٠ حتى وجدنا أن طبيعة نيوتن - وإن كانت لا تزال وسيلة نافعة مريحة للنظر إلى الأشياء - قد انتهت بكل معنى من معاني الانتهاء . وكما ذكرت لكم من قبل ، إن ذلك كان يشير دهشة أرسطو ، ولكنه لا يدهش أفلاطون . فلوراجمت محاوراته - لو استثنينا محاوره (القوانين) التي تظهره في شيخوخته حينما بدأت آراؤه تتجمد ، بالرغم من احتوائها على مادة تدعو إلى الإعجاب - لتذكرت أن أية محاوره منها حينما تنتهي لاتفرض أمراً بصفة نهائية . كل متحدث يدلي برأيه . فيُفحص الموضوع من نواح متعددة ، وقد تكون بعض الأوجه أشد إقناعاً من بعضها الآخر . ولكن من الخطأ أن ننسب إلى أفلاطون رأياً واحداً بعينه دون سواء . إنه يتجول بنا خلال وجهات النظر المختلفة ، وهو يعلم أن كلامها يحتوي على شيء من الصدق ، ولكن ليس منها رأى واحد يحتوي على كل الصدق . والأثر النهائي لهذا في العقل المستقبل الرن لا يبعد عن الصواب . إننا ننتهي بمعرفة نافعة إلى حد كبير يجب علينا أن نتعلم

كيف نطبقها بأنفسنا . ليس هناك أمر كله صدق ، ولكن هناك بعض الصدق في كل وجه من الوجوه . ولو أحسننا فهم أنفسنا ، لأدركنا أن هذه هي الوسيلة التي نعالج بها الخبرة ، اللهم إلا إذا بدأنا نتيقن - حينئذ تبدأ الثعالب . إننا ننتفع بأنصاف الحقائق إلى درجة كبيرة ما دمنا نذكر أنها لا تعدو أن تكون أنصاف حقائق . »

« والآن ، ما دمنا نتحدث عن اليقين ، ماذا نستطيع أن نقول دفاعاً عن المتحمسين للرأى ؟ » .

« التحمس للرأى عضو نافع في المجتمع . »

« إنك تدهشني بذلك . لقد انقضى الوقت الذي كنت أعد فيه التحمس أملنا الوحيد . أما اليوم فأنا أنظر إليه في ارتباب ! »

« إن التحمس يقوم بالعمل . إنه يخسرق الأمور المألوفة الثابتة . إن قدرا معيناً من الحماسة ضروري لإخراج الناس أصحاب العادات من الأركان التي ألفوها . وأنت تعلم أنه من البسير أن يسكرر المرء ملاماً بيمينه أو فمكة بيمينها لا شيء سوى أن هذه الأنمال وهذه الأفكار هي التي أداها الناس أو فسكروا فيها عدة أجيل . وهذا أمر خطر أيضاً ، لأن الإنسانية - إن زكت وشأنها - تميل إلى أن تدور في نفس الأفلاك التي ألفت الدوران فيها . والتحمس صورة من صور عنصر الجدة في الحياة . وآراؤه قد لا تكون مبتكرة (والواقع أنها قلما تكون كذلك) ولكن نشاطه ودأبه صورة من الصور التي تتخذها قوة الابتكار . »

وقلت لسز هو اينهد : « لقد قدم إلى دفاعا اجماعيا عن الحماسة . فهل تستطيعين أن تقدي إلى مسوفا شخصيا لها ؟ »

« نعم . إنه يجعل الطبقات الطمئنة قلقة . »

« ذلك ما فعله عندنا دعاة إلغاء الرق . كان بعضهم منفراً إلى حد كبير - وكانت

لهم نزوات في طباعهم استرسلوا فيها تحت ستار الثورة على الاسترقاق. وكان بعضهم ممن يحب الرأفة والعدالة ، وبعضهم من طراز الأبطال .

واستأنفت منزع هوابتهد حديثها قائلة : « إن بعض الناس يقبلون أبشع الإساءات التي توقع على الآخرين ، لأنها مألوقة ، أو ليست مما يثير نفوسهم ، أو لبلادة حسهم ، أو انعدام الخيال لديهم. إن انعدام الشعور الذي يرى المتحمس ضرورة إثارته عند بعض الناس - يتطلب عنصر المبالغة الذي نلسه لديه . »

وقلت إن الخيال الذي يمكنك من المطف على الآخرين أشد ضرورة مما يمتدح أصحابه ، وأضاف إلى ذلك هوابتهد وهو يبتسم قوله : « وكذلك قوة الابتكار... وربما تذكر عبارة لي رويها لثنجستون في كتابه عن التربية »

« نعم أذكرها . إن التربية الخلقية مستحيلة دون أن تكون المنظمة صورة أمام أعيننا دائما . وهو يتخذ هذا الرأي موضوعا من موضوعاته الأساسية . »

وابتسم هوابتهد متفكها وقال : « زارنا يوم الأحد الماضي زميل من كلية لثنجستون . وكان قد قرأ الكتاب من قبل . قال : لقد حاولت أن أذكر من أين جاءت هذه العبارة ، فهي مألوقة لسمعي . أين وجدها ؟ »

(٣٩)

١٩ من يناير ١٩٤٥

منح جورج السادس وسام الاستحقاق لهوابتهد في رأس السنة . وقد وضع أساس هذا الوسام ادوارد السابع عند تنويجه ، ويتحدد عدد حامليه من الأعضاء البريطانيين بأربعة وعشرين . وقد كتبت عنه في مجلة جلوب تحت عنوان «الفيلسوف والملك » واختتمت مقال بهذه العبارة :

إن من بين أسباب العلاج من شرور هذه الدنيا عند أفلاطون أن يصبح

الفلاسفة ملوكا . وذلك من فسكاهات أفلاطون الصغيرة ، فالفلاسفة ملوك بالفعل لأن الملوك يحكمون في العالم المادى وحده . أما الفلاسفة فيخلقون ذلك الذى تخلق منه العوالم . وقد كرم هذا الملك نفسه حينما كرم فيلسوفاً .
وحيانى هوايتهد وهو يخرج من مكتبه بقوله : « لقد ربت كفتى . ويخيل لى أن لثنجستون يدا فى منحنى هذا الوسام » .

« هناك آخرون كثيرون فى إنجلترا يهتمهم ذلك إلى جانب لثنجستون » (فى عيد القيامة فى عام ١٩٤٧ باكسفورد أخبرنى سر دافيد روسى — وكان حينئذ محافظاً لاوريل ، كما كان من قبل نائب مدير — إنه قد اقترح منح هذا الوسام لهوايتهد من قبل . ومن الجائز أن يكون كلاهما قد تقدم بالاقترح)

واستطرد هوايتهد فى حديثه قائلاً : « أعتقد أن لثنجستون اليوم رجل عظيم الأهمية . إن وظيفة نائب مدير اكسفورد تبدو كأنها فى المحل الثانى ، ولكنها فى الواقع فى المحل الأول . إن المدير كالمالك ، أما نائب المدير فهو رئيس الوزراء . »
« إنه يكتب لى كتابة شائقة عن مشكلاته الإدارية . ويقول إن وظيفته — كمثل عمل إدارى — تنحصر فى دفع الحوادث له . وهو يحاول أن يجد حلولاً مباشرة لمشكلات الباشرة ، والصعوبة فى أن يبقى المرء من وراء اضطراب الضرورات مدركاً لأمر غائى وأن يتجنب إغفال المستقبل . وهو يقول إن الإدارة تجعله يدرك إلى أى حد كبير يمين الناس فى الحاضر المباشر ، وإلى أى حد ضئيل تدخل فى عقولهم أية فكرة عن الأهداف البعيدة » .

« هذه آراء غير عادية بالنسبة لرجل إدارى ، ولذلك ينبغى أن يقوم بالعمل الإدارى رجال من أمثال لثنجستون » .

قلت : « بهذه المناسبة أذكر لك أنى عرفت أن تسكريك فى رأس السنة أنكسبك نجاحاً عظيماً فى البدروم » (البدروم هو ردهة الفندق ، الذى يقع تحت مستوى سطح الشارع بقايل) .

وقالت مسز هوايتهد : « وأصدق من ذلك ما ذكره لى مدير الفندق ،
إذ قال : (قرأ لى النبأ هذا الصباح قبل مطلع الشمس حارس الليل) ، وكافى.
فى شمم أن أبلغ مستر هوايتهد ما يلى : « قل له إنه يستحق كل جزء منه ! » .
ولما نزلت إلى لوحة الأخبار فى الساعة للماشرة ، ألفت صاحبة اللوحة تقرأ النبأ
بصوت مرتفع لمجموعة من النازلين معنا فى الفندق المجبين به . ولما كانت تعرف :
أننى لا أستطيع الرؤية حتى أقرأ ، فقد تطوعت أن تقرأ لى النبأ بصوت مرتفع ،
وذكرت لها أنى على عجل ، ولذا فقد باعتنى نسختها الأخيرة . ولما خرج الفرد
للزهوة بعد ظهر ذلك اليوم ، حدثه بائع الصحف عن الخبر ، وقال : ثم إن الخبر
مقروء أخير منه مسموعاً ! وقد عرف بائع الصحف الخبر لأنه يهودى .

قلت : « لقد كانوا خير المستمعين إلى لمدة ثلاثين عاماً . إننى والعربية عاشقان
من زمان بعيد . قد نختلف متحابين ، ولكنى أعرف أصدقائى حين أراهم » .
وقال هوايتهد : من عجب أن الفكر المبرى هو الذى أتجه شمالاً بين
الأوربيين بدلاً من الفكر الهليني » .

قالت : « كفا برابة . وكان الفكر المبرى يمثل شيئاً خيراً مما كنا نملك » .
فقال هوايتهد : « المسيحية هى الصورة التى انتقلت فيها عقلية الإسكندرية
شمالاً فى أوربا . وأكثرت ما لا تحب من معانيها ومن نتائجها يصدر عن لونها
الشرقى . ما فيها من زهد ؛ وصفتها الاستبدادية ، وبقيتها الجامدة . ولكن
لولا الإسكندرية ما انتقل إلينا الفكر الهليني بتاتاً . إن الإسكندرية نظمت هذا
الفكر ، وبتنظيمه فقد كثيراً من قوته ، بيد أنه كان بحاجة إلى قدر من التنظيم
لكى يبقى ، لأنه فى صيغته المجردة مائع زائل . لقد أعطتنا الإسكندرية المفاتيح
التي اسءطعنا بها أن نسترد معناه الحقيقى بعد قرون . ولكن التنظيم غريب
تماماً — لا أقول عن أرسطو — ولكن عن أفلاطون بالتأكيد . فى (القوانين)
وهو ما ألفه فى شيخوخته ، عناصر من اليقينية حقاً — إنه يقول إن أنواعاً

ممينة من الناس لا يمكن أن تحتمل - ولكنه فيما ألف في شبابه كان حريصاً،
إذ أنه يقول في أحد خطاباته ، إنه لا يقدم لنا (نظاماً) للفلسفة الأفلاطونية .
ليس هناك (نظام) كما يقول - ولكن الباحثين الكلاسيكيين الألمان أجهدوا
أنفسهم كثيراً - برغم هذا - في القرن الخامس عشر لبناء نظام أفلاطوني
للفلسفة ! (ماذا كان معنى أفلاطون على وجه الدقة ؟) لقد كان شديد الاهتمام
بألا معنى شيئاً على وجه الدقة . لقد أعطى كل جانب من جوانب أى موضوع
ما يستحق . وكثيراً ما قمت بمثل ما قام به ، وقدمت وجهاً حسبت أنه يستحق
الالتفات إليه ، ثم أجدني في مؤلف بعد ذلك أقدم ما يناقضه . ومن ثم فإنني
أنهم بالتناقض وعدم الثبوت على رأى » .

« هل أستطيع أن أعلل ذلك ؟ إن ما تراه من أن جميع الحقائق هي بالضرورة
أنصاف حقائق - إن هذا الرأي قد استغرق مني شهوراً ، بل سنوات ، لكي
أدركه تماماً . أجل ، لقد سمعت كلماتك لأول مرة ، ووعيتها في ذاكرتي ، ثم
دونتها ، وتدرت منهاها . بيد أن إدراك ما تعنيه الفكرة لا يتضح إلا تدريجاً ،
التي يصبح فعالاً في تفكير المرء اللاشعوري . والآن أدرك أن ابن سينا كانت لديه
حتمًا نفس هذه الفكرة . فقد كان يكتب في فترة مسرحياته الاجتماعية - منذ
(أعمدة المجتمع) تقريباً حتى النهاية - مسرحية ، كما فعل في (الأشباح) لكي
يمرض جانباً من جوانب قضية من القضايا ، ثم يكتب أخرى ، كما فعل في (البطة
المتوحشة) لكي يمرض الجانب الآخر . واعتقد أن مسرحياته الأخيرة تسير إلى
حد كبير في مثل هذه الثنائية . . . ولكن لماذا كان الفكر العبري هو الذي
انتقل شمالاً في أوروبا ولم ينتقل الفكر الهليني ؟ »

« من خصائص الفكر الهليني أن يتلون بلون القوم الذين يستقبلونه ، فهو في
الإسكندرية إسكندري وفي روما روماني » .

قلت : « ولكنه لم يكن في كليهما هليينياً حقاً » .

« كلا . ولكنهما نقلا منه إلينا ما يكفي حتى أستطعنا أن نجد شكاه الحقيقي لأنفسنا . أمدتنا الإسكندرية بالهيكل العقلي للديانة المسيحية ، وأعتقد أن الرجل الذي شوه تعاليم المسيح وقلبها أكثر مما فعل غيره هو بولس . وإنى لأعجب ما كان بظن به الحواريون الآخرون — إذا كانوا قد وضعوه موضع التقدير . الزاجح أنهم لم يفهموا ما كان يرمي إليه ، وأشك أنه هو نفسه كان يفهم ما يرى إليه . ومن المستحيل أن تتخيل شيئاً أشد بعداً عن المسيح من الديانة المسيحية . والمسيح ربما يمجّز من فهم هذه الديانة » .

« هل تظن أن الفكر اليوناني في العصر الذهبي كان من الممكن أن يظهر في الوجود بغير تلك الأداة التي لا تبارى — أداة الفكر — وأعنى اللغة اليونانية » .
قال هوابتهد: « إن المبكرة الفطرية التي ولدت الفكر هي بعينها التي ولدت اللغة » .

قلت : « إن دقة اللغة اليونانية ، ومرونتها ، وقدرتها على التعبير عن ظلال المعاني بدقة تامة ، وجمال جرسها المجرد وعظمة مواردها ، وبساطتها في كل هذا — ذلك كله مصدر للدهشة لا ينضب » .

قال : « ما كان أسعدنا حظاً لو أصبحت اليونانية لغة أوروبا بدلاً من اللاتينية » .

« لو كان ذلك لتخلصنا من كثير من أسباب الخلط في المعاني ، لسبب واحد ، لأن العبارة اليونانية تعني عادة بالضبط ما نقول ، ولا تعني شيئاً آخر . منذ ما حذفنا من مناهجنا الدراسية التدريب على اللغات الكلاسيكية ، كانت النتائج فاضحة . في إنتاج الكتاب المعاصرين . لقد كنا نتعلم قواعد الإنجليزية باللاتينية واليونانية ، فإذا كان التركيب الإنجليزي مطابقاً لقواعد اليونانية واللاتينية ، كان عادة في

إنجليزية جيدة . ولكن كثيراً ممن يكتبون الإنجليزية اليوم يكادون يكونون أشباه أميين .

فقال هوايتهد : « إنى لم أتعلم القواعد الإنجليزية بتاتا . لقد علمنى أبى — وكان مدرساً قبل أن يكون قسيساً — فى المنزل حتى بلغت الرابعة عشرة . ولم يرسلنى إلى مدرسة حتى هذه السن لأنى كنت ضعيف البنية فى طفولتى . وقد علمنى قواعد اليونانية من قواعد اللاتينية . كانت كلها مكتوبة باللاتينية ، وتعلمت وحفظت قواعد اليونانية باللاتينية . فلم أتعلم القواعد اليونانية منفصلة بتاتا ، ومع ذلك فأنا أقرأ اليونانية بالسهولة التى أقرأ بها الإنجليزية » .

« من نتائج إلغاء الكلاسيكيات (الدراسات القديمة) أن أصبحت الروايات الإنجليزية (تعلم) فى مدارسنا الثانوية . وإنى أقدر كل التقدير أولئك الرجال الذين يملونها لأنهم معلمون قادرون محاصون ، ولكنى أعجب من فكرة تعليم الإنجليزية !

وقال هوايتهد : « كنا نقرأ الروايات فى طفولتى ، ولكننا كنا نقرأها للتفكه » .

« وكذلك كنا فى جيلنا . ولم يطرأ لنا قط أن ندرسها ، قل لى متى بدأت نقرأ الروايات ؟ »

« بدأت قراءتها بـ كويك — وكنت عندئذ فى السادسة — أجلس على مقعد منخفض إلى جوار الموقد عند قدمى وصيفة جدتى ، جين وابـنـكـلو . . . وكانت جدتى سيدة ثرية . ولكنها أخطأت إذ أنجبت ثلاثة عشر طفلاً ، وحينما تقسم الثروة — مهما تضخمت — على ثلاثة عشر ، فلا بد أن تضاعل . وحينما وضت إلى الأحقاد لم أحصل على الكثير . ولكنى أنفقت وقتاً طويلاً

من طفولتي في بيت جدتي بلندن . وكانت جين وايسكو تقرأ لي الساعات ،
فكانت أول من علمتني تذوق الأدب ، وكان (يكويك) أول ما بصرتني بالنظام
الاجتماعي الإنجليزي .

« ألم تعتقد أنه بالغ في رسم الشخصيات - إنها كاريكاتور ؟ »

« أبدا ! إن شخصيات دكنز كانت كلها حولنا . كانوا من سكان لندن ،
أو جنوبي إنجلترا . إن يكويك - كما ترى - لا يوغل شهلا - لا يمدو
نورتش إنني أتخيلني الآن واقفاً عند نافذة من نوافذ بيت جدتي »
وأخذ يفكر .

وقالت مسز هوابتهد في لهفة واشتياق : « ٨١ ميدان بيكادلي ؟ »

واستطرد قائلاً : « ... مطلا على حدائق جرين بارك ، والملكة
يكتوريا تمر - » .

« هل كنت تراها ؟ .. »

« بالتأكيد . ولم يكن ذلك مرة أو مرتين إنما كل يوم أو ما يقرب
من ذلك » .

« لا أستطيع أن أنصور أنك كنت تشاهد الملكة المعجوز مرارا كما تشاهد
عربة توزيع البقالة » .

« لم تسكن (عجوزا) في ذلك الحين . إنما كانت في زهرة الشباب . ولم
تسكن شعبية جدا . إنها لم تصبح شعبية إلا بعد عام ١٨٧٠ . وانتهت حياتها
بأن سارت نظاما بأسره ، حتى إننا لم نكد نصدق أنها ماتت » .

قالت مسز هوابتهد : « حتى الفقراء لبسوا الحداد . ومن عجز منهم عن شراء
الملابس السوداء كان يصنع ملابسهم العادية بالسواد . إنما كانوا يحزنون على المصير
التيكتوري - وإن لم يدركوا ذلك آنئذ » وقد قالت ذلك وهي مكتئبة .

وواصل هوايتهد حديثه قائلاً: « كنا نخشى بأس ادوارد السابع كثيراً . وكان أبعد ما يكون عن الشعبية عندما اعتلى العرش ، ولكنه أمسى في نهاية حكمه محبوباً جداً . أما جورج الخامس وجورج السادس - من بعده - فقد شقا طريقهما فيما أظن . »

قالت : « وإن يكن جورج السادس يبدو لي شخصاً لائناً له إلى حد ما بعد أبيه . فقد كان لجورج الخامس مزاج . »

قلت : « من العجيب أن الملكية قد عاشت حتى عام ١٩٤٥ »

قال هوايتهد : « كلا ليس ذلك عجيبي . إن الإنجليز لا يلفون شيئاً . بل يحفظونه في مخازن التبريد ، ولذلك فوائده . فإن احتاجوا إليه ثانية وجدوه ؟ »
« إن ذلك ينطبق أيضاً على كتبهم الرسمية - لو سمحت لي أن أقول ذلك ياسيدي . »

فعلق على ذلك هوايتهد بقوله : « إن الإصلاح الديني يبدو لي - كما ذكرت لك من قبل - كارثة من كوارث التاريخ . أعتقد أن الكنيسة كانت تُصلح من داخلها إذا اتسع لها الوقت . »

كانت لأرازمس الآراء الصائبة عينها ، وقد مُنحُ قلنسوة الكاردينال قبل وفاته وإن يكن قد رفضها . ولكن ثورة البروتستانت قوّت مقاومة الكنيسة ، وقد نبذ البروتستانت ذلك الجانب عينه من الكنيسة الذي يجعلها رحيمة محتملة ، أقصد جاذبيتها الجمالية العاطفية . ولو كنت لأختار مذهباً من مذاهب المسيحيين المعاصرين لاخترت مذهب الموحدين ، ولكني أود لو كان نفوذهم أشد . إنني أدرك أنهم يقربون من مذهب (استقلال الكنيسة) وأعتقد أنه من الأفضل أن يشهد قريتهم ، فلا أدهش إذا سادت الكاثوليكية الولايات المتحدة ، في خلال مائة عام أخرى . »

قلت : « إن الأمر الوحيد الجذاب من الناحية الجمالية والم عاطفية الذى لم ينبذه البروتستانت هو الموسيقى »

فقال هوابتهد : « إن الديانة لا يمكن أن تبقى بغير موسيقى ، فهى شديدة التجريد » .

« هذا حق ! وحتى التطهرين (البيورتان) فى إنجلترا الجديدة الذين استغنوا عن الأرغن والأدوات الموسيقية فى الكنائس ، احتفظوا بترنيل مزاميرهم ! »
قال : « إن الموسيقى تأتى قبل الديانة ، لأن الماطفة تأتى قبل الفكر ، والصوت قبل الحس . ما أول ماتسمع حينما تدخل الكنيسة ؟ عزف الأرغن . وما آخر ماتسمع عندما تغادرها ؟ الأرغن . والصلاة نفسها تكون غناء . عند الكاثوليك . إن الموسيقى تسبق الدين بأجيال كونية . إن البابل لا يبنى لأثناء لى سبب سوى متعة الحياة ، من أجل حب الغناء . إن هذه الأمور أعمق غورا من الفكر ، كما أن الصوت أعمق أثرا فى نفوسنا من النظر . واعتقد أننا حينما كنا متوحشين كنا أشد تأثرا بصوت الرعد من وميض البرق » .

وعלת مسز هوابتهد بقولها : « نستطيع أن نحمل أنفسنا من النظر بإغلاق أعيننا ولكننا لانستطيع أن نفلق آذاننا . إننا لانستطيع أن نتقى الصوت . عندما كنت أروود المسرح فى شبابه كان عناق الماشقين على المسرح يؤذيني أحيانا بتمثيله . فما كان على إلا أن أغلق عيني » .

« قلت لى مرة إنك تمتقد أن الإنسان قد أولى الانطباعات التى ترسم لديه عن طريق العين نصيبا من العناية أوفر مما ينبغى » .

قال : « إن تربيتنا تعتمد إلى حد كبير على المكتوب والطبوع » .

« ولكن الصوت يتبخر . أما الكتابة والطباعة فتأبته إلى حد كبير . لقد ألقى بركليز مرثية ، ولكنها وصلت إلينا لأن ثيوسيديد دونها » .

وصححت مسز هوايتهد قولى وهى تبسم : « الأرجح أن المراثية لثيو سيديد » .
ولست لبركلينز كما تعلم .

« ولو صح هذا فإن الحكم لا يتغير ! »

قالت « بل ربما كان حكما أصدق »

ووافق على ذلك هوايتهد قائلا « إن ما أنقذ الكتابة هو قيمتها من حيث
شكلها الثابت نسبيا مما يؤدى إلى بقائها . ولكن الصوت يخاطب المواطنين ،
ثم تتحول المواطن إلى تفكير ، والتفكير إلى عمل » .

وصححت ذلك مسز هوايتهد بقولها « إن العاطفة قد تتحول إلى عمل دون أن
تمر بمرحلة التفكير ، وأرجو أن تذكر ذلك » .

قال : « إنى أذكره . والعلاقة بين الصوت والعمل قد تكون أنقذ كثيرا
من العلاقة بين النظر والعمل . إن ما نراه يوحى إلينا - عامة - بالتفكير . أما
ما نسمعه فيثير العاطفة . والموسيقى تخاطب المواطن مباشرة ، وأنا أعترف أنها قد
توحى بالآفكار أيضا »

قلت : « ولكنها إذا أوحى بالآفكار صراحة ، فهى على الأرجح ليست
موسيقى جيدة » .

وقالت مسز هوايتهد : « لما كان أطفالى صغارا بدأت أسمعمهم موزار . وقيل
إن هذا تمال من جانبي . ولكنى لم أسمعمهم غنا قط فى بيتى ، وعندما سمعوه فيما بعد
عرفوا أنه غث ولم يعبأوا به » .

قلت « لاصلة للموسيقى بالأخلاق . إنها كأية قوة أخرى فى الطبيعة - ليست
فى ذاتها خيرا أو شرا . إنما يتعلق الأمر كله بطريقة استخدامها . إنها تنشط
ما هو كامن فيها من قبل . إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير » .

قالت : « لا أوافق على أن الموسيقى ليست لها بالأخلاق صلة . إن موسيقى

تُفاجِرُ كَثِيرًا مَا تُثِيرُ الْحَوَاسَ بِشَكْلِ وَاضِحٍ . وَلَا أَعِدُّهَا مُوسِيقَى (خَالِصَةً) سِوَاهُ مِنْ الْوَجْهَةِ الْجَمَالِيَّةِ أَوْ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، وَأُودُّ أَنْ أَتَبَّهَ إِلَى أَنِّي أَحِبُّهَا أَحْيَانًا ، وَلَكِنِّي - بِرَغْمِ هَذَا - أَعْرِفُ أَثَرَهَا .

وَقَالَ هَوَايَهْدُ : « إِنْ الْمَوْسِيقَى يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ خَلْقِيَّةً وَغَيْرَ خَلْقِيَّةٍ . خُذْ تُفَاجِرُ مِثَالًا إِنْ شِئْتَ . إِنَّكُمْ أَهْلُ الْأَمْرِيكَانِ تُحِبُّونَ مُوسِيقَاهُ ، وَلَا أَرَى أَنَّهَا عَادَتْ عَلَيْكُمْ بِأَيِّ سِوَاهُ ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهَا عَادَتْ عَلَى الْأَلْمَانِ بِضَرَرٍ بَلِيغٍ . إِنَّهَا تَوْحَى إِلَيْهِمْ بِأَحْلَامِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَوْدَى إِلَى الْعُنْفِ » .

« أَعْتَرَفْتُ أَنَّ تُفَاجِرُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ جِدَلٍ حَتَّى الْآنَ . وَلَكِنَّا يَنْبَغِي أَنْ نَسْتَنْتِ بِبَيْتِهِمْ : هَلْ هُنَاكَ دِيَانَةٌ أَنْقَى مِنْ مُوسِيقَى رَبَاهِيَاتِهِ الْآخِرَةِ ؟ وَهِيَ كَذَلِكَ صَوْتُ خَالِصٍ » .

قَالَ هَوَايَهْدُ « أَمِيلُ إِلَى الْإِتِّفَاقِ مَعَكَ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ عَوَاطِفِ الْإِنْسَانِ الَّتِي ظَهَرَتْ مَبْسُكْرًا فِي تَارِيخِهِ مَا كَانَ اسْتِعْجَابًا لَصَوْتِ رَزِينٍ » .

(٣٧)

٢٥ مِنْ مَآيِو ١٩٤٥

تَنَاوَلْنَا الْغَدَاءَ فِي نَادَى السَّبْتِ . وَكَانَ الْجَوُّ رِييْعًا مُشْرِقًا ، وَلَمَّا كَانَ خَطَرُ اسْتِخْدَامِ عَرَبَاتِ الْأَجْرَةِ قَدْ أَلْفَى ، فَقَدْ أَنَّى هَوَايَهْدُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا . وَجَاءَ بِلَسِّ يَرَى بِالْأَسْتَاذِ كَارْلُ وَبِرٍ مِنْ كَلِيَّةِ كُلبِي ضَيْفًا عَلَى النَّادَى ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي كُنْتُ تِلْكَ الْجَمْعُوعَةَ الْفَرِيدَةَ مِنْ مَخْلُفَاتِ توماس هَارْدِي . قَالَ لِي : « أَرَدْتُ أَنْ أَدْرُسَ هَارْدِي ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ بِمَجْمُوعَةٍ مِنْ مَخْلُفَاتِهِ ، لَذَا اضْطَرَرْتُ إِلَى تَسْكُونِ وَاحِدَةٍ . إِنِّي أَعْمَلُ الْآنَ فِي كِبَرْدِجٍ ، وَكَثِيرًا مَا وَدِدْتُ الْعَوْدَةَ إِلَى كُلبِي لِأَسْدِ حَاجَتِي إِلَى بَعْضِ الْمَوَادِّ » .

وكان على مائدة الطعام ما يقرب من خمسة عشر عضواً . وكنت مع هوايتهد .
 وحدنا في الطرف القصى ، فقلت له : « بنينى أن تحمص فيما تقوله لى من الآن .
 فصاعداً . فأنا رئيسك بمد ما أصبحت أحد أعضاء اللجنة الزائرة لقسم الفلسفة » .
 قال : « عجباً ، وكذلك أنا ! » .

« إذن لنبدأ من جديد » .

ولسكى يكون حريصاً فيما يقوله لى ، أبدى لى هذه الملاحظة همساً :

« هل نستطيع أن نتصور كائناً يخلق عالماً لفرض مباشر ، وهو أن يسبح
 مخلوقاته بحمده ! » .

« إن المسيحية تمرض للفقء أحياناً من أفراد كفأة ، بيد انه من العجب
 أن النظرة السائدة - بالرغم من ذلك - هى أن المسيحية محصنة ضد النقد ، مهما
 يكن الناس - من الناحية العملية - غير مباينين . ولو حاول أى فرد أن ينظر إلى
 الأمر من خارج ، ألفاه شذوذاً وحقاً » .

قال : « إن المعلمين الذين نشأوا بروتستانت ثم اعتنقوا الكاثوليكية - كما
 فعل بعضهم فيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٤٠ - هم عندى قوم قرأوا التاريخ دون
 أن يفهموه ، أو قوم لا يعرفون التاريخ . فإن أى فرد يتدبر معنى الحوادث التاريخية
 لا يمكن أن يتفهقر هكذا على علم منه . إن ركود الفكر عثرة من عثرات
 البشرية . وإدراك ذلك أيسر فى الرياضة منه فى الدين . (الرياضة هى دراسة
 الإمكانيات) . الرياضة فى أئينا فى القرن الخامس كانت عديمة الفائدة إذا استثنينا
 التطبيق العملى المباشر ، مثل ١٢ × ١٢ - كانت الرياضة صورة من صور التأمل .
 وكان أفلاطون شديد الانفعال بموضوعها ، وكان عقله مليئاً بها . كان يستخدمها
 كأداة للتفكير ، وكانت توحى إليه بجميع ضروب الإمكانيات التى لم تطرأ على
 ذهن أحد من قبل . ولو أنك تحدثت إلى أرسطو عنه فى ذلك الوقت ، فلا شك
 أن أرسطو كان يقول لك على انفراد : « مسكين أفلاطون ! إنه مغمور فى تلك

الأفكار الرياضية التي ليس وراءها نفع » (وابتسم ابتسامة ماجنة وهو يقول ذلك) : « والواقع أن هذه الأفكار الرياضية في عهد أفلاطون كانت غدية الجدوى . وبقيت كذلك ما يقرب من ستة عشر أو سبعة عشر قرناً . ومنذ القرن الثاني عشر بعد الميلاد تقريباً جمعت هذه الأفكار الرياضية - التي انقل بها أفلاطون انفعالا شديداً - العالم الحديث ممكناً » .

« وهل هناك سبب خاص نعرفه جعلها تشر كما فعلت بين عصر النهضة ، والقرن الخامس عشر تقريباً في فرنسا وإنجلترا ؟ »

« كلا ، فإن كل ما يلزم للعالم الحديث والتكنولوجيا الحديثة كان موجوداً في عصر أرشيدس . وإني حينما أقول لك - كما قلت من قبل - إن كل ما كان ينقص صقلية أو اليونان العظيمي - فيما يظهر - هو أن الناس لم يجلسوا إلى جوار النار ويشاهدوا أغطية غلاياتهم ترتفع ببخار الماء الذي يغلي - إني حينما أقول ذلك قد يمتقد الناس أني أمزح مزاح البلهاء . ولكنني جاد جداً فيما أقول » .

« ثم نمود إلى (إذاعة) تجربة معينة . التجربة - كما قلت لي - بحاجة إلى اتساع إذاعتها لكي تستمد الاستجابة لها من أوسع انتشار ممكن للمواهب - فنحن لا نجد عازفين ممتازين على البيانو بين رعاة المزارع الغربية في القرن التاسع عشر ، مهما تكن المواهب الكامنة لامة ؛ إذ لم يكن هناك بيانو » .

والحديث بدور عادة بين كل اثنين حتى يندق رئيس الجلسة المائدة ليدسود النظام . ولذا فقد سألتني هوابتهد عن الأخبار التي نمت إلى مكنتي في ذلك الصباح فنبأته ، ثم قلت :

« هل تستطيع أن تذكر أمة غربية واحدة اتصلت بالأفكار الهندية التي سادت في الخمسة والعشرين القرن الماضية منذ عهد اليونان القدماء ، هل تستطيع أن تذكر

مثل هذه الأمة التي كان يمكن أن تقوم بما يقال عن الألمان في الوقت الحاضر أنهم يقومون به ؟

قال : « ليس في أعمالهم التي تنسب إليهم جديد . فالغلبة ، والسرققة ، والقتل ، بل والتعذيب ، كان دائما موجودا في مكان ما وإلى درجة ما . والجديد عند الألمان هو المدى فإن ذلك لم يحدث من قبل بمثل هذا المدى . »

« وإلى أي حد تعتقد أنهم سيحسنون السلوك بمد هذا ؟ »

قال : « لقد هدموا الإمبراطورية الرومانية ، وهدموا نظام المصور الوسطى ، وهدموا مدينة أوروبا الحديثة — وأعني تلك المدنية التي بدأت منذ خمسمائة عام ، في عهد النهضة تقريبا . والراجح أنهم سيواصلون الهدم ، لأنهم يحبون الهدم . »

وهنا دق مارك هاو رئيس الجلسة المائدة ، وطرح موضوع اليابان للنقاش . وقام بأكثر الحديث لانجبدن وارنر الذي عاش وتجول كثيرا في الصين واليابان ، وكامرون فوربس ، الذي كان سفيرا في اليابان كما كان حاكما عاما للفلبين ، وكان مدار حديثهما هذه الموضوعات الهامة : ماذا سيتم في حالة النصر بشأن موانئ الماهدة الصينية ، وبشأن منشوريا ، وكوريا ، وقواعد الطيران الجزرية ؟ وأي لون من ألوان الحكم سيسود في الجزر اليابانية الوطنية ؟ وظن كام (كامرون) أن موانئ الماهدة ينبغي أن تُرد للسيادة الصينية ، ولكن ربما ردت القواعد لبريطانيا لتحتفظ بظاهر كرامتها الاستعمارية كلها ما عدا هنج كنج ، التي رأى أنها مركزية في حيويتها حتى إنه لا يصلح لها إلا التدويل . ولم يرهوا يتهد سببا لأن تسترد بريطانيا موانئ الماهدة . ثم قال : « أما سنغافورة فهي تهمنا من أجل أستراليا ونيوزيلاندة . »

وواصل هوايتهد حديثه قائلا : « إنني في شك من أهل الصين . إن تطورهم

الثقافى لا يتم عن الاطراد . فلم يكن هناك تقدم يذكر فيما بين عام ٥٠٠ ق . م . وعام ١٢٠٠ بعد الميلاد تقريبا . ويظهر أنهم فى العصر الحديث يحاولون أن يتشبهوا بالأمريكان ما استطاعوا . ولسكن هب أنهم نجحوا فى التشبه بأمريكان القرن العشرين . فهل لديهم القدرة — بعد ذلك — أن يواصلوا التقدم بطريقتهم من هناك ، أم هل سيبقون قرونًا بعد ذلك متشبهين بأمريكان القرن العشرين ؟

وقال كامرون فوربس عن الشيوعيين فى الصين : « إنهم يختلفون أشد الاختلاف عن الشيوعيين فى روسيا السوفيتية ، فإن الأصول التاريخية التى تسكفهم تعود إلى الماضى السحيق ، ماضى الصين الذى يخصها دون سواها ، حتى إنك حينما تقول عنهم إنهم (شيوعيون) فأنت لا تكاد تتحدث عن نفس المعنى الذى يفهم من الشيوعية فى روسيا » .

وقال هوابند : « إن ما تقول يشوقنى ، لأن الناس يمتقدون — فيما يظهر — أنهم حينما يستعملون لفظة (الشيوعية) يسمون شيئًا بيمينه على وجه الدقة ، وأنهم يعرفون ما يتحدثون عنه ، والواقع أنه ليس هناك — كما ذكرت — ستة آراء وتعاريف للشيوعية فى أذهان الناس حينما يثيرون الموضوع المناقشة ، ليس ذلك فحسب ، بل إن هناك ما يقرب من ستمائة تعريف مختلف » .

وانفض الاجتماع فى نحو الساعة الثالثة والنصف . وناديت ' وهوابند عربية أجرة عند برمستون كورز ، وطوبنا شارع بارك وهبطنا فى بيكن حتى شارلز مارين بمروج كومون التى اخضرت الآن فى شهر مايو . وقال هوابند : « إنى لم أستمع من قبل إلى كام وهو يتحدث بمثل هذه الحكمة التى تدعو إلى الإعجاب . إن السامع — عادة حينما يبدأ — يستمد للاختلاف معه ، أو للتسامح ، أو يلزم الصمت حذرا . ولكن لشد ما كانت دهشتى حينما وجدته على اتفاق تام معه فى كل ما قال » .

وسرنا عبر قنطرة لنجفلو ، وضررنا فى كبردج ، التى كانت أيضا نضرة بهيجة

بمعدما لبست رداء مايو القشيب الأخضر . وكانت في زهريات مسز هوايتهد في حجرة جلوسها أعواد الأزعار ذات الزرقة الشاحبة ، كما تدفقت من النوافذ الغربية أشعة شمس الأصيل اللامعة . وذكرنا لها بعض ما دار من حديث حول المائدة معاداً ، بناء على طلبها ، ثم عطفنا نحو الحديث في النظام الاجتماعي الأمريكي .

وقال هوايتهد مؤكداً : « أعتقد أن النظام الاجتماعي الأمريكي - على وجه الجلة - خير ما وجد من نظم . إن له عيوباً خطيرة . وللنظام الإنجليزي بعض نواحي التفوق ، غير أن نظامكم لا يزال خيراً ما أنشئ من نظم حتى اليوم . ومن المتناقضات أنكم اسم في الحقيقة شعباً (سياسياً) . إن ثلث مواطنيكم - في رأيي - من الطراز الأول حقاً ، ولكنهم ليسوا من هذا الطراز في السياسة . ومن الثلثين الباقين نحو النصف - في زعمي - من الطراز الثاني ، ولكنهم طيبون برغم ذلك . أما النصف الثاني (وهنا تردد ثم استمر في حديثه) فجرمون » .

قلت : « ويتضمن كثيراً من رجال السياسة عندنا » .

قال : « نعم » .

وتقرر أن نعدل عن الحديث في هذا الموضوع .

قال : لقد دعيت لحضور الحفل الذي سيقام في السادس من شهر يونية . وقد سأرت إلى التلبية قبل أن يتسع لهم الوقت لسحب الدعوة » .

وقالت مسز هوايتهد : « المفروض أن يتوجه المرء إلى قصر بكنجهم ليتسلمه ^(١) . فإن تسلمه في هذا البلد ، فن يد السفير . ولكن لما كانت لدى لورد هالفاكس أعمال كثيرة أخرى ، فإن القنصل البريطاني يقوم بتسليمه » .

وكان من رأي هوايتهد أنه ربما أثرت بشأنه ضجة كبرى .

قلت : « لن يسكون ذلك من وجهة نظر الجامعة . متى كان أستاذ الشرف التقاعد للفلسفة في أية جامعة أمريكية قبل اليوم رجالاً يحمل وسام الاستحقاق ؟ »

(١) آتير إلى الوسام الذي منحه الحكومة البريطانية لزوجها .

قال هوابتهد : « هذا أمر لا أهمية له »

« أنا أعرف أنه عديم الأهمية . ولكن هذه الجامعة قد وقعت في أخطاء جسيمة في السنوات الأخيرة . من تلك الأخطاء أنها سمحت لهارثي كشنج أن يذهب إلى ييل . ومنها أنها سمحت كذلك أيضاً بهذا لجورج بيرس بيكر . وهناك آخرون » . وقد ذكرت لهم رأى هارثي كشنج في هذا كما أخبرني به ذات أحد بعد الظهر في سيف عام ١٩٣٢ حينما كنا وحدنا في بيته القديم بشارع والف في بروكلين .

قال هوابتهد : « إن عادة إحالة الرجل إلى التقاعد رغما عنه في سن الستين عادة سخيفة » .

وصححت زوجه رأيه بقولها : « يقال إنها في حالة الجراحين ضرورة . فقد عرفت أنهم لا يستطيعون في هذه السن أن يثقوا في يد ثابتة » .
« إن كشنج لم يشك التقاعد في سن الثالثة والستين . بل لقد حدد هذه السن بنفسه حينما قام بتنظيم مستشفى بيتر بنت بريام . والواقع أنه لم يشك شيئا قط . ولم يقل إلا أن المالين المدحرفين — الذين وضع فيهم ثقته — قد عمو جزءا كبيرا من ضيمته ، بما فيها ما ورثه عن الدكتور السكياقلاندي ، الذي لم يحسه قط بل احتفظ به لشيخوخته . وقد تدهورت صحته — كما تذكر — وعرف عنه ذلك كله ، ففتح في هارفارد أستاذية بغير مرتب » .

وبدا هوابتهد متعجبهما عابسا .

وغيرت مجرى الحديث بسؤال : « كم كان عمرك حينما أحسست أولا بالتضلع في مادتك » ؟

قال : « لم أحس بذلك قط » .

« إذن فقد وجهت السؤال في صيغة نافية . ربما كان ما حاولت أن أسألك عنه هو : متى بدأت أولا تحس بالكفاية في عملك » ؟

« لم أحس قط أنى كفاء له » .

قالت زوجته : « يا لله ! أنا أعلم منه بذلك . لم يمر عام ويمود شهر سبتمبر ويستأنف التدريس ، إلا وانتابه الضعف » .

« أنت شاهدة كفاء » .

« لم أراقبه إلا واحدا وخسين عاما » .

وقال هوايتهد - الذى كان يصفى فى شرود - : « هذا رأى فى عادة الإحالة على التقاعد رغما . إنها عادة سخيفة ، لأن الإنسان قد لا يفكر فى أمر جديد بعد الستين إلا أنه كثيرا ما يجد وسائل جديدة لاستخدام ما عرفه من قبل » .

(٣٨)

٢٩ من مايو ١٩٤٥

أقام مستر ومسر وليام جيمز حفلا لآل هوايتهد ، فى ٩٥ شارع أبرفنج ، فى البيت الكبير المريح الذى بناه الأستاذ جيمز فيما بين عام ١٨٩٠ - ١٩٠٠ ، وحيث عاش حتى وفاته فى عام ١٩١٠ ، وأنا أذكر حجرة الدرس لأنى زرتها وأنا طالب فى الجامعة اسكى استشيريه فى موضوع رسالة .

وقد دعى الضيوف للحضور « فى أى وقت بعد الثامنة والنصف » . وكان مساء لطيفا من شهر مايو ، وكبردج فى هدوء . والمروج النظرة من أشجار الدردار واللبلاب فى فناء السكينة كانت تغرى بالتسكك . ولما وصلت وجدت أن آل هوايتهد وضيوفنا آخرين عديدين قد سبقونى إلى حجرة الدرس . والتفت جماعة حول الموقد حيث كانت نار الحطب تشتعل . وأخذ الآخرون يتواترون حتى كان بالقرعة ثلاثون أو أربعون شخصا . وجلس الضيوف ، ولكن المجموعات كانت فى تغير مستمر . ولاحظت أن الثمام الجماعات كان يتم فى مهارة ولبانة شديدة .

واستطعت من حين إلى آخر أن أجدد عهدي بهذه الغرفة . وكانت جدرانها لا تزال مليئة بالكتب ، ولكن وليام جيمز - وهو أكبر الأبناء - الذى سرعان ما اتصل بي فى حديث منفرد فى إحدى الزوايا إلى جوار مكتب أبيه قال : « ليست هذه كل الكتب ، ولا كل كتبه ، وقد رتبنا إلى حد كبير وفقا للأحجام والمجموعات . كانت مكتبته مكتبة باحث ، رست فيها الكتب من كل الأحجام وكل الأشكال جنباً إلى جنب وفقا للموضوعات » .

« إنها تبدو كما أذكرها إلى حد كبير . فهناك المجلدات ذات القصاصات الورقية فى ظهرها ، وهناك النشرات وأرى هناك فى الرف الذى يلى القمة مجموعة كاملة من جورج مرديث ، طبعة أذنية ، كنتابل وشركاه » .

« إنها مجموعة المم هنرى . وكانت هدية من مرديث » .

وكانت على الرف الذى يملو موقد النار صورة فوتوغرافية رائمة ، أربع بوصات فى ثمان تقريباً ، فى إطار منطى بالزجاج ، للأخوين وليام وهنرى . وقد اختفى النضد الذى كان يتوسط الحجرة ، وكذلك اختفى مصباح القراءة النازى المظلل باللون الأخضر الذى كان هناك فى السنين الخوالى . ولكن بقى المكتب الكبير المصنوع من شجر الجوز الأسود ، وقد بلغ من الطول ما يسمح لرجل طويل يتمطى عليه كأنه بريرخلوى ، ويقوم على قاعدتين ذواتى أدراج من شجر الجوز الأسود . وقد بدا فى الواقع كأنه سبق فى تاريخه استئجار الأستاذ جيمز للمكان ، وربما كان ملكاً لأبيه . وقال الابن :

« كان أبى يجلس للعمل فى الجانب الآخر منه ، فى ذلك الركن » .

وشعرت بعيل شديد إلى تجاهل الحافلين وإنعام النظر فى تلك الرفوف وتسجيل مذكرات عن العناوين والمؤلفين ، كما استطعت أن أفعل مرة أو مرتين فى مكتبة

هوايتهد . وفد اشتغل الأستاذ رالف بارتن پرى - راوى سيرة وليام جيمز - فى حديث مع هوايتهد إلى جوار الموقد .

وكان يتحتم على أن أغادر الحفل مبكرا . ولما خرجت إلى الردهة لأسترد سترتى وقبعنى ، وجهت ملاحظة إلى مضيفى الذى رافقنى إلى الخارج .

قلت : « ماذا نصنع لرسم صورة زيتية لهوايتهد ؟ »

قال : « لقد رسم شارلز هيككنسن تخطيطين بالزيت . أحدهما لم يبلغ حد الإجابة . أما الآخر فجيد جدا . ثم - كما يحدث لنا كثيرا نحن المصورين - أخذها إلى مرسمه لىكى يضع فيها اللسات الأخيرة ، ويظن بعض الناس أنه أتلها » .

« رأيت التخطيطين فى مرسمه . وأحدهما شديد الشبه بالصورة . وقد تحدثت عنه منذ بضعة أيام مع شارلز ، وقال لى ، فى تواضع يدعو إلى الإعجاب : (أشك فى أنى كفاء لرسم هوايتهد .) . . . ولكن هل نسمح لهوايتهد أن يفادنا دون صورة جيدة له ؟ أنت مدين لنفسك برسم صورة لهوايتهد » .

فأجاب ضاحكا : « كنت فى شبابه أطلب إلى أى فرد أن يجلس أمامى لتصويره . أما الآن فإنى حينما أحاول أن أتعلم لغة أتردد فى أن أطلب إلى شخص أن يجلس للتصوير حتى أتعلم الحديث بهذه اللغة » .

ولما أغلق الباب الخارجى للمنزل رقم ٩٥ بشارع أبرفنج خلقى ، وخرجت مرة أخرى فى ليلة من ليالى شهر مايو ، رأيت فى لحظة خاطفة ذلك الغناء الفسيح الذى يقع جنوبى المنزل ، والذى تطل عليه نوافذ حجرة الدرس . وهناك ، فى يوم من أيام سبتمبر بعد الظهر من عام ١٩٠٣ كنت قد رأيت وليام جيمز لأول مرة . وكنت قد أدبت امتحان القبول بنجاح ، ولم ألتحق بالجامعة بعد ، ولكنى سألتحق بها بعد يومين . وقد انقضى عامان منذ شرعت أقرأ ما كتب وليام جيمز ؛ ولما كنت صبيا فى السابعة عشرة من عمرى فى مدينة صغيرة بالغرب

الأوسط ، فقد وضع مقالان من مقالاته خاصة في قلبي بأسا وشجاعة . وكنت عارفا بفضلها ، وقد أحببته غيبا . ولما التحقت أخيرا بكمبريدج ، طرأ لي فجأة أنى — بعد ما توجهت إلى كنسكورد وشهدت أن كان يقطن أمرسن وهونورن — أستطيع أن أطوف لأشهد أن كان يسكن وليام جيمز . وقد عرفت من دليل الكلية اسم الشارع ورقم المنزل . وكان الصيد في هذه المرة أفضل بكثير من البيت نفسه . فهناك في فناء البيت كان وليام جيمز جالسا فوق مقعد في الحديقة يتحدث مع بعض زائريه . ولم أشك قط في أنه هو ! فلقد رأيت له من قبل صورة فوتوغرافية .. وبلغت المرات الخارجية نتهات صوته ، وهى نتهات عذبة عالية الرنين ، وإن لم تبلغها كلماته . وكانت هذه — فيما أظن — أول مرة أشهد فيها رجلا مبرزاً بشخصه . إنه مشهد يفتح العيون : لا يستطيع المرء أن يتخيله إلا إذا قيل له عنه . وما أيسر أن تظن أنه لا يختلف كثيرا عن غيره . وهذا حق من ناحية ، وباطل من ناحية أخرى . ومهما يكن من أمر ، فهناك كان يجلس وليام جيمز فوق مقعد بالحديقة يتحدث إلى أصدقائه وديما كاللاك . ولو خبرت بين أن أشهد ملاكا أو وليام جيمز لاخترت بالتأكيد ونيام جيمز . وما زلت أعتقد أن الاختيار صحيح .

(٣٩)

٦ من يونية ١٩٤٥

في مساء الأربعاء في الساعة الرابعة ، في حجرة الأساتذة ، في قاعة الجامعة قدم وسام الاستحقاق — الشارة وشهادة التكريم — لألفرد نورث هواينهد ، الدكتور في العلوم ، والدكتور في الآداب ، وصاحب الشهادات العلمية الأخرى ، وأستاذ الفلسفة المتقاعد في جامعة هارفارد .

وكان التقديم على هذه الصورة في المرتبة الثالثة ، فلو كان في إنجلترا لكان

المنظور أن يتوجه إلى قصر بكنجهام . ولو كان السفير البريطانى أقل انشغالا
لقدمه إليه إما فى واشنطن أو كبردج . ولما كانت الظروف غير ذلك ، فقد قام
بالتقديم القنصل العام البريطانى فى بوسطن . وإذا وضعنا فى اعتبارنا أبعاد العالم الذى
سيميش فيه هوايتهد ، وأبعاد الامبراطورية البريطانية ، كانت فكرة منحه
تكريما أو وساما أشبه بقاربى الصغير الذى أمسكه فى سوامپسكت إذا قيس إلى
الباحرة (الملكة اليزابث) ، والواقع أن هوايتهد نفسه قد أنكر أن يكون لذلك
أية أهمية فى ذاته . وأذكر أيضا أن جورج مرديث عندما منح وسام الاستحقاق
(واختصاره بالإنجليزية O. M.) قال إن هذين الحرفين إنما يعنىان أنه رجل عجوز
(بالإنجليزية old man ، والحرفان الأولان O. M.) .

وعلى أية حال فقد كان منظر الطبيعة خلابة . واليوم يشبه فى جوه يوما من
أيام شهر يونية فى إنجلترا - رياح جنوبية غربية وشمس مشرقة أحيانا ومطر خفيف
أحيانا أخرى ، وسحب بيضاء فى أطرافها رمادية فى صدرها تندفع فى سماء
زرقها سافية . ولما حلت الساعة الرابعة كانت أشعة شمس الأصيل تبتدق خلال
النوافذ ذات الأقواس المرتفعة فى الجانب الغربى من الردهة ، فى حين أن كراسى
الأساتذة وعددها نحو مائتين تقريبا صفت بحيث تواجه النوافذ الشرقية التى
تبلغ نفس الارتفاع ، والتى تطل على الحقول الخضراء فى مربع كنيسة سثر
وايدنر التذكارية .

وبدل مظهر الغرفة على الجلال فى هدوء . ويبلغ ارتفاعها طابقيين : الثانى
والثالث من ردهة الجامعة ، ومهندسها المعمارى هو شارلز بلغنش . والجدران
مطلية باللون الأخضر الشاحب ، الذى يبدو فى بعض الأضواء أزرق فاتح
اللون . وترتفع الأعمدة القصيرة البيضاء المخططة الأيونية من الأرض إلى
الكورنيش بين النوافذ المقوسة . وتعدلى من السقف أربع نجفات بلورية .

وقد سَرَفَتْ نظرى عن أكثر رفاقى القريبين منى تماثيل نصفية من الرمر

وضمت على قواعد حول المنصة التي تحاذى الجدار بأبعاد الزدهة الطويلة . وهناك مثال رائع لبنيامين فرانكلين ، من نحت هندسن فيما أظن ، وهناك آخر للرئيس اليوت ، وآخر لصديقي ومعلمي القديم دين برجز ، وكأنه حتى إلى درجة مذهلة ، حتى يريق عينيه ، وأدق تجاعيد خده الأعجف الأمريكي . وقد علقت فوق الجدران الأربعة صور لرؤساء هارفارد وللعلماء البارزين في القرون الثلاثة الماضية . وهذا هو أستاذ القواعد اليونانية و . و . جودوين ، وعلى كتفه ثوب الدكتوراه القرمزي ، يبشرته النظرة الوردية ، وشمره الأبيض الناصع ، وأبتسامته اللطيفة السماوية . وإذا استثنينا بضعة أفراد بارزين فإن الرجال المعلقة صورهم فوق الجدران أكثر أهمية من الأفراد الجالسين فوق المقاعد .

وقد وضع فوق كل مقعد برنامج مجلد بالورق الأخضر الرمادي الثقيل . وبدأ البرنامج بالرئيس كونانت الذي قال - من بين ما قال - إن هوابنهد قد جاء إلى هارفارد بعد حياة طويلة حافلة في إنجلترا لياقئ سلسلة محاضراته الأولى في الفلسفة ، و « أول محاضرة في برنامج دراسي للفلسفة استمعتم إليها هي المحاضرة التي ألقيتها . »

وروى القنصل قصة وسام الاستحقاق . ولما اطلعت على قائمة أعضائه الحاليين ، وعددهم ثمانية عشر ، لاحظت من بينهم أسماء جلبرت مزي ، و . ج . ترفيليان ، و . ج . و . ماكيل ، وقون وليامز ، و . ج . و . ميسفيلد ، وأغسطس چون . وكثيرا ما طرأ لي أن عددا كبيرا من الرجال البارزين في إنجلترا يشمرون بالسخر في قبول ألقاب المصور الوسطى ، وربما كان وسام الاستحقاق هذا حيلة اخترعتها الحكومة أخيرا (بما فيها الملكية) لكي تواصل تشجيع استمرار العبقرية الإنجليزية .

وأشمل المصور الفوتوغرافي الصباح مرتين بينما كان القنصل يعلق شارة الوسام بشرط حول رقبة الفيلسوف . والوسام كحلية يخطف البصر .

وجلس المشتركون في الحفل - ومن بينهم بك عميد الكلية - الذى كرم الفيلسوف بحضوره - حول مائدة مستديرة ، بدت كأنها تلك المائدة التى جلس حولها وليام جيمز وجوشيارويس وجورج هربرت بامر ، لترسم لهم صورة وهم جالسون مما .

وعلى الحائط الشمالى صورة نبيلة لوليام جيمز . تراه واقفاً إلى جانب مكتبه الذى يبلغ فى ارتفاعه مستوى صدره ، فى غرفة دراسته بشارع إيرفنج رقم ٩٥ . وخلفه رفوف الكتب وصفوف عن المجلدات المغلفة باللون البنى . ومكتبه من خشب الجوز البنى ، وهو يلبس بدلة رمادية ، وشعره ولحيته أحمران وخطهما المشيب . ويمثل ضوء الغرفة لون جو الخريف الرطب الأحمر الداكن . ووجهه وردى وكأنه اكتسب هذا اللون من قضاء الصيف فى الخلاء فى كوكروا بهامشير الجديدة . ونظراته فى الصورة أعنف قليلا من حقيقة نفسه العادية الرقيقة . وقد ألقت شمس الأصيل التى تدفقت خلال تلك النوافذ الغربية ضوءا جميلا على الصورة . وبينما كنت أبدي إعجابي بهم أن انفض الحفل ، جاءنى الأستاذ رالف بارتن پرى ، تلميذه فى أول الأمر ، ثم زميله ، ومؤرخ سيرته أخيرا ، وتحدث إلى :

سألته : « متى رسمت ؟ »

وأجاب : « حوالى عام ١٩٠٨ فيما أظن » .

« وإلى أى حد ترضيك هذه الصورة ؟ »

« إنها ترضينى جدا ! لأن مس الن أمت كانت ترسم بخطوط جريئة » .

« كان عام ١٩٠٨ قبل وفاته بعامين فقط . لا بد أنه كان ضعيفا (والواقع أن كليتنا كان يعرف ضعفه) ولكنه فى الصورة يبدو قوى البنية موفور النشاط » .

فقال الأستاذ پرى « كان دائما يبدو أقوى بنية من حقيقته . وربما كان ذلك لشدة نشاط ذهنه » .

وقد لاحظت نفس الشيء في هوابتهد ؛ فهو يتكلم بقوة الشاب ، لأنه يفكر بقوة الشاب . .

وسألته بمد تقديم الوسام إليه إذا كان يحتفظ بنسخة من كلمته . وكان التبادل بيننا شفويا كله تقريبا ، حتى إنى لم أحتفظ إلا بقطعتين من الورق مكتوبتين بخط يده ، وقد أجبني بأنه سيرسل إلى الخطوط . وفي اليوم التالى تسلمته ونصه كالآتى :

« سيادة الرئيس كرونات : يستحيل على أن أوفى التعبير عن فضل الجامعة التى ترأسها على وعلى زوجتى . لقد مكنتنى هارفارد — كمعهد وكمجموعة من الأفراد — أن أعبر عن الآراء التى أخذت تنمو فى ذهنى طوال حياتى . وأود أن أؤكد إعجابى وعبقتى الشخصية لكثير من الأصدقاء فى هارفارد ، الذين حضر اليوم بعضهم . لقد سمعت خلال حياتى سعادة عظيمة بالتعليم فى بلدين أضافا كثيرا إلى العلم وإلى كرامة البشرية » .

(٤٠)

١٩ من يونية ١٩٤٥

كان يوما عاصفا ، هبت فيه عاصفتان بحريتان : إحداهما عند ماربلهد ، والأخرى عند ناهانت — كما هبت عاصفة ثالثة فى مكاتب تحرير مجلة (جلوب) ، حيث غضب فريق لنشر مذكرات شيانو فى الصحيفة ، وعدوا ذلك دفاعا عن الفاشية . وسر فريق آخر لمرضها فى جميع الأنحاء وتمسكين الشعب من التفرقة بين الفث والسمين » .

وأخذ آل هوابتهد بالرأى الثانى . وقد مر هوابتهد وزوجه عرضا بكبردج لبضعة أيام فى الفترة ما بين عودتهما من لندن ـ مكان فى بدفورد وقضائهما شهرا فى مين حيث يعتمران الرحيل إليها فى يوم الجمعة القادم . وكانت جميع نوافذ مسكنهما

مفتحة على مصاريحها تستقبل هواء الليل الرطب ، الذى يتسلل منه إلى الداخل . نسيم خفيف . وفى آنيات الزهر أعواد نبات الصليب الضخمة البيضاء منكسة رؤوسها . وقد رفعت جميع السجاجيد وأسدت ستائر النوافذ ، فأكسب ذلك الغرف نجوا باردا نقياً منعشاً . وعطرت الجو أزهار شهر يونية فبدت هذه الغرف المألوفة فى صورة غير عادية ، وأشاعت فى المكان جو الصيف .

وكنا نقول كيف إن الطلاب الجليل لخشب الأرض المتين - الذى انكشف الآن - يمسك الماهوجانى كما يمسك أعواد نبات الصليب البيضاء . وعندئذ دخل علينا هوايتهد قادما من مكتبه .

قال : « أرى أن سجاجيدنا قد رفعت . إننى لم ألاحظ ذلك من قبل » .

قالت ، وقد سخرت منه : « نعم ألم ترى أجوس خلال البيت أجمعها الأبعث بها إلى محلات التنظيف » ثم نهضت وتوجهت نحو دولاب طويل من خشب الماهوجانى وقالت : « لدينا شيء نريد أن نطعمك عليه » وكان ذلك الشيء فى كيس من الجلد القاتم ، موضوعا فوق غملى لونه عاجى . ذلك هو شارة وسام الاستحقاق . إن الصليب المائلى مصنوع من الميناء الثمينة ذات اللون الكهرمانى التى تسكن الذهب ، يعلوه تاج ذهبى ، ودائرة من اللاآلىء حول مركز من الميناء ذات اللون الأزرق المسمى ، وقد نقش عليها هذه اللفظة (للاستحقاق) مكتوبة بالذهب . وحولها إكليل من النار .

قلت : « لأعتقد أنهم يقصرون فى تكاليف الوسام »

قالت : « من حسن حظنا أنه لم يكافنا شيئا . إن كل وسام آخر ما تمنحه الحكومة لابد أن يدفع ثمنه الشخص الذى يتسلمه إلا هذا ، فهو هدية من التاج »

« أعتقد أن التاج قد دفع فيه مبلغا . وأود أيضا أن أذكر أن الجامعة قد أقامت

حفلة على صورة رائعة . فلم تُلق الخطب الطويلة ، ولم يشعر أحد بالملل ، ولا ضجيج . ولا حواشي ، ولم يحضر إلا العدد المطلوب فحسب . هل ترى أن مائتي شخص حضور هادى فى الكلية ؟ »

فقال باسم : « كان حضورا عادياً بالنسبة لمن حضر فقد كانوا أعضاء فى قسم الفلسفة — »

قلت : « من الرجال والنساء بطبيعة الحال . »

« — ومن صغار الزملاء وكبارهم — » .

« هؤلاء استطعت أن أتبينهم ، لأنى عرفت بعضهم — »

واستأنف حديثه قائلاً : « ومما بحث السرور فى نفسى حضور السكرتين من القسمين رجالاً ونساء ممن يحملون كثيراً من عبء الإدارة . »

وقالت : « لم يكن لنا شأن بالدعوات فلم ندعُ سوى جون ومارى من نأحييتنا ، وهما بطبيعة الحال جزء من الأسرة . وقد أرضانا ذلك كثيراً . ولم يكن من المؤكد حتى اللحظة الأخيرة أن يتمكن ألفرد من الحضور فقد رقد طول النهار ، وأخيراً نهض وحاول الحضور بنفسه . »

وفى اللحظة التى وصل فيها ردهة الجامعة أحس بالماقية . وأود بهذه المناسبة أن أذكر لك أن دعوتك جاءتك عن طريق علاقتك الرسمية بقسم الفلسفة . »

وجاء دورى فى الكلام فقلت : « عندى لكما نبأ سار . إن لفتنجنسون سيحضر ليحاضر فى تورنتو فى سبتمبر المقبل . إنه لم يطلب إلى أن أخطر أحداً بذلك ولم أخطر سواكما حتى الآن . »

وقال هوابتهد : « لا بد من رؤيته . هل عناك أمل فى حضوره هنا ؟ »

« لست على ثقة من ذلك . إنه يقول إنه ينفق الساعات متفقلاً فى تفكيره

من مشكلة جامعية إلى أخرى ، وأنه سوف يحاضر في تورنتو إذا أمكن أن
نكتب المحاضرات .

فقال هوايتهد : « قل له عندما تكتب إليه إننا سنشمر بخيبة الامل شعوراً
قوياً إذا لم نره » .

وتباحثنا في الطرق والوسائل في شيء من التفصيل .

« إن كتيبهم الصغيرين عن التربية قد أعيد نشرها في هذا البلد في مجلد واحد
بوساطة ماكلان ، وأطلق عليهما هذا العنوان البسيط — : (في التربية) ويقول
لي بائع الكتب في مكتبة (الركن القديم) ، إنه يوزع توزيعاً حسناً » .
قال هوايتهد : « إنه يستحق ذلك . قرأت الكتيبين في الطبعة الإنجليزية ،
وقدرتهما قدرأ كبيراً » .

« متى نشر كتابك (أهداف التربية) ؟ »

« دعنى أر ، فقد نسيت » . ثم توجه إلى مكتبه وعاد بالمجلد وقرأ في
المقدمة تواريخ فصوله المختلفة . ويقع أكثرها بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٢٢ . ثم
واصل الحديث قائلاً : « إن كتاباتى في الفلسفة كانت كلها بعد قدومى إلى
هذا البلد . بيد أن الأفكار كانت تتوالد في ذهنى في خير سنى حياتى . وقد نبت
بعضها لدى عندما كنت في المدرسة وقبل أن التحق بالجامعة . وكنت أستمع إلى
المناقشة في التربية دائماً منذ حداثنى . فقد كان أبى ، واثنتان من أعمامى مشغولين
بها . وكنت في كبردج — كما تعلم — عضواً في (جماعة الرسل) » .

قالت : « كان في ذلك شيء من الشذوذ ، أليس كذلك ؟ ألم تسكن العالم
الرياضى الوحيد في المجموعة ؟ »

وأجاب : « ربما كان ذلك لأننى كنت العالم الرياضى الوحيد الذى
يهتم بالأراء العامة » .

ثم تبين أن هوابند قد نجح في امتحانات الزمالة في ترنتي مصادفة (وللطلاب ثلاث فرص) . وكان الأمل ضعيفا في قبوله حتى لقد انصرف في الصيف دون أن يترك عنوان إقامته .

قلت : « أشك في أنى قد قرأت في العبارات الإنجليزية تفكيراً محكما يبلغ ما بلغ في كتابك (أهداف التربية) . هل الكتابة سهلة عندك ؟ »

قال : « نعم . إذا كانت في موضوع أود الكتابة فيه . وبدا الشك على وجه زوجته فسألها : .

« مارأبك ؟ »

فذكرته بقولها : « إنك مليء بالافكار ، وأنت تدونها كلها أولا ، وهي تشتمل على كل شيء . ثم يأتي بعد ذلك دور الترتيب والنهذيب — »

« بعمولتك »

« نعم ، أنت تقرأ بصوت مرتفع وأنا أصنى ثم قالت « لتؤيدنى : » عنده عادة سيئة في تكرار لفظة بعينها مثل (لذلك) أو (بينما) — وفي كل صفحة بعد أخرى ترد هذه اللفظة »

« هل يفعل ذلك أيضا ؟ إن التكرار نوع من التأثير المغناطيسى في النفس . » وأضافت موجهة الى الكلام : « إنى لأعجب كيف نستطيع أن نكتب بهذه الكثرة . »

« وإنى لأعجب أيضا لذلك . والجواب على هذا هو أنى لا أكرر الكتابة . فأنا أكتب مرتين كل أسبوع في هذه الأيام ، أو ثلاث مرات عند الضرورة ، ولكنى أقتيب شهورا أسترده فيها الأنفاس » ثم سألت هوابند : « ماذا تفعل لكي تبقى نفسك الإجهاد ؟ »

وأجاب ، وقد ابتسم ابتسامة رقيقة على ما يصيبنى من حبوط ، قال : « لقد حضرت مرتين في اليوم عدة سنوات منذ كنت في الرابعة والعشرين من عمرى . ومن الحق أن عطلة الصيف كانت تمتد من أواخر يونيو إلى أوائل أكتوبر ، كما كنا نتمتع بأربعة أسابيع في عيد الميلاد وخمسة في عيد القيامة . فلم يكن جدول الأعمال ثقيلا » .

وذكرته زوجته بقولها : « واسكن من الحق أيضا أنك لم تنكف عن العمل قط . إذا كنا برحلة في القارة الأوروبية لم تنع ظرف خطاب في جيبك لم تملأ ظهره بالكتابة فوق ركبتك في قطارات السكك الحديدية أو في الفنادق كالمطرات على ذهنك الأفكار . وإذا مكثنا في إنجلترا في مكان ما في الريف كنت أيضا تنصف مذكراتك الفلسفية الخاصة » .

ووجهت إليه خطابي قائلا : « الظاهر أنك لا تعتقد أن الرجل يستنفد نشاطه وينفق كل طاقته للعمل بالتعبير الدائم عن نفسه - في حدود وقته وحيويته » . (وكنت أفكر في أكثر من باحث علمي ألقى محاضراته حديثا وكان بإمكانه أن يصدرها كتابا . وكنت كذلك أفكر في الإجهاد الذي ألمه حولي بين الصحفيين الذين لا يستطيون - أولا يريدون - أن يتوقفوا عن العمل وقتا كافيا) .

وأجابني هو ابتهد بقوله : « كلا . إنى أعتقد أن المرء يفيد من مثل هذا التعبير . فهو يوضح الآراء الفاضلة بصياغتها حديثا أو كتابة . وبالتعبير يطور أفكاره ويشق طريقه إلى أفكار جديدة » .

« ربما كان ما كنت أريد السؤال عنه هو : هل تستمتع بالكتابة ؟ » .

« نعم ، أحب أن أكون في جوها » .

« وإحكام الفكر في أسلوبك - هل تعتقد أنه نشأ عن تدريبك الرياضي ؟ »

لقد تعلّمتَ طريقةً من طرقِ التعبيرِ ثم انتقلت إلى غيرها . وكأنك - بعد تدريبك تدريباً ذهنياً قاسياً - انتقلت في يسر إلى فن الكتابة والكلام .

قالت زوجته : « لقد مر وليام جيمز بشيء من هذا . فقد تعرض لتدريب ذهني شاق في الطب أولاً ، ثم انتقل إلى الفلسفة ، وعلم النفس ، وتستطيع أيضاً أن تقول إلى الأدب . »

قال هوايتهد : « لقد أُنذت من الاشتراك في المناقشات العامة في ترنتي ، ثم من خبرة واسعة فيما بعد بمشكلات التربية في جامعة لندن - وذلك بعينه هو نوع التربية الذي يرضى عنه أفلاطون . إن الرياضية لا بد أن تُدرس ، أما الفلسفة فيجب أن تناقش . »

وكان هذا الرأي قبلة عنيفة ألقى بها . ضمت بعد إلقاءه برهة لكي يعطى فرصة لاستيعابه ،

ثم واصل حديثه بعد ذلك قائلاً : « ولا بد أن تتسامح في انعدام الدقة في اللغة ، ومهما قلتُ فلست مبالفاً في ذلك . وهو موضوع أعود إليه حيناً بعد حين . ومن يقل بأن الفكر يمكن أن يعبر عنه بالرموز اللفظية تعبيراً كاملاً أو مقبولاً فهو معتموه أحق . وقد عاد هذا الفرض على الفلسفة بالضرر البالغ . خذ مثلاً أبسط عبارة عن حقيقة من الحقائق : إننا نحن الثلاثة نجلس في هذه الغرفة . فإن كل ما له أهمية تقريباً لم يذكر في هذه العبارة ، فإن (هذه الغرفة) تفترض وجود بناء ، وكبردج ، والجامعة ، والعالم من حولنا الذي نحن جزء منه ، والنظم الكوكبية التي يكون عالمنا جزءاً منها ، والماضي السحيق الذي انحدرنا منه ، والمستقبل البعيد الذي ينبض في عروقنا ويسبقنا إلى الأمام . والعبارة تفترض سابقاً شخصياتنا المستقلة : كل منا يختلف عن الآخر ، كما تفترض كل ما نعرف ، وكل ما نحن عليه ، وكل ما قمنا به من عمل . إن التعبير باللفظ عن جلوسنا هنا يكاد لا معنى

شيئا ١٠ وبالرغم من هذا ، فانا - في موضوعات - أكثر من هذه جدية
بكثير ، وعلى نطاق أوسع مدى - . نقبل دائماً أقوالاً عن حقائق تاريخية ،
وتأملات فلسفية أشد افتقاراً إلى الدقة أو إلى أية علاقة بالحقائق الدقيقة . وحينما
نحاطب بهذه الأفكار البالغ في تبسيطها أشخاصاً لا يستطيعون أن يحيطوها
بالفروض المحدوقة ، فإنها لا تعنى شيئاً ، ولا تفهم ، بل ولا تطرق الذهن ... » .

... وعلى مائدة صغيرة على يساره وضعت كأسان من النبيذ ، له ولي . فسهما وقال :
« (واحد وواحد يكونان اثنين) واحد وواحد من ماذا ؟ كأس واحدة ،
أو كأس واحدة بها بعض النبيذ ؟ أو واحد وواحد في أى مكان ؟ على المائدة ،
أو في هذه الغرفة ، أو في هذا السكون ؟ ثم إن كأسين ليستا ولا يمكن أن
تكونا متساويتين تماماً بأية حال . ولا يمكن أن تمثلتا بكميتين متساويتين من
النبيذ . فهل نعنى إذن (واحد زائداً لواحد) بمد حساب كل نقص أو إضافة
ضرورية ؟ ولكن الكأسين تموجان أيضاً بالنشاط الذرى . ولولا أننا تعودنا أن
نقيس الوقت بمقاييس ناقصة مضحكة من وعينا بامتداد الحياة البشرية ، لتذكرنا
أن هاتين الكأسين نتحلان أمام أعيننا . إنى أرفض أن أخدع بمثل هذا الانعدام
في الدقة الشنيع في استخدام الألفاظ » .

وكان فيما قاله ما يملأ الرأس بالتفكير في برهة واحدة . وقد حوّم قليلاً
حول هذا الموضوع وسألنى : « هل تظن أن الإغريق كانوا أول شعب في التاريخ
أحس بالحاجة إلى شيء يخضع للدقة في اللغة ؟ لقد كانوا بحاجة إلى تفسير صحيح
لهوهم . متى كان ذلك ؟ »

« في وقت ما في القرن السادس ق . م . والفروض أنه قد تم بأمر من
برستراتوس » .

« ومتى تظن أن الأدب العبرى القديم قد بدأ ؟ » .

وتحدثت عن الطريقة المعروفة التي جمعت بها في التوراة ، ثم أضفت إلى ذلك قولي : « إن العهد القديم والقصاصد الهومرية كلاهما من (الكتب التقليدية) التي استغرقت في استكمالها قرونا . وفي طريقة جمعهما - أحدهما بوساطة اليهود القدماء ، والآخر بوساطة الإغريق القدماء - ترى الفرق واضحاً جداً في أسلوب الشمين وروحهما : فقد أخرج أحدهما كتاباً في الأخلاق ، والآخر عملاً فنياً . »

قال : « إن المبقرية العبرية فريدة في بابها . كانت خلقية إلى درجة كبيرة . كان اليهود من أبرز الشعوب التي عاشت في التاريخ . وكرر ما قال من قبل ، وهو « إنى بالرغم من هذا لا أعتقد أنى كنت أحب العيش بينهم . فقد كان الإغريق أقوى منهم منطقاً » .

قلت : « وبالرغم من هذا فقد أخرج اليهود كتاباً من أعظم الكتب التي عرفت في التاريخ ، وقد فاق (الإلياذة) ! »

فقال هوايتهد وعيناه تبرقان : « إذا اعتقدنا في الوحي المنسوب إلى الإنجيل ، فتعجبنا كيف يُختار لتدوين بعضه رجل مثل سليمان ، برغم من أنه كانت لديه مليون زوجة وألف محظية » .

وكان من رأيي « أنه لو كان كذلك ، فلا بد أن يكون قد حدث في شبابه حينما لم تكن له سوى زوجتين ، وحينما كان في بداية حياته » .

وأضافت إلى ذلك مسر هوايتهد قولها في جد ورزانة : « وقبل أن تبدأ قبهاته الماثلية الثقيلة » .

وعلقت بقولي : « إن داود شخصية أدعى إلى المطف ، وليس من شك في أن مذكرات قصّره أشد إخلاصاً مما يكون عليه عادة هذا النوع من الأدب . ولا تزال الألوف من الفتيان الخارجين على الدين يسمون باسمه - بعد ما بطلت التسمية بهكتور بزمان طويل . إن داود اسم جميل . أما عن سليمان ، أفليست

زوجاته الإحدى أو مليون مجرد قصة طويلة ؟ إذا كان المرء سيقص أ كذوبة كبرى ، فأحر به أن يروى قصة جيدة » .

وسأل هوايتهد : « هل هناك ما يدعو إلى الظن بأن الأمم المحيطة قد أعارت اليهود القدماء اهتماماً كبيراً - أى قبل عهد الفزوات الرومانية ؟ » .

واعترفت بجهل في هذا ، ولكن ما كان ينطبع في ذهني هو أن هذه الأمم لم تمر اليهود القدماء إلا اهتماماً قليلاً نسبياً .

واستطرد قائلاً : « إن ما أود معرفته هو إلى أى حد كان الساميون والهلينيون يمدون التعبير عن آراء كانت سائدة بوجه عام في ذلك الجزء من العالم القديم ، أم لم يفعلوا ذلك قط ؟ وأعني تلك الآراء التي تدفقت إليهم من شعوب أقدم وأسم مجاورة . إننا نعلم بالطبع أن شيئاً من هذا قد حدث ، وأن بعض الآراء الشرقية كانت معروفة لأفلاطون ، وأن الأنبياء القدماء قد سبقوا يسوع في كثير من آرائه » .

« حينما أسأل - وكثيراً ما يحدث ذلك - كيف أعلن تفجير المبقرية في اليونان من القرن السادس إلى القرن الثالث ق . م . أ كاد لا أعرف من أين أبدا » .

وأجاب هوايتهد بقوله : « لا بد أن تذكر أن شرق البحر المتوسط كان بقعة عجيبة ، واستمر كذلك أمداً طويلاً . فهناك إلى جانب الهلنيين والساميين الثقافة الفترانية الميسينية ، والفينيقيون ، والإمبراطوريات الثلاث الكبرى ، بابل وآشور ومصر » .

وهذه اللوحة السريعة للنظام الرتيب الذي تنهار على أساسه الإمبراطوريات دفعه إلى التحدث عن زيادة السرعة في تطور عالمنا اليوم عنها في أى عهد سبق .

واعترضت الحديث مسز هوابنهد بهذه العبارة : « لقد اتفقنا - لو استطعنا - أنا وألفرد أن نمود مرة كل خمسين عاماً لنرى ما حدث » .

قال : « ولا نحتاج إلى البقاء سوى شهرين في كل مرة » .
« إنك تريد (أن تموت موتاً مؤقتاً) مثل توم سوبر » .

قالت : « كلا . بل ثلاثة أشهر . إننا في حاجة إلى مثل هذه الفترة لكي
نتمثل بقدر ما نستطيع » .

وتابع هوابنهد الحديث في الموضوع الأساسي قائلاً : « وسواء أُرختَ هذا
الاطراد في سرعة التطور منذ مائة وخمسين عاماً ، أو منذ خمسين عاماً ، فإن
التغير في مجتمعنا يفوق كل ما سبقه في التاريخ . إن الآراء بعيدة المدى في الطبيعة
البشرية لم تتغير ، فهي تتعلق بطريقة التفكير ، والشعور ، والمعمل . أما
ما استجد في موقفنا فهو - « وهنا توقف قليلاً وابتسم ، ثم واصل الحديث .
قائلاً : « ما أسميه (الحيل) » .

« وماذا تعني (بالحيل) على وجه الدقة ؟ »

« أعني بها الأسماء التي تطلق على مختلف الشعارات السياسية والتي تسهل
قبولها ، أعني الوسائل التي تقابل بها الأزمات الاجتماعية المختلفة ، أعني الأسماء
التي نطلقها على التطور الاجتماعي ... وما شابه ذلك » .

وتدخلت في الحديث مسز هوابنهد وهمت قائلة : « سأعطيك مثلاً . عندما
تجد حكومتكم نفسها مضطرة إلى اتباع سياسة استثمارية ، تسمونها (حسن
الجوار) ولكنكم برغم هذا تحتفظون بحجز المحيط الهادى - وينبئى لكم أن
تفعلوا ذلك . فقد كافتكم كثيراً . أما إذا فعلت إنجلترا مثل ما تفعلون ، أطلقتم
عليه (مناطق النفوذ) » .

ووجهت حديثي إلى هوائيند سائلا : « هل تعتقد أن الولايات المتحدة استعمارية ؟ » .

قال في هدوء : « لاشك في ذلك » .

ولما تأكدت من آرائهما لم أتابع الموضوع . بل عدت إلى تعريف « الحيل » .
قلت : « (الحيل) إذن هي الطريقة التي يدور بها الناس حول الأركان على محجة دون الاحتكاك بصنابير المياه » .

قال : « إنهم لا يتحاشون دائما هذه الصنابير » .

فماقت على ذلك بقولي : « إن الحيل ، مألوفة جدا لدى . فهي تشغل الجانب الأكبر من فراغ الصحف . ولكن مارأيك في الآراء بعيدة المدى للطبعية البشرية - كيف تفكر ونحس ، ولماذا نسلك هذا السلوك . . . »

قال هوائيند : « هذه الآراء مألوفة لديك أيضا ، فقد دونها الإغريق . والمعجيب في الأدب اليوناني أنه لا يشيخ . فهو اليوم في مثل الحيوية التي كان عليها عندما كتب » .

قلت : « بل أكثر من ذلك . إننا ندرسه لكي نفهم أمورا عن أنفسنا لا يستطيع كتابنا أن يذكروها بمثل هذا الوضوح » .

واستطرد هوائيند قائلا : « إن فناء الآداب دراسة فريدة . هب أن الأدب اليوناني قد أيبس كله - وقد كان ذلك شديد الاحتمال - لو حدث ذلك ما كان ينقصنا ذلك الذي لم نعرفه قط ، ومع ذلك فإن حياتنا بأسرها كانت تمسى أفقر مما هي بدرجة كبرى ! أعتقد أن جامعة الإسكندرية هي التي أنقذت هذا الأدب ، واحتفظت بأوراق البردي ونشرت تأثيرها ومحتوياتها على نطاق واسع مكن لها البقاء . إنني أسأل نفسي أحيانا ما الذي يحمل للأدب قيمته التي تخلده . إن أدب القرن الثامن عشر - على سبيل المثال - قد فقد كثيرا - بل أكثر ما فيه

من عناصر التشويق ، اللهم إلا إذا كان المرء يقرؤه لكي يفهم كيف كان الناس يعيشون ويفكرون خلال تلك الفترة . وإن سرعة التطور الاجتماعي وعنفه في وقتنا هذا كفيل بأن يحكم على آداب كثيرة أخرى بالإهمال — بما فيها بعض ما كتبه معاصرونا الذين ظفروا منا بالتقدير — أعتقد أن الآداب (الاجتماعية) هي التي تسقط في البحر حينما ينبغي أن تخفف حمولة السفينة لكي تنجو من الماصفة » .

« لست على ثقة مما تعني بالآداب الاجتماعية »

« الآداب التي تفترض سلفا استمرار نظام اجتماعي قائم — واقصد به النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه » .

« هذا الشرح يحمل الأمر أشد وضوحا . ويستطيع المرء فعلا أن يذكر أعمالا أدبية عديدة كان لها قدرها في القرن التاسع عشر — وهي بالفعل من الطراز الأول في بعض الأحيان — وقد ألقى بها في اليم التطور الاجتماعي في وقتنا الحاضر » .

قال : « إن كتابات الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أقدر على البقاء » .

« وأعتقد أنك ذكرت أيضا قدرة الأدب اليوناني على البقاء . فهو وإن يكن قائما على النظام الاجتماعي السائد في ذلك الحين ، إلا أن ذلك النظام الاجتماعي قد تعرض للفحص والنقد المستمر من القرن السادس إلى القرن الرابع ، كما أن بقاء هذا النظام كثيرا ما تعرض للخطر ، وقد تنوعت أشكاله وتطورت بسرعة هائلة ، حتى إن أكثر كبار الكتاب من الإغريق قلما سلموا — فيما يبدو لي — بأنه نظام ثابت دائم حتما . وبعض كبار الكتاب منهم — كأفلاطون ، وثيوسيديد وأرستوفان — كانت لديهم في نهاية القرن الخامس تقريبا فكرة واضحة جدا

بأن نظامهم الاجتماعي مهدد بالانهيار . »

وقال هوايتهد : « وإن أردت مثالا آخر مما أسميته (الحيل) ذكرت لك معاملة الهيئات الصناعية الكبرى . لقد بدأنا باعتبارها (أشخاصا) . وكانت هذه الفكرة تؤدي خدمة طيبة لإنجلترا في القرن الثامن عشر في علاقاتها بالهند - وإن كنت لا أقر بأن الهنود قد رضوا عنها كما رضى عنها الإنجليز . ولا بلغنا نهاية القرن التاسع عشر أصبحت هذه الفكرة عتيقة لا يمكن الدفاع عنها . فقد تدخلت هذه الهيئات إن خيرا أو شرا - في كل أركان حياتنا ، وأصبح الزعم بأن الهيئة (شخص) كلاما لا معنى له . فللمرء مشاعر وعواطف ورغبات ومطامع ، والهيئة وحدة مستقلة لا شخصية لها . ومن خطئ الرأي أن نفترض أنها لن تخضع تدريجيا للرقابة العامة » .

وقد دقت الساعة الماثرة من زمن بعيد من ساعة البرج بالقاعة التذكارية ، التي تمكن مشاهديها من نوافذ مسكنهما ، وكان المطر يتساقط .

وبناء على اتفاق سابق سحبت مسز هوايتهد مقعدا إلى جوار المكتب المصنوع من خشب الماهوجاني ذي الأدراج الستة الضخمة وبدأت تبحث عن صورة ألفرد الفوتوغرافية التي وعدت بها . وتطور هذا الجهد إلى عمل ضخم ، وأخرجت الأدراج واحد بعد الآخر ، وانقلبت محتوياتها رأسا على عقب ، أو سقطت على الأرض حزم ثقيلة من المخطوطات . وكانت طريقةها في البحث ، واستفراغها فيه كلية ، شائقة لافتة للنظر . وقد نسيت نفسها تماما ، وأمسى موقفها يدعو إلى التابعية في حد ذاته ، وطرأت على ذهني فكرة طالما وردت على خاطري من قبل وهي هذه : « إن هذا العمل يكون له أثره فوق المرح . إنها تبحث عن شيء في المكتب ، ومحتويات المكتب تقلب بصورة شائقة ، وبعضها يسقط فوق الأرض ، وهي تفحص بعضها الآخر في حجبها : إن هذه المرأة ربما

قامت بدور الممثلة خير قيام . وقد خطرت لي هذه الخواطر كوميض البرق .
وكانت أنيقة اللبس ، وفي مطلع المساء حينما كنا نقلب شارة وسام الاستحقاق ،
وضعت الشارة على نسيج ردائها لتبين لنا تناسق الألوان . ولكنها لم تعلق الشارة
حول عنقها ، ولم تكن هي المرأة التي تفعل ذلك !

قلت : « تخي من البحث ، فهو عمل شاق جدا ، وترقى فرصة أخرى » .

قالت : « إن انتظرنا قلن نجدها »

« هذا حق . وقد انتظرتُ بالفعل تسع سنوات » .

وأخيرا أخرجت ما كانت تبحث عنه — صورة فوتوغرافية للفرد في
مكتبه حينما كانا يقطنان في كانتون . وكان جالسا في مقعده المنجد بالجلد ، ولوحة
كتابته موضوعة على ذراعي المقعد ، ويداه مقيودتان فوق كومة من المخطوطات .
وخلفه صفوف من الكتب فوق الرفوف ، وإلى جواره فوق نضد منخفض قدح
من تلك الأقداح المألوفة التي كثيرا ما تناولنا فيها الشكالاته »

قلت : « إنني أفضل هذه الصورة على صورته في عيد هارفارد المثوى الثالث .
لأنه في هذه الصورة يفض الطرف ولا يرى المرء عينيه » .

قال : « دعني أريك أول صورة أخذت لي » ثم توجه إلى حجرة أخرى وعاد
بمجموعة من الصور القديمة ، وتصفحها ، ثم قال في نهاية الأمر : « إنني لا أستطيع
أن أجدها » ثم قال : « ولكن ها هوذا ناظر شر بورن حينما كنت بها طفلا ، وهو
من أعظم من عرفت من نظار المدارس ، وهذا هو جدي » .

« إنه يبدو مثالا للرجل الإنجليزى في عهد فكتوريا . هل عاش حياته كلها
في القرن التاسع عشر ؟ »

« تقريبا . وقد ولد في عام ١٧٩٤ ، وعاش عيشة طيبة إل ما بعد الثمانين من

عمره . وقد أخذت له هذه الصورة وهو في نحو الثمانين من عمره .

« إذا كان هذا الوجه لا يدل على إنجلترا في القرن التاسع عشر .. ا »

فقال خفيده في نعمة فكاهية استعاد بها الماضي : « كان يحكم المدينة .
وخطيب للجواهر لم يكن له مثل » .

« كم كان عدد سكان المدينة ؟ »

« عشرين ألفاً » .

« إننا نسمى هذه مدينة كبيرة . أما أنا فقد نشأت في مدينة صغيرة ، عدد
سكانها ثلاثة آلاف . »

« إننا نسمى هذه قرية » .

وقالت مسز هوآينهد « ها هي ذى » وأخرجت بفتة من درج خفي بمكتبها صورة
فوتوغرافية صغيرة في إطار بيضاوى من البرونز المذهب محفوظ في قطعة من الخمل
القرمزي بهت لونها ولكنها ما زالت داكنة . وكانت الصورة مبطنة بالجلد
القوى ، ومعدة بحلقة من النحاس تعلق منها فوق الحائط . وقد أطلعني عليها
وقال :

« هذه أول صورة لى »

ورأيت في حجر مرهبة باسمه طفلا في سن الواحدة ، وقد انحنت نحوه في عطف
شديد . وكان الطفل في رداء من الشفوف (الوساين) الأبيض ، ملاحه غليظة ،
وشعره أشقر ، لم يعلل بعد لكى يقص ، ورأسه قوى الاستدارة ، ملاحه ثابتة ،
ونظرته حازمة . ولو طلب إلى أن أحدث لن تكون الصورة لكان من اليسير
على أن أتكهن بأنها صورة لطفل زيطانى .

ثم قالاً إنهما سيذهبان إلى مين يوم الجمعة .

« وما عنوانكما ؟ »

قالت مسز هوابنهد : « جزيرة باتلشپ ، بحيرة سيياجو الصغيرة ، جرای القريبة . إن الجزيرة تبلغ في مساحتها ربع الفدان تقريباً ولها هذه الميزة الكبرى (وهنا ألقت نظرة جانبية إلى الفرد) وهي أن المرء لا يستطيع فيها أن يقوم برحلات طويلة على قدميه » .

(٤١)

في أغسطس من عام ١٩٤٥

كانت حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ في شهر أغسطس تسير بسرعة نحو نهايتها . ومن بين الانفجارات التي حدثت القنابل الذرية التي ألقيت في مكانين : الأول في هيروشيما في ٦ من أغسطس ، والثاني في نجازاكي في ٩ من أغسطس . وقد شنت الأحداث العاصفة الأذهان إلى درجة قصوى حتى باتت الشئون الشخصية الخاصة لكل فرد وكأنها حلم يقظان . وفي المساء الذي تلا إلقاء القنبلة الذرية الأولى كنت عند آل هوابنهد . وكان هناك أيضاً الأستاذ هنري موريس شفر من قسم الفلسفة بهارفارد . وكنت أتوقع أن يتحدث هوابنهد في النتائج الاجتماعية للانفجير الذري . غير أنه استمع إلى الموضوع في أدب جم ثم رفض أن يتحدث فيه . ولم يناقشه إلا بمدام أو عامين . ولكنه حينئذ كان من القلائل الذين يعرفون ما يكفي لكي يدركوا ماذا يمكن أن يجتبه الجمهور .

وكان شارلز هيكسن يرسم له صورة زيتية . وقد انتهى من تخطيطين تجريبيين . وكان على هوابنهد الآن أن يجلس سبع مرات ، كل جلسة منها ساعتان ، من

الساعة الحادية عشرة صباحاً حتى الساعة الأولى من بعد الظهر ، وهي أطول مدة يمكن أن يحتمل هوايتهد فيها الجلوس . وكانت الجلسات تخفف بقدر المستطاع بالحديث بين أربعتنا. وأكثر هذا الحديث لم يسجل بسبب ضغط الحوادث العامة . ولكنني احتفظت بأجزاء منه . ولما سئل هوايتهد : « أيهما أهم : الوقائم أو الأفكار ؟ » .

تدبر الأمر قليلاً ثم قال :

« الأفكار التي تتعلق بالوقائع »

وفي خلال الحديث عن كتاب « تنوع الخبرات الدينية » لوليام جيمز ، قال :

« قل من يدرك صعوبة التفاهم باللفظ . ولو أني أردت أن أكتب شيئاً عن شخصيتك ، لاستطعت بطبيعة الحال — ولكن ما أكثر ما يبق مما لم يمكن صياغته في كلمات . ومن ثم فإنه عندما يظهر التوازن النادر للمعرفة والإدراك ، كما ظهر عند وليام جيمز — وهو من أولئك الذين يستطيرون أكثر من سواهم أن يتفكروا الكثير من أفكارهم — كان من مميزات نظامه الفلسفي أنه بقي ناقصاً . ولو سد هذا النقص لقل شأن هذا النظام . إن في محاورات أفلاطون ثروة من الفكر والإيجاء والتلميحات التي ترمي إلى بعيد . ولكنه حينما أراد فيما بعد أن يكون أشد صراحة فيما يتعلق ببعض هذه التلميحات ، تقلصت أفكاره .

« ويمكن أن يحدث مثل ذلك في البحث العلمي . والبحث العلمي بطبيعة الحال أهمية عظمى — وهو يتطلب المعرفة الدقيقة ، والتأمل — ولكن كثيراً من كبار الباحثين يهبطون بالمعاصرة إلى المستوى المادي .

« خذ مثالا لذلك چون ديوى ؛ إنه عندما نقل فلسفة وليام جيمز ضيق نطاقها كثيراً فيما أظن . إن الوعي بالركبات وبالإمكانات الماثلة دائماً في خبرة

الإنسان مضمون في كل ما يكتب جيمز . ولكن دوى من ذلك . وإدراك
 بوليام جيمز بالمدى الفسيح وبتشابك العلاقات في كل الموضوعات جملة من أصحاب
 العقول الفلسفية الكبرى التي عرفها التاريخ . وهذا الإدراك - فوق هذا - فيه
 من الإحساس وهزة الشعور ما يضمن لبوليام جيمز البقاء كرجل من رجال الأدب ،
 إن لم يكتب له الخلود كفيلسوف . ولكن لتفكيره الفلسفي صفة البقاء . عندما
 كنت أؤدي الامتحانات للحصول على درجتي الجامعية في الرياضة ، كنا نحسب أن
 الأوجه الطبيعية والميكانيكية للعالم معروفة كلها مستقرة ، مع استثناء بعض
 المشكلات التي لا تترض طريقنا والتي كان يشتغل بها أشخاص كفاءة ، والتي لا بد
 أن تحل في وقت قريب . ثم تقوض كل شيء . ولكن عقل وليام جيمز كان
 من النوع الذي يستطيع أن يواجه صدمة الانفجار ، التي أودت بالكثيرين
 غيره .

كانت الأحداث التي تدور أثناء جلساته للتصوير مرحلة أحيانا ، جادة أحيانا
 أخرى ، لأننا بتنا على علم بأن مذبح الحرب قد قاربت نهايتها ، مؤقتاً على الأقل .
 وكان هوابتهد وزوجته يرفهان عنا بقصص عن حياتهما الزوجية أيام الشباب في
 رامزجيت وفي كبردج . ومن تلك القصص ماروي لنا عن ليدي جب وزوجها
 سر رتشارد الفضوب .

روت لنا مسز هوابتهد : « أنها كانت تلعب الشطرنج في المكتبة مع الشاب
 آرثر جيمس بلفور . وظل سر رتشارد يدخل ويخرج من الغرفة فيقطع عليهما
 اللعب . وأخيراً نهضت ليدي جب وأغلقت الباب بمد خروجه . فناد ، وحاول
 الدخول ، وخشخش القفل ، ثم بدأ يركل الباب . فصاحت ليدي جب عندئذ
 وقالت له اركل ماشئت يا عزيزي ، فالباب بابك وطلاؤك طلاؤك » .

وروي لنا هوابتهد كذلك قصصاً أخرى .

قال : « كانت كنيسة أبي في رامزجيت بناءً نورماندياً قديماً بسقفا بقية

كالبرميل . وكانت من حيث فن البناء قوية الأثر، في حين أن الاستماع فيها لم يكن سهلاً . فإن جلست في نهايه الكنيسة شق عليك أن تسمع كلمة واحدة من كل عشر كلمات . ولم يكن حينما كان أبي يعظ ، لم تكن هناك مشكلة ، فقد كان صوته قوياً رناناً ، يسرى في كل الأرجاء ويتردد صداه على طول القبة ، محملاً بالجد والحكمة الخلقية . وكان ممن يؤمنون بالمهد القديم . أما المهد الجديد فلم يعن عنده كثيراً . وكانت عنده حماسة الأبناء القدامى ، وإن استمعت إليه لست في نفاته عمق الشعور . ولم يكن السامع بحاجة إلى أن يقين الكلمات : ففي نفاته ما يكفي . وأشد ما كان يهز الشاعر صدق صوته الوقور . أليس كذلك بأثقل ؟ »

فوافقت على ذلك وقالت : « كل ما ذكرت صحيح ! ونقيضه أيضا صحيح . لقد كنت نصر في وقت خطبتنا أن تصحبنى إلى صلاة المساء في كنيسة سنت ماري في كبرج . وكنت أرندى خير ما عندى من ثياب ، لأنى كنت أدرك تماماً أنى سوف أكون محطاً للأنظار . كما كنا ندعى - وكنت أخشى ذلك - قبل الأوان لاعتلاء المذبح ، ونجلس في المقدمة حيث لم تكن هناك صعوبة في الاستماع » .

ثم وجهت سؤالها إلى قائلة : « ثم ماذا تظن قد حدث ؟ »

« شئ مقبص أو شئ ممتع . ولا أعتقد أن الأمر كان وسطاً » .

فقلت في حزم : « بل كان هذا وذاك . قام بالوعظ قسيس شاب ، وفي نهاية موعظته قال - وكان ذلك في مرة من المرات التي لم نسمع فيها كلماته صوته -

قال : « وأخيراً ، أيها الإخوة ، أقول لكم إن الحياة لا تتخاق المشكلات لمن يحسن السلوك » .

« لم يقل ذلك » !

« بل قال . وكانت لي ولألفرد قدرة مثالية على التحكم في عضلات الوجه ،
ولكن لما انصرفنا وأصبحنا بعيدين عن الأسماع قلت له : « قد تكون
الكاثوليكية عيوبها ، ولكنك في الكنيسة الكاثوليكية على الأقل لا نجد مثل
هذا قط » .

وأجاب الفرد بقوله : « حتى في الكنيسة البروتستانتية يعزى لا يسمع
المرء كثيراً في مثل هذه الجردة » .

اعتاد هوايهد إبان إقامته في لندن ، حينما كان يضطر إلى ركوب الأنوبيس
أن يصطحب — كما قال — شخصية من الشخصيات التاريخية ، ويضعها إلى
حواره ، وهو في أكثر الأحيان في الطابق الثاني من الأنوبيس . وكان يقابل
الأحاديث الحية مع صاحبه ، ويشرح له معنى ما يشهده من أعلى الأنوبيس . ثم
يصنع إلى تعليق صاحبه . من كان هؤلاء الصحاب ؟ كثيراً ما كان يصحب إسحق
نيوتن ، أو أرسطو ، أو أرشميدس ، ولكنه لم يصحب أفلاطون قط . لماذا لم
يصحبه ؟ إنه لم يرض مطلقاً أن يذكر السبب . وربما كان هو نفسه لا يعرف
السبب . ولكن أفلاطون لم يكن قط من رفاق الطريق .

وأدى بنا ذلك إلى شيء من المزاح عن الأوربيين الذين يأتون إلى هذه البلاد
في رحلة عابرة ثم يعودون إلى بلادهم ويؤلفون الكتب عن كل شئوننا .

فقال هوايهد : « هذه هي الطريقة الوحيدة للقيام بهذا العمل . إنني بعد
ما أقت هنا أكثر من عشرين عاماً لا أحلم بأن أكتب مثل هذا الآن .
ولكني لو دوت انطباعاتي عن أمريكا بعد إقامتي فيها ثلاثة أشهر ، لكان هذا
الكتاب هو كتاب الكتب ! »

وذا صبح كنا نتحدث عن الثورات ، وبخاصة في فرنسا وروسيا .

فقال هوايهد : « إن التحطيم الحقيقي في الثورات ليس في إطاحتها بطبقة

جأكة أو بإعدامها ملكا . فقد كانت إنجلترا تسير سيرا حسناً بدون شارل الأول ، واستطاعت فرنسا أن تستغنى عن لويس السادس عشر . ولم يكن آل هوهنزلرن خسارة كبرى لألمانيا ، ولم يكن آل هابسبرج خسارة للنمسا ، دمع عنك آل رومانوف بالنسبة لروسيا . وحتى حينما تطيح الثورات بالطبقات الحاكمة ، فإن التخلخل الاجتماعى قد لا يكون خطيرا . كانت الحياة فى باريس إبان الثورة الفرنسية — حتى فى عهد الإرهاب — على مدى شوارع قليلة من ميدان الكنفكورد والمقصلة تسير سيرها الطبيعى . إنما يكون تحطيم الثورات الحقيقى فى إزالة أفراد الشعب الذين يقومون بالخدمات الاجتماعية الصغرى ، أولئك الذين يقومون بالعمل اليومى الذى يسير قدما بعمليات الحياة المتمدنة المادية ، ولا أعنى مايسمونه المهن الملية ، كالقانون ، والطب ، وأعمال القمس ، بل أعنى المعلمين ، وصغار الموظفين ، والعمال المهرة ، أولئك الذين يمدون كيف يقومون بالأعمال الضرورية التى ليس لها مظهر . هؤلاء هم النسيج الذى يفصل قشرة الشجرة عن لحائها ، الذى لو تمخلخل لذوت الشجرة . »



كان لابد لإحضار شارلز هيكسن — وهو آئند فى السبعين من عمره — إلى تلك الجلسات التصويرية من بمض الحيل . فهو فى الصيف يقطن فى شاركسموث وهى مقره فى مانشستر على الساحل الشمالى . وركوب القطار إلى بوسطن والرحلة التى تتلو ذلك فى المرات التحتمية إلى كبردج لى باغ مكان التصوير زهقه أشد الإرهاق فى جو أفسطس المضى . ومن حسن الحظ أن لجنة التمرين فى ماربلهد قد استنارت وتكرمت بمنح الغاز الإضافى الذى يلزم لنقله من محطة سالم للسكة الحديدية إلى كبردج ذهاباً وإياباً . واستمرت الحال كذلك حتى منتصف أغسطس . وبعدئذ أدى استسلام اليابان إلى إطلاق إمداد الغاز إلى ما كان عليه من فيض .

وقد كان من المعروف — إلى جانب ذلك — من أمد بعيد أن تموين الغاز لم يكن يقصد منه الاقتصاد في الغاز إنما يقصد منه اقتصاد المطاط للمجلات .

وتمت الصورة في أول سبتمبر تقريباً . وركبت السيارة مع المصور في يوم حاصف إلى متحف بوسطن للفنون الجميلة ، لكي نطلع عليها مستر كونستابل ، أمين متحف الصور . ودخل كونستابل وهويكنسن في جدل عويص حول مزايا الصورة . وعرضت فيما بعد في حجرات جمعية الزملاء في بيت إليوت .

وكلما تقدم الشهر كان هوابتهد يطلب إلينا الوعد الصادق للاحتفاظ بكل موعد قادم لجلسة من الجلسات :

« هل نتظركم يوم الخميس المقبل بعد الظاهر في الساعة الحادية عشرة تماماً حينما يبق جرس مموريال حول الساعة ؟ » .

« ولم لا ؟ »

« إن الحرب قد تنهى في أي يوم من الأيام ، ولو حدث ذلك رقصم في الشوارع ، أو وقفم على رؤوسكم » .

وفي يوم ١٤ من أغسطس سلت اليابان ، وكان الابتهاج جنونياً . ولو أن بعض أولئك الذين شهدوا هدية عام ١٩١٨ لم يكونوا بالنى الحاسية . ووضعت الحرب أوزارها فعلا في الثاني من شهر سبتمبر باستسلام رسمي . ومنذ ذلك الحين عرفنا السلام بأنه فترة سكون بين حربيين لكي نعرف العدو .

وكان شهر أغسطس هذا — برغم ذلك — وتلك الأسائل الهادئة التي كان يتم فيها التصوير ويدور الحديث في حجرة جلوس آل هوابتهد ، والشمس ترسل ضوءها فوق قمم الأشجار تحت نوافذهم ، والجو الرطب الساكن بفوح بمبق الزهر المتنوع الألوان المحفوظ في الأواني المصنوعة من الميناء السوداء

اللامعة ، وجريس محوريال حول ذو الصوت العميق يمترض حديث هوايتهد أولا
عندما يندق الثانية عشرة ، ثم عندما يندق الواحدة ، وكل ذلك مسبوق بالركوب
من سالم إلى كبردج خلال أرض زراعية تبتسم من بهجة الصيف ، حيث الأزهار
الأرجوانية اللون تترعرع في الراعى المبتلة على طول الطريق — أقول كان شهر
أغسطس هذا ما برح كأنشودة السلام في عالم الحرب .

(٤٢)

١١ من سبتمبر ١٩٤٥

وهكذا انتهت الحرب ، ولكن الناس ما يزالون مذهولين ، لا يستطيعون
إدراك الموقف تماما . وكان الصيف يسير نحو أرائل الخريف في أيام متتالية تتألق
بأشعة الشمس الذهبية وزرقة البحر . ومنذ أن توقفت مذبحه الحرب أمكن مرة
أخرى أن يحس المرء أن الدنيا جميلة . ولا يكون الجو مشرقا أبدا على شواطئ
خليج ناهانت مثل إشرافه في نهاية الصيف .

وفي غضون ذلك وصل سر رتشارد لفنجستون من إنجلترا بالطائرة (وهي
أسبقية متقدمة جدا بالنسبة لرجل من المدنيين) وتوجه لقضاء يومين في معهد
الدراسات العليا في برنستان . وكان يقصد تورنتو لكي يلتقي أربع محاضرات في
الجامعة . ثم جاء إلى سوامبسكت ليقضى يومين آخرين في راحة وهدوء . وركبنا
بعد ذلك ذات حميس في الصباح إلى كبردج لتناول الغداء مع آل هوايتهد . ولما
كان يتوقع أسبوعين من عمل شاق في تورنتو قبل عودته إلى إنجلترا بالطائرة ،
فلم يرتبط بموعد آخر .

وقد قتل ابنه الأصغر كاتين روبرت لفنجستون في هذه الحرب الثانية ، كما
قتل ابن هوايتهد في الحرب الأولى . فكان هذا بينهما رابطاً بغير كلام .

وجلس أربعتنا في مكتب هوابتهد ذى الحدران المليئة بالكتب . وقد غمره
فيض من ضوء الشمس الذهبي من خلال نافذة جنوبية فتحت على مصراعيها لكي
تستقبل الهواء الدافئ الساكن . وكانت طيور الزيزان تشدو في الخارج فوق
الأشجار . رجل اسكتلندي وآخر إنجليزى ، يتبايان في الشكل . هوابتهد بريطانى
من كنت وإنجليا الشرقية متورد أشقر اللون . ولقنجهستون ، مديد القامة ، نحيل
بالجسم ، رملى الشعر ، رملى البشرة . وإن كان في هذه اللحظة محمرا على غير
عادته من أثر التمرض لضوء الشمس المتوهج ولزقة البحر الشديدة في إنجلترا
الجديدة في شهر سبتمبر على الساحل الشمالى .

وسرعان ما انتهيا من تجديد التعارف بينهما . وتلت ذلك فترة قصيرة من
السكون . ثم سأل لقنجهستون :

« ماذا تظن كان أثر العلم على عالمنا ؟ »

« مارأيك أنت قبل أن أجيب ؟ »

« ألم يبلغ العلم الرق ؟ »

« لو قلت ذلك حوالى عام ١٩٠٠ اسكنت من الصادقين ، ولكن سرعة
التغير في الماضى — لمدة خمسين عاما — قد غيرت الموقف كله . ولا أتحدث عن
القنبلة الذرية في الوقت الحاضر ، لأنها ليست الا الحلقة الأخيرة فى سلسلة ،
وأحدث من أن نزنها وزنها الصحيح على أية حال » .

وقال لقنجهستون : « يبدو لى أن العلماء عند إعلان القنبلة الذرية كانوا
يستخفون بها ، ولكن الناس كانوا مترعجين » .

ومضى هوابتهد يقول : « أقصد أن ظروف حياتنا قد تغيرت أساساً في
الخمين السنة الأخيرة أشد مما تغيرت في الأثنى السنة السابقة — بل في الثلاثة
الآلاف من الأعوام السابقة . وجوابى على سؤالك الأول هو أنى اعتقد أنا

في مستهل عصر من مصور التحرير ، وحياة أفضل للجواهر ، وتبجر جديد
لطاقاة متحررة خلاقة ، وشكل للمجتمع جديد ؛ إما هذا وإما أن تبديد البشرية
نفسها ويقفر هذا الكوكب » .

وقال لئنجستون : « هب أن بمض عظماء اليونان قد عادوا ورأونا على
ما نحن عليه الآن ... أمثال ثيو سيديد وأفلاطون وبركليز وأرسطو ؟ » .

« إن أرسطو يصعق إلى درجة لا يمكن التعبير عنها من الطريقة التي نبذت
بها أحكامه العامة . ولا أقصد أن أفكاره - الأنواع والأجناس وما إلى ذلك -
لم تثبت ثقلها على نطاق واسع . فإن أرسطو قد استكشف كل أنصاف الحقائق
التي كانت ضرورية لابتداع العلوم » .

وعاد لئنجستون إلى الحديث فقال : « يبدو لي من ناحية أخرى أن كتاب
(الأخلاق) لأرسطو له فضل أكبر » .

وبدت على هوايتهد المخالفة وقال : « أسلم لك بأن آراءه هنا محددة إلى درجة
تدعو إلى الإعجاب ، وأن أفكار أفلاطون في هذا الموضوع تميل نسبياً إلى
الغموض . ولكنني أؤثر الغموض » .

وعلق على ذلك لئنجستون بقوله : « إن الإغريق لم يميلوا إلى الغموض . ويمكن
بهذا المعنى أن يقال عن أفلاطون إنه لا يسكاد بمثل اليونان . إنهم كانوا يحبون
تمييز الخطوط ويحبون تنظيم مادة الموضوع تنظيماً واضحاً داخل صورة محددة » .

ومضى هوايتهد يقول : « إنني أفضل أفلاطون . ويبدو لي أنه الرجل الوحيد
في العالم القديم الذي لا يدهش لما حدث لو رآه ، لأنه كان حين يفكر يأخذ في
اعتباره دائماً كل ما لا يمكن التنبؤ به ، وما تتضمنه الأشياء من إمكانيات لا حصر
لها . إنك حينما لا تكون على ثقة تامة مما تصيب من هدف توسع لنفسك دائماً
مجال الفرصة لكي تبلغ هدفاً له قيمته » .

والتفت ثانية إلى لئنجستون وواصل حديثه قائلاً: « أريد أن أوجه إليك سؤالاً . هل أنا على حق حينما أعتقد أن البحث الألماني يخطئ جد الخطأ عندما يحاول أن ينسب إلى أفلاطون بعض النتائج الصريحة في معاوراته ، وعندما ينسب إليه حديث متكلم واحد ورأياً نهائياً ؟ يبدو لي أن ذلك بعينه هو ما كان يحاول تحاشيه . خذ خطاباته مثلاً : لو فرضنا أنه كتبها - وحتى إن كان لم يكتبها - فإنها تم عن صورة ذهنية سادت في المصور القديمة عن مؤلفاته : وأقصد أنه لم يكن هناك نظام أفلاطوني فلسفي . إن ما فعل كان الكشف عن أوجه متعددة للمشكلة ثم يتركنا وإياها ... يبدو لي أنه كان لديه - أكثر من أي فرد آخر - إحساس رفيع بإمكانيات الكون التي لا حد لها . »

وأجابه لئنجستون بقوله : « لست الآن على استعداد لأن أقرر شيئاً بشأن البحث الألماني ، ولكن في كل ما يقرأ المرء لأرسطو يلمس مقاومته لتأثير أفلاطون ، وفي كل ما كتب أرسطو لا يستطيع المرء الفرار من تأثير تفكير أفلاطون . »

قال هوايهد : « دعني أتحدث عن نفسي لحظة . لقد تلقيت تعليماً كلاسيكياً جيداً ، وحينما التحقت بكمبريدج في السنوات الأولى بعد عام ١٨٨٠ واصلت تدريبي الرياضي على أيدي معلمين ممتازين . وكان المفروض آتئذ أن كل شيء تقريباً مما يمكن معرفته عن الطبيعة كان معروفاً - اللهم إلا موضوعات قليلة ، مثل ظاهرة المغناطيس الألكترولوني ، التي بقي علينا أن نصلها بعبادى نيوتن . (أو هكذا كان يظن) . أما فيما عدا ذلك فكان المفروض أن الطبيعة موضوع قد انتهى البحث فيه تقريباً . واستمر البحث خلال الاثنى عشرة السنة التالية لإيجاد هذه الصلة . وقبل أن يتصرم القرن التاسع عشر بسنوات قليلة بدت شكوك خفيفة ، وخواوف بسيرة من أن كل شيء لم يمد يدهو إلى الاطمئنان ، ولكن أحداً لم يحس ما هو آت . ولما حل عام ١٩٠٠ انهارت طبيعيات نيوتن . »

وانتهى أمرها ! وما زلت أتمحدث عن شخصي حيناً أقول إن ذلك كان له أثر عميق في نفسي . لقد خُذعت مرة ، ولعنة الله على لو خُذعت مرة أخرى ! المفروض أن اينشتين قد كشف كشفاً عالياً . ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن نسبية اينشتين أكثر نهائية من (مبادئ) نيوتن . والخطر في الفكر اليقيني . أنه يسيء إلى الدين . وليس العلم معصوماً منه . وأنا . — كما ترى — تطوري إلى أبعد الحدود . لقد بدأت أرضنا منذ ملايين السنين تأخذ في البرودة ، وبدأت أشكال الحياة في أبسط صورها . (من أين جاءت هذه الأشكال ؟) لا بد أنها كانت كامنة في مجموع النظام العام . لا بد أنها كانت موجودة بالقوة في أدق الجزئيات ، أولاً في هذا السكوكب الناري ، ثم في هذا السكوكب المائي والأرضي . ألم تفكر مرة في أنه من السخف أن نبدأ في تقدير القاييس الطبيعية بأجسامنا التي تبلغ في طولها خمس أقدام ونصف القدم أو ست أقدام ؟ »

قال افنجستون : « إذا بالنسبة في الفكرة قلنا إن (الإنسان هو قياس كل شيء) » وروى هذه العبارة باليونانية .

ووافقه على ذلك هوايند وقال : « إن أفسكارنا عن الأبعاد الطبيعية تحكيمة إلى درجة السخف . إنني لا أعتقد أنه من المستحيل أن أدق حصاة قد تحتوي في داخلها على عالم يبلغ من التعقيد هذا العالم الذي نعرفه ، وأن العالم أو العوالم التي بدأنا نفهمها منذ وقت قريب قد تبلغ بالقياس إلى ما لم نكشف به من الصغر مبلغ ما في الحصاة من عالم بالنسبة إلى العالم الذي نعرفه ، أو أن الاتساع قد يكون أفسح في الاتجاه الآخر — أقصد اتجاه ما نعدّه صغيراً صغيراً متناهياً ... إن التطور يثب وثباً فيها أحسب . منذ خمسين ألف عام تقريباً كانت هناك وثبة سميدة ، تجسدت في رجل واحد ، أو في أسرة واحدة ، أو في قليل من الأسرات ، وبعد فترة حدث تقدم عظيم آخر ترتب على ذلك . »

وقيل إننا ربما كنا نميش في غضون (وثبة) من هذه الوثبات — اللهم إلا إذا قضت علينا .

وفكر في ذلك هوابند ثم قال : « لماذا نتحدث عن « قوانين الطبيعة » في حين أن ما نقصد هو السلوك المميز للظواهر في حدود معينة في مرحلة معينة من مراحل التطور في فترة معينة — بمقدار ما يمكن أن نتحقق من كل هذا ؟ »

ولما قر الضحك ، وجه حديثه إلى لفينجستون قائلاً : « ولكن دعنا نتخلّ عن كل ذلك . إنني أريد أن أتحديث عن كتبك في التربية التي تدعو إلى الإعجاب ، وبخاصة تربية الراشدين . ما أسخف أن نغنى الأطفال من المدرسة في سن السادسة عشرة ، أو حتى الثامنة عشرة ، ونمدّم قاذرين على مجابهة أمور الحياة المقعدة . . . »

قال لفينجستون : « من رأيي كما تعلم أن التربية لا بد أن تستمر طوال الحياة . كلها لكل إنسان ، على مستويات القدرة والاستعداد المختلفة ، وإن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل الديمقراطية الحديثة فعالة ، أو التي تمكنها من استمرار البقاء » .

قال هوابند : « إن ما أريد هو أن نستخرج بقدر ما نستطيع كل القدرات الكامنة في الموهبة البشرية . ولكننا لم نعرف حتى الآن طريقة للقيام بذلك على الوجه الأكمل . قد نستخرج طائفة معينة من المواهب في ظل أشكال معينة من التنظيم الاجتماعي الذي يلائم تطورها ، ولكن ذلك لا يحدث إلا في نطاق محدود جداً وفي ظروف مكانية وزمنية غاية في الضيق . لا يبدو قط أننا وجدنا وسيلة نستخرج بها الانتشار الكامل لقدرات الإنسان الكامنة » .

وعادت مسز هوابند إلى حجرة الدرس . ولم يكن الغداء قد أعد تماماً ، فجلست على موطيء قدمي كرمي زوجها ذي الحشية الوثيرة ، وواجهت الرجلين الإنجليزيين ، وانطلقت في جدل عن بلدنا :

ووجهت الحديث إلى لئنجستون قائلة : « الأمر الذى لا ينبغي للمرء أن يفعله — وهو هين إلى أقصى الحدود — هو أن يقوم بالمقارنة . إن البلدين لا يقارن أحدهما بالآخر . كل منهما فريد فى نوعه . لقد مشفاهنا واحدا وعشرين عاماً ، وكل يوم نلصق فرقا جديداً . وحينما جئنا إلى هنا أول الأمر بعد الحرب الأولى ، كان الأمل الذى رأيت مرتسماً على الوجوه بذهلنى - كل هؤلاء الصغار كانوا يتطلعون إلى الحياة فى شغف وحاسة ... »

وقال لئنجستون باسمها : « لقد وصلت لتوى بالطائرة إلى بلتيমور يوم الأحد الماضى بعد الظهر ، فأنا إذن فى موقف صحيح يمكننى من تأليف كتاب عن أمريكا » .

قلت : « كلما طالت إقامة المرء هنا أحس بالمجز عن تأليف مثل هذه الكتاب . ولكن لا تخدعك الظواهر : إن كثيراً منها بضللنا . . . »

قال هوايهد . « هل أحدثكم عن إحدى هذه الظواهر — لو سمح لى لوشيان — الصحف » .

« إنى أستطيع أن أوجه إليها لومى بطريقة أكثر منك تحديدا واسكن هلم » .

ومضى يقول : « إذا نظرت إلى صفحاتها الأولى قد تظن أن هناك قضية أساسية تتقاتل هذه الصحف بشأنها » .

وحذرت قائلة . « تذكر يا أولتى أننا لما كننا نغادر إنجلترا إلى القارة الأوربية كننا نجد الجريعة فى القارة هائلة ، وقد كانت كذلك فعلا » .

« أذكر ذلك جيدا . إن الانطباع الذى تتركه الصفحات الأولى فى الصحف خادع تماما . ليس من أبناء الصحف أنك لو سألت غريبا — أى فرد فى مجال الحياة الأمريكية كلها — عن أنجاه مكان معين ، يحيد عن طريقه شارعين لكى

يذلك على الطريق الصحيح . ومع ذلك فهذا هو ما يمثل تماماً أفراد هذا الشعب ، الذين يظهر لي أن لديهم شفقة طبيعية أكثر من أى شعب عاش على وجه هذه الأرض .

وسألتُ لثنجستون : « هل تُطلب إليك أن توقع فى أوراق للدخول فى هذه البلاد ؟ »

« لا أذكر شيئاً غير عادى أو مزعجاً . »

« ولكن هذا هو الواقع وإن كنت لانتذكر . حينما جئنا للإقامة هنا - وهذا هو ما أعنى بالألتحديق الظواهر - تُطلب إلى والى الفرد أن توقع على إقرارات بالقسم بأننا لم نقض فى السجن أكثر من عشرة أشهر ! »

قال لثنجستون : « كلا . لا أذكر أننى وقعت على شىء من هذا . »

وتطوعت بالقصحيح فقلت : « ولكن جلبت مرى يذكرك ذلك . حينما جاء إلى هذا البلد فى عام ١٩٢٦ ، السكى يلقى مثلك سلسلة من المحاضرات فحسب ، قال إن الأجانب لابد أن يوقعوا على ورقة مجيبين فيها عن هذين السؤالين : هل أنت فوضوى ؟ وهل أنت متعدد الزوجات ؟ »

قالت مسز هواينهد : « يا إلهى ! »

وبعدما استردت رباطة جأشها استطردت قائلة : « بعدما جئنا للإقامة هنا اعتدنا أن نستقبل الطلاب ليلة كل أسبوع ، لمدة تسع سنوات وكان عدد الفتيان والفتيات الذين يجوسون خلال حجراتنا يبلغ المئات ، أولاً وآخراً . وكانوا يقدون من مختلف البيوت ، بما فيها المزارع ، وما يقرب أن يكون أحياء شعبية . ولكنى أقول لك إن رقة طباعهم ، وحسن ذوقهم ، وتربيتهم الطيبة فعلاً ، كانت ملحوسة حقاً فى كل حالة من الحالات . وكان ذلك فى تلك الأيام الباسلة ، أيام قانون فولستد ، حينما كان الناس - والسنون منهم خاصة - يمتثلون بالشراب قبل أن يبدأوا فى

تناول المشاء . وبالرغم من هذا ففى خلال هذه الفترة كلها لم يأت اليها تملاسوى فرد واحد ، وهو — إن شئت الحق — من أبناء ارستقراط بوسطن او على تقبض ذلك تماما ففى جاء من نيويورك ، من الجانب الشرقى . وفى منتصف المسهرة تقريبا تمطى ونهد وقال . « أليست هذه الدنيا عجيبة ؟ » فسألته : « وماذا تعنى ؟ » فأجاب : « منذ أسابيع قليلة ، كنت أدرج البراميل فى شوارع نيويورك ، وهناك الآن وسط الترف وكل هذه السكتب (ومسكننا السكائن على ضفة النهر لم يكن بطبيعة الحال مما يهر) إن مايعنى هو أن هذه هى المرة الأولى بالنسبة إليه فى مثل هذا الوسط — ولكنها لم تسكن المرة الأخيرة ! فقد صار واحد من تلاميذ ألفرد اللامعين ، وأجاد إجادة ملحوظة » .

وعلق على ذلك لفتجستون بقوله : « إن الوسط الاجتماعى للجامعات الإنجليزية قد تغير تغيراً كبيراً » . وذكر لذلك أمثلة فقال : « إن الإراد الصافى لآباء الدارسين عندنا فى العام الماضى فى الجامعة كان ٤٠٠ جنيه ، ٦٨٨ جنيتها ، ٣٦١ جنيتها ، ٣١٨ جنيتها ، ١٠٦٥ جنيتها (وقد تحددت هذه الأرقام بطبيعة الحال منذ ذلك الحديث) واثنان منهما لم يطلبوا الراتب الإضافى . ولذلك فقد كانا على يسار ، ولكن كان هناك اثنان ممن يكسبون الأجور أسبوعياً ، بمعدل ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات فى الأسبوع ، وثنان جنيهات فى الأسبوع » .

فقال هو اينهد : « يبدو لى أن الجامعات الإنجليزية ، وربما بالأخص منها اكسفورد وكبرج ، قد أخذت تعود إلى مثل وظيفتها فى المصور الوسطى ، وهى تعليم الفتيان الموهوبين من الطبقات الفقيرة . كانت جامعاتنا فى القرن الثامن عشر تعلم فى الأغلب الشبان الأرستقراط ، أو على الأقل أبناء عمد الأدياف ، مع قلة من الدارسين من الطبقات الفقيرة . واستمدت طلابها فى القرن التاسع عشر من القطاعات المنتشرة فى الطبقة الوسطى وطبقة أصحاب المهن الرفيعة — من أمثالنا

— مثلاً — ممن ىءو أن الءنا لهم آمنة مئمة . ولكن الءاممات الآن قء بءأت
مقبول الأطفال من الطبقة الماملة » .

قال لئفئجستون : « ما قلت لى ومما لآظئت هنا فى زىاراتى السابقة ، وقليلافى
هذه الزىارة أيضاً ، ىءءولى أن الءىقراطىة فى إنءلئترا رأسىة ، أقصء إءساساً
بالمساواة ىسرى من أعلى المءتمع إلى أسفله ، ىئئرق الطبقات — أما فى أمريكا ،
ءىء تكون الطبقات أقل ءمءبداً ، فالءىقراطىة أشء أفقىة » . ومئل البعمءن
بإشارات من ىءبه .

وقال هوابتهء : « سأعطىك مثالاً عن مئءى أفقىة الءىقراطىة هنا . إن سائقى
عربات الأجرة هنا فى كبرىء ووسطن ممن ىءءءون الءءءء ، ولءىهم فعلا ءءء
سائق ىوءهونه إليك ، ومنء عهد قزىب الءقءنا بأءءم لىسوقنا من وسطن إلى ىقئنا .
وقء أبطأ المسىر وئءلل الطارقات الءانىة (وشرء لنا كىف أنه لا ىطىل المسافة ،
وإنما ىطىل الوقت) وباءنا الءءءء الءى ، ىكلمنا ونكلمه . ولما أنزلنا عنء بابئنا
قال : « هذا أمتع ءءءء ءباءلئه منذ أمد طوئل » .

وأعلن مىماد النءاء . وءوءهنا إلى المائءة . وانءه الءءءء نءو الروائىن
الإئءلىز .

وقال هوابتهء : « ىءءولى أن النساء ىكئبن روابات أفصلى مما ىكئب الرجال ،
فالرجال أمىل إلى الانءراف نءو البءء عن الأفكار المءرءة ، مءاولىن أن ىضءوا
الءىة فى إطارها . أما النساء فأمىل إلى أن ىقءموا لنا الملاءات الءامسة الءى ىءمل
الءىة والأشءاص أشء ءىووىة فى أعىننا » . ثم وءه إلى لئفئجستون السؤال
قائلاً : « وما رأىك فى هذا ؟ »

« كنت أفكر فى مئزء ءاسكل وأنت ءكلم . وأنا أوافئك على ما ءقول » .

واستطرد هوايتهد يقول : « وأرى استثناء واحداً لذلك ، وهو ليس نابئاً من الطراز الأول ، ولكنه صاحب موهبة تدعو إلى الإعجاب تمتلأ تماماً فيما فعل . فقد صور لنا الحياة والفكر الشائع في عهده من خلال طبقة تمثل ذلك العهد إلى حد كبير ، وهي طبقة القسس . وأفصد أنتوني ترولوب » .

وصاحت زوجته قائلة : « حق لك أن تعرف . ألم تفرق فيها إلى الأذقان ، كما غرقت منذ سنواتي الأولى بعد العشرين ولا نفس أنها أفست كل فرد من أفراد أسرتك في جيلك ، ما عداك . وأنا أسلم لك بأن ترولوب قد أحسن التصوير ولكنه بالغ قليلا » .

وقال هوايتهد : « إنه على الأقل كان صادقاً يا عزيزتي » . وأبرق بعينه نحوها عبر المائدة . ثم قال : « إننا على اتفاق في ذلك . إنني حين أقرؤه أستطيع أن أستمع إلى أبي وأصدقائه من القساوسة وهم يتحدثون . بل إن النكات نفسها تبدو طبيعية جداً . وقد كنا نقطن بالقرب من كانتربري ، ورأينا الكثير من قساوسة الكتدرائية » .

وأذعنت لذلك مسر هوايتهد ، وقالت : « بيد أن النساء الروائيات لا يحسن تصوير الرجال ، ويقعن عادة في الخطأ حينما يحاولن تصوير من يؤثرن من أشخاص الرجال » .

ثم ثار الجدل فيما إذا كان الروائيون الرجال أفضل منهم في تصوير النساء ، مع إجراء المقارنة بين جورج مرديث وجورج إليوت .

فقال هوايتهد : « إن لنا كرى فنا عظيما ، ولكنه يمحصر نفسه في طبقة واحدة حصراً شديداً . إنه يطوف بك خلال إنجلترا والقارة الأوروبية كلها . ولكن أشخاصه في نهاية الأمر نوع واحد من البشر تقريباً » .

وأضافء إلى ذلك قولها : « ثم إنه كان يكتب من طبقة لا ينتمى إليها .
ويلاحظ من الخارج مأخوذاً من ناحية ومستاء من ناحية أخرى . ولم يستطع قط
أن يقرر لنفسه أمراً » .

وقال لفنجستون : « إن من الروايات الإنجليزية فى القرن التاسع عشر اللى
أعتقد أنها سوف تدوم « بكوبك » (فهو بمقربته الإغريقية يوازن بين بهجة
عيد الميلاد فى دنجلى دل وصورة الحياة الريفية فى اتكا فى قصة « السلم »
لأرستوفان كما وردت فى الأبياء الشعرية من ١١٣٧ إلى ١١٧١) . ثم استطرء
يقول : « ليست قصة « بكوبك » أدباً بحسب . إنها تاريخ أيضاً . وهى تصور
الإنجليز على حقيقةهم فعلاً » .

ثم قال هوائنهء : « كنت منذ لحظة أقول إنى أعتقد أن النساء قد كتبن
لأحسن الروايات » .

وسكت قليلاً ورمقنا بنظرة خبيثة ثم قال : « ويحذر بى أن أقول إن دكتور
كان من بين أفضل النساء الروائيات ا » .

« وما رايبك فى جولز ورذى ؟ »

وكان من رأى لفنجستون أن أشخاصه لم يطابقوا الواقع تمام المطابقة .
وقالت مسز هوائنهء : « كان جولز ورذى — مثل ثاكرى — خارجاً عن
الأشخاص الذين يكتب عنهم » .

ودفع هوائنهء الموضوع دفعة جديدة فقال : « الأمر فى الرسائل كما هو فى
الروايات . فالنساء يكتبن رسائل أفضل مما يكتب الرجال . لهن يدون ما يريدن أن
نمرف ، وكيف يشمر الناس إزاء الأشياء ، وكيف يعيشون ، ماذا يأكلون
ويلبسون ، ومازعج خواطرم — يكتبن عن كل تلك الأمور المباشرة اللى

تجمل حياة عصر من العصور تعيش مرة أخرى . إن التاريخ ينبغي أن يستند إلى الرسائل أكثر مما يفعل . من ذا الذي نهمة معركة كريسبي ، والتواريخ ، والأماكن ، وكل ما نحشوه أذهاننا باسم التاريخ ؟ وما شأننا بها ؟ إنما التاريخ هو الحياة اليومية المتتالية . إنه ليس ما يقع من حوادث ، إنما هو الاجتماع . إنه تقدم الفكر .

وقال ثنيجستون : « إن عيب التاريخ الرسمي إنه يطينا النتائج ، وخوائيم الأمور ، دون أن يربنا كيف بلغ الإنسان هذه النتائج . »

وواقفه على ذلك قائلا : « هذا جد صحيح . وليس التصادم إلا الخطوة الأخيرة في أبة عملية من العمليات . إن ما نريد أن نعرفه هو تقدم الآراء ، والتخمر الذي أدى إلى الصدام . »

وقالت مسز هوابتهد : « والمذكرات مصدر تاريخي آخر ينبغي أن نريد من استخداه ، وإن كان الفرنسيون قد استغلوا أكثر مما فعل الإنجليز ، واستغلوا استغلالا مثمرا . إن الأدب الإنجليزي ليس غنيا جدا في المذكرات . وما لدينا منها يميل إلى الوحشة والكتابة . أما المذكرات الفرنسية فهي على تقيض ذلك حية وملبثة بالحقائق . ومن الحق أنها كثيرا ما تسجل ألوانا من الهروب الشائن ، ولكنها تسجلها بروح إن كانت لا تدهو إلى التسامح فإنها لا تبث على الضيق . أما ما شابهها من المذكرات الإنجليزية فيدعو إلى النفور ، وأشخاصها غير محبين . »

ثم بدأوا يتحدثون عن أولئك الذين يمكن أن يقال عنهم إنهم أجادرا كتابة التاريخ في القرن التاسع عشر في إنجلترا .

فقال مسز هوابتهد : « ليس منهم ما كولي بأسلوبه التكلف وعباراته .

القصىة الموسىة كانه خطاب فى مجلس الموم مما كان له أثره فى ذلك المهد ،
وكل سطحى إلى أبء غابة .

وقال لئنجستون : « لائنسى أن ما كولى قد استطاع أن يءمل قراءة التاريخ
شائمة ، وهو عمل لىس باليسير .

قالت : « وكذلك فعمل سترائسى ، غير أن ذلك لم يءمل ما كتبه من
التارىء الجىء .

وقال لئنجستون : « إننى لأحب ما كتب أكثر ما تحبب ؛ ولكنها كثيرا
ما تكون كتابة جىءة .

« أسلم لك بهذا . وكثيرا ما يكون قوله طرىفا جءا ، بىء أنه لا بىاء هذه
الءرءة من الطرافة على لسان غيره .

ونهننا وقءمت لنا القهوة فى ءءرة الءلوس . وأءء آل هوائنهء ولئنسءون
نوم بئان كبرىء وأكسفرء بءرون مباراة بىن ءامعتهما ، موازنىن بىن أطوارها
الءربىة ، وأوءه التناقض بىنهما ، ومزاياها وعموبهما .

قالت مسز هوائنهء : « لقد وصلت إلى هنا فى عام المرائس الءلائىن ،
وأؤكد لك أنه لم بكن مكانا سهلا للمرائس .

ووضء ذلك هوائنهء بقوله : « ءءب ءفى فى لوائء ءامعة قبل ذلك بوقت
وجىز فسمء للروساء بالزواج . وكان لابد قبل ذلك للواءء منهم لكى بءزوج
أن بستاؤن الكنىسة ، ولما كان أكثرهم لا بءءقء فى الطقوس اللى كان علىه أن
بؤءبها ، فقد كانوا بءءابلون على إرضاء ضماؤهم بكل أنواع التفسىرات التمسفىة
لئلك الآراء الءبىة اللى لم ءءء — فى ظنى — بالءفر على كنىسة ءامعة . وكانت
النتىءة — كما نقول الآن — أن ءلائىن أو أربعم عروسا وصلت إلى كبرىء

دفعة واحدة ، وبمضغ مثلها صغيرات جداً ، وبمضغ لم يكن ألبنة صغيرات .
 قالت مسز هوايتهد : « ولكنى تعلمت بسرعة . ولما كنت قد ولدت ونشأت
 في فرنسا ، فقد قرأت بالفرنسية كثيرا ، ولكن انتقلى المفاجيء إلى إنجلترا لم
 أعكسى من قراءة ما ينتظر أن يقرأه المرء بالإنجليزية . وقد جلس إلى جوارى أحد
 الرؤساء في حفل عشاء وشرع يسألنى عما قرأت بالإنجليزية . ولم أحسن الإجابة
 بطبيعة الحال . فقال : « أرى أنك لم تقرئ شيئا » وكف عن الاهتمام بى بقية
 المساء . . . واستمر على ذلك لايهمهم بأمرى لبضع سنوات . كلا . لم يكن هذا
 المكان سهلا للمرائس . »

وأضاف إلى ذلك هوايتهد قوله : « ولم يكن سهلا كذلك دائما للمرسان »
 ثم سأله : « ألا تذكرين آل ثرل وجيم ستيفن ؟ »
 واختنقت فجأة من شدة الضحك .

وحذرتة قائلة : « ولكن لا بد أن تشرح لسر رتشارد أن ذلك كان قبل أن
 يغيب ستيفن عن صوابه . »

واستطرد هوايتهد قائلا : « كان في زيارتنا بكبردج حينما كنا نسكن إلى
 جوار آل ثرل . كانت حديثانا متلاصقتين . »

وذكرت مسز هوايتهد : إنه لم يفصلنا سوى جدار سمكه طوبة واحدة ؟

« وكان ثرل يتكلم بصوت مرتفع ذى صرير » (وأخذ يقلده) « وكان جيم
 ستيفن مقلدا مضحكا . فبدأ يقلد ثرل في منظر خيالى تصويره فيه وهو يطالب يد
 زوجته . وصمقت اقلن المسكينة وأشارت اليه بحركات عصبية لكي يكف عن
 التقليد ، وقالت هامة : « إنهما يستطيمان الاستماع ، فبيفنا وبينهما جدار رقيق »
 وقال ستيفن : « وهل فى ذلك من خطر ؟ إنه يصلح الأمر بينهما . »

وفي مرض القارئة بين الجامعتين تسامح لثنجستون إن كان هناك مجال للاختيار في قسوة الإنسان على الإنسان .

فقال هوايند : « إن ما كان لدينا من مدنية في كبردج إنما جاءنا من الخارج . أما في اكسفورد فأنتم تمدنون شعبكم داخل الجامعة » .

وأقر لثنجستون : بأن اكسفورد أرقى من الوجهة الاجتماعية . أما في كبردج فأنتم تدربون الرياضيين والعلماء »

وقال هوايند : « إنما ألقذني من هذا وسار بي نحو المدنية عاملان : أحدهما (الرسول) ، وهو ناد ثقافي من اثني عشر عضوا من الطلاب » .

وسأله لثنجستون : « وما هو العامل الثاني ؟ »

« خروجي من كبردج وانغماسي في جامعة لندن خمسة عشر عاما » .

وسأل لثنجستون في نغمة رقيقة مازحة : « وماذا تظن أن ذلك قد فعل بك ؟ »
« زج بي بين مختلف الناس . وأضف إلى ذلك خبرتي في مجلس الجامعة » .

وعلق على ذلك لثنجستون بقوله : « إن الليل الاجتماعي في اكسفورد إنما يعمى عادة إلى (المظاء) القدامي . وأقول المظاء القدامي ، لأن أولئك الذين يدرسون المظاء المحدثين ويتقنون دراستهم يقرون بأنهم أضعف أثرا وأضعف نفوذاً » .

وسأله هوايند : « وما هو - فيما تتصور - أثر المظاء القدامي في الإنسان ؟ »

فأجاب لثنجستون بقوله : « إن في كتاب (طبيعة التعليم الجامعي) لنيومان تعريفا للرجل المذهب ، يشغل نحو ثلاث صفحات^(١) وهو يقرب من تعريف ماتسأل عنه أكثر من أي شيء آخر عرفت . وبما يزيد التعريف قوة أن نيومان لا يؤيد هذا الطراز من البشر الذي بصفه ، ولا يترك عند القارئ شكاً في ذلك ، لأنه يذكر كمثال له الإمبراطور جوليان ، ذلك المارق على الحق المسيحي ، عدو التربية

(١) « مجال التام الجامعي وطبيعته » لجون هنري نيومان — طبعة « أفريمان » من

المسيحية « ثم روى مايلي . » (إن دين الرجل المذهب [المتعلمان] عييل إلى الحرية والتساهل . إنه يقوم على أساس الشرف . الرذيلة شر ، لأنها عديمة القيمة ، محقونة ، مُرَدَّرَة) .

وساحت مسز هوايتهد قائلة : مسكين نيومان ، ذلك المخلوق الحساس ، الأعزل ، رقيق المشاعر ! ومن ذا الذي يلمه ؟

قال هوايتهد : « لقد قاباته مرة »

وسأله لفتنجستون : « لكي نتحدث معه ؟ »

« نعم »

« وهل تذكر ما قال ؟ »

وبدأت أمارات التفكير لحظة على هوايتهد ، ثم صاح بخفة قائلاً : « كان ذلك من زمان بعيد جداً . عندي سؤال أريد أن أوجهه إلى قسيس من الجزويت » .

واقترحت مسز هوايتهد وهي تمهض من مكانها : « أن يوجه السؤال من مكتبته » وتأجل الحديث لوقت ما .

وحفزه لفتنجستون على الكلام حينما عدنا إلى المكتب . قال : « كان لديك سؤال تريد أن توجهه إلى قسيس من الجزويت » .

« أجل . هو هذا : (هل في السماء ضحك ؟) إن انعدام الفكاهة في الإنجيل

أمر يدعو إلى العجب » .

وأجاب لفتنجستون قائلاً : « لقد حاولت أن أعيد قراءة العهد القديم منذ برهة . إن كثيراً مما به رائع من جميع الوجوه ، غير أن أجزاء منه . . . هل تذكر هذه العبارة لأوسكار وايلد (حينما أذكر كل ما جاء به لي هذا الكتاب من أضرار ، يملكني اليأس - مع هذا - من أن أكتب شيئاً يقاس إليه) » .

وسأل هوابند : « ألم تكن عند اليهود روح فسكاهية ؟ » .

« حينما يكون الأمر جديا لاناية ، ألا نفقد شيئا منه إذا ضحكنا منه ؟
ألا يقلل الضحك من قيمته ؟ »

وقال هوابند : « لننظر في الفنون . هل فيها فسكاهة ؟ »

وكان من رأى لقنيجستون أنه من المسير أن تلمس فسكاهة في أعظم الفنون ،
كالتصوير الديني في إيطاليا لهد النهضة . وقال : « إني أشك في أن الفسكاهة
تسير مع أعظم الفنون والأفكار » .

قلت : « إن في كوميديات إرستوفان ضحكا كثيرا ، وفي كتبه فن
ودين مما » .

وقال لقنيجستون : « هذا صحيح . ولكنني أعتقد دائما أن إرستوفان أحسن
ما يكون في الأجزاء التي يمزح فيها » .

« والوضوع الاسامي الذي أختلف معك فيه هو ان الضحك صفة مقدسة .
وأن انعدام الضحك في البيانات العبرية أمر خطير بالنسبة إلينا نحن
الأجناس الأوروبية الشمالية ، لأن الضحك يلعب دورا كبيرا في حياتنا ، ونحن
مرغمون على أن نلتمس الضحك خارج ديانتنا كلية تقريبا » .

وسأل لقنيجستون : « وكيف يمكن أن نلتمس الضحك داخل الدين ؟ »

« لقد حدث ذلك . هناك كلية للفنون الحرة في إنجلترا الجديدة يجدر بي ألا
أهميها ، لأن الأمور كانت تسير فيها سيرا سيئا منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٠ »
وقال هوابند : « لقد أصبت القول في هذا . ولقد دعيت لإلقاء محاضرات
هناك في عام ١٩٣٠ ، ولمست ذلك بنفسى » . ودهشت لما ذكر .

وقلت : « إذن فأنت تنفذ إلى الضمائر ، لأننا نمى كلية واحدة . كان الطلبة

خارجين على النظام . وكان يطلب إليهم حضور الصلاة في الكنيسة أيام الأحد . فإذا ما وجدوا الواعظ الزائر على غير هوامم (وكثيرا ما كان كذلك) سملوا له لكي ينزل من المنصة ، ولا يمكن سدهم مما يفعلون بأية وسيلة من الوسائل . ولكن كان هناك واعظ واحد يتردد كثيرا ، ويستمعون إليه في سرور بالغ . وكان رجلا ذكيا ، جادا جدا في مراميه الخلقية ، وكان كذلك ذا روح فكاهية مرحة . وفيما بين عبارة جديّة وأخرى كان يستطيع أن يثير في الطلبة الضحك الشديد . كانوا يمدّونه.... أما عن الضحك في الديانة الإغريقية ، فلا ينبغي لنا أن نقف عند أرسطوفان . إنه يرجع إلى عهد هومر . والحزب الأول من الإلياذة ينتهي بالآلهة وهي تضحك فوق الأولمب » .

وخضع لقولي لفنچستون ، وقال : « هناك أثر من مسرحية هزلية مفقودة ، نجد فيها أن برومتيوس يسرق النار من السماء ، فتظن الأسماك^(١) أن تقبيلها شيء جميل ، فيفعلون ويحترق لحامهم » .

واستأنف هوايتهد حديثه قائلا : « كان لامبرين رأى خلقى شديد الصرامة ، وإن يكن في حدود ضيقة جدا . وذلك في (جمال القداسة) . ولا يلحق بهم أحد في هذا ، غير أن الحدود غاية في الضيق » .

(وخرجنا بعد فترة من الزمن بأمثلة متنوعة من الكتاب المقدس مما يمكن — لو وسّعنا حدود التمرّيف — أن نفسره بأنه من باب الفكاهة . من تلك الأمثلة اليا وهو يميّر أنبياء البمل بمعجز آلهتهم ، وقد أمر بذبحهم على أيدي مرّبديهم السابقين (سفر الملوك الأول ، إصحاح ١٨ — آية ٤٠) ومثال آخر النبي يوشع وهو يدعو دبتين لتفترسا اثنين وأربعين طفلا عيروه بقراع رأسه (سفر الملوك

(١) المسخ في المسرحية اليونانية شخص خرافي نصفه الأعلى بشر والأسفل ناعز .

الثانى - إصاحاح ٢: آفة - ٢٤) ومثال ثالث هلمان الذى ضلّ على خشبة ارتقاعها خمسون ذراعاً كان قد أعدّها لقتل مردخاى (استير إصاحاح ٧ آفة ١٠) ومثال رابع حادث القديس بولس مع سائفى هيا كل الفضة فى أفسيس ، وهو سخرية من الطراز الأول (أعمال الرسل - إصاحاح ١٩ - آفة ٢٤) . ولكن يجب أن نقر أن هذه الأمثلة جميعاً لا تبلم من الفكاهة بما يحمل المستمعين يفرقون فى الضحك فى أجنحة الكنيسة) .

وقال لفتجستون إجابة عن هذه للملاحظة الأخيرة لهوايتهفد : « إن الإغريق كان عندهم كل ما كان ينقص اليهود » .

ومضى هوايتهفد يقول : « إذا مسسنا هذا الموضوع من ناحيته الحديثة وجدناه أن (الموحدين) - فيما أظن - هم أقرب من وجد سبيلاً لتطبيق الآراء المسيحية على العالم الذى نميش فيه الآن - وأضرم إلى الموحدين أولئك القوم المتدينين الذين يشبهونهم أشد الشبه ، وأقصد (الطائفين) . وأقول عرضاً إلى قد تبلمت خطايا منذ بضعة أيام من راع أسقى يقرظ فلسفى ولم بسفى إلا أن اعتقد أنه أشد شها بالراعى الإيجلىزى فى القرن الثامن عشر من حيث عمق تفكيره الدينى منه براعى القرن العشرين . . . استمع إلى » . قال ذلك وقد أجمه بفتة نحو لفتجستون : « سأسألك سؤالاً شخصياً ، حتى إن خرجت فيه على حدود الالفاقة ، وليست بك حاجة إلى الإجابة عنه إن لم تشأ : كيف أعطيت صوتك فى الانتخابات الأخيرة ؟ » .

« صوتٌ مع المال » .

« حسناً فعلت . وهكذا كنت أصوت لو كنت هناك » .

« حدث أن مرشحنا المحلى كان رجلاً طلياً جداً » .

« كنت أصوت لمرشح المال ، حتى لو كان رجلاً ضعيفاً ، اللهم إلا إذا كان

جيشاً كبيراً » .

وسألت مسز هواينهد : « وهل توقعت النتيجة التي انتهت إليها الانتخابات ؟ » .

قال لثنجستون : « كلا . إن أكثر ما كان يتوقمه أى امرئ — فيما يظهر — انخفاض شديد في عدد مقاعد المحافظين » .

وسألت : « وماذا دعا حملة تشرشل ؟ » .

« يُظن أنه وقع بين بدى بيقر بروك » .

وعادت إلى الكلام تقول : « لقد عرفنا تشرشل وتابعنا سيرته منذ حرب البوير . ويبدو أنه بطل من ناحية ، وشديد الضجيج الفارغ من ناحية أخرى . هو رائع في القتال ، ولكن إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، ظهر منه الضجيج الفارغ » .

وقال لثنجستون : « مما يدعو إلى الثناء حقاً في الانتخابات البريطانية أن المرشحين لم يبعثوا الموتى من قبورهم ولم ينبشوا بحثاً عن القضايا الميتة . وقد خرج بولدوين وتشمبرلين من مجال الجدل . والمرة الوحيدة التي أعرف أنه أشير إليهما فيها كانت إبان مناقشة في مجلس العموم بشأن إرسال القضاة الحديدية لميدان القتال من عندنا . فقال أحد الأعضاء : « أتركوا لبولدوين قضبانته » ، فهو في حاجة إليها لكي تحميه من الشعب ! وأغرقت هذه الملاحظة في صيحات الاستهجان . وكان مصدرها عضواً من المحافظين » .

ومضت مسز هواينهد تقول : « إن شعبية تشرشل لم تضئف ، فهو عند الشعب لا يزال (ورنى الطيب المعجوز ؟) ويلقى من الهمتاف عند ظهوره أمام الجمهور أكثر مما يلقي رئيس الوزراء الهالى . إن الشعب يحب به وبكرمه ، ولكنه لا يصوت له . وهذا عندى مظهر لا مثيل له من مظاهر الحكمة السياسية من جانب الناخبين البريطانيين » .

وقال لفينجستون ، وهو -- باعتباره أفلاطونيا - يعرف حق المعرفة النقد الصحيح (للرجل الديمقراطي) .

قال : « أجل . وذلك مما يحمل المرء يمتقد في الديمقراطية » .
 ووجه هوابتهد إلى الخطاب قائلا : « إلى أى حد يحتمل - في ظنك - أن يكون عليكم رئيس من الرجال العسكريين بمد هذه الحرب ؟ »
 قلت : « لقد مررت بنا تجربتان كثيبتان في ذلك ، لآزالان مائلتين حيتين . في الأذهان » .

قالت مسز هوابتهد : « إن الجنرال ماك آرثر يحمل منهما مسرحية » .
 « ربما كان ذلك . وهو كرجل عسكري يدعو إلى الإعجاب ، واسكنه يتصف .
 أيضا بالحس المسرحي ، وهذا في الحياة العامة الأمريكية لا يلقى قبولا حسنا » .
 وقال هوابتهد . « إن ايزنهاور شخصية عظيمة حقا . مارأيك فيه ؟ »
 لم يهتم أحد بالتنبؤ له .

ووجهت مسز هوابتهد خطابها إلى لفينجستون قائلة . « من التغيرات العظمى في العقلية الأمريكية التي ينبغي لك أن تضعها موضع الاعتبار ، أن الأمريكان يعرفون الآن أن الدنيا ليست في أمان ، حتى بالنسبة إليهم . أما نحن - من ناحيتنا - فلم نكون قط آمنين ، وقد عرفنا ذلك في أكثر الأحيان ، ماخلا فترة وجيزة في أخريات القرن التاسع عشر . ما أشد ما كان في العالم آنئذ من أسباب الراحة - وقد اجتفى هذا العالم ! أقصد عالم الملكة فكتوريا . لقد باتت ذكراها اليوم أسطورة من الأساطير » ،

وسأل هوابتهد وقد ماد بفتة إلى حديثنا عن الفكاهة « هل عرف من الملكة فكتوريا أنها ألقت مرة نكتة فكاهية ؟ »

وروى لثفنجستون مايلي : « إنها لاتسلى . ولكن لديهما على الأقل روحا فكاهية سلبية . فقد كانت تعرف ما لم يكن - فى ظنها - فكاهيا » ،

« ولكنها قالت مرة : إن مستر جلا دستون يخاطبني كأنى مجتمع عام » .

قالت مسز هوايتهد : « نعم ، ولكن هل كانت تعرف أن هذه الملحوظة فكاهية » ،

وقال هوايتهد : « ألم تكن الطريقة التى يتصل بها (دزرى) بالملكة شائنة . إن شهرة دزرائيل مثال من الانفصال السياسى يسترعى الانتباه . لم يكن محبوبا من الشعب ، ولكنهم عرفوا إنه قدير وقبلوا أن يكون لهم ممثلا سياسيا » .

ورنت ساعة برج مموريال حول الثالثة . وكان هناك قطار بعد الظهر إلى مونترو لابد أن يستقله سر رتشارد . ووقفنا ، لىكى نستأذن فى الانصراف .

وسأل هوايتهد متاطفا : « هل تشعر بالإهمال إذا لم يتقدمك بعد اليوم امرؤ يحمل محرك النار ؟ » وكانت الإشارة إلى حفل توزيع الدرجات فى اكسفورد حينما يدخل موكب العالم مسرح شلدونيان ، وتتقدم نائب المدير فيه الصولجانات المرفوعة رمزا للسلطة .

وأجاب لثفنجستون بقوله : « إن أطفالى يسألون أنفسهم بسؤالهم لماذا لا أدور وأسير فى الاتجاه المضاد . ويقول مسجلنا فى الوقت عينه - وهو رجل ذو خبرة طويلة فى هذا - إن عادة الوقوف عندما يدخل نائب المدير على اجتماع هيدوما دال لها أثر حسن فعلا فى مباشرة العمل جديا . إن للطقوس مكانة فى الحياة . والاحترام قد لا يكون لشخصية ما ، أو حتى لنظام من النظم ، ولكنه قد يكون للآراء التى ينطوى عليها الاحتفال » .

(٤٣)

١١ من نوفمبر ١٩٤٧

هيد الهدنة . قضيت المساء مع آل هوابند . وكانت عاصفة من عواصف
التخريف تهب في الخارج ، مصحوبة بريح شديدة في قوة الزواجع ، وأمطار غزيرة .

وظهر لي في أول الأمر على شيء من الارتخاء . ولم يكن ذلك محل عجب لي
عرفت أن زوجة ابنيها ، مسز نورث هوابند ، قد لاقت حتفها بعد مرض عضال
طال معها . وتحتّم على مسز هوابند نفسها أن تذهب إلى بيت فليس ، في زيارة
لمستشفى ماساشوست العام ، لتحضر عملية تهديد بالخطر العاجل . وقد أشارت إليها
بيرود (بمعل المشروط) . وقبل أن يخرج هوابند من مكتبه حيث كان في غفوة يسيرة
من النوم ، قالت لي على حدة إن الخبر كان أشد وقعا على نفسه منه عليها .

« إنه يستطیع أن يجابه هذه الأمور عندما تقع ، ولكنه لم يعد لديه احتمال
السابق . وأمثال هذه الأمور تفقده الاحتمال بعد مرورها . وهأنذا كمادني
— أو كمادني تقريبا — وليكني في صحبته » ثم كفت عن الكلام قليلا
ورمقتني بنظرة فيها شيء من السخرية وقالت : « ربما ظننت أنهم أحرقوا
جثتي وبددوا رمادها ! »

وكانت حجرة الجلوس مليئة بالأزهار ، أنفوان أصفر وبروزي ، وزهر
الخزامى ، منسقة بطريقة فنية مع أعواد السعف الخضراء . ومحدثت عن هذه
الزهور . فقالت : « نعم ، إنني مدللة ، وإني لأحبها ! وقد تحسبني ممثلة سينمائية
لو عرفت الطريقة التي تأتي بها الأزهار » .

ثم تهضت ، وانجملت نحو مكتبها المصنوعة من خشب الماهوجاني ، وأخرجت

حزمة من الرسائل . وقالت « أود أن أخطر بك بأمر من الأمور ، وإن كنت لا أريد أن يذكر عنه في الوقت الحاضر شيء ما » . وأخذت تفض الرسائل وتصفحها ، وهي تتحدث إبان ذلك .

تعلم أن إيرادنا من إنجلترا قد انخفض أثناء الحرب . وسبب لذلك أزمة مالية شديدة . ولكنني استطعت أن أدبر الأمر . وما أريدك أن تعرفه هو أن مدير البنك الذي تحتفظ فيه بحسابنا قد تسلم ثلاث مرات خلال الحرب مذكوكا مالية معتمدة من مجهول لكي تودع لحسابنا ، والمبلغ المحول هو بعينه في المرات الثلاث - ثلاثمائة دولار . وسألته هل يعرف الرسل . قال لا ، ولكنه يستطيع

أن يتصل بالبنك الآخر . ولم نستطع أن نقبل عطايا من مجهول بطبيعة الحال ، ولكنني سألت إن كان من الجائز أن تكون سدا لدن نسيناه أو فضل أدبناه . وأجاب قائلا : (ربما كان الأمر كذلك) كلا . إن شيخوختنا لا تسمح لنا بذلك . وبدلنا اعترافنا القلبي بالجميل ، ولكننا لم نستطع أن نقبل إلى لا أستطيع أن أجِد الرسالة التي أبحث عنها . هل يحدث لك أن تحتفظ الأشياء ثم تفقدها ؟ »

« ليس هذا محل سؤال ! في الربيع الماضي عدت إلى وطني بهديا من أكسفورد حفظها بمنية ، وها نحن أولاء في شهر نوفمبر ولا أستطيع حتى الآن أن أعثر عليها » .

« إنك بذلك تشجعني كم كنت أود أن تقرأ الرسالة ، ولكنني أستطيع أن أبتكع بما فيها . أرسل مجهول إلى انكليزية منحة مالية للتفوق في الدراسة ، وأراد أن تعرف باسم منحة ألفرد نورث هوابتهد . ويبلغ ريع المبالغ المقدم ألفا ومائتي دولار في العام يدفع لألفرد ما بقي حيا ، ويدفع لي بمد مهاته ، ثم يدفع بمد ذلك للطالب صاحب المنحة . وأشد ما يؤثر في كليتنا السخاء في الهبة ، وكذلك اللباقة والرفقة في الطريقة . وقد دفع المبلغ للكلية : فتحتم بذلك قبولها ، ولم يعد لنا في الأمر رأي . وأشد ما سر له ألفرد هو أن الهبة تترك علاقة داعة بين اسمه والكلية في سورة حية » .

ثم أضاف قولها : « المنحة ثلاثون ألف دولار ، وربحها أربعة في المائة » .
ولم نستطع أن نتكهن باسم الواهب . غير أننا فكرنا في احتمالين أو ثلاثة .

ثم قالت : « هذه هي الرسالة » ونهضت وأعدت الأوراق إلى المكتبة وعادت إلى مقعدها وأشعلت سيجارة . ودق التليفون . فقالت : « من يكون اللامون ! » وردت عليه . غير أن المفاجأة كانت سارة لها ، لأن التكلم كان شخصاً عزيزاً عليها . ولما انتهى الحديث قرعت باب المكتب ودخلت في رفق ، وتحدثت بصوت منخفض ، قالت : « إن لوشيان هنا ، لا تقفز ، وتريث بضع لحظات قبل أن نهض » .

وسرعان ما خرج من مكتبه . ولم يتيقظ بعد تمام اليقظة ولكنه بعد ما غسل وجهه بالماء البارد ، عاد إلينا معافى .

وأحسننا استقبالي . والظاهر أنهما كانا يتوقعان زيارة رسول من لدن ناشره .
ومنى ذلك أن ممثلاً من الشركة الإنجليزية قد أتى في صحبة رجل من الفرع الأمريكي .
قال : « الأمر العاجل هو أنهم يفكرون في إصدار طبعة من مؤلفاتي تصلح لقراء الأوتوبيس » .

« وهل يدخل في ذلك كتابك (التطور والواقع) »

« جزء منه ... »

قالت : « إنا نؤثر أن يطبعوا المؤلف كله أولاً يطبعون البتة شيئاً منه ، بدلاً من أن يطبعوا مقتطفات من المؤلفات كلها انتقاها الناشر . ولشدها كان إحساسنا بخيبة الأمل حينما وجدنا أن الناشرين قد أخذوا على عواتقهم أن ينقروا المقتطفات ، فكانوا أحياناً يحذفون فصولاً بأسرها » .

« ولماذا يطبع كل الضخم - لست أدري ماذا أسميه ؟ »

« وما تظن كان جواب الفرد ؟ »

« ماذا قال في أمر كهذا ؟ »

« قال لا شك إنهم أصلحوه .. ! »

« كنت دائماً أقول إنه أطيب روحا مما يتطلب هذا العالم . ومن الأنبياء العجيبة أن يمداد طبع كتاب (التطور والواقع) في أية سورة من الصور . إننى لأستطيع أن أحصل على طبعة في مجلد واحد . وقد أعلنت مكتبة (الركن القديم) عن نسخة لى في الشهرين السابقين . وأذكر أنك قلت لى إنه الكتاب الذى أردت . أن تسكتبه أكثر من أى كتاب آخر » .

قال : « كتبت في مقدمته شيئا ينبغى أن يتكرر في الفقرة الأولى من الفصل الأول ، كما يتكرر في مواضع متلاحقة في غضون الكتاب كله . وذلك أنى شديد التأثر بمعجزة أية محاولة بشرية تماماً عن التعبير عن مثل هذه الآراء الفلسفية ، وما أيمد هذه العمليات العالمية عن أفق تفكيرنا . إن كل ما يستطيعه المرء - حينما يحسر على الخوض في هذه الموضوعات - أن (يتقدم بمقترحات) » .

« هل صحيح أن طبعة في مجلد واحد من كتابك (أهداف التربية) قد أعيد إصدارها في إنجلترا ؟ »

قالت : « نعم . وقد أرسلوا إلينا نسخة منها » .

« هذا نبأ آخر سار ، لأن بضعة من أصدقائى على الأقل ، من النظاريين واليهيم ، كانوا يسمون في الحصول عليه » .

قال : « سأعطيك هذه النسخة » .

وتوجه إلى مكتبه ، وعاد بها ، وألقاها في حجرى ، وكانت الصور هى الأصلية قطما (والشركة الإنجليزية) غير أن التجليد باللون الأزرق الداكن كان يختلف عن الغلاف القرمزى الذى صدر فيه الكتاب في طبعة عام ١٩٢٨ ، وكان يفضل . ولما تقدم

الساء كتب إلى الإهداء .

وقالت مسز هوابتهد : « لقد قضينا وقتا سعيدا مع مندوبي الناشرين ، ما خلا برهة واحدة كانت رهيبية . ماذا نظن أن الناشرين أرادوا أن يفعلوا ؟ أن يطبعوا سورة فوتوغرافية لألفرد على غلاف مجلة (لاف) » ا

« يا إلهي ! »

قالت مقطبة جبينها : « تصور وجه ألفرد يباع في الطرقات » .

« وكيف خرجتم من هذا المأزق ؟ »

« قلت لهم برفق شديد إنه آلى على نفسه طوال حياته ألا يسمع بالمقابلات الصحفية ، وألا يُصور للصحافة - اللهم إلا في العيد الثوى الثالث لهارفارد بطبيعة الحال ، حينما سُور جميع الطلاب القدامى » .

« لا أستطيع أن أتصور ألفرد ملتحقا بزمرة هواة الاعلان » ا

وحادت إلى حديثها قائلة : « لقد حسنت نيات مندوبي الناشرين في هذا ،

فوافقوا على التخلي عن الموضوع » .

« ومتى تظهر طبعة (الأوتوبيس) ؟ »

« لا ندرى . إنهم لم يعطونا فكرة عن ذلك » .

وقال هوابتهد وقد رمقني بنظرة خبيثه : « في ظني - وإن كنت لا أدري ، وربما لا يليق بي أن أقول ذلك - إنهم يرمون إلى تأجيل النشر إلى ما بعد مغادرتي هذه الكرة الأرضية بقليل » .

وقالت زوجته « إن كان الأمر كذلك ، فأننا أشك في حكمهم . إن كانوا يريدون دواجا باسم هوابتهد فإنما يكون ذلك اليوم . هل رأيت المجلد الجديد للقططات ؟ »
« نعم . وقد وصلتني حتى الآن ثلاث نسخ » .

« وما رأيك فيها ؟ »

« اعتقد أنهم قد أجادوا الاختيار . »

قالت « (فطنة هوايتهد وحكمته) : ياله من عنوان ! إنى أسلم بالفطنة ، وبشيء من الحكمة ، ولكن »

« ليس العنوان جديداً كل الجدة . فقد استعمل لقططات من جورج إليوت أثناء حياتها ، كما استعمل مرة أخرى لقططات من جورج مرديث خلال حياته : وليس من شك في أن الجناس في الفاظ العنوان (وهو واضح بالإنجليزية) كان إغراء لهم لم تمكن مقاومته . ولكنى عندما تصفحت المجموعة آمنت بأن المختارات قد اقتبست بمنابة ومهارة . وقد تذكرت الكثير منها ، بيد أنى لم أذكر بعضاً منها ، والنتيجة أنى سأقوم بما أظن أن اللقططات ستدفع الكثيرين إلى القيام به - وهو أن أرجع إلى الكتب نفسها . »

وكان المشاء فاخراً جداً ، وذكرهم هبوب الريح وسقوط المطر فوق النوافذ ، بالبيت المكشوف ، في برود ستيرز ، حيث التقيا أول الأمر . لأن عمه ألفريد سوزان ، كانت تقطن هذا البيت ، وكان ذلك بعد إقامة دكتور فيه بزم من طويل . ولقد كان البيت مكشوفاً حقاً ، لأن البناء كان مرتفعاً ، ضيقاً ، ومكشوفاً للمراء . وبالرغم من أنه كان مشيداً من حجر الصوان ، إلا أنه في أمثال هذه الليالي كان يهتز من العواصف التي كانت تهب من بحر الشمال . وقيل إن سفناً كثيرة كانت ترتطم وتنحطم عند هذا الرأس .

وانتقلا بخيالهما من (البيت المكشوف) إلى أبرشية رامزجيت .

وقالت مسز هوايتهد : « كان هذا البيت مشيداً من الطوب ، وكانت به أشجار جميلة ، يحوطه أراض فسيحة ، وبه حديقة غناء ، في أسفلها - كما كان معروفاً - كهف عميق . »

« هل كانت جدرانها من الصخر ؟ » .

« كلا . بل كان فى حجر الطباشير » .

« وهل كان مدخل الكهف يفتح فاه فى حديقتهكم ؟ » .

قال هوايتهد : « كلا . إنما كان الدخول إليه عن طريق مكان العربات العامة » .

« ما أشبه ذلك بمسرحية الفروسية التى تغلظها الأشجان . هل كان داخل الأبرشية شائقا ؟ » .

قالت مسز هوايتهد : « أجل . لم يكن قوى التأثير ، وإنما كان شائقا . كان به بهو (صالة) فسيحة ، بالرغم من أن السلم لم يكن بحالة جيدة . وكانت هذه الصالة مبنى جديداً أضافه سلف من أسلاف الأب . ولكن السلم القديم كان جيلا ، وقد نُقل ثانية إلى جناح الخدم . كان الداخل بطبيعة الحال ينم عن الروح الدينى . كانت غرفة الطعام شديدة الظلام . وكان المطلوب فى غرف الطعام أن تكون موحشة . بيد أن ظلام الغرفة أظهر أدوات الأسرة الفضية ، وكان هناك منها الكثير » .

« ما هى تلك القصة الشائمة التى كنت تقصينها للتمجستون هنا ساعة الغداء عن تيت رئيس الأساقفة وابنه . ما أكثر ما حدث فى الساعات الأربع الماضية حتى إنى لا أستطيع ألبته أن أئذ كرها » .

قالت ضاحكة : « إنها قصة الفرد . وقد كان هناك ، ولم أكن ، وإن كنت أجد معرفتها كائى كنت .. » .

قال هوايتهد : « كان تيت رجلا عظيماً جداً ، وكان ينبغي أن يكون رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، ولكن القدر أخطأ التوجيه ، فالتحق بالكنيسة بدلاً من ذلك ، وأصبح رئيس أساقفة كانتربرى . ولما كان شديد الجوار بنا فى مسكنه

فقد أسمى من أصدقاء أبي الأعزاء ، وكثيراً ما كان يزور بيتنا . وكان أحياناً ينطلق راكباً بعد صلاة الصباح من كاتدرى لى يتناول العشاء يوم الأحد فى الأبرشية . وفى هذا اليوم بالذات اصطحب الأسقف جور من اكسفورد ، وهو رجل قد وجد دينه ، وكنت فى ذلك الحين فى الثامنة عشرة من عمرى ، فكنت أدرك تمام الإدراك أن تيت رئيس الأساقفة كان يشغل المراكز ذات الرتبات الطيبة بأقاربه . ولما سمعت الأسقف جور يسأل مسز تيت — لى يخلق حديثاً المائدة — قائلاً : (أبة مهنة يميل ابنك إلى الالتحاق بها ؟) أدركت أنهما كانا فى مركز ضعيف ، ثم كانت فترة سكون . وانحنى جور فوق المائدة متوسلاً إجابة عن سؤاله ، وأصغيت فى شغف إلى الجواب . قالت لىدى تيت : (لقد فكرنا فى احتمالات كثيرة ، ولكنها كلها تدور حول محور واحد فيما يبدو . فنحن نعتقد أن ابنتنا العزيزة جوردون ينبغي أن يلتحق بسلك رجال الدين ، ثم كانت فترة سكون أخرى . ثم قال جور ، وكأنه يحدث نفسه : (حسناً !) .

ولما نهضنا تساءلوا عما إذا كان وباء التهديد باشتعال الحرب الذى كثيره الصحف قد فترت حدته . وكل ما استطعت أن أقوله هو أننا لم نشترك فى قتال مع روسيا منذ ست وثلاثين ساعة .

وقال هوايتهد : « إذا كانت هذه البلاد أو تلك تشعل حرباً بهذه الأسلحة الجديدة ، فقل على المدنية السلام . إنها لن تهلك الجنس البشرى ، ولكنها سترد المدنية إلى الوراء آلاف السنين . »

« هل ترى شخصية ضخمة خلف مثل هذه الكارثة ؟ »

« تلوح لى أشباح ستة من الرجال البارزين فقط . »

« هل تستطيع أن تلمح من بعيد ستة من أمثال هؤلاء فى الأفق ؟ »

« إنهم لا يلوجون فى الأفق . إنما يبدون بين ظهرائنا ، ولا يمكن نعيمهم على الفور » .

« هل أعترف لكم . إننى أمارس أعمالى التى اعتدتها ، بين أصدقائى ، ووسط ما ألفت من مناظر ، وكلى إحساس بالريية ، إحساس بأن كل ذلك قد بتفتت ذرات خلال السنوات القليلة القادمة » .

وقالت مسز هوايتهد : « وأنا كذلك عندى نفس هذا الإحساس » .

فقال هوايتهد : « اسمعوا منى ما أقول لكم . إذا فكرتم فى تاريخ روسيا الماضى ، ومن هم الروس ، وما احتملوا تحت القياصرة ، واتساع رقعة بلادهم وكثرة عددهم ، يبدو لى أنه لا بد من الاعتراف أن حكومتهم الحالية هى أحسن ما يمكنهم الوصول إليه ، وهى تفضل بكثير أية حكومة من حكوماتهم السابقة . إن هذه الفكرة : إن كل ما نحتاج إلى عمله هو أن نعطى لسكل امرىء حق التصويت — فى أى جزء من أجزاء الأرض ، مهما يكن تاريخه الماضى وحشيا ، ومهما كان شعبه متخلفا — فكرة سخيفة » .

ثم أضاف إلى ذلك : إنه بالرغم من أن الأسلحة الحديثة — وبخاصة القنبلة الذرية — قد جعلت كل أساليب الحرب السابقة بالية كالقتال بالأيدى أو المصى — إلا أن هذه الفكرة « لم يدركها الرجال المسكربون ، بالرغم من كل ما يتشددون به عنها ، كما لا يكاد يدركها أى فرد آخر . خذ هذه الفرقة مثلا : إنها تبدو صلبة ، مستقرة ، وكنا نحسبها كذلك . والواقع أنها معمعان ناز من الحركة ، وليس فيها شىء قط ثابت . إنها فى تغير دائم بنسب مختلفة فى السرعة ، وفى انحلال وتفكك ، قد يمتد من بضعة أسابيع إلى آلاف السنين — وهى فى طول الزمن لا شىء . لا يكاد يدرك أى فرد أن عالمنا قد تغير منذ عام ١٩٠٠ تغيرا لا يمكننا

منه التنبؤ بالمستقبل بتاتا . وكل محاولة لتطبيق مما يبر الماضي على الحاضر غاية في الخطورة . لقد انتهى القرن التاسع عشر عاما بحلول عام ١٨٨٠ وما بعده . وكانت السنوات فيما بين عام ١٨٧٠ و ١٨٨٠ هي آخر عقود الحداثة . ولم يكن عام ١٩١٤ إلا الضربة النهائية لما رآكم من آثار . ولكننا اليوم في عصر التغير فيه أخطر بكثير من ذلك الذي قضى على القرن التاسع عشر .

وبطريق غير مباشر سألتهم أهو قد أحس في أى وقت مضى بتسلط قوة عليته من خارج نفسه وهو يكتب .

قال : « كنت في كل ما كتبت أحاول أن أعبر عن الإحساس الدام » .

وتحدثنا عن « أنصاف الحقائق » فضى يقول :

« إن الناس يخطئون حين يتحدثون عن (القوانين الطبيعية) . ليست هناك قوانين طبيعية . إنما هناك عادات للطبيعة مؤقتة ...

« وأكث من ذلك ، أرانا متمسكين أكثر مما ينبغي بفكرة الحجم ، نقيس كل شيء بالنسبة إلى أجسادنا . وما كشفه العلم عن الصغر اللانهائي والاتساع اللانهائي ، نجد أن حجم أجسامنا لا يكاد يكون له ألبتة صلة بالقياس الصحيح . إن في هذا الحامل المصنوع من خشب الماهوجاني (ومسه بيده) قد توجد مدنيات معقدة متنوعة في مداها كدنيتنا . وتلك السماوات العلاء ، بكل رحابتها ، قد لا تكون شيئا سوى جزء يسير من نسيج عالم ليست أكواننا كلها شيئا يذكر بالقياس إليه . لقد بدأ الإنسان منذ عهد قريب فقط — لا أن يدرك هذا الاتساع ، لأننا لا نستطيع الإحاطة به — وإنما يدرك أن هذا الاتساع موجود ، وأنه يقضى على كل مقاييسه السابقة . إن الخطر في المعرفة الميتة . والمعرفة

الميتة خطر يتميز به خاصة البحث العلمى والجامعات . والمعجيب أن لها احترامها الشديد . فإن (عرفت) الكثير رأى الناس فى ذلك الكفاية . فى حين أن المطلوب هو (الحركة مع وجود المعرفة) ؛ وجهات نظر مستحدثة ، المعرفة مطبقة على الخبرة .

وسألته أيمتقد أنه تعلم من الكتب أكثر من الناس ، أو من الناس أكثر من الكتب .

فقال : « أعتقد أنى تعلمت من الناس أكثر مما تعلمت من الكتب بكثير . »
وصاحبت مسر هوايتهد ونحن نتحدث فى ذلك قائلة :

« إنما نتكلمان أيها الرجلان كنهومين بمد الامتلاء ! لو أنكما كاخفيا طوال حياتكما وعانيتما الحرمان من التدريب العلمى النظم ، لتحدثتما عن الكتب بلمنجة أكثر احترامالها . لا يشل المرء شئ كعدم المعرفة ، وعدم الإحساس قط باليقين التام بالأرض التى يقف فوقها . وما يقدم لك التدريب النظم بالكتب هو أن يمكنك من تنظيم ما تعرف . »

« وأدركنا أنها غلبتنا فى الجدل ، فراجعنا من ميثان المراك مخدولين . وعاد هوايتهد إلى موضوعنا يشرحه بصورة مختلفة . قال :

« يدعشنى عجز اللغة عن التعبير عن آرائنا التى نحبها ، وعجز تفكيرنا الواعى عن التعبير عما فى عقولنا الباطنة . إن أشد هيوب الفلسفة هو أنها تفترض أن اللغة وسيط دقيق . إن الفلاسفة يعبرون باللفظ ثم يفترضون أن الفكرة قد تقرر إلى الأبد . وهى حتى إن كانت قد تقرر تبحاجة إلى إعادة التقرير فى كل قرن ، بل فى كل جيل . ولقد كان أفلاطون الفيلسوف الوحيد الذى عرف الحقيقة أكثر من غيره ولم يقع فى هذا الفخ . وحينما كانت نخونه الوسائل

المعروفة ، كان يقدم لنا أسطورة من الأساطير ، فلا يتحدى بها دقة المعرفة ولكن يثير بها الأحلام . الرياضة أقرب ما تكون إلى الدقة ، وهي أقرب ما تكون إلى الحق . وقد يشيع استخدامها بعد ألف عام كلمة كما نستخدم الكلام اليوم . إن أكثر ما نفكر فيه وما نقول بعقولنا الواعية وبكلامنا ضحل سطحي . وفي الملاحظات النادرة فقط يظهر في الفكر الواعي أو في التعبير ذلك العالم الأعمق الأوسع . وتلك هي الملاحظات الجديرة بالذكرى في حياتنا ؟ حينما نحس — حينما نعلم — أننا لسنا سوى أدوات لقوة أعظم من أنفسنا ، لأغراض أعلى وأبعد مدى من أغراضنا . وتكثر هذه الملاحظات عند المباشرة ، ولكن كل امرئ تقريباً يمر به لحظات قلائل يشرق فيها هذا الضياء . وللشعراء أهمية هنا ، لأنهم يعبرون عن هذا الوحي العظيم بالألفاظ أفضل مما يعبر عنه أكثر الفلاسفة في أكثر الأحيان ، وفي ألفاظ — مهما كان قصورها — تثير برغم ذلك وبطريقة ما في القارئ . وفي المستمع نوعاً من الإحساس المقابل للانهاية الفكر أو الشعور أو التجربة التي يتحدث عنها الشاعر . وأنا أفصد بطبيعة الحال أعظم الشعراء وحدهم » .

« هل ينبغي للشعراء أن يعرفوا كثيراً ؟ »

« كان ينبغي لبعض الشعراء أن يعرفوا أكثر مما عرفوا (وبخاصة شعراء العصر الحاضر) وبعض الشعراء الآخرين كانوا يصبحون شعراء أفضل لو قلّ ما يعرفون . كان شيكسبير يكتب شعراً أفضل لأنه لم يعرف كثيراً . واعتقد أن ملن كان في معرفته أدق مما يسمو بشعره » .

وقالت مسز هوايتهد : « وهل تذكر صديقنا القديم والترالى ؟ »

« نعم أذكره . وكنت دائماً تقوّلين إنه كان ينبغي له أن يكون شاعراً ، لا رئيساً للجامعة » .

« ومازلت عند رأيي . . فلقد كانت لديه أمثال هذه اللامحات اللاهائية .
 بوله زبانية نشرت منذ سنوات - وإني لأذكر أين نشرت (في وستمنستر غازيت)
 - لصقت بهذا كرتي بصورة لأعجى » .

ثم روت ما يأتي :

قف على هيكل الدنيا .

وارقب قلب العالم .

حيث تلقى السكاكين والسكرات النارية .

وبسمو الله فوق نجم الدب في السماء

* * *

وتقدم المساء ، وضربنا في الليل أكثر مما ظننت . وكانت عاصفة الخريف
 لا تزال تهطل الأمطار مدارا خارج البيت . وكلما تقدم المساء تردد على هذا الخاطر
 وهو أن زيارتي الأولى لهما في كانتون منذ أكثر من اثني عشر عاما كانت في
 السادس من إبريل ، يوم الذكرى السنوية لدخولنا في الحرب العالمية الأولى ،
 وأن اليوم هو يوم الهدنة ، وهو عيد آخر للذكرى . وضايقتني هذه الفكرة
 قليلا ، لأنني كنت في كل مرة أراه في هذه الأيام الأخيرة أخشى أن تكون المرة
 الأخيرة . وأبعدت الخاطر عن ذهني ، لأنه في بداية المساء بدا لي ضعيفا مجهدا ،
 ولكنه عاد الآن يتكلم بحماسة الشاب عن القوة الخالقة في الدنيا .

« كان من الخطأ - كما حاول اليهود - أن نظن أن الله قد خلق العالم من
 الخارج دفعة واحدة . خالق بكل شيء . علمه ، استطاع أن يخلق العالم كما نجده
 اليوم - ماذا نظن بمثل هذا الكائن ؟ إنه بكل شيء . علمه . وهو - رغم هذا -
 يودع في العالم كل ضروب النقص ، التي تتطلب للخلاص منها أن يرسل ابنه

الأوحد إلى الدنيا يكابد فيها العذاب والموت الشنيع . يالها من آراء مثيرة ! لقد كانت الديانة الهلينية محاولة أفضل من هذه . تصور الإغريق الخلق قائماً في كل مكان وفي كل زمان داخل السكون . وأعتقد أيضاً أنهم كانوا أسمد بمقائدهم في الكائنات غير الطبيعية التي تتجسد فيها تلك القوى المختلفة ، التي كان بعضها خيراً ، وبعضها الآخر شراً . لأن هذين النوعين من القوى موجودان ، سواء شخصتاها أم لم نشخصهما . وفي السكون ميل عام لإنتاج أشياء لها قيمتها ، وهناك من اللحظات ما نستطيع فيها أن نمثل مع هذا الميل ، ويستطيع فيها هذا الميل أن يعمل من خلالنا . ولكن هذا الميل في السكون إلى إنتاج أشياء لها قيمتها ليس قادراً على كل شيء . بأية حال من الأحوال . فهناك من القوى ما يعترض سبيله .

« الله كائن في الدنيا — وإلا فهو ليس موجوداً — يخلق دائماً فينا ومن حولنا . وهذا البدء الخلاق كائن في كل مكان ، في المادة الحية وما يسمى بالمادة غير الحية ، في الأثير ، في السماء ، في الأرض ، في قلوب البشر . ولكن هذا الخلق عمالية مستمرة ، والعمالية هي نفسها الواقع ، لأنك ما تسكاد تصل حتى تبدأ رحلة جديدة . وبقدر ما يشارك الإنسان في هذه العملية الخلاقة ، يشترك مع السماء ، مع الله . وهذه المشاركة هي خلوده ، وهي التي تجعل هذا السؤال : هل تبقى شخصيته حية بعد موت جسده ؟ سؤالاً غير ذي موضوع . وفيما قدر له حقاً كشارك للخلق في السكون كرامته وعظمته » .

خاتمة

تحدث مسز هو اينهد فتقول :

« كنت في ليلة عيد الميلاد أنثر أزهار اليميد ونبات الدابوق في حجرات جلوسنا . وكان الفرد في حالة من السعادة المطلقة ، بل في حالة من حالات النشوة . تسرى فيه الروح العالية التي تسود في هذا اليوم المقدس . ولواستمتعت إلى ثنائه على حجراتنا لحسبت أنا قضينا سنواتنا السابقة قاطنين في بيوت كبيوت الكلاب . ذكرت له ذلك . وقلت : (إن هذا المكان لا يساوى شيئاً) فقال : (أعلم ذلك ، ولكن ماذا يهمنا من ذلك ؟) ولم يكن يهمنى في الواقع من الأمر شيء . ما ؟ فإنه لم يعد يعيش فيه من زمن بعيد ، بل ربما لم يعيش فيه قط . وفي يوم عيد الميلاد اجتمعت أسرنا كما دأبت ، وفي اليوم التالي أحس بالمرض ، وفي هذا اليوم أتعلة الملة ، وشهدتها بنفسى . فقد رفع يده اليسرى ثم أسقطها ليقول لى إنه كان على علم بها ، لأنها كانت بالفعل نصف مشالولة . وعرفت أن النهاية لن تكون بيميدة » .

امتدت حياته أربعة أيام ، ولكن دون أن يسترد وعيه ، ومات في اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر من عام ١٩٤٧ ، وهو في السابعة والثمانين من عمره .

« وهكذا كانت نهاية صديقنا يا اككرانس . وأستطيع حقا أن أقول عنه إنه من بين جميع الرجال في عهده ممن عرفت كان أحكمهم وأعدلهم وأفضلهم » .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة